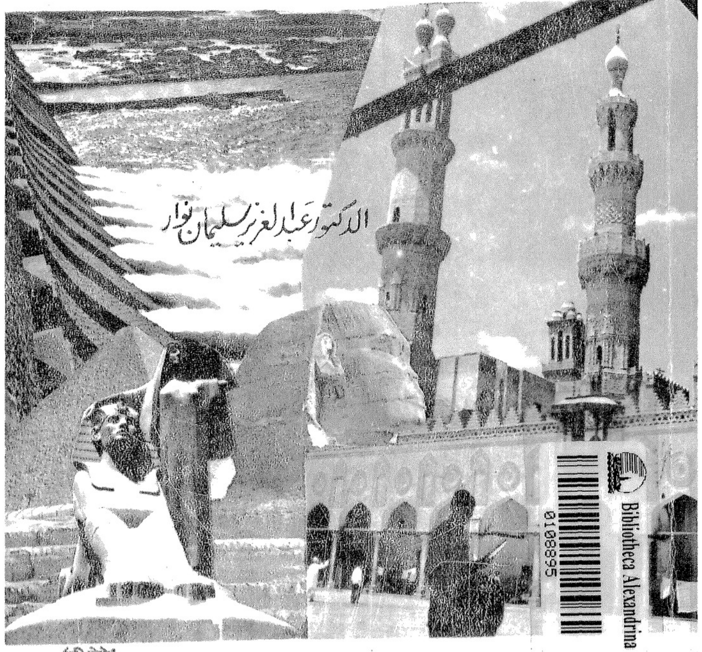
تاريخ مصر الاجتماعي



دار الفكر العربي

الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

عميد كلية الآداب - جامعة عين شمس

تاريخ مصر الاجتماعي

منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت : ٣٩٢٥٥٢٣

مقدمة

ولدت مادة التاريخ فى رحم الكتابات الأدبية والدينية ، ثم اخذ يستقل بنفسه شيئا فشيئا .. ولكن لا يزال جدل كبير حول العملية التاريخية من حيث : هل التاريخ علم أم فن ، وما هو المنهج الذى يتبع ؟.

ولقد استقر الرأى على أن المنهج التاريخى (المنهج الاستردادى) هو اكثر المناهج ملاءمة للبحوث التاريخية حيث اننا اذا اخذنا بالمنهج العلمى البحت نجد انفسنا امام قضايا ذات طابع انسانى لا تستجيب له ، وهذه القضايا الانسانية هى التى تبعد (التاريخ) عن المنهج العلمى قليلا ، وحيث ان المؤرخ يعمل فكره وان كتابته تتأثر بخلفيته الفكرية والاجتماعية فان التناول لقضية من القضايا يختلف من مؤرخ لآخر حتى ولو كانت المادة التى اعتمدوا عليها واحدة وهذه هى احدى معضلات التاريخ .

فالمؤرخون لكل عصر لهم طابعهم وأسلوبهم ، فمنهم من كان يكتب سير الملوك والدول ، ومنهم من كان يكتب عن مدينة أو دولة ، ومنهم من كتب مدافعا عن عقيدة و مذهب ، ومنهم من تناول قضية بعينها ، ومنهم من تصدى لعصر من العصور ، ومنهم من ترجم لطبقة أو فئة من الفئات . وبصفة عامة ليس فى استطاعة مؤرخ — مهما كان موسوعيا — ان يكتب تاريخا كاملا لشعب أو لفترة ، فمن العسير ان يلم مؤرخ بكافة جوانب عصر من العصور وانما يستطيع ان يجمع معلومات كافية عن فترة محدودة من الزمان يستطيع بتعمقه ان يصبح الحجة فيها .

وكم من محاولات مضنية بذلت لوضع صورة عن تاريخ العالم ، وكم من نقد مرير للغاية تعرضت له مثل هذه الأعمال التاريخية العامة ، ومن اشهر هذه المحاولات قصة الحضارة لديورانت ودراسة فى التاريخ لأرنولد توينبى ومجموعة كامبردج الشهيرة ، وغير ذلك من الموسوعات التاريخية ، ومع ذلك فهى من اكثر المصادر شيوعا بين أيدي الباحثين فى التاريخ .

فلا غرو أن دبت الخلافات والاختلافات الجوهرية حول العديد جدا من القضايا التاريخية ، وخاصة اذا ما تناول المؤرخ موضوعه من زاوية وطنية ، وتزداد هوة الاختلاف كلما زادت حدة الصراع حول الأرض أو المسائل الاقتصادية . ومن أبرز القضايا التاريخية التى تناولها طرفا النزاع كل من زاوية متطرفة حادة قضية الالزاس واللورين بين المانيا وفرنسا ، كما تناول مؤرخو المانيا النازية التاريخ الاجتماعى من زاوية « آرية » متطرفة ، جاعلين الجنس الآرى على قمة الاجناس وما عداها فى مراتب أدنى حتى اذا ما وصلوا الى العرب واليهود وضعوهم فى أسفل القائمة . ويعتمد دعاة الحركة الصهيونية اعتمادا ضخما على التاريخ ليدعموا ادعاءاتهم فى الأرض العربية المحتلة وما هو وراءها .

والى جانب كل هذا ، يوجد مؤرخون كرسوا قدراتهم والمادة التاريخية فى خدمة الأهداف الامبريالية التوسعية مبررين حق دولهم فى بناء امبراطوريات استعمارية على حساب الشعوب المستضعفة .

وهناك أيضا المؤرخون السوفييت الذين لا يرون بديلا عن المنهج المادى للتاريخ ومن حتمية الصراع الطبقى وصولا الى دكتاتورية الطبقة العاملة ، ولقد هزت حركة « التضامن » فى بولنده بشدة هذه النظرية فضلا عن الحركات التحريرية التى انفجرت فى المجر (١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨) ، ومع ذلك يستخدم المؤرخون السوفييت كافة الأساليب لتثبيت حق السوفييت فى أن يكون لهم اليد العليا على دول أوربا الشرقية التى وقعت فى قبضة الجيش الأحمر خلال الحرب العالمية الثانية . وتطرف السوفييت أكثر فى هذا الصدد لتبرير اجتياح القوات السوفيتية لأفغانستان . حتى كشفت التطورات مساوىء تلك الاتجاهات فعقد جورباتشوف العزم على احداث تغيير كبير فى سياسات الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية .

كان التاريخ — حتى القرن التاسع عشر تقريبا يركز على التطورات السياسية ، وعلى أعمال الملوك والحكومات ورجالات البلد أو الأمة ، واذا تعرض مؤرخ للأوضاع الاجتماعية — مثله فى ذلك عندما كان يتعرض للأوضاع الاقتصادية — كان ذلك يتم دون ادراك حقيقي لمفهوم التاريخ الاجتماعي أو التاريخ الاقتصادي .

ولكن لهؤلاء المؤرخين الفضل كل الفضل فى انهم سجلوا ما وصل اليهم من معلومات وحفظوا لنا متون مؤلفات اندثرت كانت تتحدث عن بيئات قامت ونمت وتلاشت ، وكادت - لولا هؤلاء المؤرخون ان تختفى أبد الدهر .

ان عدم وجود مفهوم محدد لدى هؤلاء الرواد عن التاريخ بصفة عامة ، أو عن التاريخ الاجتماعى بصفة خاصة لا ينتقصهم اى حق أو أية مكانة ، وما قدموه لنا من تراث عن الحضارة هو المادة الخام التى نحاول صياغتها لتعبر عن مفهوم متكامل للتطور الاجتماعى لبيئة أو مجتمع أو أمة من الأمم .

يعتبر التاريخ الاجتماعى واحدا من الميادين العلمية الحديثة التى عنى بها المؤرخون وعلماء الدراسات الاجتماعية منذ وقت قصير . وليس معنى هذا ان التاريخ الاجتماعى كان غير معروف منذ العصور السابقة . وانما هو موجود فى تلك العصور ولكن دون تقنين ، والتقنين لعلم الاجتماع هو الظاهرة الواضحة خلال العقود الأخيرة من هذا القرن ، واستمرت الجهود فى تصاعد ونمو حتى اخذ التاريخ الاجتماعى مكانته بقوة بجوار بقية فروع التاريخ وبجوار العلوم الاجتماعية الأخرى ، على أن ذلك لم يصل الى ما وصل اليه التاريخ الاجتماعى الا بعد أن أخذت العلوم الاجتماعية فى الاستقرار ، والا بعد أن أصبح للتاريخ منهج ، فخلال ذلك كان يتضح أن التاريخ الاجتماعى يقدم تفسيرات أكثر دقة وشمولا للعديد من الظواهر والتيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسيكلوجية .

ولقد ظل التاريخ الاجتماعى فى مصر موضوعا غير مطروق حتى عقود قليلة مضت . فبعد أن أخذت العلوم الاجتماعية فى الاستقرار ، وعندما أصبح للتاريخ مدارس ، وبعد أن أصبح جليا انه لا يمكن فهم التطورات السياسيه الا بفهم حقيقى للتطورات الاجتماعية وغيرها ، بعد كل هذا اتخذ التاريخ الاجتماعى مكانته فى مصر ، وان كانت مكانته لا تزال محدودة الا انها تسير بسرعة نحو الرسوخ والتأصيل .

انه لمن أهم ثمرات دراسة التاريخ الاجتماعى لمصر ذلك اللقاء الفكرى بين المؤرخين والعلماء والباحثين فى علم الاجتماع ، وخاصة أن هناك مجالات

ومفاهيم مشتركة بين علماء الاجتماع والمؤرخين من حيث تحليل الحدث التاريخى وديناميكية الفرد فى المجتمع ، والعلاقة بين الانسان والبيئة ، وبين مجتمع وآخر ، وطبقة واخرى ، وبين شعب وآخر وبين حضارة وأخرى .

حقيقة ان التاريخ الاجتماعى جديد ولكنه ولد فى مصر قويا ، حتى لقد اصبحت فى مصر مدرسة تاخذ الى حد كبير بالفكرة القائلة بأن التاريخ الاجتماعى هو المدخل الحقيقى للتاريخ .

ولسنا من انصار هذا التحيز ، وانما نقول ان العملية التاريخية تحتاج الى كافة الأدوات وكافة مصادر المادة العلمية الخام حتى يمكن ان نكتب التاريخ كتابة صحيحة لا خلاف جوهرى عليها .

فمدينة القاهرة — على سبيل المثال — يتناولها علماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع كل بمدخله الخاص ، والمؤرخ عاكف على رصد تاريخ المدينة منذ نشأتها حتى الآن ، ولا يستطيع اى من هؤلاء المتخصصين ان يخرج دراسة علمية بمعنى الكلمة الا اذا كان على مستوى علمى عال يؤهله لأن يضع كافة هذه العلوم فى خدمة بحثه .

ومن هذا يتبين لنا أن ذلك التعاون بين الباحثين فى التاريخ والباحثين فى علم الاجتماع يمهدون الطريق نحو وضع تاريخ متكامل علمى لمصر عبر العصور ، نحو اعطاء تفسيرات علمية للتطورات الرئيسية بايجابياتها وسلبياتها ، وامكانية التوصل الى نظرية تحكم عجلة التطور الاجتماعى فى مصر أو على الأقل تحدد العوامل الرئيسية التى تؤثر على التطور وتوجهه .

ولدينا فى تاريخ مصر العديد من الظاهرات التى تحثنا على التعمق أكثر واكثر فى دراسات تاريخ مصر الاجتماعى . فحياة الريف المصرى الآن لا يمكن أن نفهمها بمعزل عن التاريخ الفرعونى . ونظام الحكم فى مصر له جذوره الاسلامية القوية ، وان كانت توجد الى جانب ذلك قوانين (مدنية) أو شبه (علمانية) « واعراف » سارية المفعول . فلا تزال الأنثى مهضومة الحق عند التوريث ويفضلها البعض (منقبة) ويفضل البعض مضاعفة عدد زوجاته لمجرد انه قادر على الانفاق عليهن وليس لأى سبب آخر ، ويا لفرحة الزوج

ببشرى ولادة ذكر من صلبة وبا لحرص الأم والأب على تحديد مستقبل الابن او الابنة ربما — وان كان فى ذلك مبالغة — من المهد الى اللحد ، والموالد والحفلات الدينية وشبه الدينية تضرب جذورها الى قرون عدة مضت خلفت ما خلفت من آثار وعادات وتقاليد لا تزال تلعب دورا فى المجتمع .

ان نظرة سريعة على مكونات معبد الأقصر تكشف لنا من ذلك التطور التاريخى للفكر الدينى والسياسى والاجتماعى ، ففى هذا المعبد تماثيل فراعنة مصريين عظام ، والاسكندر المقدونى اليونانى وعلى رأسه رمز آمون — رع ، وبقايا كنيسة ومسجد اسلامى ، وعلى مقربة منه الكاتاراكت والسد العالى والفأس والشادوف ومراكب شراعية وسكك حديدية ومطار ، ويطوف بالمعبد شباب فى طريقهم الى الجامعة الحديثة ، وشيوخ نسوا ما تعلموه فى الكتاب ، وسيدات محجبات وفتيات كأنهن أوربيات ، وآلام الثار وضحايا البارات ، وأوراق النقد المصرية والأجنبية والمقايضة بين زمبيل تمر ودجاج فلاحة ريفية فى سوق تقليدية يباع فيهما الذهب والماشية . وبيوت من طين وأخرى من حديد ، وحجاج سمر الوجوه بيض الملبس فى طريقهم الى بيت الله الحرام على دابة الى قطار فطائرة ، وحجاج بيض الوجوه زرق العيون فى طريقهم الى وادى العدم فى الضفة الغربية من النيل حيث يرقد ملوك وملكات مصر الفراعنة ، وأصوات الناى الحزين فى أفراح الطهور والزواج وموسيقى الشارع الغربى الصاخبة ، وشيخ محدود الثقافة مسموع الكلمة ، والطبيب والمعلم والموظف الذى يؤدى واجبه بطريقة أو بأخرى وعيناه معلقتان بالقاهرة ، كل هذا فى بيئة واحدة ، تراث من الماضى وحاضر غلاب .

تلك صورة من بيئة واحدة ، الحديث منها فى الماضى البعيد الفرعونى غيره فى الماضى القريب ، فأسوان قبل السد العالى غيرها الآن ، ومصر قبل الاسلام غيرها بعده ، ومصر قبل محمد على غيرها بعده ، ومصر قبل ١٩٥٢ أو ١٩٧٣ غيرها بعدهما . واذا كان التطور الاجتماعى فى التاريخ القديم والاسلامى على نوع من البطء فانه سريع فى التاريخ الحديث والمعاصر .

فبينما كان الاختلاف بين الأجيال محدودا فيما سبق أصبح الاختلاف جوهريا حتى يكاد الوالد أن ينبذ أخلاقيات ابنه لولا رابطة الأبوة ، ويكاد الابن يتهكم من تقاليد أبيه لولا رابطة البنوة . ومع هذا وذاك فلا زالت قيم قديمة راسخة ، ولا تزال تقاليد وأعراف قديمة محترمة .

ان تاريخ مصر الاجتماعى زاخر بالتطورات ، ويلقى الضوء على تركيب مجتمع مصر وما أصابة من تغيرات ، وعلى المؤسسات الاجتماعية ، والريف والحضر والبادية ، والفلاح والعامل والمثقف والطوائف والحرف والقرية والمدينة ، والمعتقدات والأيديولوجيات ، وتأثر المجتمع بغيره وتأثيره فى المجتمعات الأخرى .

وتطور اللغة فى مجتمع من المجتمعات له دلالته الاجتماعية العميقة ، ومن ذلك ان اللغة الفرعونية سادت فى مصر حتى العصر الرومانى ، وظهرت على انقاضها اللغة القبطية وهى لغة قومية بحتة يمكن أن نصفها بأنها محصلة الفرعونية واليونانية فضلا عن اضافات جديدة جوهرية . فلما فتح العرب المسلمون مصر وتحول المصريون الى الاسلام أخذوا باللغة العربية ، وازدهرت اللغة العربية بشكليها الفصحى والعامية . ثم دخلت عليها تعابير ومصطلحات اوربية فى التاريخ الحديث . ان هذه التغييرات والتطورات التى المت بلغة المصريين عبر التاريخ انما هى انعكاسات للتطورات الاجتماعية والسياسية التى مرت بمصر فى تلك العصور المتتالية .

ان التاريخ الاجتماعى لمصر يقدم أرضية لازمة لأى باحث فى شئون مصر . فليس الباحثون فى علم الاجتماع فقط هم الذين يحتاجون الى هذا التاريخ الاجتماعى ، بل ان الباحثين فى الجغرافيا فى حاجة اليه ، والباحثين فى الادب والسياسة والنظريات السياسية والفلسفية ، وكذلك الباحثون فى الدراسات الاستراتيجية فضلا عن الدراسات السيكولوجية .

لقد اصبح ذلك أكثر الحاحا من ذى قبل بسبب التداخل الشديد المستمر بين مختلف العلوم بعضها ببعض .

ومن أبرز التطورات الرئيسية فى مجال التاريخ فى مصر التركيز على

التاريخ الاجتماعى بعد ثورة ٢٣ يوليو . فلقد كان الخديو اسماعيل وملكا مصر فؤاد وفاروق يعنون عناية كبيرة بالتاريخ ، وبطبيعة الحال بتاريخ الأسرة الحاكمة ، وكان من بين رجال الأسرة الحاكمة من تصدى للتاريخ بنجاح مشهود مثل عمر طوسون ... والحقيقة أن هذا كان تيارا من التيارات البارزة فى مجال التاريخ ولكن هذا ما كان ليخفى تيارات أخرى عنيت بالشعب وبالمجتمع.

كان تاريخ مصر الفرعونية يكتب بأقلام أجنبية ، نظرا لأن المصريين المسلمين أنكروا أو تجنبوا تناول من وصموا بأن الاسلام قد لعنهم لعنة أبدية ، وما لعن الاسلام الا من طغى وتجبر ، وليس جميعهم كان كذلك . وحتى لو كانوا كذلك ، فانها حضارة قدمت للانسانية تراثا تطورت بفضله البشرية الى حضارات أخرى ، فلنكن على بينة من تاريخ البشر أيا كانوا ، وبموضوعية . والفكر الاسلامى لا يقف مناهضا لدراسة تاريخ الفراعنة ، وانما المفكرون هم الذين اتخذوا هذا الموقف حتى تولاه الأجانب واصبحوا هم الأقدر على الكشف من آثار الفراعنة ، واصبحوا هم علماء الاجيبتولوجى (علم المصريات) فى العالم ، واصبحنا نبعث اليهم بأبناء مصر ليتعلموا على أيديهم تاريخ مصر الفرعونية .

واذا كانت ظروف العصور الاسلامية الوسطى قد فرضت على المفكرين الاسلاميين هذا الموقف المعادى للفراعنة ، فانه لما يثير العجب أن نجد من بين المثقفين الآن من يعيش بنفس ذلك الفكر ، ومنهم من تطرف يمينا أو يسارا فى هذا الصدد ، والأمر لا يحتاج تطرفا ، وانما يحتاج موضوعية علمية . وهذا ما ندعو اليه .

حتى التاريخ الاسلامى ، أصبح فية مدارس فى اوربا وأمريكا تفوق أحيانا ما فى الشرق الاسلامى من مدارس ومؤسسات من حيث المنهجية والانتاجية العلمية ، وتخرج على يدى علماء أوربا عدد ليس بالقليل من مؤرخى مصر الحاليين .

وفى التاريخ الحديث حدث نفس الأمر ، فكان الرعيل الأول من مؤرخى مصر الحديثة ممن تخرج على يد كبار المؤرخين الأوربيين ، ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بمصر وعلى

يديه تخرج المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس ومؤسس مدرسة تاريخ العرب الحديث في مصر والعالم العربي .

فللمؤرخين محمد شفيق غربال وتلميذه أحمد عزت عبد الكريم الفضل الأعظم في انتقال ريادة التاريخ لمصر وللعالم العربي من أيدي الأجانب الى أيدي أبناء مصر وأبناء الوطن العربي .

ويعتبر سمنار التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس — الذى أسسه منذ ١٩٥٥ الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — المدرسة التى تخرجت منها أجيال متتالية من المؤرخين والباحثين في التاريخ أحدثوا نقلة علمية في مجال التاريخ لمصر الحديث ولتاريخ العرب الحديث ، وذلك من مختلف جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعسكرية والسياسية .

ولقد عنيت مدرسة التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس عناية خاصة بالتاريخ الاجتماعى لمصر والوطن العربى ، ومع ما صدر عنها من دراسات ، فلا يزال هناك الكثير جدا من الموضوعات الاجتماعية التى تحتاج الى أن يتناولها الباحثون وهذه هى مسئولية جيل المؤرخين والباحثين الحاليين ومسئولية الأجيال القادمة منهم .

* * *

ينقسم تاريخ مصر الى الأقسام الرئيسية التالية :

(أ) التاريخ القديم :

١ — لا ندرى متى بدأت الحياة البشرية بالضبط على أرض الوادى ولكن هناك على أى حال فجر التاريخ ، ودولة حورس فى الدلتا قبل عهد الأسرات .

٢ — عهد الدولة القديمة :

(أ) توحيد الوادى جنوبه وشماله .

(ب) عهد الأسرات الست الأولى ويتضمن عصر بناة الأهرام .

(ج) الثورة الاجتماعية فى أواخر عهد الأسرة السادسة .

٣ ـ عهــد الدولة الوسطى :

وهو عصر الازدهــار الثــانى فى التــاريخ القــديم وينتهى هــذا العهــد بتدهور البلاد ووقوعها تحت الاحتلال الأجنبى (الهكسوس) ، وكفــاح البــلاد حتى تحررت من حكمهم .

٤ ـ الدولة الحديثة :

مصر فى أوج حضارتها القديمة فى عهــد الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ويتضــمن بنــاء أول امبراطورية دفاعيــة ، وقيــام حضــارة مبدعة وحيــاة اجتماعية متقدمة وحــرية فى التعبير وثورة دينية ، والرعامســة والحــكام العســكريين واخيرا تدهور الامبراطورية .

٥ ـ عهــد الغزوات المتتالية :

(أ) الغزو الليبى والأسرة الحاكمة الليبية .

(ب) الغزو النوبى والأسرة الحاكمة النوبية .

(جـ) الغــــزو الأشورى .

(د) الغزو والاحتلال الفارسى لمصر .

(هـ) الغــــزو المقــدونى لمصر وقيــام حكم البطالمة .

(و) الغــزو الرومانى لمصر : مصر ولاية رومانية .

(ز) انتشار المسيحية ومصر ولاية بيزنطية .

(ب) مصر فى العصر الاسلامى الوسيط .

(أ) الفتح الاســـلامى لمصـــر .

(ب) عهــد الــولاة .

(جـ) تحول الشعب الى الاسلام .

(د) الدول الاسلامية المستقلة فى مصر .

١ ـ الدولة الطولونية .

٢ ـ الدولة الأخشيدية .

٣ ـ الدولة الفاطميــة .

٤ ـ الدولة الأيوبيــة .

٥ ـ الدولة المملوكيــة .

(جـ) مصر فى التاريخ الحديث :

١ — مصر العثمانية :

— الفتح العثمانى لمصر .

— مصر ولاية عثمانية (الحكم المباشر العثمانى) .

— مصر فى العهد المملوكى العثمانى .

— الحملة الفرنسية على مصر .

٢ — الدولة الحديثة .

— بناء الدولة الحديثة فى النصف الأول من ق ١٩ .

— وحدة وادى النيل .

— توحيد المشرق العربى .

— نهضة مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

— الاحتلال الانجليزى لمصر .

— ثورة ١٩١٩ .

— المملكة المصرية البرلمانية المحدودة السيادة (١٩٢٣ — ١٩٥٢) .

(د) التاريخ المعاصر :

— ثورة ١٩٥٢ .

— التغيرات الجذرية فى مصر .

ويجدر بنا هنا أن نحذر من أن هذه التقسيمات الرئيسية والفرعية انما هى من وضع المؤرخين وان الانتقال من عصر الى عصر أو من عهد الى عهد كان تدريجيا . وقد تستغرق عملية الانتقال هذه عدة عقود من الزمان . وكثيرا ما يقع الخلاف بين المؤرخين حول بداية عصر ونهاية عصر .

فهناك من يرى أن تاريخ مصر الاسلامية يمتد الى يومنا هذا على اعتبار أن الطابع الرئيسى الذى يسيطر على مصر ويتحكم فى توجهاتها السياسية والاجتماعية هو الاسلام وعلى اعتبار أن الأغلبية الساحقة من المصريين مسلمون .

وهناك من يرى أن تاريخ مصر الاسلامية يقتصر على الفترة الواقعة بين

الفتح الاسلامى والفتح العثمانى ، على اعتبار أن الفتح العثمانى يمثل بداية التاريخ الحديث .

ان هذه المقولة تثير ايضا كثيرا من النقد الشديد حيث أن هناك من يرى ان التاريخ الحديث ينبغى أن يغطى فترة من الزمن تتميز بالنهضة الحديثة ولو بصورة ما من صورها . واذا ما القينا نظرة عامة على مصر فى العهد العثمانى (من القرن السادس عشر حتى الثلث الثانى من القرن الثامن عشر) وفى العهد العثمانى المملوكى حتى هبوط الحملة الفرنسية أرض مصر ، فاننا نجد أن مصر لم تتطور تطوراً جديداً ولم يصبها شىء من التحديث أو التجديد الجوهرى . حقيقة كانت مصر خلال القرن الثامن عشر تتحفز لتطور جديد ، ولكنه كان تطورا على الطريقة الشرقية التقليدية وليس على الطريقة الحديثة .

ان السبب الرئيسى فى اعتبار الفتح العثمانى لمصر وللبلاد العربية بداية للتاريخ الحديث أو مدخلا له هو أن هذا التوسع العثمانى احدث تغييرا جذريا فى المنطقة العربية متزامنا مع النهضة الأوروبية الحديثة ، وان كان ذلك الفتح العثمانى وما اعقبه من حكم عثمانى ذا طابع غير حديث .

وبمجىء الحملة الفرنسية الى مصر فوجىء الشعب المصرى بمجتمع أوربى لم يكن يتصوره ، فوجىء بحضارة متفوقة غلابة ، وتهيأ المناخ لاحداث تغيير فى المجتمع لمواجهة تربص الدول الأوربية الاستعمارية بمصر وبالبلاد الاسلامية . انه لتغيير يقوم على نقل عناصر الحضارة الغربية لمواجهة اطماع الغرب مع الحفاظ على الكيان والحضارة الاسلامية الشرقية ، وشرع فعلا محمد على فى بناء مصر الحديثة .

ان نظرة سريعة على التطورات الرئيسية التى مرت بها مصر خلال العصور القديمة تجعلنا نقول ان نوعا من التدهور والضعف الم بمصر منذ اواخر عهد الرعامسة ، فقد تعرضت مصر فى أواخر العهد الفرعونى لسلسلة من الغزوات الخارجية ، وكانت كل غزوة تترك انطباعا واضحا عن أن المقاومة المصرية أصبحت أضعف من ذي قبل .

فلقد تعرضت مصر لغزوات اجنبية متعددة ابتداء بغزوة الهكسوس الذين استقروا فى مصر زهاء قرن ونصف قرن ثم طردوا من البلاد لتقوم من بعدهم دولة فرعونية (الدولة الحديثة) وصلت بالبلاد الى ذروة الحضارة القديمة فى عهد الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ، ومن بعد هذه الأسرة تعرضت مصر لغزوة ليبية استقر ملوكها فى مصر متخذين من بوبسطه عاصمة لهم ومن بعدهم غزا مصر ملوك نباتا (كهنة آمون فى المنفى) ، ولكن عندما تعرضت مصر لغزوات اشور وبابل لم يستقر الحكم الأشورى والبابلى ثم تعرضت مصر لغزوة الفرس الذين استمر حكمهم للبلاد حوالى قرنين (٥٢٥ ق.م. — ٣٢٣ ق.م) .

وبذلك يكون الفرس قد استقروا لفترة طويلة فى حكم مصر كانت البلاد خلالها مجرد ولاية فارسية . ولم يخرج الفرس من مصر الا على يد الاسكندر المقدونى ، ورغم مقاومة المصريين للحكم الاغريقى (البطلمى) لم يقض على بطالمة مصر الا على يد الرومان ، ولم يخلص مصر من الحكم البيزنطى الا الفتح العربى ، ومعنى هذا أن المصريين اصبحوا اضعف من ان يخلصوا انفسهم بأنفسهم من المحتلين وكان الأمر كان استبدال محتل بآخر .

بالفتح العربى الاسلامى لمصر بدأ عهد جديد استعادت مصر خلاله مكانة عالية اذ تولى الحكم فيها — بعد فترة حكم الولاة — اسرات اسلامية مستقلة (الطولونية — الأخشيدية — الفاطمية — الايوبية — المملوكية) ، وكلما تولى مصر — خلال ذلك — حاكم قوى مد سلطانه الى الشام والحجاز وفرض كلمته العليا على المنطقة ، ولم تفقد مصر مكانتها الا بعد الفتح العثمانى لها ، اذ أصبحت مجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية فعادت مرة أخرى تعانى من الجمود الحضارى حتى استعادت مصر حكما ذاتيا كاملا على يد محمد على فاستعادت بالتالى مكانتها العالمية ، واصبحت مصر منارة الحضارة الحديثة فى المنطقة .

استعادت مصر دور الدولة القائد فى منطقة الشرق الأوسط ، وأصبحت مصر القرن التاسع عشر على مستوى عال جدا من الحضارة الحديثة بالقياس الى جيرانها من البلاد العربية والاسلامية .

سبقت مصر البلاد العربية والاسلامية والشرقية فى بناء دولة حديثة، ثم اخذت البلاد الشرقية الأخرى تسير فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه مصر . فالتعليم المصرى الحديث الذى بدأ فى اوائل القرن التاسع عشر انتقل الى البلاد العربية فارتفع بمستواها ، ومن ذلك ان التعليم والمعلمين المصريين نقلوا الحضارة الحديثة الى الجزيرة العربية بصورة واسعة وبتطور تصاعدى سريع للغاية حتى يمكن القول أن تحديث الجزيرة كان ولا يزال يفضل المصرى سواء عندما كانت بلاد الجزيرة العربية فقيرة وتدفع مصر نفقات العملية التعليمية التحديثية أو عندما أصبحت ثرية فى الفترة الأخيرة .

وهنا نلاحظ ان أدوات النهضة المصرية متميزة متفوقة حضاريا عن بقية بلاد الشرق الاسلامى ولكن تختلف نهضة مصر فى القرن التاسع عشر عن نهضتها فى اعقاب الفتح العربى وعهد الولاة ، اذ ان النهضة المصرية على الطريقة الاسلامية كانت نهضة ذاتية . بينما كانت النهضة المصرية الحديثة على الطريقة الأوربية ، نهضة استعارت مصر ادواتها من الخارج ، فلم تلبث ان وقعت مصر فى قبضة أصحاب تلك الحضارة الأوربية .

واذا كان الشعب المصرى قد عجز عن تحرير نفسه من الاستعمار الفرنسى الا بعد أن نزل الانجليز بثقلهم العسكرى فأرغموا الفرنسيين على الخروج من مصر بعد ثلاثة أعوام من الاحتلال (١٧٩٨ — ١٨٠١) فاننا نلاحظ ان مصر لم تستطع أن تخلص نفسها من الاستعمار الانجليزى الا بعد سبعين عاما من الكفاح (١٨٨٢ — ١٩٥٤) .

ففى ١٩٥٤ وقعت اتفاقية الجلاء وفعلا خرج آخر جندى انجليزى من مصر فى ديسمبر ١٩٥٥ ، وعاشت مصر متمتعة باستقلال كامل حقيقى . واستهدفت مصر مفهوم الوحدة العربية من بعض البلاد العربية — ومدت مصر هذا المفهوم (عمليا) الى الشام (سوريا) ولكن تعرضت مصر لضربة فى ١٩٦٧ ولم تستطع مصر أن تخرج اسرائيل من الأرض المحتلة الا بعد ست سنوات من الاستعدادات المريرة . وكانت حرب ١٩٧٣ — التى تحملت مصر أعباءها الرئيسية — باسم العرب — جسربا أثبتت أن الدولة القائد

هى مصر . وهو دور يعكس قوة المجتمع المصرى على امتصاص الصدمة واستيعابها ثم النهوض مرة اخرى .

ومن ناحية اخرى فهناك نوع من التشابه بين العدوان الاسرائيلى والعدوان الصليبى من حيث :

١ — ان كلا منهما وفد من خارج المنطقة وان ادعى انه صاحب الأرض فى فلسطين وان من فيها من عرب ومسلمين انما هم مغتصبون .

٢ — ان الجبهة الأوربية — تقريبا — كانت تدعم بقوة الصليبيين والصهيونيين . ولكن يجدر بنا ان نلاحظ أن حجم الظهير الصهيونى (يهود العالم) اصغر حجما من الظهير الصليبى (مسيحيى أوربا) . ولكن من ناحية اخرى نجد أن ادوات الحضارة المعاصرة فى تناول الحركة الصهيونية اكثر منها فى متناول مصر والعالم العربى نظرا لما كان بين الصهيونية والدول الأوربية والولايات المتحدة من علاقات تحالف قوية . ولكن الأمر الذى يجب أن نحذره باستمرار وان نستوعبه هو أن دولة صغيرة (اسرائيل) غزت مصر اكثر من مرة . كانت غزوتها الأولى لمصر محدودة جدا خلال حرب ١٩٤٨ / ١٩٤٩ . ثم غزتها بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا فى ١٩٥٦ ، ولم تخرج اسرائيل من سيناء الا بفضل الصمود المصرى والدور الأمريكى فى اقناع اسرائيل بالانسحاب من سيناء فى مقابل حصول إسرائيل على الملاحة فى خليج العقبة وعبر مضايق تيران تلك الملاحة التى كانت محرومة منها حتى ١٩٥٧ ، ثم وقع العدوان الاسرائيلى على مصر فى ١٩٦٧ ودعمت الولايات المتحدة استمرارية الوجود الاسرائيلى فى سيناء وفى الضفة الغربية وفى غزة وفى الجولان السورية ، وما كان لاسرائيل ان تقتنع بجدوى الانسحاب الا بالحرب التى كانت مصر دائما تدعو الى تجنبها .

واستعدت مصر لتحرير أرضها وخاضت حرب ١٩٧٣ المجيدة ، وافاقت اسرائيل على حقيقة المصرى ، انه قد يتعرض لفترة من الفترات الى الضعف شانه شأن أى شعب ، ولكنه يمتلك القدرة على الكفاح من أجل حريته ومن أجل المبادىء الانسانية . فوجئت اسرائيل ، وفوجىء العالم باسره بالمصرى المقاتل الانسانى فى

آن واحد . واضطرت اسرائيل الى أن تستجدى الدعم العسكرى من الولايات المتحدة وكانت الأخيرة فى حاجة لأن تشعر اسرائيل بأنها وحدها ليست قادرة على مواجهة مصر ، وكانت الخلافات بين مصر والولايات المتحدة قد دفعت بالأخيرة الى مواقف متشددة للغاية من مصر .. واستطاعت الولايات المتحدة ان تدعم اسرائيل عسكريا وماديا لمنع انهيار فى الجبهة الاسرائيلية وهو انهيار يضر بالمصالح الاستراتيجية الأمريكية .

ان الصراع العربى الاسرائيلى على هذا النحو يبين لنا بجلاء أن التغيير الديموجرافى جزء جوهرى من هذا الصراع ، واذا وضعنا فى الاعتبار ان الهزيمة العسكرية لدولة لا تمحو شخصية الدولة المهزومة وان التغير الديموجرافى هو الذى يمحو وجودها لأدركنا أن هذا الصراع العربى الاسرائيلى يشكل أخطر نوع من الصراعات على مستقبل الطرفين المتصارعين .

ويرجع السبب الرئيسى فى ضعف سياسة الاستيطان اليهودى فى سيناء عنها فى بقية الأراضى العربية المحتلة الى أن اسرائيل كانت تدرك ان مصر هى القوة العربية الحقيقية المقاتلة القادرة على استرداد أراضيها المغتصبة ، وهذا ما حدث فعلا حيث ازالت اسرائيل المستوطنات التى اقامتها فى سيناء :.

وتنبهت الحكومة المصرية الى خطورة وجود هذه الاتساع الضخم (سيناء) النادر السكان بجوار اسرائيل التى تعتمد سياستها على استغلال الأراضى القليلة السكان باقامة مستعمرات يهودية فيها ، ولذلك اصبح تعمير سيناء مشروعا ليس فقط لمواجهة الانفجار السكانى فى الوادى وانما للحيلولة دون أى تطلع اسرائيلى الى سيناء ، ذات الذكريات الدينية الهامة لدى اليهود وللقضاء على فكرة اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل على حد قول بعض التيارات المتطرفة والفكرية بين اليهود :.

ولننظر فيما اصبحت عليه العديد من المدن فى البلاد العربية وخاصة القاهرة ، فالقاهرة تضخمت واصبحت تشكل مشكلة اجتماعية خطيرة ، نتيجة هذه الكثافة السكانية المريعة فى نفس الوقت الذى تتناقص فيه الايدى العاملة المنتجة فى الريف المصرى وفى ذلك يقول د . السيد الحسينى :

« ان الهجرة الريفية الى القاهرة تشكل العامل الاساسى فى نموها السكانى ، فمحور الهجرة هو من القرى الى العاصمة ، اذ أن فقر القرية المصرية هو السبب المباشر فى لفظ فائض السكان الى المدن والعاصمة على الاخص ... ان تيارات الهجرة الريفية الى القاهرة تعاظمت خلال العقود الاخيرة بسبب الفارق الحضارى الهائل بين مناطق الطرد الفقيرة المزدحمة المتخلفة ومناطق الجذب الغنية المتقدمة ..... وفى ١٩٦٠ بلغ عدد سكان القاهرة والاسكندرية نصف سكان مدن مصر (٤٩ر٤٠٪) ... لذلك فان هذه المدينة قد بدأت تتحول من نافورة فكرية » الى (بالوعة اقتصادية) .. ان مصر هى من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم الدولة على العاصمة ، لذلك يبدو لنا ان اللامركزية هى مطلب اساسى لتحقيق تنمية حضرية فعالة فى مصر .. بل اننى اعتقد ان حل كثير من مشكلات القاهرة يبدأ أساسا من الريف المصرى » ..

ان النمو الحضرى على حساب الريف أو اجزاء اخرى من الدولة يمثل مشكلة كبرى حقيقية للكثير من البلاد العربية ، وهو تغير اجتماعى يجب ان نتداركه بالعلاج قبل ان تتحول العواصم العربية الى قنبلة قابلة للانفجار لسبب من الاسباب ..

والمشكلة الاجتماعية فى الريف لا تقل خطورة عن مشكلة المدينة . فان الريف المصرى يعانى من هجرة الفلاح لأرضه للعمل فى اعمال أخرى مجزية سواء فى القرية نفسها او بالهجرة الى اقرب مدينة أو الى العاصمة ، كما يعانى من زحف المبانى على الأرض الزراعية واقامة المنشآت عليها وبالتالى نفقد خبرة الفلاح الانتاجية ونفقد مساحات واسعة من الأراضى الزراعية الأمر الذى يهدد مصر بأزمة اقتصادية طاحنة ان لم ينزل الشباب المثقف بعلمه الى الأرض الزراعية ليعيد اليها خصوبتها وانتاجيتها وقدرتها على تمويل حاجة (الفلاح الحديث) بمتطلبات العصر الحديثة ، فيستقر فيها ولا تصبح الهجرة هدفا له .

وانه لأمر يدل على الخطأ المريع ان يتدفق الريفيون المصريون على القاهرة ، وأن تقام المدن الجديدة حولها ، حتى تصبح القاهرة الكبرى حوالى ربع سكان

مصر ، بينما سيناء قليلة السكان . ان علاج هذه المشكلة ليس مسئولية الحكومة فقط ، وانما ايضا مسئولية الشعب . فرؤوس الأموال التى يمتلكها المصريون حاليا ولا تستغل فى تعمير مصر وخاصة سيناء هى فى حقيقة الأمر رءوس أموال غير وطنية ، ورءوس الأموال المصرية الموجودة فى البنوك الأجنبية فى الخارج هى رءوس أموال خائنة ما دامت لا تخدم الاغراض الحضارية المصرية ورءوس الأموال العربية البترولية التى يمكن أن تستثمر فى مصر ولا تقدم على ذلك انما هى رءوس أموال تعرض المنطقة باسرها الى التسلط الأجنبى والانفراد بالبلاد العربية والاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

لقد وقعت تطورات جوهرية فى الريف خلال النصف الثانى من القرن العشرين ، واختفت قيم وظهرت مفاهيم جديدة .

● فالفلاح اصبح يغادر أرضه ويهاجر الى البلاد العربية ، وكانت هجرة الفلاح الى ما وراء مصر مسألة محدودة جدا فى دائرة اهتماماته واصبح مسألة مثارة باستمرار امامه .

● اصبحت الأرض الزراعية مفتتة تفتيتا شديدا يعوق العملية الانتاجية الاقتصادية .

● اقدم الفلاح على عمليات مرفوضة لديه تماما من قبل وهى (تجريف الأرض) ، وكان ذلك يعنى عند الفلاح العصامى من قبل تفريطا فى عرضه .

● ليس الفلاح على المستوى العلمى المعاصر وانما هو ينفذ تعليمات اكثر منه مدركا لهذه التعليمات ولذلك ليس جديرا بالأرض والجدير بها هو الفلاح المثقف على مستوى العصر وعلومه .

● أن الاصلاح الزراعى الذى وزع الأراضى على الفلاحين انما وزعها عليهم للارتفاع بمستواهم المعيشى ولكن ايضا للارتفاع بمستوى انتاجية الأرض فالهدفان متلازمان ، واذا كانت انتاجية الأرض متدهورة أو غير متناسبة مع المعدلات الحديثة فهو يضر بمستقبل بلاده وليس بمستقبله هو فقط .

● ان مشكلة الانتاج ومستواه ليست مشكلة اقتصادية وانما هى مشكلة قومية لا يمكن حلها الا عن طريق الفلاح (المثقف) ثقافة زراعية اقتصادية معاصرة . فالاسراف فى استخدام مياه الرى ادى الى تلف التربة ، وترك نبات (ورد النيل) ينمو بوحشية حتى فى الترع الصغيرة .

ويعلل كثرة من المفكرين أسباب تدهور الانتاجية الزراعية والصناعية الى الاصلاح الزراعى والى التأميمات التى صدرت فى السنوات الأولى من عهد ثورة ١٩٥٢ . والحقيقة ان ذلك يمكن علاجه علاجا جذريا اذا ما تحددت المكافأة على أساس معدلات الانتاج . فمن لا ينتج أو من يكون انتاجه أقل من المستوى أو غير جيد لا يحصل على أية مساعدات تقدمها الحكومة اليه . ومن يستطيع ان يزيد من انتاجيته يحصل على الامتيازات والا فسنقع فى ورطة كبيرة ان عاجلا أو آجلا .

ان الدول الاشتراكية والرأسمالية تعيد النظر فى أوضاعها لتحسين انتاجياتها حتى لا تصبح هدفا لقوى أخرى . الم يحن الوقت لأن نتقدم على (مشروع قومى) للارتفاع بالانتاجية المصرية ، قبل ان تصبح مصر هدفا للآخرين .

وانه لمن المتعذر فهم اصرار الحكومات المتعاقبة على تخريج عشرات الألوف من الشباب من الجامعات والمعاهد العليا فى مختلف التخصصات باعداد تزيد زيادة رهيبة عن حاجات البلاد لتعينهم موظفين (على المكاتب) بمرتبات هى (بدل بطالة) يستهلكون ولا ينتجون ثم تشكو الحكومة من كثافة المرتبات ومن ضعف الانتاجية ، والاغرب من ذلك ان الشباب ايضا يقبلون على الوظيفة حتى ولو كان المرتب (بدل بطالة) بئس الفكران الحكومى والشبابى .

الباب الأول
المجتمع المصري في عهد الفراعنة

الفصل الأول : الـــدولة القديمـــة .

الفصل الثانى : الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى .

الفصل الثالث : الدولة الحديثة .

الفصل الأول

الدولة القديمة

فجر التاريخ :

متى بدأت الحياة الاجتماعية فى مصر ؟ الاجابة عن هذا السؤال تتوقف على ما يكتشفه الباحثون من آثار وشواهد ، وفى الفترة الأخيرة استخدمت التكنولوجيا المعاصرة فقدمت لنا أدلة تكاد أن تقلب راسا على عقب ما توصل اليه من قبل ذلك الباحثون عن زمن ظهور مجتمعات بشرية فى مصر ، فقد ثبت عن طريق البحوث الأخيرة لطبقات الأرض ـ بواسطة أتوبيس الفضاء خلال شهر أكتوبر ١٩٨٢ ـ وجود وديان ـ وأنهار وآثار مجتمعات بشرية عاشت فى المنطقة الواقعة بين مصر والسودان وليبيا منذ مائتى ألف عام ، ولا نزال فى انتظار ما سيتوصل اليه الباحثون عن شكل الحضارة حينذاك (*)

وما لدينا من معلومات تقليدية عن نشأة الحضارة فى مصر تذهب الى أن نيل مصر وصل الى جبل السلسلة فى جنوب الصعيد وظل آلاف السنين يحاول أن يشق طريقه حتى نجح فى ذلك ، وانطلق ليصب فى البحر المتوسط ، مكونا واديا ودلتا ، وكان على جانبيه من شرق وغرب هضبتان كان يعيش عليهما جماعات احترفت أفرادها الصيد فأخذوا يهبطون الى هذا الوادى الخصب (*)

ويرجع احتراف الصيد دون الرعى الى قلة العشب (*) ولما تبينوا امكانية وقيمة الزراعة اتجهوا اليها لتصبح من بعد حرفة المصريين الرئيسية ، وهى الحرفة التى تقوم على مياه النيل وطميه الخصب وعلى قدرة المصرى على تنظيم استخدام المياه ، وعلى تحديد نوعية المحصول المناسب واستخدام انسب الطرق حتى ينضج أو يثمر (*)

أخذ المصرى ينظم نفسه فى قرى تكاد أن تكون كل منها قائمة بنفسها فى أول الأمر ، قليلة التجانس ، مختلفة الى حد ما فى ممارستها لملكية الأرض وتوزيع الانتاج . ففى « وردان » وفى « حلوان » « والفيوم » و « المعادى » ظهرت قرى اختلفت نظم الملكية فيها ، فكانت الغلال تجمع فى مطامير خاصة بكل أسرة فى كل من وردان وحلوان ، وأما فى الفيوم ، فكان أهلها يخزنون انتاجهم الزراعى من الحبوب فى مطامير جماعية ، وهذا يعنى — فى رأى البعض — أن الملكية هنا كانت « مشاعة » .

ولعل عدم المقدرة على الأخذ بنظام الملكية الخاصة للأرض فى منطقة الفيوم يرجع الى ضيق المساحة الزراعية ، الأمر الذى فرض على الأهالى نظام الملكية المشاعة ، أما فى المعادى فظهر نظام وسط بين النظامين سالفى الذكر ، وهو يجمع بين الملكية الخاصة التى ظهرت فى وردان وحلوان وبين الملكية المشاعة التى ظهرت فى الفيوم .

وتعتبر حضارة مرمدة بنى سلامة — جنوب غرب الدلتا — وحضارة دير تاسا — قرب أسيوط — اقدم الحضارات قبل عصر النحاس ، ذلك العصر الذى ترك آثاره فى حضارة (البدارى) . وبعد عهد البدارى نمت وتطورت حضارة عرفت بحضارة (نقادة) التى تميزت بنمو الفنون فكانت بذلك ارهاصا لما ستتطور اليه هذه الفنون فيما بعد .

كانت الغلال بمثابة راس المال الرئيسى حينذاك ، وكان مكيال (الحنطة) هو الذى يقيم به المصرى السلعة ومثل هذا الأسلوب فى تقييم السلع عند اجراء عمليات التبادل التجارى يتناسب مع تلك الفترة المبكرة من تاريخ مصر ، تلك الفترة التى كانت فيها الجماعات متفرقة متباعدة ، وكل منها قد ركزت نفسها فى مجال محدود ، وفى نفس الوقت كانت العلاقات بين هذه الجماعات المتفرقة ضعيفة ، ولذلك كان استخدام مكيال (الحنطة) يفى بالغرض عند تقييم السلع محليا .

وبمرور الوقت نمت كل واحدة من تلك الجماعات ، وتقاربت كل جماعة من الأخرى ، ونمت العلاقات والمبادلات ، وفى مثل هذه الحالة يتعذر استخدام

مكيال الحنطة كمقياس لتقييم السلع التجارية لثقل وزنها وضخامة حجمها وصعوبة نقلها . فكان طبيعيا أن تعيد هذه الجماعات النظر في (الحنطة) كمعيار . وادى ذلك الى استخدام (النحاس)كمعيار لتقييم السلع ، فأعطى استخدامه دفعة قوية لعمليات التبادل التجارى ، فأصبحت أكثر سهولة وأوسع نطاقا الأمر الذى يفتح الطريق أمام تقارب أشد وبالتالى أمام توحيد المجتمعات الصغيرة وظهور المجتمعات الكبيرة ، وكذلك ظهور ادارة محلية وسلطة مركزية أو بمعنى آخر ظهور (الاقليم) كوحدة سياسية اقتصادية اجتماعية .

مع نمو المجتمعات المصرية فى فجر التاريخ نمت التأملات الفكرية فى محاولة لتفسير الظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التى تسود وتفرض نفسها .

وكانت عدة أسئلة تفرض نفسها على المصريين حينذاك :

ـ من نظم مسيرة هذا النيل العظيم من أقصى الجنوب المجهول ليجرى على طول الوادى حتى البحر ؟ ومن نظمه أو كيف نظم نفسه فى فيضان محدد المواعيد من كل عام ليخصب الأرض ولتخضر بعد كل فيضان ؟ .

ـ ما هذه الشمس ودورتها ، وما هذا الدور المعجز فى استمرارية الحياة ؟ .

ـ كيف انتظم القمر والكواكب والنجوم فى نظام معقد كل التعقيد ؟ .

ـ ما سر هذه الكائنات الحية النافعة منها والضارة وما دورها ؟ .

ـ ما هى العلاقة بين مختلف ظواهر هذا الكون .. الحى منه والجماد ؟ .

تأمل المصرى ... وقادته تأملاته الى أن هذه (الشمس) رب ... بل رب الأرباب ، واتخذ أهل كل اقليم لنفسه الها من وحى طبيعة الاقليم وما يدب فيه من حيوان . ولعلهم فعلوا ذلك اما لتجنب شر يستطيعه أو لجلب خير كثير يمكن أن يقدمه ـ لقد قدسوا (الحية) وجعلوها حارسا لرب الأرباب رع (الشمس) وعبدوا البقرة (حتحور) لما تقدمه من خير كثير ولما تضربه من أمثلة رائعة للأمومة والحنان .

وبنمو الاقليم ، نمت العلاقات ، وبدأت ارهاصات التوحيد والتوحد تنمو ، ومع هذا النمو تهيأت الظروف لظهور أول دولة فى مصر هى مملكة الشمس . ولكن ليس لدينا معلومات وافية عنها ، الا ما خلفته بعض الأساطير التى تشير بوضوح الى ظهور مملكة متحدة فى دلتا مصر ، ولعل أبرز ملوكها « حورس » الذى أصبح فى نظر المصريين فيما بعد الها ذائع الصيت . وهو احد عناصر اسطورة ايزيس وأوزيريس ، تلك الأسطورة التى تقدم نماذج من أنماط العلاقات الأسرية التى لا نزال نعيشها الى الآن كما تقدم لنا تصورا لرؤية المصريين لخلق هذا الكون .

وتتحدث هذه الأسطورة عن صراع بين أخوين ، على السلطة هما « أوزوريس وست » . وكان الأول يمثل الخير ، والطيبة ، وزوجته « ايزيس » تمثل الوفاء والاصرار على حماية ابنهما حورس من افتيات عمه ست عليه .

اتخذ حورس من « أون » (١) عاصمة له ، فكانت أول عاصمة فى التاريخ ولكن ضاعت آثارها تماما ، وذلك يرجع الى طبيعة الدلتا الرطبة ، ومع ذلك ظلت لحورس عبر التاريخ القديم مكانته ، وكان يصور على هيئة صقر فتى .

وتحمل العديد من المدن المصرية اسمه حتى الآن : فدمنهور بالفرعونية تعنى مدينة «حور » اى حورس ، وقس على ذلك أسماء العديد من المدن الأخرى .

ولأمور لا نعرفها ضعفت هذه المملكة ، ولكن حسب نظرية ابن خلدون ، فلكل دولة نشأة ، وفترة فتوة وقوة ، ثم ضعف وانهيار . وعادت مصر الى أن تصبح مكونة من العديد من الأقاليم ، لكل اقليم أميره والهه . ولكن التفكك ليس من طابع وادى النيل ، ففترات التفكك ما هى الا فترات شاذة ، ولذلك لم يلبث وادى النيل أن اقتصر على مملكتين احداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب .

---

(١) قرب عين شمس الحالية .

ودار صراع بين المملكتين فى سبيل الوحدة ، وتحققت على يد ملك الجنوب فى هذه المرة « مينـا أو نارمر » مؤسس أول أسرة فرعونية حاكمة ، وذلك فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد . فكان بداية لثلاثين أسرة حكمت مصر حتى عام ٣٣٠ ق.م .

الدولـة القديمـة :

يعتبر عهد الدولة القديمة — أى عهد الأسرات الست الأولى — من أروع عهود التاريخ القديم سواء المصرى أو العالمى ، ففى هذا العهد بنيت الأهرامات المعجزات . ويمتد عهد الدولة القديمة من أواخر الألف الرابع حتى أواخر الألف الثالث (٣١٩٧ — ٢٢٣٠ ق.م) .

كان على رأس الحكم فى مصر على عهد الدولة القديمة فرعون (١) . يحكم البلاد من عاصمته (منف) مقر الادارة المركزية . وكان فرعون ابنا وصورة للاله . وبعد وفاة فرعون يندمج مع رب الأرباب (رع) .

وكان اذا مات فرعون يخيم الحزن على البلاط والبلاد وتطوف مئات من النسوة المدينة مولولات يهلن التراب على رءوسهن وبعضهن ينشدن مآثر الفقيد فى الطرقات .

وكان فرعون هو الكاهن الأعظم ، وصاحب الأرضين ، وله الكلمة التى لا ترد ، وهذا لا يعنى أنه يعمل بلا قيود . فقد كان فرعون فى الحقيقة ملتزما بالقانون ، وكان أمراء الأقاليم يحدون من سلطته . اذ كان فرعون يستعين بهم فى اعداد الجيش . وكان من أبرز مظاهر التزام الملك بالقانون أن محاكمة بعض الأميرات كانت تجرى طبقا للاجراءات القانونية ، وكان الملك نفسه لا يتدخل فيها وكان يحضرها أحد كبار الموظفين .

كان فرعون هو القائد الأعلى للجيش ، وكان يقوده فى المعارك . ولكن كثيرا ما سجلت الآثار خروجه على رأس جيشه الى معركة لم يزحف اليها ولم يشهدها اطلاقا ، وذلك يرجع الى أن رعيته كانت تفخر بأن تنسب الى فرعون ما يتحقق من أمجاد .

---

(١) لا ندرى من أين اتى هذا اللقب ولا متى بدأ استخدامه .

وكانت فى الدولة القديمة ادارة تعرف بادارة الوثائق الملكية ، وهى المختصة باصــدار وحفظ المراســيم الملكية ، وكانت نســخ من هذه المراســيم تعلن على الشــعب بوضعها على ابواب المعابد .

وتعتبر مصر اقدم دولة اتبعت نظــام « الوزير » أو بمعنى آخــر المعــاون الأول للملك ، فالوزير هو المســئول عن الشــئون الادارية كلهــا ، وهو الذى يعين الموظفين الاداريين ، ومســئول عن تنفيذ المشروعات ، وخاصة مشروعات الرى والانتــاج الزراعى ، وكان الوزير فى نفس الوقت « كبير القضــاة » وهى مســئولية كان يعتز بهــا .

وكانت الادارة فى عهــد الدولة القديمــة موزعة الى مجمــوعة من الوظائف والكتبة .. ونلاحظ أن مكانة الموظف كانت عالية ، وهذا وضــع نشــاهده عبر العصــور فى مصر .. حينــذاك كان الموظف مولعا بالالقــاب ، لدرجة أنه كان معنيــا بتســجيل القــابه الصــغرى الى جانب القــابه الكبيرة التى حظى بهــا فيما بعــد .. وفى فترة ضــعف فراعنــة الدولة القديمــة ، يلاحظ أنهم أسرفوا اسرافا كبيرا فى منــح الموظفين الالقاب ، كمــا يلاحظ ان الموظف الواحــد كان يحتكر العديد من الوظائف ، وهذا مظهر من مظــاهر الضعف فى بنيــة المجتمــع بصــفة عــامة ..

وكان لكل عاصمة من عواصم المقاطعــات مجلس يتــولى الأمور الادارية والقضــائية .. وكان لكل قرية « ســيد » مســئول عن أمورها الأمنية ، وكانت له ســلطات قضــائية عرفيــة فى المســائل العــادية أمــا حــالات الجنــايات الخطيرة فكان يخطــر الحكومة المركزية بشــأنها .. وكان ســيد القرية مســئولا عن تســجيل الأراضى وتســجيل الايجــارات ، ودوره فى ذلك العهد البعيــد لا يختلف كثيرا عن دور عمدة القرية القوى فى القرية المصرية حتى زمن قصير .

وفى أى مجتمع قروى أو حضرى ، يوجــد الحرفيون « ولــكن تميزت فى عهــد الدولة القديمــة طبقــة من الصناع الفنيين الذين كانوا على درجة عالية لا شــك انهــا كانت نتيجــة لتوارث الابن الأبيه فى الصنعة ، وخاصة فى مجــال صــناعة الأوانى وفن النقش والنحت » الذى بز فيــه المصريون كافة شــعوب العــالم ..

وتؤكد النصوص القديمة باستمرار أن الأرض لفرعون ، وريث الالهة ، من الناحية النظرية ، ولكن من الناحية الواقعية كانت هناك اشكال متعددة من الملكيات .

- ملكية فردية .
- أرض تمتلكها اسرة بعينها (*)
- ملكية استغلال (*)
- أراضي حبست على الآلهة والكهنة والمقابر .

وكانت هناك ملكيات واسعة واخرى صغيرة ، فقد كان لفرعون الحق في أن يهب من يشاء من الأسرة المالكة والحاشية اقطاعات زراعية كما كان بكافىء رجال الدولة بمساحات من الأرض (*) ولوحظ أن بعضها كان يحتاج الى جهد واستصلاح . ان ظاهرة منح الاقطاعات التى تحتاج الى استصلاح من الظواهر المتكررة في التاريخ المصرى ، ومن ذلك أننا نصادفها في عهد محمد على في القرن التاسع عشر وما بعده (*)

لقد كان حق التصرف في الأرض المملوكة ملكية خاصة مكفولا لصاحبها ، الى جانب ذلك كان هناك حق الانتفاع دون التصرف في الأرض ، وهو ما نشاهده في تاريخ مصر فيما بعد ، فيما يعرف باسم « حق الرقبة » اى الامتلاك الكامل وحق الاستغلال دون التصرف .

ولقد تردد كثيرا في بعض المؤلفات أن الفلاح المصرى كان عبدا لفرعون وانه سخر في اعمال المنفعة العامة مثل شق الترع وحماية الجسور . حقيقة كان هناك نظام السخرة ، وكان اللجوء اليه في ذلك الوقت من الأمور المعتادة فى ذلك العصر ، فلم تكن ميزانية الدولة على نظام دقيق يكفل وجود مخصصات مالية مجددة لمواجهة الأعباء العامة الكبيرة ، ولذلك كان الرجال يسخرون فى هذه الأعمال بشكل يقرب من مفهوم الضرائب الوطنية . تدفع على هيئة عمل ، وليس المقصود منها الاذلال .

كانت الضرائب تفرض على الانتاج والعقارات ، وخاصة على الأراضى الزراعية تبعا لطبيعة فيضان النيل . وحتى تضبط الحكومة عملية

جمع الضرائب كانت تجرى احصاء عن الأملاك . كان هذا الاحصاء يجرى مرة كل عامين فى أول الأمر ثم أصبح مرة كل عام . لكن فى فترات الاضطراب كانت تتوقف عملية اجراء هذه الاحصاءات .

وكانت هذه الضرائب عينية (غلال واقمشة) وتدفع على هيئة معادن ثمينة وتقدم الى (بيت المال) الذى كان بمثابة وزارة المالية . ومن هذه الأموال كانت الحكومة تنفق على الجيش والأشغال العامة وتغطى نفقات البلاط الفرعونى ودور العبادة .

اما فى المجال العسكرى ، فكان فرعون يعتمد على حرس خاص ، وعلى فرق يشكلها حكام الأقاليم ، يستدعيها عندما يحتاج اليها ، وكانت بسيطة السلاح . وبصفة عامة كان المصرى يرى أن العسكرية أقل شأنا من العمل الوظيفى حتى لقد ذعر مثقف عندما رأى الشباب وهم ينخرطون فى سلك الجندية ، فكتب يحذرهم من هذا الاتجاه .

كان الحفاظ على تماسك الأسرة فى الدولة القديمة من أسس المجتمع حينذاك .

والبيت السعيد فى نظر المجتمع القديم يقوم على الأسس التالية :

١ — زواج مبكر فى بيت مستقل .

٢ — ذرية تأتى فى وقت مبكر ليحترم الناس الأسرة ، فالأولاد لم يكونوا عبئا على الأسرة حينذاك بل كانوا (عزوة) فضلا عن أنهم سرعان ما يتحولون فى سن مبكرة الى أيد عاملة منتجة .

ان كثرة من الشواهد والتماثيل والصور المنحوتة تتحدث عن وفاء الزوجين بعضهما لبعض كل الوفاء ، حتى لو كان الزوج قزما أو مريضا .

أما عن الأم والأمومة فقد تناولها الفيلسوف المصرى القديم (آنى) ناصحا شباب عصره بقوله :

« أطع والدتك واحترمها فان
الاله هو الذى أعطاها لك »

وطبيعة الحـال فى المجتمعـات توجـد كذلك المشـكلات الأسرية العـديدة وخيـانة الزوجة لزوجهـا ، وخيـانة الزوج لزوجتـه ، وما يترتب عن ذلك من عواقب وخيمة تحل بالأسرة بصفة خاصة وبالمجتمع بصفة عامة .

الأهـــرام :

اتخذ فراعنة الأسرة الأولى والثانية عاصمتهم فى (ثينة) بالقرب من البلينا ، ثم اتخذ الفراعنة من (منف) عاصمة ازدهرت فى عصر الدولة القديمة .

وعرفت أسرات هذه الدولة ببناة الأهـرامات ، وأنهـا الأبلغ شـاهد على قدرات مصر المعجـزة فى ذلك الوقت المبـكر .

وانه لمن الضرورى للغـاية أن نتعرض لأعظم انجاز حكومى شـعبى خـلال عهد الأسرة الرابعة ، تلك الأسرة التى عرفت بمعجزة بنـاء الأهرام . ولسـنا هنـا بصدد تقـديم دراسـة تاريخية عن هذا الاعجـاز الفنى المعمـارى ولكن بصدد تقـديم صورة عما تضمنه هذا العمـل المعجـز من مفـاهيم العمل الجماعى والتنظيم الدقيق لعمل يقوم به عـدة الوف من العمال .

وهناك دلالات هامة للغـاية تنبثق من مفهوم بنـاء الأهرامات :

١ — ان سـلطة فرعون كانت فى منتهى القـوة والتحكم فى رصيد الدولة وان النظام الحاكم كان مسـتقرا .

٢ — ان معـدلات الخطأ — التافهـة للغـاية — تدل على حنـكة ومهـارة معمارية لا تنتج فقط عن ذكاء خارق ولكن عن طول مران وتجربة وخبرة نادرة فى فن الادارة العليـا فضلا عن الهندسـة .

ويحدثنا أحـد المؤرخين عن مـدى الدقة التى تميز بهـا مهندس عصر بنـاة الأهـرام فيقـول :

« .... من الأوصـاف الممتعة فى تصـوير مدى الدقة فى بنـاء الهـرم ، ما يقـال عن ان متوسـط الخطأ فى طول جوانبـه لا يعدو ١ : ١٤٠٠٠ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه اى لا يعدو كسرا عشريا يساوى دقيقة واثنتى عشرة ثانية ، وان معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغـربى لا يزيد على ٣ : ١٠٠٠٠

وان الفواصل بين احجاره لا تزيد عن نصف ملليمتر (١) .

لقد تحدث عدد كبير من المؤرخين عن ان بناء الاهرام كان يتم على حساب القوة البشرية للشعب وعلى حساب المفاهيم الانسانية . ولم يتنبه هؤلاء الباحثون الى ان المشاركة فى بناء مثل هذا العمل الضخم تضفى على الفرد نوعا من الراحة النفسية ، حيث أن هذا العمل من باب الأعمال المقدسة وجزء من مفهوم العبادة لرب من ارباب مصر القديمة بل لرب الأرباب (رع — الشمس) .

ولا شك ان الاشتراك فى هذا العمل كان يعنى تحمل العامل مشقة الغربة عن مسقط راسه ، ومشقة الاقامة بجوار موقع العمل ، ولمدة ليست بالقصيرة قد تصل الى ثلاثة اشهر . ولا شك أن العامل بصلابته واجه هذه الصعاب . ومما لا شك فيه ايضا أن نوعا من السخرة فرضت عليه ولكن يجب أن لا نبالغ فى ذلك ، والا نأخذ ما كتبه عدد كبير من الباحثين الا بعد تمحيص .

ان بناء الأهرام كان حقا جزءا من العقيدة ولكنه فى نفس الوقت كان يتطلب العمل بنوع من السخرة ولكنها سخرة محدودة أقرب الى الضريبة المفروضة على القوة البشرية المصرية .

ان هذا العمل الذى كان يقوم به عدة آلاف من الشباب والرجال فى آن واحد يدل حقا على مقدرة فذة فى التحكم فى مسيرة العمل وتوجيهها . وهى مقدرة نادرة فى العمل الجماعى وتوزيع مسئوليات العمل بدقة ومتابعة لكافة التفاصيل ولكافة العمليات سواء الفرعية أو الرئيسية .

ان عملية بناء الاهرام تثبت بما لا يدع مجالا للشك ان المصرى فى عهد الفراعنة كان على مستوى رفيع للغاية من حيث العمل الجماعى ومن حيث القيادة الجماعية والتنظيم الدقيق .

ولقد عنيت الهيئة المسئولة عن تنفيذ الاهرام براحة العمال ، وكان هؤلاء

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الشرق الادنى ، ج ١ ، ص ١١٣ .

العمال بالآلاف ، وكانوا يتجددون من فترة لأخرى . فأقامت لهم (مدينـة عمـال) بالقرب من موقع العمل . ولا تزال آثار هذه المدينة باقية الى وقتنا هذا .

ونظـرا لأن طقوس وأسـاليب الدفـن فى مصـر الفرعونيـة كانت ذات قدسـية خاصة واجراءات تحنيط معقـدة ، فقد أصـبح من الضـرورى اقـامة مستعمرات لعمـال الدفن بجوار مواقع الدفن الرئيسـية . ولقد اكتشـفت العديد من هذه المستعمرات ، وتدل بقـاياها على أنها كانت تضم عددا كبيرا من العمال وكانوا يتظاهرون عندما يتقاعس المسئولون عن دفع رواتبهم بانتظام .

ولكن من زاوية أخرى جر بنـاء الأهرام والمعـابد الضخمة العـديدة على البلاد نتائج جد وخيمة . فقد أسرف الفراعنة فى الانفاق حتى اضطربت الميزانيـة واحتكرت الأسرة الحاكمة المناصب العليا حتى اضطربت الادارة بسبب عدم الكفاءة وسـوء التصـرف .

وقـد ادى ذلك الى أن تعيـد الأسـرة الخامسـة النظـر فى الأمـور حتى لقـد تخلى أفـرادها عن العديد من المناصـب العليـا لصـالح قيـادات من الشـعب .

ضـعف الدولة القديمـة :

اذا كان هنـاك دليـل على أن الاسـراف فى طـول مـدة الحـاكم تؤدى الى وقـوع ثورة جذرية فهذا الدليل كان قائما منذ عهـد الأسـرة السـادسـة . فلقد حكم بيبى الثانى زهـاء قرن من الزمـان ، ومن بعـده كان الطـوفان اذ وقعت بعـده الثورة الاجتمـاعية الكبـرى التى قوضـت الدولة القديمـة وأدت الى تغير جوهرى فى تركيب مصر الاجتماعى .

لقـد كان بيبى مصـلحا محبـا لوطنـه ، ولكن بعـد تلك السـنوات الطويلة لم يعد قادرا على متابعـة جهوده ومن جاء من بعده كانوا ضـعافا غـير قادرين على معالجـة تراث طويل من الأخطـاء فانفلت الأمـر من يده الى أيـد أخـرى عديدة ... وذلك هو التطور الطبيعى نحـو الثورة الاجتماعية لتصحيح أوضاع عجزت عنها الحكومة لأمر أو لآخر .

من أبـرز مظـاهر انحدار مكـانة القصـر أن فرعون وافق على تزويج

بناته من كبار موظفيه ، وكان مثل هذا الزواج من قبل غير مقبول .
وفى داخل القصر نفسه أصبحت زوجة فرعون تحاكم على يد قضاة
وكبار الموظفين بتوجيه من فرعون ، ولم يقتصر بناء المقابر على البلاط
وانما امتد ذلك الى كبار رجال الدولة .

كان نمو قوة أمراء الأقاليم نتيجة طبيعية لضعف فرعون وبلاطه
وعدم قدرتهم على ادارة دفة الحكم . وكان هؤلاء الأمراء فى اول الأمر
يتولون بقرار من القصر . وكل عمل يقومون به انما هو بتوجيه القصر ،
ولا هدف للأمراء الا خدمته والحفاظ على حقوقه . ولكن مع تدهور سلطة
القصر أصبح الأمير يورث امارته لابنه رضى القصر أم لم يرض ، وتحدث الأمير
عن أعماله المجيدة للحفاظ على حقوق الاهالى فى اقليمه ، بل منهم من ذهب الى ابعد
من ذلك عندما تجاهل القصر ورفض سلطة فرعون فكان ذلك تفككا ليس فى
الادارة فقط ولكن فى المجتمع .

كان فرعون وبلاطه فى أواخر الدولة القديمة يعملون على تثبيت اقدامهم عن
طريق كسب ولاء العناصر التى اصبح النفوذ فى قبضتها . ونظرا لأن نفوذ الكهنة
كان قويا ، فقد أغدقوا عليهم الهبات والمنح والأوقاف مرضاة لهم ليعملوا على بقاء
اسم فرعون مسموعا ومطاعا .

ان هذا الاسراف فى العطايا والمنح والأوقاف المعفاة من الأعباء المالية
كانت من عوامل الفساد ، فضلا عن أنها كانت من عوامل تصاعد قوة الكهنة
على حساب القصر .

ولعله من مظاهر التدهور الخلقى فى اواخر الدولة القديمة ذلك
الانفلات الذى ظهر فى المجتمع ، ويسميه البعض تحررا من القيود الاجتماعية
ومن التقاليد المتزمتة . ولقد عبر الفنان عن هذه الموجة التحررية فى عهد الأسرة
السادسة اذ صور الراقصات عاريات وشبه عاريات فى حركات فنية راقصة
رقيقة رقة حركات الباليه المعاصر ولكنها فى نفس الوقت مثيرة فتانة على الطريقة
الشرقية .

ان هذه الحرية فى الرسم والتصوير كانت جديدة على مجتمع الدولة

القديمة . وهذا الاتجاه يشـــــير الى أن الحيـــاة أصبحت مليئة بالمبـاهج والملاذ المتطرفة القريبة من مفهوم الرذيلة .

وتكشف لنا بعض المتون عن استشراء الفساد فتقول :

« ان الاستقامة أصبحت منبوذة ، وضرب الظلم أطنابه فى المجلس ، وسلك القوم طـريق الخطـايا والذنوب ، وافتقدوا الاحترام المتبـادل ، وافتقد الفقير من يدافع عنه ضد حكم ذوى البأس . وكان من يتلفظ بنقد ما يفقد صديقا ويكســـــب عدوا ، اذ اصبحت القلوب عازفة عن قبول صدق المقال » .

لقد كان ذلك مقـــدمة لوقوع الثـورة الاجتماعيـــة الكبـرى التى اندلعت فى أواخر الدولة القديمة .

الفصل الثانى

الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى

بعد تلك النهضة المعجزة على يد بناة الأهرام ، وبعد تلك الالوهية للوك فراعنة الدولة القديمة ، كان الاسراف فى الانفاق على بيوت الآخرة وتصاعدت حاجات الفرعون الاله وبلاطه ورجاله وحريمه وأعوانه الى الأموال من المتحكمين فى الانتاج فى مختلف أجزاء البلاد ، وكان هؤلاء فى نفس الوقت يمارسون قوة ومكانة تتصاعد كلما احتاج اليهم القصر ، فنمت قوتهم واعتزوا بما سيطروا عليه ، وبمن التف حولهم من رجال ، وطاولوا رجال فرعون .

واضطر رجال القصر امام الحاجة الى الأموال وأمام الحاجة الى كسب رضاء اصحاب القوة والنفوذ فى مختلف البلاد الى ان يمدوا قبضتهم الى كل من يحصل على دخل من الرعية ، حتى تحول الأمر الى ما يشبه الابتزاز ان لم يكن هو الابتزاز نفسه . وتحمل الشعب فى أول الأمر ، ثم طفق يتساءل ويقارن ، واخذت تتكشف له الحقائق من حيث ان هذا البلاط المسرف لا يشعر بحاجات الفرد الأولية ، وتلفت حوله فوجد أن علية القوم واثرياءه ليسوا علية ولا أثرياء الا لما اقترفته أيديهم من سرقة اقوات الشعب وارهاقه بحرمانه حتى من مقومات الحياة اليومية . وعندما عرضوا الشكاية فى تواضع أزورت عنهم الوجوه او الهبت السياط جباههم وظهورهم ، وسيق اولادهم وبناتهم خلف الزوجة الباكية ليلقوا جزاءهم لمجرد الشكوى أو التململ ناهيك عن الرفض أو المقاومة .

كان الضعف والتدهور والفساد ينخر فى جسد الدولة وخاصة الحكومة ببلاطها وموظفيها ، فالموظفون لا يقدمون عملا الا انتزعوا من مسكين قوته ، واذا قام الموظف بعمله فما ذلك الا مجرد عمل يؤديه ولا قيمة لجدواه ، وغابت عنه حاجات الشعب الحقيقية وان لامه لائم أشاح عنه وجهه فى سخرية بلهاء .

خربت الذمم ، والمصلحة الذاتية هى فلسفة الأداء الوظيفى أو أى عمل يتصف بالمصلحة العامة ، فضاعت هذه بين الفساد الخلقى والفساد الادارى

وضاعت المسئولية الجماعية ، ونفض المسئول عن نفسه الدافع الذاتى ، فأصبحت الادارة هلامية ، قائمة وكأنها غير قائمة ، مطلوبة غائبة ، ففقدت المضمون وربما الشكل ايضا وانتظرت ريحا صرصرا أو غير صرصر لتطيح بها ومن فيها .

فقد الشعب ثقته بالحكم والحاكمين ، وبالفكر الدينى والدنيوى وبالاله فيما وراء الطبيعة ، وبالاله الانسان التعس فى بلاطه ، وبالأمير أو الأميرة أو العين أو الثرى ، اذ فقدوا مقومات سلطتهم ، فلا يستمع اليهم أحد . وكيف يسمع أحد أمرا وهو كاره ليوم مولده ويوم مصرعه ..... لقد ضاعت هيبة الحياة الاخرى ، ولا بعث ولا باعثون ، ولا آلهة فى الشرق وأخرى فى الغرب لمن يموتون ، ويتساءلون عن عذاب وضياع فى حياة وآخرة .. انهم فى معتقداتهم لقوم ضالون مضللون ، فلتصل الأيدى الى ما تصل اليه ، تلك شريعة لم يقل بها الحكماء ، فليقل بها البائسون ولينفذوها مهما كانت النتائج .

اليست ابواب مصر الشرقية على الاقل مفتوحة أمام ذلك المتخلف حضاريا .. ولكنه الوصولى السريع الحركة ؟ .

لقد تقدمت كتائب الشرق الأسيوى الى قلب الدلتا ، كتائب بعضها من عسكر شهر سيفه ، وبعضها تجار شهروا بضاعتهم ، وبعضهم ذوو خبرة فى الادارة فرضوا انفسهم على من فقد الخبرة والرؤية .

وهؤلاء يتطلعون الى ما هو فى الشرق . ويعملون على فتح واستمرار انفتاح باب مصر الشرقى فمنه قد وفدوا ومنه يستقدمون من يبتزون به ، واليه يفرون اذا ما اضطروا الى الفرار .

وبدو الصحراء وجدوا فرصتهم فى الانطلاق الى قرى الوادى الأخضر وكان محرما عليهم ، لما جبلوا عليه من القضاء على كل ما هو أخضر . وضاعت المحاصيل المثمرة .. واجتاحوا الأخضر واليابس . فهل كان ذلك لمجرد النهب أم لكى يسلبوا هؤلاء الفلاحين مقوماتهم الحضارية ليصبحوا أما تحت سياطهم أو هائمين فى الصحراء على نحوهم ؟ .

والشعب ينظر الى هؤلاء وهؤلاء نظرة عجب ، أهكذا يردون ماء النيل صفوا ويعبه المصرى عكرا ؟ وكيف يتدفق هذا وذاك بينما البلاد فى ضنك

ومجاعة ، هل غضب النيل على مصر وشعبها ، ففاض الماء عنها حسرة على ما فيها ، أم لينزل بهم العذاب بعد امتلاء سفة .. علهم يدركون عوامل الرخاء ومسببات المجاعة ؟ ..

أصابت المجاعة كل من على الأرض ، ثريا أو فقيرا ، ولكن ذلك الثرى يستطيع أن يتحملها أكثر لما لديه من مخزون فى (صوامعه) فوق الأسطح ولما لديه من مخزون فى جسده . أما ذلك الفقير الذى كان نصبة لغيره ، فليس لديه شىء هنا ولا هناك ، فما من سبيل أمامه الا أن يصل بطريقة أو بأخرى الى قوت يومه ، وأن يشفى غليله من هؤلاء الذين دفعوا البلاد الى هذه الهاوية المروعة .. فانطلقوا وجلين فى أول الأمر .. واذا بالآلهة والسادة وعلية القوم كأنهم أعجاز نخل خاوية .. فتحولت الحركة الى ثورة ، ثورة مدمرة لا تبقى ولا تذر ولا قيم ولا مثل .

اقتحموا بيوت الأثرياء والأمراء ... وماجوا فيها وأقاموا اقامة حاقد لا ينهب ليأكل ... ولكن ينهب ويدمر لينتقم أو ليشفى غليلا .. ومن كانت فى جوانحه دوافع لصوصية انفجرت ، أما من كان لصا فقد جاء زمانه ، فكان أن عقدت السيادة لهم . وسرى الذعر والفزع والخوف .. خوف من كل شىء ومن كل انسان ، لقد أصبح الناس بلا راع .. وانطلق الجمع أفواجا ، فاذا الأب ذبيح ولده .. والأخ نال أخاه فى مقتله فما بالك بما وقع بين من لا أواصر قربى بينهم .. تذابحوا دون شفقة وضاعت الانسانية وكأنها نغم رومانسى لا يسمعه ولا يريد أن يسمعه أحد .

وفرعون يجلس على عرشه اليوم لينزل عنه غدا وربما فى يومه . وينزل عنه مضرجا أو غير مضرج ولكن الى حيث تلقى فضلات قوم . والمخدرات الناعمات انطلقن مذعورات من دمار مؤكد الى دمار مؤجل .

واطلقت المأساة لسان أدباء تلك الفوضى الدموية فعبروا بأبلغ كلم عما أصاب البلاد ، فيقول (ابيوور) :

ها هى بلادى قد خرجت ... دون أن نجد دمعة من أجلها ..

السلاح يمشى على الأرض فذعرا لمن يطؤها أمامه .. وغاض مـ

النيــــل ... فلتدب الأقــدام القــذرة على قاعه . البــدو فى قلب الــوادى وله يمزقون ، والأسيويون الشــعث ــ يتســللون ــ وينخرون عظــامه فلا ســاعد يدفع عادية غاز ولا وقاحة مغتصب ، فتدفق المغتصبون من شرق البلاد .

فقد الرجل نخوته حتى أدار ظهره كى لا يرى أخــاه مجندلا بخنجر غــدر ، واذا أردت لقمة عيش فبدم صديق أو عدو .. فلا يهم ... ولا قيمة حتى لهذا الدم أو لهذا الموت .. بل أن الموت أصبح يبتغى ... فالجســد يرتاح من هول مــا هو فيه ، وهزىء المصرى من ذلك الذى كان يقول بأن الموتى تقوم وأن عليه أن يعمل عملا صالحا ليوم بعث وتقديم ومحــاكمة . كفــر المصرى بالبعث ، وبالآلهــة .. الأحياء منها والأموات والى جانب من كفر بالبعث والآخرة كان هنــاك من يدعو الى الدنيــا وزخرفها فهى القائمة الحقيقية ، أما الأخرى ــ من وجهة نظره ــ فظنية ــ واندفعوا الى ما لذ وطاب لا يلوى أحــد على شىء ... ولا يدرى أى النقيضين له الحق والبقـــاء .

الــدولة الوســطى :

ان هذه الفوضى مهمــا طالت فهى تعبر عن فترة شــاذه ضــد التيــار الطبيعى الذى يتلاءم مع وادى النيــل : تيــار الوحدة والاتحــاد . ولذلك أخــذ التفكك يقل تدريجيا حتى كاد أن ينحصــر الصــراع بين بيتين حاكمين أحدهما فى أهناسيا والآخر فى طيبة ، وظل الصراع بين البيتين حتى عقــد لواء النصــر لبيت (طيبة) وحصلت مصر على الوحدة وعلى نوع من الاستقرار على عهد الاســرة الحــادية عشــرة .

لقــد عنيت الأسرة الحــادية عشرة باســتعادة هيبــة فرعون فبذلت جهــدا ضد أمراء الأقاليم ، وظهــر فى مصر جيش خاص بفرعون حتى لا يعتمــد كلية على قوات هؤلاء الأمراء . وازدهرت الحضارة فى عهــد الدولة الوســطى ، وهى حضــارة لم تكن مركزة فى العاصــمة (على نحو مــا كان عليه الحــال فى الدولة القديمة) وانما كانت مراكز الحضارة منتشرة فى مراكز حكام الاقاليم . ونفذ فى عهد هذه الدولة مشــروع تجفيف عشــرات الألوف من الأفدنة فى الفيوم تمهيدا لزراعتهــا .

وبينما كانت الاسرة الثانية عشرة تسيطر سيطرة قوية على البلاد اذا بها تنكب بخطر لم نتوقعه وهو تسلل ثم اجتياح (الهكسوس) لمصر فى أواخر الأسرة الرابعة عشرة بالذات .

لقد كان اغماض الأسرتين ١٣ ، ١٤ العيون عن خطر الهكسوس هو الذى أعطى لهؤلاء البدو الفرصة أولا للتسلل ثم لفرض سلطتهم على البلاد المصرية حتى أنهم مدوا سيطرتهم الى أطراف طيبة التى استطاعت لبعدها أن تحافظ على استقلالها ، وهو استقلال كان غصة فى حلق الحكام الهكسوس ولذلك عملوا على توجيه ضربة تدخل طيبة — آخر معقل وطنى — فى طاعة الهكسوس فكان ذلك بمثابة بداية النهاية لهم فى مصر .

الفصل الثالث

من ذروة الحضارة الفرعونية حتى ضعفها

الـــذروة :

صمدت « طيبـــة » أمام الهكســوس ولكن لفترة من الزمان حتى قــرر الهكسوس تقويضـها ، فكافحت تحت قيـادة الفرعون سـقنن ــ رع حتى قضى نحبـه مكـافحا ليرفع من بعـده « كاموسى » لـواء الكفـاح وأخذ يزحـزح الهكسوس ويدفعهم نحو الشـمال حتى اسـتكمل احمس المهمة المقدسـة وطرد الهكسوس تماما من مصر ، بل لقد طاردهم الى مـا وراء حـدود مصـر ، فقد تعلم المصريون خلال فترة كفـاحهم الطويلة المريرة أن مسـئولية الدفاع عن بلدهم ليسـت بقاصـرة على رد العدو حتى حـدود مصر ، وانما ادرك أن تلك منطقة سـوريا يجلب على مصـر الكثـير من النكبـات . واذا كان من ضرورات السياسة حينذاك التحكم فى مفتاح مصر الشـمالى الشـرقى فقد جلب ذلك على مصر اشد المتاعب حيث كانت القوى المطلة على سوريا تدبر المؤامرات على مصـر .

ومن أبرز الجولات التى خاضتها مصر فى منطقة سـوريا ذلك الصراع الذى دار بين تحتمس الثالث والحلف الكبير الذى كان يتزعمه ملك قادش (فى الشام) وملك ميتانى وبقـايا الهكسوس هناك ، فلقنهم تحتمس درسـا قاسـيا فى موقعة « مجدو » التى تعتبر واحـدة من معـارك التاريخ الحاسـمة وبداية لظهور أول امبراطورية دفاعيـة مصرية . وأصبحت مصر بعد انتصارات تحتمس الثالث أكبر قوة فى الشرق القـديم . ولكن ابتلى البيت الفرعونى الحاكم بالاقبال على الرفاهية واقبلت أميرات دول العـراق الاسـيويات على الاقتران بفراعنة مصر وأمرائهـا وكبـار رجالها فكانت والدة أمينوفيس الثالث أميرة اسـيوية ، وكانت زوجـة أمينوفيس الرابع فاتنة من فاتنات البيت المالك فى « ميتانى » وهى نفرتيتى .

ويرى البعض أن الطبيعة الرخوة التى اتصف بهـا أمينوفيس الرابع ترجـع الى ذلك الـدم الآرى الذى ورثه عن أمـه وتشـبعت به روحـه من زوجتـه ، ولسـنا من أنصـار هذا القول . فالدم الآرى معـروف بصـلابته فى أيام مجـد (الآريين) ، وبرخاوته فى أيام التدهور . ان الرخـاوة التى أصـابت فراعنـة

مصر من عملهم هم ، من اقبالهم على الفاتنــات أميرات وجــوارى ، وليس تمثال أمينوفيس الثالث الذى صــوره الفنـان المصرى وقد تهدلت يداه الى جانبــه فى رخاوة المنهك الا ارهاصــا للضــعف الذى دب فى الدولة المصرية، فقــد أخــذت البلاد الآســيوية تخرج على مصر الواحدة بعــد الأخرى حتى أصبحت مصر مــرة أخرى مهــددة من حدودها الشــمالية الشرقيــة ، فهب « حور محب » منتقــدا وأتى من بعده ســيتى الأول ورمســيس الثانى ليعملا على توطيد نفــوذ مصر فى ســوريا . بل لقــد واجه رمسيس الثانى موقفا مشــابها لمــا كان عليه الحال فى أيام تحتمس الثالث .

فقد واجه رمسيس الثانى تحالفــا من أمراء وملوك الشرق ، ولكنه صــمم على أن يخوض المعركة وزحف على رأس جيشــه الى فلســطين ، وعند (قادش) دارت معــركة رهيبــة بدأت بتفوق واضح من جانب الأعــداء حتى أنه لم يبــق ســوى الحرس الامبراطورى الفرعونى فى المعركة . وهنــا نادى رمسيس الثانى ربه أمون متســائلا معاتبا كيف يخذله الرب فى هذه المحنــة . ولعل رمســيس الثانى أيقن أن هذا العتــاب جنبــا الى جنب العزيمة على الانتصــار هما مفتــاح الفرج ولقــد دبت فعلا فيــه وفى حرســه النخوة الوطنية وظلوا وراء جيــوش الأعداء حتى ردوها ولكن لم يهزموها .

لقــد كانت موقعــة قادش ســـجالا ليس فيهــا منتصر ولا مهزوم رغم أن الملك الفرعون صــور الأمر على أنه نصر كبير . أن الفــارق بين ما حــدث فى (مجدو) — على عهــد تحتمس الثالث ، وما حــدث فى (قادش) — على عهــد رمسيس الثــانى يكشــف عن حقيقــة هــامة هى أن الدولة المصرية القديمــة كانت قد بلغت أوج مجــدها فى التاريخ القديم فى عهــد الدولة الحديثة ، وأنهــا من بعد ذلك بدأت فى الانحــدار التدريجى . ومن أمثلة بداية الضــعف تلك الأخوة التى قامت بين الفراعنــة وملوك الحيثيين بعد قادش بينما كانت العلاقة فى عهــد الأسرة الثامنة عشرة علاقة الفرعون الســيد بأمراء تابعين يكفيهم فخرا أن يتقبــل فرعون منهم الخضوع والطاعة .

لقد كانت للدولة الحديثــة شــهرة عالية فى زمانهــا ومن بعــد زمانهــا ، كانت أســماء فراعنتهــا العظــام تملأ أســماع الدنيــا ، حتشبســوت —

تحتمس الثالث ـ اخناتون ـ رمسيس الثانى ، وكان اتساع رقعة الامبراطورية من الفرات الى النوبة قد جعلها أعظم دولة ظهرت فى التاريخ القديم حينذاك بل أعظم وأول امبراطورية .

ولكن فوق هذا وذاك قدمت لنا هذه الدولة الحديثة من فنون العمارة والنحت والأدب ما لا تزال مؤسسات العالم العلمية تحاول أن تتفهمه وتبحث عن سر تلك العظمة الابداعية التى فتحت امام الدول الكبرى من بعد آفاق العلم والمعرفة والتطور ، وهو فضل للحضارة المصرية القديمة على الحضارات التالية سجله المؤرخون القدامى وأكده المؤرخ العالمى الذائع الصيت « توينبى ».

وكانت القوة السياسية التى بلغتها مصر فى عهد الدولة الحديثة وارتفاع مستوى التنظيم الحكومى والادارى والعسكرى ، واتساع رقعة البلاد التى تسيطر عليها مصر ، كان كل هذا من العوامل الرئيسية التى أدت الى تصاعد النمو الاقتصادى فى مصر وزيادة مستويات الدخل عند مختلف فئات الشعب .

ونظرا لأن الفلاح والأرض الزراعية كانت هى المصدر الرئيسى للدخل على مستوى الفلاح العادى أو على مستوى الدولة ، فقد عنيت الحكومة بالفلاح وأرضه ، اذ كان الوزير مسئولا مسئولية مباشرة عن الفلاح ومشاكله وعلاقته بالادارة والحكومة وعن مراقبة موارد المياه والفيضان .

وكان هناك مكتب لتسجيل الوثائق ، ومن آثار المكتب امكن التأكد من وجود الملكيات على اختلاف انواعها حيث كان نقل الملكية يتطلب اجراءات قانونية وتسجيلا وتوضيحا لنوع العقار الذى تنتقل ملكيته .

وقد اختلفت أشكال الملكية فى الدولة الحديثة ، كما تطورت تبعا لفلسفة الحكم وتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفى أول عهد الدولة الحديثة كانت الملكية الفردية وأملاك الفرعون وأسرته وأملاك المعابد والكهنة هى الأشكال الرئيسية حينذاك للملكية .

كذلك كان طبيعيا أن يكافىء فرعون قواده فى أعقاب النصر الكبير على الهكسوس ، وكانت المكافأة على هيئة اقطاع من الأرض ، وكان هذا الاقطاع ينتقل الى الأبناء ، كما كانت الأسرة الفرعونية الحاكمة تمتلك مساحات

واســـعة ، كذلك كانت المعـــابد تحصـــل على هبات من الأرض متســـعة ربط بها الفلاحـــون (*)

ولوحظ ان كثيرا من تلك الهبـــات كانت عبـــارة عن أرض تحتـــاج الى اســتصلاح ، فتكون الدولة قد كافأت رجالاتهـــا وعملت على توســيع الرقعـــة الزراعية وزادت من دخلهـــا من وراء ما ســيفرض على تلك الأرض من ضرائب .

وسواء كان الفلاح مالكا لقطعة أرض محـــدودة أو يعمـــل فى أرض موقوفة على اله أو معبـــد أو كهنـــة أو فى أرض فرعون فقـــد كان يعيش حيـــاة طيبـــة نســـبيا اذا ما قيســـت بالحيـــاة الســـابقة عـــلى الدولـــة الحديثـــة أو بالعصر الصـــاوى الذى جـــاء من بعـــدها (*)

فقد كانت مظاهر الرخـــاء تصـــل الى الفـــلاح فى عهـــد الدولة الحديثـــة ، وكانت عنـــاية الحـــكام به وبارضـــه أكثر وضـــوحا ، فمن حكام بعض الأقـــاليم من شـــجع على هجـــرة الفـــلاحين الى منطقة قليلة الســـكان ، وشـــجع على استصلاح الأراضى البور « وتوزيعهـــا على المعـــدمين ســـواء بالتملك أم بالايجار أم بحق الانتفـــاع » ، ومنهم من اعفـــاهم من المتأخـــرات واوصى بتـــاح حتب ابنه بقوله : « أرض العوام فان النعم لا تكمل من دونهم » (*)

وقال آخـــر لابنـــه : « لا تزحزح العـــلامات الفاصـــلة بين الحقـــول .. ولا تعتـــدين على حقـــوق أرملة — وأرقب بنفســـك من يفعل ذلك فبيته عـــدو للبلد .. واملاكه تنتزع من أيـــدى أطفـــاله » (١) (*)

وكانت الحـــكومة فى ســـبيل الحصـــول على الضرائب من الفلاح ، تقـــوم بمســـح الأرضه قبل نضج المحصـــول حتى لا يهمل الفـــلاح فى عمله وحتى يدفـــع الضريبـــة المطلوبة (*)

وفى ســـنوات اســـتقرار الحكم كانت الضريبة تقـــدر حسب جودة المحصول وتتجاوز الادارة عن الضرائب المتأخـــرة بســـبب الكوارث الطبيعية (*)

وكانت الدولة تســـتفيد من الفلاح — الى جانب دفـــع الضرائب — فى بعض اعمـــال الســـخرة فى مشروعات الـــرى وفى المناجم وعمـــال التراحيـــل . فكان

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الأرض والفلاح ، ص ٦٤ — ٦٥ (*)

يلقى عنتــا ، وكانت هناك فعلا ادلة على معاملة الفلاح بقســوة على يد الملاك ، ولكن يجدر بنــا الا نبالغ فى هذه الصورة .

وفى العصر الصــاوى أصبحت الملكية الواســعة هى الســائدة اذ كانت فى حوزة المعــابد والكهنة والأسرات المالكة وكبار رجال الاقطــاع ، وعنــدما اصبح رجال الدين هم أصحاب الســلطة خلال القــرن الثانى عشر ق.م. وحتى منتصف القــرن العــاشر ق.م. « تداخلت أملاك الدولة مع أملاك المعــابد تداخلا كبيرا وتكتلت مســاحات ضخمة من الأراضى الزراعيــة تحت أيدى أسر الكهنة الكبرة التى توارثت كهنوت الاله أمون جيلا بعد جيل » (١) .

واخذت حكومة الدولة الحديثــة فى الضــعف ، وفقدت البــلاد التى كانت تســيطر عليها فيما وراء مصر ، واخــذت الفتن والمشــكلات الداخليــة تتصاعد ، واخــذ الاســتهتار بالمعتقــدات والتقاليــد يســتشرى ، وفى ذلك يقول احــد المصريين المعاصرين لتلك الفوضى « لقــد مرت الأعــوام العــديدة دون أن يكون للأفراد رئيس .. كانوا يقتتلون سواء من كان فيهم عظيما أو بسيطا .. الآلهــة أصبحت تعامل وكأنهــا بشر ولم يعــد هنــاك من يقــدم القرابين للآلهــة » . وتاثر الفــلاح والريف بذلك وبالتطورات التى حدثت فى شــكل الملكيات فى القرون الأخيرة من مصر القديمة وخاصة منــذ القرن الثانى عشر قبل الميــلاد عندما أصبح نظام الحكم ثيوقراطيا ليســقط هذا الحــكم على يد زعامات ليبية منذ منتصــف القرن العاشر الى أوائل القرن الثامن ق.م. تلتهــا زعامات نوبية منذ الثلث الأول من القرن الثامن ق.م. حتى منتصف القرن الســادس ق.م.

ســاعدت تلك التطورات على ازدياد عدد الملكيــات الزراعية الواســعة ، ولكن مما ســاعد على تصاعد هذا العــدد أن ضعف الأسرة الحاكمــة أدى الى ظهــور أسرات أخرى منافســة ، حتى لقــد ظهــرت فى وقت واحــد أكثر من أسرة حاكمــة ، ولكى تضمن ولاء رجالهــا ولشراء ولاء الآخــرين ، كان الأسلوب المعتــاد هو توزيع الاقطاعيــات عليهم حتى أصــبحت مصر تقريبــا موزعة الى اقطــاعات يتولاها كهنــة أو أمراء اقطاع أو عســكريون ، ونظرا لارتفاع شــأن هؤلاء العســكريين بســبب تعدد القوى المتصــارعة فى داخل البلاد فقد أكثــر

---

(١) المصدر الســابق .

الملوك من منح الاقطاعات للعسكريين وسمح لأبنائهم بوراثتها ، ومنحت لصغار الضباط اقطاعات محدودة المساحة ولكن كانت نسبيا مغرية الدخل ، وهذا يفسر لنا اقبال الرجال على العمل العسكرى للحصول على اقطاعات عسكرية ولو محدودة . ومع هذا لم تكن أراضى الكهنة او اراضى العسكريين ملكا خالصا ، وانما كانوا ينتفعون باستغلالها فقط .

وبسبب تصاعد اعداد ومساحة الملكيات الاقطاعية الواسعة كانت الاسرات تخشى على ممتلكاتها من أن تبتلعها الاقطاعات الكبيرة المجاورة وتخشى من الذوبان اذا ما طبقت عليها قواعد الميراث ، ولهذا نجد الأسرات الكبيرة تعمد الى الحفاظ على وحدة ممتلكاتها تحت نظارة الابن الأكبر وفى نفس الوقت ينتفع الأبناء بريعها ، وبذلك لا يسمح هذا الأسلوب بانتقال أملاك الأسرة الى ايد أخرى .

كان اتساع نطاق الاقطاع على تلك الصورة على حساب الملكية الفردية الضيقة وعلى حساب الملكية الحرة ، وبالتالى اصبحت حالة الفلاح فى هذا العصر تتسم بالتبعية لسادة الاقطاع واخذ الفلاح يعانى من احواله المتردية ، ولدينا عدة أمثلة على ما كان يعانيه .

١ — فقد كان الفلاح الذى يضطر الى الاستدانة يرهن ارضه « الرهن الحيازى » اى ينتقل بالأرض الى الدائن حتى يفى الفلاح بدينه ، وكان الأمر يصل الى استرقاقه .

٢ — كانت الفائدة على الدين فاحشة .

لقد لفتت الأوضاع المتردية نظر الحكومة ، وتولى المشرع المصرى (باكن رنف) — فى القرن الثامن ق.م. — علاج هذه الحالة فأصدر عدة تشريعات تقضى بالامتناع عن استرقاق المدين وحدد سعر الفائدة وان ظلت مرتفعة جدا ، وتقضى بجواز سقوط الدين اذا مرت عليه ثلاث سنوات دون مطالبة ، ولكن — كما هو عليه الحال الآن — فان « التقادم » يؤخذ به فيما بين الأفراد من قضايا مالية ولا تاخذ به الحكومة .

وبصفة عامة تميز الفلاح المصرى القديم بالتدين والصبر والقناعة ، وكان من المتعارف عليه أن الفقر ربما يكون خيرا من الثروة التى تجلب التعاسة ،

وكان ذلك من العوامل التى تدعو الى القناعة السلبية ، ولكنه فى نفس الوقت كان يقدس أرضه حتى لقد بلغ به الأمر أن أوصى بعدم بناء المساكن عليها ، وكان ينقلب الى ناقد شديد اللهجة للحكومة التى تهاونت فى حقوقه ، مثلما فعل الفلاح الفصيح (القرن ٢١ ق.م.) .

* * *

فترة الضعف والغزوات :

كانت عظمة رمسيس الثانى تتركز فى الدفاع عن الامبراطورية والابقاء على جزء كبير منها تحت يده والحفاظ على مكانة مصر الحضارية الدولية عالية . ولكنها كانت مكانة أقل من تلك التى بلغتها على عهد تحتمس الثالث . ويمكننا القول أن مصر فى عهد تحتمس الثالث وصلت الى القمة أما فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد أخذت تنحدر ، ذلك هو الفارق بين نتائج الانتصار فى (مجدو) ونتائج الانتصار فى (قادش) .

فلقد اتخذت مصر بعد معركة قادش موقف المدافع عن نفسها واخذت خلال عمليات الدفاع تتخلى تدريجيا عن ممتلكاتها ونفوذها فيما وراء مصر فى المشرق .

لقد كانت مصر فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين ، ثم فى عهد الأسرات التالية تجاهد من أجل منع الغزوات ونجحت مرة وفشلت مرة وانعكس الأمر على مكانتها فيما وراء الحدود المصرية بل وعلى استقلالها .

فتلك البلاد الآسيوية التى كانت ترجف فزعا من سماع اسم فرعون أصبحت لا تقيم وزنا لمبعوثيه . بل أصبح مبعوث فرعون محل سخرية واستهزاء حكام الشرق .

استطاع رمسيس الثالث أن يتصدى لهجمات جحافل (شعوب البحر المتوسط) ، ووجه اليهم ضربات قاصمات ، وكان نصره مؤزرا . ولكن عرف هؤلاء المهزومون كيف يطورون مواقفهم لمصالحهم ولو جزئيا . فمع أنهم قبلوا الهزيمة العسكرية الا انهم لم يتخلوا عن هدفهم وهو الاقامة والعمل والتمتع بخيرات مصر . وكانت ظروف مصر حينذاك تعطى لهم الفرصة . فقد أصبح فرعون مصر يعتمد على القوات المرتزقة أكثر من اعتماده على رجال الوطن

انفســـهم . فكان أن رحب الفراعنـــة فى بداية فترة الضـــعف بهؤلاء المرتزقة فى الجيش ليصبحوا من بعد وفى وقت قصـــير يشـــكلون القســـم الأكبر من القـــوات المدافعـــة عن مصر . ولقـــد أعطى لهم الفراعنـــة امتيـــازات هامة للغـــاية إذ اقطعوهم مســـاحات مناســـبة من الأراضى ، وتأقلم هـــؤلاء مع البيئـــة المصرية فاتخذوا من آلهـــة مصر آلهـــة لهم . لقد كســـب هؤلاء المرتزقة حيـــاة رغـــدة وان كانت خطرة ، وخسر الشـــعب المصرى أكبر خســـارة بســـبب ابعـــاد أبنائه عن أكبر مســـئولية يجب أن يتحملوها وهى الدفاع عن وطنـــه وأرضه .

ولقد تابعت الأسرات الفراعنة الحاكمـــة فى العصر المتأخـــر هذا الأســـلوب وخاصة أن المرتزقة أثبتوا فعـــلا أنهم على مهارة عالية فى اســـتخدام الســـلاح ، ولكن مرة أخرى ، مهما كانت المهـــارة عالية فلا بديل عن الانتمـــاء الوطنى وعن تحمل المواطن المصرى المســـئولية كاملة نحو وطنه .

الى جانب ان شـــعوب البحر قد اعترفت بالعجـــز أمام قوة فرعون ، وآثرت الانخراط فى خدمته ســـلميا ، فان أبواب مصر ظلت مفتوحـــة من شرق ومن غرب وجنـــوب أمام كل من يأنس فى نفســـه القـــوة ليدق بابها وليقتحمها ان اســـتطاع ذلك أو ينتهز الفرصة اذا ســـنحت .

ومن أمثلة تدفق عنـــاصر من المشرق ، ذلـــك الســـورى المدعو (آرســـو) الذى خـــدم البـــلاط حتى أصـــبح يحكم مصر ، وهزأ من معتقدات المصريين حتى ظهرت حركة وطنية مصرية مناهضـــة له .

ولقد دق الليبيون أبواب مصر وكانوا فى أول الأمر يدخلونهـــا فى أعداد كبيرة اســـتقر بعضـــها فى الدلتـــا وبعضـــها التحـــق بالجيش واســـتطاعوا أن يتولوا المناصـــب الكهنوتية الرئيسية ، ومن ذلك ســـيطرتهم على كهـــانة هرقليوبوليس وعلى كهـــانة (طيبـــة) ، وكان هذا كله ممهـــدا لأن يرتفـــع الى العرش الفرعونى أحـــد الزعماء الليبيين ، وهـــذا ما حققه (شيشـــنق) مؤســـس الأسرة الثانيـــة والعشرين .

ورغم الاتجاهات القوية الدينيـــة للأسرة الليبية الا أن كهنـــة أمون فروا من وجـــه هذه الأسرة وأقاموا لأنفســـهم مملكة عاصـــمتها (نبـــاتا) ليحافظوا على معبودهم (أمون — رع) . وأقاموا هنـــاك فى النوبة مملكتهـــم (الدينيـــة) حتى أصـــيبت الأسرة الليبية بالصراع بين رجالاتهـــا وحتى وصـــل الأمر الى أن كان

ثمانية عشر أميرا يقتتلون فى آن واحـد . بل لقد وصـل الأمر الى أن أمراء الدلتا آثروا الارتبـاط بآشـور ـ الدولة النامية فى المشرق ـ وسعت الدلتـا الى الاسـتقلال (*)

لقد كانت مصر تنحـدر ، واضطربت أمورها ، وأصبح يحـكمها من يدق أبوابها ويقتحمها ، وحاولت عبثـا أن تصـد التيـار الآشـورى . فلقد تحالفت مصر مع (هوشـع) صاحب الدولة اليهـودية فى جنوب سـوريا وما كانت هذه الدولة تريد لمصر الفرعونيـة خيرا . ومع أن مصر ردت عادية آشـور الا أن هذه الدولة الفتيـة الآشـورية لم تلبث أن اجتـاحت سـوريا وانقضـت عـلى مصر فاسـتولت عليهـا (*)

وحاولت مصر ان تتخلص من الاحتلال الآشـورى فما كان من آشور بانيبال الا أن انقض عليها وزحف بجيشه حتى (طيبـة) وقصـدها ليس فقط ليحتل هذه العاصمة الدينية القوية النفوذ الذائعة الصيت وانما ليهوى بمعاوله على المعـابد والتماثيل تحطيما ، فخـرب (طيبـة) فكان ذلك بمثابة بداية النهـاية لمكانة هذه المدينـة الدينيـة العاليـة .

ان تلك التطورات توحى بوضوح أن مصر فقدت الكثير من مقـومات القوة ، ولا شـك ان ذلك كان انعكاسـا لما كان ينخـر فى المجتمـع المصرى . فما هى العوامل التى أدت الى اسـتمرارية هذا التدهور حتى سـقطت مصر فى يد آشور ثم فى يـد الفرس ثم فى يـد الأغريق ثم فى يـد الرومان باسـتثناء فترات محدودة من الاسـتقلال (*)

هنـاك عوامـل داخليـة وأخـرى خارجيـة ولنبـدأ بتنـاول العـوامل الداخليـة :

١ ـ نلاحظ أنه منـذ رمسيس الثالث كان الغالبيـة العظمى من فراعنـة مصر ضعاف الشـخصية ، ولذلك لم يسـتطيعوا أن يضـعوا فى أيديهم جميـع الخيوط فانفلت الأمر من أيديهم (*)

٢ ـ كان من الفراعنـة الأواخـر من كان على قسـوة شـديدة بالناس الأمر الذى أفقـدهم محبـة وتقـدير الشـعب . وأبرز الفراعنـة ممارسـة للتجبـوة والفظاظة رمسيس الحادى عشر (*)

٣ — كان الصراع بين الزعامات وانقسام البلاد بين المتنافسين قد اصبح ظاهرة خطرة ، ومن ابرز الصراعات المدمرة تلك التى دارت بين (حريحور) فى الجنوب و (نسى بانب دد) فى الشمال .

٤ — ان هذا الضعف الذى اصاب المراكز القيادية ابتداء من فرعون ورجالات بلاطه وحكمه جعلهم فى حاجة الى استرضاء الكهنة اذ كان فى استطاعة هؤلاء الحفاظ ولو الى حد ما على فرعون ورجاله محترمين فى اعين الشعب .. فكان ان تدفقت الأموال على رجال الدين ، ومنحت المعابد اراضى واسعة وارتفع شأن كبار الكهنة حتى لقد صور احد الكهنة نفسه بطول فرعون وهذا ما لم يحدث من قبل .. واصبحت المناصب الكهنوتية هدفا لكل متطلع الى المال حتى لقد ظهرت كاهنات ثريات متنفذات ..

٥ — انهارت الأخلاق ، والقيم طرحت جانبا .. وساعد على ذلك الفقر الذى ساد البلاد لسنوات متتالية ، مثل تلك السنوات السبع العجاف .

٦ — وبينما كانت مصر على هذا النحو من التدهور التدريجى كانت فى الشرق وفى اوربا شعوب ناهضة ، تسلحت بالقوة الاقتصادية والقوة العسكرية المتطورة ، وكانت هذه القوى تنمو حتى تفوقت على مصر ولم تستطع مصر أن تجدد شبابها فآل الحال بها الى احتلال آشورى ثم فارسى فاغريقى ثم رومانى .

٧ — ان من يتابع محاولات مصر التصدى للطامعين ليجد ان القوات المصرية كانت مصرية بالاسم فقط اذ اصبح المرتزقة يشكلون معظم الجيش المصرى . وهذا وضع يساعد على التدهور ..

ولا شك أن استبعاد المصريين من العسكرية كان مسئولا الى حد كبير عن التدهور المتتالى الذى اصيبت به مصر منذ الأسرة الحادية والعشرين ، ومنذ ذلك العهد سيكون دور المصريين فى العسكرية دورا جانبيا فى معظم فترات التاريخ حتى تستعيد حكومة مصر رؤيتها الحقيقية لدور المصريين فى الدفاع عن بلدهم فى عهد محمد على فى القرن التاسع عشر وبشكل كامل فى عهد الاستقلال التام بعد ثورة ١٩٥٢ ..

ويلاحظ انه خلال فترة الضعف منذ عهد الأسرة العشرين نمت روح سلفية في المجتمع المصرى ، فقد دار صراع بين الكهنة والمرتزقة العسكريين ووصل الكهنة الى الحكم ، وبلغ ذلك ذروته حين تولى حرحور منصب الكاهن الأعظم ثم تولى الحكم ، وعندما انتصر الليبيون على حكم الكهنة لجأ هؤلاء الى النوبة ونمت قوتهم حتى كروا على الليبيين وطردوهم من مصر على يد (شباكا) مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين في ٧١٢ ق ٠ م ٠

كذلك تجلت تلك السلفية في العصر الصاوى اذ أخذ المجتمع المصرى في عهد الاسرات الحاكمة المتأخرة يقلد فنون وتقاليد (الدولة القديمة) فقد كانت الدولة القديمة ، في نظر المجتمع المصرى في فترة الضعف الأخيرة رمزا لعصر المجد والعزة وانها رمز للعصر الذهبى في تاريخ مصر ٠ فلقد قلدوا الكتابة في الدولة القديمة كما قلدوا النقوش ٠ ولكنها كانت سطحية عجزت عن أن تعيد ذلك المجد التليد وعن الحفاظ عن البلاد بعيدة عن الطامعين ٠



الباب الثانى

مصر تحت الحكم البطلمى والرومانى

الفصل الأول : مصر تحت حكم البطالمة

الفصل الثانى : مصر فى عهد الرومان

الفصل الثالث : المسيحية فى مصر

الفصل الرابع : المرأة فى التاريخ القديم

الفصل الأول

مصر تحت حكم البطالمة

حيث أن مراكز القوة العالمية قد انتقلت الى الدولتين الفتيتين فى فارس وبلاد الأغريق (اليونان) ، فقد دارت رحى حروب طويلة بين الفرس والأغريق كان كل منهما يريد أن يقضى على الآخر ، ويريد أن يستيطر سيطرة مطلقة على وديان الرافدين والنيل وعلى سوريا ، وأخذت كفة الاغريق ترجح حتى استطاع فيليب أن يفرض سيطرته على كل بلاد الأغريق وان يستخدم ابنه (الاسكندر المقدونى) القوة العسكرية والحضارة الأغريقية فى توجيه ضربة حاسمة الى الفرس فى موقعة أسوس (٣٣٣ ق٠م٠) ليستولى من بعد على العراق وسوريا ومصر ولتصبح مصر اقليما فى امبراطورية الاسكندر وان كانت اقليما له شخصية خاصة ٠

كان الأسكندر الأكبر فاتحا من طراز خاص ، وكان يسعى الى تحقيق مفهومه للسلام العالمى ، سلام يفرضه الأغريق ويجتذب كافة عناصر امبراطوريته ٠ ولذلك قام بخطوات جريئة فى هذا الاتجاه ولنلتقط عملين قام بهما الأسكندر — عندما زار مصر — لهما دلالة خاصة لدينا :

الأول : أنه عندما جاء الى مصر استطاع أن يكتشف قيمة ذلك الموقع الذى كانت تقوم عليه قرية راقوده (رع كوت) وهو مكان كان فراعنة مصر يضعون فيه بعض الحاميات لمواجهة غزوات شعوب البحر ، وهناك بنى الأسكندر مدينة وميناء الأسكندرية ، لتكون عاصمة لمصر (١) ، ولتكون مدينة اغريقية ، وأصبحت فعلا عاصمة البلاد المصرية ٠ وحزن الشعب المصرى كل الحزن على « منف » عاصمة الفرعونية التى تقع عند رأس الدلتا بين شطرى الوادى وكأنها القلب وجناحاه الدلتا والصعيد ٠ أما الاسكندرية فتولى وجهها نحو بلاد الغزاة ، ولقد ظلت الاسكندرية على هذا النحو خلال العهد البطلمى والرومانى والبيزنطى ٠

---

(١) أطلق على الاسكندرية التعبير اللاتينى التالى Alexandria ad Aegyptum بمعنى الاسكندرية المضافة الى مصر ٠

الثـانى : ان الاسـكندر — على مـا يذهب اليـه بعض المؤرخين — كان يشـك فى أنه ابن شرعى ، وان ذلك دفعه الى اعـلان نفسه ابنـا لآمون ، رب أرباب مصـر ، وان كانت هنـاك حقيقة وراء تلك الأسطورة فان الاسـكندر كان يدرك أن مهمته الكبرى هى أن يكسب الشـعب المصرى الى جانبه وان يكسـبه عاطفيا ، وكان يدرك أن المصرى متعلق كل التعلق بعقيدته الدينية ، العقيدة التى جعلت لآمون مكانا مقدسا فى قلوب المصـريين ، تلك العقيدة التى جعلتـه يقدس « فـرعون الاله » ، فليلائم اذا بينه وبين فرعون ، وليجعل نفسة فرعونـا الهـا حتى ولو كان ذلك متعارضا مع عقائد بنى جلدته من الاغـريق (١) فوجد فى اعـلان نفسه ابنـا لآمون حلا للمعضلة التى واجهها وهى معضـلة كراهيـة المصريين لمن يحكمهم من غير فراعنتهم ممن لا يكونون على عقيدتهم ، وذهب الاسكندر الى معبد قصى لآمون ، يقـع عنـد واحة سيوه (١) وهناك وعلى يـد كهنة آمون ، وبطريقة مـا ، خرج الاسكندر ابنـا لآمون فرعونا لمصر ، واتخذ زينـة الفراعنة وريشتى آمون المقدسـة و (الحية) حامية رع (١)

غـادر الاسـكندر مصر من بعـد ذلك ليتـابع فتوحاته صـوب الهنـد ، ليمـوت فى العـراق ولم يلبث أن تنـاحر قواده على امبراطوريتـه الواسـعة الممتدة من بلاد الاغريق الى الاناضـول وايران والعراق وسـوريا ومصـر (١)

كان بطليموس — أحـد قـواد الاسكندر — طموحا يسـعى الى أن يكون له ملك خاص به ، وان تكون مصر مملكته مستقلا بها ، فكان طبيعيا ان يصطدم بـ « بيرديكـاس » الوصى على العـرش الذى بعث بحمـلة لغـزو مصر ولطـرد بطليموس منها ، ولكنه فشل فى حملته (٣٢١ ق.م.) واصبح بطليموس صـاحب اليـد العليـا فى البلاد المصرية (٢)

كان بطليموس يرى أن مصـر قـد أصـبحت بذلك النصر ضـيعة ملكـا له ، واعتبرها جنده من الاغريق — الذين أحرزوا له النصر — بيتهم (٣)

لكن الشعب المصرى — بقاعدته الفلاحية العريضـة وبكهنـة مصـر ، ظـل متعلقـا بالهتـه ، وكان بطليموس بعيـد النظـر حين استـخدم الالهـة المصـرية لتحقيق هدفـه فادعى أن « الالة حورس أهـدى الى ابنـة » حورس الحى (أى بطليموس) كل أراضى مصـر المنزرعة (٤) وقدم له وثائق الملكيـة .. وقد خطها جميعا الاله تحوت فى السجل السماوى « مبيرة » (٥)

لم يقتصر الأغريق فى مصر على أولئك الذين جاءوا مع الأسكندر فاتحين وبقوا فيها تحت قيادة بطليموس وانما شجع بطليموس استقدام اعداد كبيرة من الأغريق الى مصر ليشدوا أزر حكمه . ولكن لم تكن اغراءات الملوك وحدها هى التى جذبت الأغريق الى أن يهاجروا من بلادهم الى مصر وانما كانت هناك عوامل أخرى أهمها أن خيرات مصر كانت وفيرة وامكانيات الثراء متعددة المجالات (•)

لقد فتح البطالمة أبواب مصر امام الأغريق للأسباب الرئيسية التالية :

١ — كان الملوك البطالمة يعتمدون عليهم فى تكوين جيش واسطول كبيرين ليس هدفهما حماية مصر البطلمية فقط بل كذلك التوسع خارج البلاد وخاصة ان البطالمة استبعدوا المصرى من العمل فى سلك الجندية وفرضوا عليه العمل الزراعى وتزويد الحكومة بحاجاتها فضلا عن أن البطالمة لم يعطوا المصريين فرصة لمناددة الأغريق الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى للاحتلال البطلمى لمصر (•)

٢ — كان لابد من اعادة تنظيم الدولة البطلمية فى مصر على الطريقة الأغريقية ، ولذلك كانوا فى حاجة الى العديد من الموظفين والفنيين الأغريق ، بل لقد قصروا الوظائف العليا فى البلاد على الأغريق دون المصريين أصحاب البلاد (•)

ويكشف لنا احد الشعراء الأغريق فى القرن الثالث ق.م. عن ثروة مصر وجاذبيتها لدى شعوب البحر المتوسط عندما تحدث على لسان عجوز تغرى فتاة شابة بأن تنسى عشيقها الذى سافر الى مصر وبأن تتجه الى فتى آخر ، فكانت تغريها بأن عشيقها لن يعود من مصر : « بهناك فى مصر يوجد كل شىء ... ثراء ومعاهد جمنازيوم وسلطات ورخاء ومجد ومسارح وفلاسفة وذهب وشباب ومعبد الأخ والأخت المؤلهين والملك الكريم ومجمع العلماء والخمور وكل ما يشتهيه الفؤاد من طيبات الحياة ونساء ايضا يفقن نجوم السماء عدا وينافسنهن فى الحسن ... » (•)

وحيث ان الأغريق كانوا عدة وعتاد بطليموس ، فجيشه منهم ، وادارته منهم ، فقد خصص لهم مدنا أغريقية يعيشون فيها حياتهم الأغريقية بنظمها

وامتيازاتها ، واصبح المصرى فى مرتبة اقل بكثير من تلك التى كان يتمتع بها الاغريقى ،. ومن هنا اصبح الفلاح المصرى وارض مصر الزراعية فى خدمة بطليموس والأغريق ».

وضع بطليموس سياسته على اساس استغلال مصر ارضا وبشرا ولصالح الأغريق ، وحيث أن الضرائب كانت المصدر الرئيسى للخزانة عمل بطليموس الأول على أن يحدد بدقة الضرائب على الأرض فقام بعملية مسح شاملة ، وقسم الأراضى الى الأقسام التالية :

١ — أرض الملك وهى التى يستغلها لحسابه .

٢ — أرض الهبات وهى التى وهبها لأعوانه ».

(أ) ارض فى حوزة الكهنة (١) ، وكانت تضم مساحات واسعة من ارض مصر قبل عصرالبطالمة ، وقد أبقاها البطالمة تحت يدهم .، ولكن اعتبروا دخلها دخلا للحكومة فأصبح الكهنة تحت رحمة الحكومة البطلمية .

(ب) اقطاعات وزعت على الجند .،

(ج) أرض منحت للموظفين .

٣ — أرض المدن التى خصصت للمدن الأغريقية ».

٤ — أراض مملوكة ملكية خاصة .

وبصفة عامة كان فى أستطاعة الملك البطلمى أن يسترد هذه الأراضى ».

ولكن النكبة الكبرى التى تعرض لها الفلاح المصرى هى أن الحكومة البطلمية فرضت الضرائب بغزارة شديدة لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا أن الهواء فقط هو الذى لم يفرض عليه البطالمة ضريبة .

وبتوالى ابتزاز البطالمة لجهد الفلاح وانتاجه أصبحت حالة الفلاح مزرية والانتاج متدهورا حتى لقد اقدم الفلاحون فى ذلك العهد على امر لم يقدموا

---

(١) كان الكهنة يدعون أن الاله منحهم ثلث أرض مصر ».

عليه من قبل وهو واد الأطفال خشية الفاقة ، وتوالى هروب الفلاحين من الأراضى ، حتى لقد هجرت قرى بأكملها والتجأ المئات من الفلاحين الى المعابد ، فرارا من مطاردة رجال الحكومة .

وازاء هذا التدهور لجأت الحكومة البطلمية الى عدة اجراءات لعلها تنقذ الانتاج من تدهور أسرع ومن أهمها :

أولا : نظرا لأن عدد المزارعين كان يتناقص بسرعة كان لابد من اعادة النظر فى قيمة الايجار حتى تصبح مغرية لهم لاستئجار الأرض والبقاء فيها وبذلك يمكن وقف تيار الهجرة وهذا ما لجأت اليه الحكومة .

ثانيا : حتى لا تواجه الحكومة مشكلة البحث عن مستأجرين جدد كلما انتهت مدة عقود الايجار لجأت الى اطالة مدة عقد الايجار والتى وصلت الى عشرين سنة الأمر الذى يعطى للمستأجر نوعا من الاستقرار ، بل كانت تعفى أحيانا السنوات الخمس الأولى من دفع الايجار ، وكان طبيعيا أن يؤدى طول مدة عقد الايجار الى نوع من العقود الوراثية ، ولكن المشكلة الاجتماعية جاءت نتيجة ذلك من حيث أن كبار المستأجرين كانوا يعيدون تأجير أراضيهم من الباطن الى الفلاحين الفقراء مما يجعل عائد الربح لهؤلاء قليلا فيؤدى بالتالى الى العودة الى مشكلة هجرة الأرض .

ثالثا : نظرا لأن الاجراءات السابقة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة عمدت الحكومة الى ارغام الفلاحين على الاستمرار فى الأرض عن طريق التعهد بالبقاء فيها « بالقسم » على ذلك .

رابعا : اتجهت الحكومة الى أسلوب الارهاب بارغام الأهالى على زراعة الأرض المهجورة ، وأدى هذا بطبيعة الحال الى أن تصبح القرية ككل مسئولية عن زراعة الأراضى المهجورة الواقعة فى زمامها ، وبالتالى أخذت الحكومة بنظرية المسئولية الجماعية عن زراعة الأرض .

خامسا : حثت الحكومة كبار الملاك بل عمدت أحيانا الى ارغامهم على زراعة الأراضى المهجورة .

حقيقة نمت موارد خزينة البطالمة على حساب الفلاح المصرى ، ومولت

ثروة مصر جهود البطالمة العسكرية للسيطرة على سوريا ضد منافسيهم وبنى عمومتهم السيليوكيين اليونانيين ملوك سوريا ، وتعب البطالمة ووهنت قوتهم ، ولم يعد الاكتفاء بالجند الأغريقيين كافيا للدفاع عن مصر وسوريا مما اضطر الملك البطلمى لان يشرك المصريين فى الجيش .

ولكن ثقة الملك البطلمى وادارته كانت فى الأغريق ، وكانوا يعدون الجندى المصرى — للقيام بأعمال عسكرية على نفس المستوى الذى يقوم به الجندى الأغريقى بأسلحة قديمة تجعله عديم الجدوى أمام الفرق الأغريقية ذات التدريب العالى والكفاءة لخوض غمار الحروب . ولكن تطورات الصراع بين الملك بطليموس الرابع وعدوه انطيوخوس حول السيطرة على سوريا ارغمت الملك البطلمى على ادخال تعديلات جوهرية على سياسة البطالمة التقليدية فى التجنيد .

وفى هذا يحدثنا مؤرخ مصرى :

« لاحت بوادر الهزيمة التى تنتظر بطليموس الرابع عندما تمكن انطيوخوس من الاستيلاء على سليوكيا على نهر العاصى عام ٢١٩ ق.م .

وعندما خان ثيودوتوس مولاه البطلمى فانضم الى عدوه السيليوكى ، وسلمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية ، ولم تكن قوات بطليموس الرابع ملك مصر ذات قيمة فطلب الهدنة ، ومن ثم حدث تطور خطير فى نظام الجيش البطلمى ، ذلك أن المصريين ادمجوا فى صلب الجيش وسلحوا بالأسلحة المقدونية ، وعندما دارت رحى القتال من جديد انتزعت القوات المصرية من انطيوخوس نصرا مؤزرا فى رفح سنة ٢١٧ ق.م .

ادرك المراقبون للأمور حينذاك ان تطورا خطيرا قد وقع .. فالمصريون بعد موقعة رفح قد اصابهم الزهو وأصبحوا لا يطيقون حكم أولئك الأغريق لهم وتطلعوا الى وطنى يقودهم فى حرب تحررهم من الحكم الأجنبى »

لقد كان انتصار الملك البطلمى بالسيف المصرى يعنى أن انقلابا سياسيا واجتماعيا قد وقع ، فلم يعد المصريون ادوات فى يد البطالمة وانما اصبحوا قوة لها شأنها ، قوة تنتصر ، وبالتالى تطلع المصريون الى الحصول على حقوقهم من هؤلاء الأغريق الذين اغتصبوا بلادهم وادعوا انهم فراعنة وما هم

بفراعنة ». ولم يقابل البطالمة تضحيات المصريين بما يناسبها حيث أعطى الجندى المصرى من الأرض ما يتضاءل بجانب ما كان يعطى للجندى الاغريقى .
وجاء هذا مع ضعف الحكم البطلمى وتدهور اقتصاديات البلاد ، فاخذت الثورة تدب بين المصريين وخاصة أن البطالمة — مع أنهم اتخذوا القاب الفراعنة وآلهة المصريين القدماء — لم يكونوا فى أعين المصريين سوى دخلاء محتكرين خيرات مصر لهم ، والنزر اليسير للمصرى ، فقلة قليلة جدا من المصريين كانت تحصل على اقطاعات بينما كان يعطى للأغريقى مساحات أكثر اتساعا ، فضلا عن الامتيازات الأخرى (٥).

وقد بدات ارهاصات هذه الثورة الوطنية ضد الحكم البطلمى فى عهد بطليموس الثالث (٢٤٦ — ٢٢١ ق.م.) اذ انتشرت بين الناس « نبوءة صانع الفخار » تلك النبوءة التى تعود — على ما يدعيه مروجوها — الى عهد الملك امينوفيس احد ملوك الأسرة الثامنة عشرة درة اسر مصر الفرعونية .
وفى الواقع أن هذه النبوءة صيغت مادتها فى عهد بطليموس الثالث ونشرت بين الناس حينذاك لحث الشعب المصرى على الثورة ، واغلب الظن أن مروجى هذه النبوءة عمدوا الى القول بأنها ترجع الى زمن الأسرة الثامنة عشرة حتى يعطونها صفة التقدم والعراقة والدقة فى التنبؤ ، ولعل مروجى النبوءة أرادو احياء ذكرى تلك الأسرة ذات المجد الفرعونى الرائع لتكون نموذجا يسعى المصريون الى الاقتداء به .

وتقول هذه النبوءة أن ذلك الصانع توقع أن تتعرض مصر لغزو خارجى ويحتلها الأجنبى ، وتعانى منه حتى يظهر من ابناء مصر من يخلصها منه ، وتعود الآلهة من تلك المدينة المطلة على البحر (يقصد الاسكندرية) الى « منف » فتعود اليها البهجة .

ونبوءة اخرى تقول أن مصر التى عانت من الأجانب الفرس ثم الأغريق ستحظى بالخلاص بعد وقت غير طويل على يد وطنى من أبناء اهناسيا المدينة .

ان تعدد ظهور مثل هذه النبوءات يؤكد لنا ان الثورة كانت تتأجج فى الصدور ، وكان من الطبيعى ان تظهر مثل هذه النبوءات فى الاسكندرية ،

بالذات التى كانت مدينة قد أسست للاغريق الذين عاشوا فى ترف على حساب عرق المصرى الذى كان فى نظر البطالمة فى مرتبة أدنى من الاغريقى . واصبحت الاسكندرية فى نظر المصريين رمز الاحتلال وتسلط الأجنبى ، بينما كانت منف رمز الحرية والاصالة . وكان كهنة مصر يتألمون كلما نفذوا أوامر البطالمة التى تقضى بأن يقوم هؤلاء الكهنة بزيارة الاسكندرية مرة فى كل عام ، وكانوا ينتظرون اليوم الذى تصبح فيه آلهة مصر القديمة هى المعبود فقط فى البلاد وليست تلك الآلهة الممسوخة التى جلبها معهم البطالمة او التى حاول البطالمة ان يشبهوها بآلهة مصر .

فلقد ادعى البطالمة ان كبير البوليبيوس ليس سوى آتون ، وأن افروديت هى حتحور وأن ابوللو هو حورس ، وعمد البطالمة الى الاله أوزير أبيس ، فجعلوا له اسما يونانيا اسموه سيرابيس واعطوه هيئة زيوس الاغريقى حتى يكون مقبولا من المصريين والاغريق فى آن واحد ، وعبده الاغريق ، وجعلوه معبود مصر البطلمية الرسمى ، ولكن هذا المعبود لم يحترمه المصريون الا بعد تدهور الحكم البطلمى والا فى عهد الحكم الرومانى . وما كان هذا التحول الا لأن الاله استعاد شكله المصرى القديم .

لقد كانت الثورة المصرية تعتمل فى الصدور ولم تتحول الى العمل الايجابى الا بعد أن انتصرت فى موقعة رفح ٢١٧ ق.م. فقد أصبح جليا أن المصرى هو قلب القوى المدافعة عن مصر ، وأن ما يحصل عليه من اقطاعات من يد الحاكم البطلمى لم يكن سوى استرداد جزء من حقوق كثيرة مهضومة . فمع أن البطالمة بعد موقعة رفح زادوا من عدد الاقطاعات المخصصة للمصريين الا أن ذلك لم يخفض من تيار الثورة المتصاعد بينهم ، واخذت هذه الثورة عدة اشكال .

١ — فقد هاجم الثوار المصريون كبار الملاك من المصريين واراضيهم ، وكذلك هاجموا بعض المعابد المصرية وممتلكاتها ، وما كان هذا الا لأن هؤلاء كانوا يمالئون الحاكم الأجنبى البطلمى .

٢ — ثارت بعض المدن المصرية واغلقت ابوابها على نفسها ، واضطر الملك البطلمى الى حصارها واخضاعها بالقوة ، ولكن خلال هذا الحصار لاحدى مدن الوجه البحرى كان البطالمة فى موقف ضعيف حيث لجأوا الى

اغراء الثوار المصريين باسترجاع املاكهم لو انهوا ثورتهم ، ولقد طالت الثورة وارهقت الحكم البطلمى حتى قضى عليها بالحديد والنار .

٣ - رغم ما اصاب طيبة - القلعة المصرية الأصيلة - من تدهور عبر عصور الاحتلال الأجنبى الا انها بذلت جهودا ضخمة فى مناواة البطالمة ، وكانت ثورتها فى ايام بطليموس الخامس عنيفة بلغت حد اعلان الاستقلال (١٨٥ ق.م) ، ولربما تلقت طيبة خلال ثورتها هذه دعما من ملوك النوبة الذين كانوا يعتبرون انفسهم ورثة وحماة الحضارة المصرية وبالتالى المسئولين عن تحرير مصر من الحكم الأجنبى البطلمى .

صورة أخرى من صور المقاومة المصرية تكشف لنا عما أصاب المجتمع المصرى السكندرى من تطور هام بعد موقعة رفح (٢١٧ ق.م.) فعلاوة على تزايد اعداد المصريين فى الجيش البطلمى ، وتصاعد اعدادهم فى ادارة الوظائف ووصل بعض كبار مثقفى المصريين - ممن تافرقوا ثقافة واحتفظوا بمقوماتهم الوطنية - الى مناصب عالية مثل ديونيسيوس بيترابيس الذى كانت له شهرة فى منتصف القرن الثانى ق.م. والذى استغل منصبه الرفيع الذى وصل اليه فى البلاط الملكى من اجل الوقيعة بين اعضاء الاسرة الحاكمة البطلمية المتطلعين الى العرش . فقد وقع فى ايامه صراع على العرش بين اخوين من البيت البطلمى فعمل على ان يضرب هذا بذاك حتى يصفى كل منهما الآخر ، وليضرب هو ضربته النهائية فى الوقت المناسب ، ولكن اكتشف الأخوان البطلميان الخطة فى وقت مبكر فاتفقا فقضيا على ثورته .

لقد اصبح البطالمة فى أواخر عهدهم اعجز من ان يواجهوا القوة الكبرى الفتية - ونعنى بها الدولة الرومانية - التى مدت سيطرتها على بلاد الاغريق انفسهم (اليونان) ثم آسيا الصغرى (الاناضول) وسوريا ، وأخذت تدق أبواب مصر واصبحت ذات نفوذ قوى حتى فى داخل البلاط البطلمى نفسه .

وبمرور الوقت اخذت الحضارة المصرية والغلبة الشعبية المصرية تدفع بالاغريق الى التأقلم فى مصر على الطريقة المصرية فلقد تشبه البطالمة بالفراعنة وبنوا معابدهم على النسق الفرعونى وكذلك تأثر الاغريق المنتشرون فى البلاد .

بالمجتمع المصرى ، فنجد بعض الاغريق يتزوج من مصريات وبعض المصريين يتزوجون من اغريقيات . وكان هذا يعنى امتصاص المجتمع المصرى الأعداد كبيرة من الاغريق . وعلى العكس كان عدد المتأغرقين من المصريين محدودا .

حقيقة كان هناك عدد من المصريين استطاعوا عن طريق اخذهم بالحضارة الاغريقية وباللغة اليونانية أن يصلوا الى مناصب رفيعة فى الحكومة البطلمية ، ولكن ذلك كان من الأمور القليلة المحدودة الانتشار .

كانت كليوباتره السابعة هى آخر من حكم مصر من ملوك البطالمة ولقد تجمعت فى عهدها مثالب العهد البطلمى فى مصر ، فلا غرو أن كانت سياساتها الخارجية والداخلية معقدة ومتأثرة كل التأثر بالأوضاع السياسية والاجتماعية والعسكرية التى عاشت فيها .

وجدت كليوباترا نفسها أمام مشكلة التطاحن على العرش ، وكان منافسها عليه أخوها ، وكانت روما قد اصبحت فعلا — من قبل ذلك — حكما بين المتنافسين على مصر من ابناء الأسرة البطلمية ، جاء يوليوس قيصر — الامبراطور الرومانى الى مصر ، واستطاعت كليوباتره — الصبية الفاتنة اللعوب الذكية — أن تأسر قلبه ، وأرتقت العرش وانجبت من قيصر ابنهما قيصرون وأشركته معها فى الحكم دون أخيها وزوجها .

ولكى تكسب ود الشعب المصرى أمعنت اكثر فى اتخاذ المظاهر الفرعونية ، فلم يقربها ذلك الى قلوب المصريين ، بل تراجعت شعبيتها بين اغريق مصر لما كان يكنه هؤلاء الاغريق من كراهية للرومان وللمصريين على حد سواء فساءهم أن تميل هذه الملكة البطلمية اليهم ، وساءهم أكثر تلك العلاقات التى كانت بينها وبين يوليوس قيصر ثم بينها وبين انطونيوس القائد والسياسى الشهير المنافس القوى لغريمه اكتافيوس على وراثة حكم يوليوس قيصر فى روما .

فلقد استهوت كليوباترة انطونيو وتحالفت معه ضد اكتافيوس ، وكانت تأمل فى أن نصرا على اكتافيوس لن يبقيها على عرش مصر فقط بل يفتح لها آفاقا واسعة فى الامبراطورية الرومانية . ولكن اغريق مصر جند

كليوباترة كانوا قد أصيبو باهتزاز فى الولاء لملكتهم للاسباب التى سبق الاشارة اليها . كذلك كان جند انطونيو من الرومان مستائين من تلك العلاقة بينه وبين تلك الملكة البطلمية التى تحارب واحدا من أفذاذ الرومان (اكتافيوس) ، فكان طبيعيا أن تدور الدائرة على انطونيو وكليوباترة وانتحر انطونيو ، وكانت كليوباترة تدرك انها لو وقعت اسيرة فى يد اكتافيوس فانه لن يتورع عن جرها بالسلاسل خلف ركابة وهو يدخل روما مزهوا بانتصاره ، فآثرت أن تنتحر :

عمدت كليوباترة الى الانتحار بالصل المقدس (الحية) حامية « رع » رب أرباب مصر الفرعونية فكان مصرعها على هذا النحو مثيرا لشاعرية احمد شوقى فرأى فى ذلك نهاية لبطلة مصرية فرثاها فى روايته الخالدة « مصرع كليوباتره » قائلا :

بنتى رجوتك للضحية والفدى
فوجدت عندك فوق ما انا راجى
سيقول بعدك كل جيل منصف
ذهبت ولكن فى سبيل التاج

واذا كانت كليوباتره قد تشربت من المصريين ، واذا كانت ماتت بالصل المقدس ، فانها عاشت اغريقية بطلمية وماتت كملكة بطلمية .

***

الفصل الثانى

مصر فى عهد الرومان

حقيقة أصبحت مصر ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية ، الا ان اكتافيوس عاملها وكانها ضيعة له ، ورفع يد اية سلطة مسئولة اخرى من توجيه امورها وكان ابلغ مظهر لذلك انه استبعد حق مجلس الشيوخ الرومانى (السناتو) (١) من الرقابة عليها .

ولكى يضفى اكتافيوس على سياسته هذه نوعا من الشرعية ادعى انه لم يكن للبطالمة حق ما فى مصر ، وانما هو — أى اكتافيوس — صاحب الحق فى وراثة ملك الاسكندر الأكبر (٢) ، بل وبدا كان اكتافيوس ملك الملوك وارث الهلنستية .

بعد فتح الرومان لمصر اصبحت الادارة العليا والفرق العسكرية الرومانية مظهر السيادة الجديدة . واخذت اعداد الرومان — من بعد — تتزايد فى سلك الادارة وفى المجالات التجارية ، وتراكمت فى أيديهم رءوس الأموال حتى اشتغلوا بقرض الأموال لمحتاجيها . وغالبا ما كان الجندى الرومانى الذى ينجح فى تجارته واعماله يفضل الاقامة فى مصر بعد تسريحه من الجيش ، وخاصة انهم كانوا يتزوجون ويبنون اسرات محلية . وقد شجعت الحكومة الرومانية الرومان فى مصر على شراء الأرض واستصلاحها الأمر الذى يزيد الانتاج ويربط الرومانى بمصالحه فى مصر والحفاظ عليها ولاية رومانية .

ونظرا لما كان يتمتع به الرومان من مكانة اعلى من اية طبقة اخرى

---

(١) Sennato

(٢) قارن ذلك باستنكار نابوليون بونابرت — عندما جاء الى مصر على راس الحملة الفرنسية فى ١٧٩٨ — حق المماليك فى مصر مطالبا اياهم بابراز حجة — اذا كانت هناك حجة لديهم — تعطيهم حق احتكار خيرات مصر لأنفسهم .

ونظـرا لتمتعه بالامتيـازات المخصصـة له كصاحب « مواطنة كاملة » ، كانت فرص الاثراء امامه أوسـع فقد كان معفى من « ضريبـة الرأس » ومن الخدمات الاجبارية ومن تكاليف السـخرة (١) .

وحيث أن الأرض هى المصدر الرئيسى للثروة ، وهى التى يمكن باسـتغلالها ملء الخزانة الحـكومية ، عملت السـلطات الرومانية على وضـع يدها على أكبر مسـاحة ممكنة منهـا ، وبصـفة أوليـة على ما كان تابعـا من هـذه الأراضى للدولة ، ثم وضعت يدها على الأراضى التى هجـرها الفـلاحون .

أما الأراضى الواقعة فى دائرة « الملكية الخاصة » فقد شـجعوها ، وشجعوا بصفة خاصـة ــ الجنـد الرومان على شراء الأرض ، ويلاحظ أن معظـم هـذه الأراضى التى اسـتحوذ عليهـا الرومـان كملـك خـاص كانت فى حاجـة الى الاسـتصلاح كمـا كان للحكومة الرومانيـة دور هام فى تسـهيل حصول كبـار رجـال الادارة على مسـاحات واسـعة من الأراضى القـابلة للاسـتصلاح ــ عرفت باسـم « الوسـيات » ــ وفرضت عليهـا ضرائب مخفضة ، ولعـل هذه الاتجـاهات كانت تسـتهدف بشـكل رئيسى زيـادة رقعـة الأرض الزراعيـة المنتجة : ويبدو أن هذا الاجراء الأخير لم يثمر الثمرة المرجـوة فاسـتردت بعض هذه الأراضى من كبـار الملاك .

ولكن ، على وجـه العموم ، أدت السياسـة الاقتصـادية الرومـانية الى ارتفـاع عـدد كبـار الملاك وزيادة مسـاحة الأرض التابعـة لهم ، بينما كانت أحوال صـغار الملاك فى تدهور بسـبب الأزمات الاقتصـادية وتزمت الادارة فى جمع الضرائب ، حتى لقد اضطر كثير من صـغار الملاك الى أن يضعوا انفسـهم تحت حمـاية كبار الملاك .

على أن واحـدا من أهم أهداف الادارة الرومانيـة هو أن تنتج مصر اكبـر قـدر من المـواد الغذائيـة ، وكان ذلـك يتطلب اسـتقرارا فى أوضـاع مصر الاجتماعية . ولكن التركيب الاجتماعى فى مصر كان متعددا ، فالمصريون يشـكلون الأغلبيـة السـاحقة من سـكان البـلاد ، بينمـا كان للاغـريق مدنهم وأوجـه نشـاطهم ، وكذلك كان لليهود جاليتهم الكبيرة نسـبيا . ولم يكن هنـاك انسجام

---

(١) أحيانا كان يسند الى الجند الرومانى مسئولية شق وتعبيد الطرق وحفـر القنـوات .

بين هذه العناصر الثلاثة ، ومن ثم كان من مسئوليات الادارة الرومانية وضع نظام يكفل خضوع الجميع للحكم الرومانى وتوجيه القرارات نحو تنمية اقتصاديات البلاد لصالح الامبراطور والامبراطورية .

وسنتناول فيما يلى أوضاع وتطورات كل من المصريين والاغريق واليهود خلال الحكم الرومانى .

***

كان تعداد مصر فى العصر الرومانى حوالى سبعة ملايين نسمة ، منهم حوالى المليون يهودى ، هذا فضلا عن اغريق المدن الاغريقية وغيرها . وكانت اعداد من الاغريق واليهود تعيش فى ريف مصر ، كما كانت هناك أعداد من المصريين تعيش فى المدن الاغريقية ولكنها كانت محدودة جدا .

كان اكتافيوس يدرك الدور الثورى المصرى ضد الحكم البطلمى حتى سقط ولذلك وضعت سياسة الرومان ازاء المصريين على الأسس التالية :

١ — أن لا يعطى للزعامة المصرية فرصة ما لقيادة الشعب فى ثورة تحررية .

٢ — أن يحترم العقيدة المصرية التى تؤمن بها القاعدة الشعبية المصرية .

٣ — ان يوجه الفلاح المصرى الى الانتاج الزراعى بكل طاقاته .

كان اكتافيوس على بينة من مكانة العقيدة لدى المصرى ومدى تعلقه الكبير بالمفاهيم الفرعونية الدينية . ومع أن اكتافيوس كان لا يتقبل هذه المفاهيم عقائديا ويستنكر الممارسات الدينية الفرعونية الا انه كان حصيفا حين أظهر غير ما يبطن ، بل وتابع السياسة التقليدية الرومانية نحو العقائد الدينية ، وكانت سياسة تأخذ بمبدأ حرية العقيدة والعبادة .

عمل اكتافيوس على ارضاء النزعة الدينية لدى الشعب المصرى ، واحترم ويجل الآلهة الفرعونية فشيد لها المعابد ، بل وبدا للشعب المصرى وكأنه فرعون (١) . وعمل اكتافيوس هذا ليس بجديد اذ سبقه

---

(١) قارن بين الرومان والاغريق البطالمة من حيث الأخذ بالعقيدة الفرعونية فقد تشبه البطالمة بالفراعنة وحاولوا التوفيق بين العقائد والآلهة لدى كل من المصريين والاغريق .

اليه البطالمة ». ولكن لم ينطلق اكتافيوس ومن جاء بعده فى التيار الفرعونى (١).

ان يبجل الامبراطور الرومانى الآلهة الفرعونية شىء ، وأن تكون هناك فرص امام الزعامات الدينية لقيادة الشعب فى حركة تحريرية شىء آخر «» ولذلك عملت السلطات الرومانية على عهد اكتافيوس على سلب الكهنة قدراتهم ». فاقدمت على ما يشبه التأميم لأراضى المعابد ، واصبحت مناصب الكهنة تعلن فى مزاد ، وان كان بعضها وراثيا ، ورغم محاولات الكهنة لاستعادة مكانتهم ولقيادتهم بعض الحركات التحررية ، فان عهد الكهنة كان قد مضى او كاد ». فلقد توالى ظهور الديانات السماوية ، واضعف البطالمة ثم الرومان من حيوية العقيدة الفرعونية الدينية ، وقلموا اظافر رجال الدين المصريين حتى لقد فرضت السخرة على بعضهم فأخذت هيبتهم تضيع ، ولعل قيادة الكهنة لبعض الثورات الوطنية المصرية — فى العهد الرومانى — كانت الومضة الأخيرة او قبيل الأخيرة لهذه الطائفة التى ملأت اسماع التاريخ بالفكر والأحداث ».

أما المصرى العادى فقد عاش تحت حكم رومانى لا يختلف عن سابقه من حيث اعتبار المصرى فى مرتبة ادنى من كافة الأقليات الحاكمة (الرومان) او المتميزة (الاغريق واليهود) . كان هؤلاء عليه يستكبرون ، ولقد كانت فعلا مستوياتهم الثقافية أعلى من مستواه ». فلم يعد المصرى يشغل الوظائف ، ولم تكن له مؤسسات تدافع عن حقه ، وما كان لأصواتهم أن تصل الى اذن مسئول ». وركن الى بيته الحقير ، والى الأرض يزرعها وينتجها ليقيم أوده ، ان استطاع ، ويقدم محصوله للغاصبين «».

كان انتاج مصر وفيرا جدا من القمح ، ليس لأصحاب البلاد الحقيقيين وانما لسد حاجة روما المتزايدة منه ، حتى لقد اعتبرت مصر مخزن قمح روما ، وكان اذا بيع انتاج مصر فى الأسواق الخارجية على يد الأجانب كان يباع بأربعة أضعاف قيمته فى البلاد «».

أصبح قمح مصر سلعة استراتيجية ، اذ كان أداة يستخدمها المطالبون بالعرش الامبراطورى ، فمن كان منهم يضع يده على مصر وقمحها يستطيع

(١) قارن هذا بمحاولة نابوليون بونابرت التظاهر بانه مسلم «».

أن يجبع روما فيحرج مركز خصمه وربما تغلب عليه . وظلت مصر وانتاجها على هذه الأهمية الاقتصادية معظم التاريخ الرومانى ، ففى أواخره أخذ انتاج مصر يقل ويتدهور حتى أصبح المنتج منه يكاد يكفى البلاد ولا يسمح بالتصدير ، وحتى فقدت مصر قيمتها الاقتصادية فى هذا المجال بالنسبة للرومان الذين اتجهوا الى جلب حاجاتهم من القمح من افريقية (تونس) (*) .

وهناك عدة أسباب وراء ذلك التدهور فى انتاج المواد الغذائية وخاصة القمح :

١ — اتبعت الادارة الرومانية أساليب غاية فى القسوة حتى تجمع أكبر قدر من أموال الضرائب . ومن هذه الأساليب .

(أ) اتباع المسئولية الجماعية ، وهذا يعنى أن القرية كانت تعتبر فى نظر الادارة الرومانية وحدة ضرائبية يجب أن تدفع ما هو مقرر عليها بحيث يتحمل الموجود فيها دفع ضريبة الغائب عنها ، أو المتقاعس عن دفع الضريبة . فهدف الادارة الرومانية هو توريد المبلغ المقرر الى الخزينة بأية وسيلة . حتى لقد بلغ بالادارة الرومانية ان نبشت قبر الفلاح الذى يموت دون دفع ما عليه من ضرائب ، وتظل جثته فى العراء حتى يضطر أهله الى تسديد ما كان عليه (*) .

(ب) أما من كان يفر من الفلاحين من أرضه وقريته لعجزه عن الدفع فكانت الادارة تحبس أفراد أسرته كبارا كانوا أم صغارا حتى يعترفوا بمكان اختفائه (*) .

(جـ) كان الفلاح الأجير فى حالة ضنك شديدة ، اذ كان اجره زهيدا ، ثم انه كان مطالبا بأعمال سخرة مرهقة ، كانت تفرض عليه وعلى ماشيته . فضلا عن ارتفاع القيمة الايجارية للأرض (*) .

(د) كانت الضرائب المفروضة على المصرى أضعاف ما كان يدفعه غيره من الاغريق واليهود ، حقيقة كان الاغريقى معفى من ضريبة الرأس بينما كانت مفروضة على اليهود الا ان مجالات العمل والاثراء كانت متوافرة لليهودى (*)

(هـ) كان المصرى محتقرا من الفئات الثلاث المتميزة (الرومان والأغريق واليهود) ، وكان يعاقب بغير ما يعاقب به أفراد تلك الفئات ، الأمر الذى

يفقد الدافع الذاتى للانتاج . وحتى بعد ان اصدر الامبراطور كاركالا تشريعا يمنح سكان الامبراطورية الاحرار حق « المواطنة الرومانية » فتساوى المصرى نظريا مع الرومانى والأغريقى واليهودى ، الا ان ذلك فتح على المصرى أبواب ارهاق جديدة مثل التجنيد فضلا عن ان هذا التشريع زاد الاعباء الملقاة على كاهل المصرى .

٢ — تدهور نظام الرى فى البلاد ، وادت الثورة الاجتماعية اليهودية (١١٥ — ١١٧ م) الى مصرع جموع من الفلاحين — الذين عجزوا عن التصدى بسلاحهم للعاصفة المدمرة اليهودية — وبارت مساحات شاسعة من الأراضى واحرقت العديد من القرى . ففقدت مصر جزءا من قدراتها الانتاجية .

٣ — فشلت أساليب الدولة فى تحسين أحوال الفلاحين لافتقارها الى الرؤية الواقعية . ومن ذلك ان الادارة الرومانية وزعت على الفلاحين أراضى تحتاج الى استصلاح ، ولكن من اين ياتى الفلاح براس المال اللازم لعملية الاستصلاح هذه . كذلك لم تجد التشريعات التى اصدرها الامبراطور سبتيموس سفروس التى قضت بانشاء مجلس محلى فى كل عاصمة من عواصم المحافظات (٢٠٠ م) بقصد اشتراك كبار الملاك فى المسئوليات الادارية .

لقد كان طبيعيا ان يلجأ الفلاح المصرى الى اسلوبه التقليدى السلبى فى مقاومة الادارة الرومانية الغاشمة ، ونعنى بذلك الفرار من الأرض وهجرة الريف والرحيل اما الى المدينة — لعله يضيع فى زحمتها — أو الى الاحراش والمستنقعات لعله يغيب عن أعين الجند . وربما استطاع أن يقاوم بنجاح ان هاجموه .

ولقد حدث فعلا فى الربع الأخير من القرن الثانى الميلادى ان فرت جموع غفيرة من الفلاحين من قراهم الى المستنقعات الموحشة فى شمال الدلتا ، وجمعت بين نفوسهم روح الثورة على جبروت الحكام الاجانب ، وجاءتهم زعامة وطنية حبيبة الى نفوسهم متمثلة فى كهنتهم الذين كانوا بمثابة الرمز الحى لحضارتهم المصرية الفرعونية .

تحركت الثورة عارمة ، وتصدى جموع المصريين للفرق الرومانية المتفوقة فى السلاح وفن القتال . ولقد نجح الثوار فى صد الحملات الأولى ولكنهم عجزوا عن الاستمرار فى القتال (١٧٢ م) .

والحق ، ان هزيمة الثوار المصريين لم تكن نتيجة لذلك التفوق العسكرى الرومانى فقط بل كانت أيضا بسبب ما كان يعانيه المجتمع المصرى من ضعف انعكس على الثوار فاعطى الفرصة للرومان لشق الحركة الثورية من الداخل ، فكان ان قضى عليها (٠)

ومع ذلك ظلت روح المقاومة حية فى المصرى ، فكان مستعدا لدعم القوى المناهضة والمعادية للرومان (٠) وهنساك فى أقصى الجنوب كانت القبضة الرومانية قوية احيانا واحيانا أخرى واهية (٠) ولكن الضعف العام فى الامبراطورية كان ينعكس أكثر ما ينعكس على الأطراف النائية مثل بلاد النوبه .

فلقد نمت هناك فى النوبة قوة عسكرية ضارية نجحت فى ان تكيل للرومان ضربات موجعات متتاليات على مدى عدة قرون من الزمان امتدت من الثالث حتى القرن الخامس سواء عندما كان النوبيون على وثنيتهم البدائية أو بعد ان تحولوا الى المسيحية (٠)

ومع ما كانت تصحبه هجمات النوبيين من تخريب وتدمير لقرى مصر ، فقد أخذ المصريون جانبهم ، وشدوا أزرهم ضد الغاصبين الرومان (١) ، وبالتالى أصبح الرومانى يعيش هناك على أرض معادية (٠)

ولنا هنا وقفة مع القدرات المصرية القتالية ضد الغاصبين ، فنلاحظ انها كانت تنتقل من ضعف الى ضعف (٠)

● فقد شعر المصرى بعد انتصاره فى موقعة رفح (٢١٧ ق٠م) انه لا يقل مقدرة عن الأفريقى المغتصب ، فامتشق المصرى الحسام ، وشن الثورة بعد الثورة ، فلم ينجح فى اسقاط الحكم لصالحه ، وانما تفتحت الأبواب امام مغتصب جديد (الرومان) (٠)

● كانت ثورات المصريين على الحكم الرومانى ضعيفة ٠ لم يثر المصريون فى الفترة الأولى من ذلك الحكم ربما بسبب نوع من الرخاء تمتعت به البلاد حينذاك .

---

(١) قارن ذلك بموقف بعض الزعامات المصرية — مثل محمد عبده — من الثورة المهدية فى السودان ، اذ بعد هزيمة الثورة العرابية على يد الانجليز تطلع محمد عبده الى انقاذ مصر على يد المهديين السودانيين (٠)

ولكن عندما اجتـاحت الفوضى الدموية للثورة اليهودية مصـر (١١٥ — ١١٧ م) تشكلت قوة مسلحة مصرية لم تثبت جدارتها فى القتال (*)

● عندما تجمعت عناصـر الثورة المصـرية فى احراش الدلتـا الشـمالية ، كانت تحتمى بالاحـراش ، وليس بالشـعب وشـقها الرومان من الداخـل ولم يهزمهـا السـلاح فقط (*)

من وراء كل هذا يمكننا القول ان الخط البيـانى للقدرات التحررية المصـرية كان نحو الهبوط ولكن الى حين (*)

لقـد جـاء التدهور الاقتصـادى وذلك الخـور فى العزيمـة فى وقت كانت فيه مقومات مصر الحضارية القديمة تنهار ، فاللغـة العامية الديموطيقية اصبحت هى السائدة . ومع ان عبادة الآلهة المصـرية العريقة قـد عادت مرة أخـرى الى البروز فى بعض المواقع ،مثل عبادة اوزيريس وسبك . ومع أن المصريين تخلوا عن عبـادة الاله المسخ البطلمى سيرابيس وعبدوه فى صـورته المصرية ، الا ان ذلك كان الومضـة الأخيرة فى الحضـارة المصـرية القديمة التى كانت تلفظ أنفاسـها واجهزت عليها المسيحية عندما انتشرت فى البلاد (*)

امـا الأغـريق فقد هبطوا الى المرتبـة الثانية — بعـد الرومان — وفقدوا عزة الحكم والسيادة ، ويتعجبون من هذا الزمن الغدار الذى يجهـل الحضـارة اليونانيـة الراقية تحت أقـدام هؤلاء الرومان ، ويبحثون عن مخـرج لهم من هذه النكبة ، ومـا كان لهم من سـبيل الى ذلك . ولكنهم كانوا ينتظرون فرصـة مـا تسـنح لهم لاسـتعادة اليـد العليـا فى البلاد (*)

ونظرا لأن المدن الاغريقية كان لهـا نظامهـا الخاص بهـا ، وكان الاغريق يقومون بـدور هـام جـدا فى المجـالات الاقتصـادية والادارية ، فقـد عمـل اكتافيوس — ومن جـاء من بعـده من الاباطرة — على أن يفيـد منهم ، دون أن يمكنهم من أن يحققـوا آمالهم السياسـية . وكان الاغريق بدورهم يعملون عـلى الاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من مقوماتهم ككيان فى مصر . وحيث ان الاسكندرية كانت تمثل أبرز مظاهر المدنية الاغريقية حينذاك فسـنلقى ضوءا على أوضاعهـا وتطورات الاحداث بها ، وما كان اكثرها (*)

كانت الاسكندرية مدينة أغريقية بكامل هيئتها ومضـمونها ، وكانت المدينـة

الأغريقية الحـرة بمثابة دولة قائمة بذاتها داخل الدولة ، وعلى هذا النحو أيضـا انشئت فى مصر مدن اغريقية أخرى ومنها مدينة (بطلمية) .

وكانت المدينـة الأغريقية ذات نظـام سـياسى خاص يقوم على الاسـس التاليـة :

١ ــ هيئة من الموظفين والحكام ينتخبهم المواطنون جميعا .

٢ ــ مجلس شـيوخ .

٣ ــ محاكم خاصة بالمدينة .

ويمكن تقسـيم المجتمـع الأغريقى فى الاسكندرية الى الأقسـام الرئيسـية التاليـة .

١ ــ طبقة المواطنين « كاملى الاهلية » وهم من كان قـد وفـد من البـلاد الأغريقية ، وقـد تزايدت أعـدادهم بالتناسـل وباسـتقبال هجـرات جديدة وخاصة فى العهـد البطلمى الأول ... « وكاملو الأهلية » يتمتعون بحق المواطنة بكافة ، بما يتضـمنه ذلك من حق الزواج من الاغريقيـات وامتـلاك الأراضى فى اقليم المدينة فضـلا عن التمتع بالحقوق السياسية . ومن بينهم كان يخرج الكهنة . وكان كاملو الاهلية مقيدين فى سجلات المدينة فى قبائل أو أحياء أو وحدات .

٢ ــ طبقة المواطنين الأغريق « ناقصى الاهليـة » وهم ممن لم يسـتكمل قيده فى الحى ، وان كان الحى قد ذكر امام اسمه .

٣ ــ السكندريون ممن لم يسجل فى حى بعد ، وهؤلاء لا يستطيعون التعامل فى الأمور المدنية أمام القانون .

كانت الاسـكندرية مدينـة متعددة الاجنـاس عندما كانت عاصـمة الدولة البطلمية ، وبعد ان أصبحت مجرد عاصمة لولاية مصر الرومانية اصـبحت اكثـر تعددا ، ويمكن ان نحدد هذه الأجناس والجاليات على النحو التالى :

١ ــ الرومـان .　　٢ ــ الأغريق .　　٣ ــ اليهود .

٤ ــ المصريون .　　٥ ــ الاثيوبيون .　　٦ ــ الفرس (١) .

٧ ــ العـرب .　　٨ ــ الهنـود .

---

(١) لعلهم من بقايا الفرس الذين فتحوا مصر قبل العهد البطلمى .

كانت أغلبيــة السـكان من الثلاثة الأول (الرومان والأغـريق واليهــود) ، وكان يطلــق على الاغريق فى المدينــة « الســكندريون » (١) ، وكانوا موضــع تقدير الادارة الرومانية . وكان الأغريق معتزين بانفســهم وبحضــارتهم ، حقيقــه كان الرومان يقدرون تماما ما كان لدى الاغريق من دراية بأمور ادارة مصر ، وكلهم — أى الرومان — ما كانوا ليتركوا للأغريق مؤسسـاتهم السياسية .

كان مجلس الشــيوخ (٢) أهم مظهر من مظــاهر الحيــاة السياســية فى المدينة الأغريقية ، ولذلك الغى اكتافيوس هــذا المجلس . وخــلال معظم التاريخ الرومانى فى مصـــــر كان الأغريق يعملون على عودة هذا المجلس . اما بقيــة المؤسســـات الأخرى فقد ظلت قائمة ، فكــان ذلك من العوامل الرئيســية التى حفظت للأغـــريق كيانهم ومكــانتهم . بــل لقــد كانت المؤسســات الاجتماعية والرياضة الاغريقية أمل الجاليات الأخرى للانضمام اليها ، الا ان الاغريق — وان تساهلوا فى ذلك أحيانا — فقد عملوا على قصرها على أنفسهم وخاصة أن اليهود عملوا على الافادة من هذه المؤسسات لصالح جاليتهم الكبيرة المنافســة بشــدة للأغـــريق .

كان اليهــود جاليــة كبيرة فى مصــر وفى الاســكندرية وفى الارياف ، وكانت تتمتع بكيان خاص ، بامتيازات منحت لهم ســواء فى العهــد البطلمى أو العهــد الرومانى ، وكانوا على نشاط اقتصادى أدى الى ثرائهم ، والى اتساع ممارســتهم للأعمال المالية وخاصة اقراض كبار الملاك ، كما عمل بعضهم فى الادارة العليــا الرومانية بــل تولوا كذلكمناصب قيادية فى الجيش .

وكان ظهور اليهود فى فلســطين على شــرق مصــر وفى برقة على غربيها كقوة لها مكانتها من العوامل التى جعلت يهود مصر يشــعرون انهم حين يتحدثون عن انفسهم وحين يتطلعون الى مكانة أرقى فانما يفعلون ذلك من مركز قوة .

كانت للجــالية اليهودية فى الاسكندرية محاكمها الخاصــة بهم . واحتفظ لهم الرومان بمجلس الشيوخ (٢) ، وكان ذلك من أسباب حقد الاغريق عليهم ، ولكن من ناحية أخرى كانت ضريبة الرأس مفروضــة على اليهود وليس على الأغريق ،

---

(١) كان لهذه التسمية مشكلة بين الأغريق واليهود تناولها الأســتاذ الدكتــور مصطفى كمال عبد العليم فى كتابه مصر فى عصر الرومان .

(٢) Gerousia وكان اكتافيوس قد الغى مجلس الشيوخ للأغريق .

وليست المشكلة فى قيمة ضريبة الرأس هذه من الناحية المادية فقط وانما من حيث انها تضع اليهود فى مرتبة أدنى من الاغريق وخاصة أن هذه الضريبة كانت مفروضة على المصريين ، وكان اليهود — مثل الأغريق — ينظرون بعين الاستعلاء الى المصريين . ولقد أصيب الاغريق بطعنة نجلاء عندما فرض أحد الأباطرة هذه الضريبة على الاغريق . فكيف يتساوى الاغريق مع اليهود الاقل حضارة منهم ؟.

وظل المصرى فى الاسكندرية متعلقا بـ « راقوده » أى (رع كوت) ، وكان يقوم بالأعمال اليدوية والصناعية ، وكانت هذه الأعمال من المستويات الدنيا . واحتفظ الرومان للمصريين بهذا الوضع ، ولكنهم حرموا هجرة الفلاحين الى الاسكندرية . فلم تكن الادارة تمنحهم تراخيص اقامة بل كانت تطردهم منها ان وفدوا عليها لسبب او لآخر (٥).

ومن مبررات هذه السياسة الرومانية أن البلاد كانت فى حاجة الى الأيدى العاملة فى الريف المصرى ، والى جانب ذلك كانت الفلسفة الخاصة بالمدن الاغريقية هى أن تظل نقية بعنصرها الاغريقى بعيدا عن اجتياح الأغلبية المصرية الساحقة لها يوما ما (٥).

حقيقة عاشت الاسكندرية وكأنها دولة بجوار مصر ، حتى لقد عبر عن ذلك باللاتينية Alexandria ad Aegeptum ولقد ظلت كذلك لقرون عديدة ، ولكنها ما كانت لتعيش هكذا أبد الدهر فكان لابد أن تجتاحها الأغلبية الساحقة المصرية الغلابة (٥)

* * *

امتلأ التاريخ الرومانى فى مصر بالصراع بين الاغريق واليهود سواء فى الاسكندرية أو خارجها من مدن وأرياف البلاد . والحق أن لليهود مع مصر تاريخا حافلا بالأحداث والتطورات يجدر بنا ان نلقى نظرة عليه .

تعتبر البدايات الأولى للوجود اليهودى فى مصر غامضة ، وليس لدينا من معلومات وثيقة عن هذه البدايات الأولى الا ما ورد فى الكتب السماوية . وفى الاثار المصرية القديمة ما يشير الى وجود اسرائيليين فى مصر . اصطدموا بالسلطة الحاكمة فيها فطردهم رمسيس الثانى من البلاد ، ونظرا لأن الخبر ورد مقتضبا فيمكن القول ان شأن الاسرائيليين فى مصر حينذاك كان محدودا ،

وحتى الآن لم يتوصل علماء الاثار الى تحديد شخصية فرعون موسى ، ولا متى وقعت حادثة غرق فرعون بجيشه بينما عبر الاسرائيليون الماء سالمين ناجين .

ومن المؤكد أن اعدادا كبيرة من اليهود توافدت على مصر فى العصر الصاوى ، وهو عصر بدأت فيه عوامل الاضمحلال تتضح وتتضاعف . فى ذلك العصر شجع بعض الفراعنة اليهود على القدوم الى مصر لتنشيط التجارة وللانخراط فى سلك الجندية . وكان ذلك جزءا من سياسة عامة حينذاك تبنتها حكومات مصرية تؤكد تفوق الأجنبى على المصرى فى القوات المسلحة . وهى سياسة عامة اضرت كل الضرر بتطور المجتمع المصرى عبر العصور التالية .

وعندما دمر « نبوخذ نصر » — الملك الفارسى — بيت المقدس وتعرض اليهود لموجة من الاضطهاد شديدة ، هاجرت جماعات منهم الى مصر . ولذلك نجد أن اليهود اخذوا جانب الاغريق فى صراعهم ضد الفرس ، وتعاونوا بل ورحبوا بالاسكندر الاكبر فى مصر ، وفى عهده وكذلك فى عهد البطالمة فتحت ابواب مصر امام هجرات يهودية متزايدة ، وانتشروا من بعد فى مختلف اجزاء البلاد سواء فى الدلتا أو الصعيد على ان جاليتهم فى الاسكندرية سيكون لها مع التاريخ شأن كبير (*)

اشتغل اليهود فى مصر فى معظم الحرف والاعمال مثل الزراعة وتربية الماشية ، كما تولى بعضهم التزام جمع الضرائب ، واسندت اليهم بعض المناصب الادارية مثل منصب « سكرتير الملك البطلمى » ، وانخرطوا فى سلك القوات المسلحة البطلمية سواء فى الشرطة أو الجيش ، وارتقوا فيهما الى اعلى المناصب اذ اسند الى يهودى منصب رئاسة الشرطة ، كما كان من اليهود من تولى قيادة عسكرية رفيعة فى العهد البطلمى المتأخر وقام بعض اليهود بحراسة النيل فى بعض مواقعه . ولكن بصفة عامة يمكن القول ان التجارة والأعمال المالية كانت من مجالات تفوق اليهود وكانت من مصادر ثرائهم الرئيسية . وكان من اهم الامتيازات التى حصل عليها اليهود على يد البطالمة اعفاؤهم من دفع « ضريبة الرأس » الضريبة التى لم يكن الاغريق يدفعونها فى العهد البطلمى بينما كانت مفروضة على المصريين ، وكان الاعفاء منها يعنى انهم طبقة متميزة (*)

وفى ظل الحكم البطلمى فى مصر حظى اليهود برعاية كبيرة ، وتمتعوا بمكانة عالية لدى بعض البطالمة حتى لقد بلغ الأمر بأحد ملوك البطالمة ان وصف بأنه « صديق اليهود » (١) . وكان طبيعيا أن يعتمد الحكم البطلمى — الأجنبى المتغلب على البلاد — على مثل هذه الاقليات . وهذا اسلوب سياسى شائع لدى اى حكم متغلب اجنبى . ولهذا كانت العلاقات وثيقة بين البطالمة واليهود لمواجهة الخطر المشترك : الحركة الوطنية المصرية .

ولقد ساعدت الثورات العديدة التى قام بها الوطنيون المصريون ضد الحكم البطلمى على ان يصبح اليهود اكثر قربا من قلوب البطالمة والادارة البطلمية . بل اصبح اليهود فى النصف الثانى من العهد البطلمى — وهو العهد الملىء بالثورات المصرية — قوة يعتمد عليها الاغريق .

تمتع اليهود بنوع من « الادارة الذاتية » ، وشكلوا مجتمعا يهوديا له كيانه ومواصفاته الخاصة به ، وكان على درجة عالية من الصلابة والتكتل مما كان يحول بينه وبين الذوبان فى المحيط المصرى الذى يعيش فيه ، وتعمقت فى نفوسهم معتقداتهم بأنهم « شعب الله المختار » ، ويحتقرون تلك الآلهة التى يعبدها الاغريق والرومان ، وكان احتقارهم اشد لآلهة المصريين الفرعونية ، فكلها عقائد وثنية اما هم فأصحاب ديانة سماوية ، يعبدون الاله يهوه ، ولا يدخل فى دينهم احد من الخارجين ، ومن يخرج عن معتقد يهوه فقد فقد حياته الدنيا والآخرة .

على ان هذه المقدرة على الحفاظ على « الكيان » اليهودى الخالص فى مختلف الظروف ، وذلك السلوك التقوقعى لهم ، ينم عن انعدام مفهوم الوطنية المصرية لدى اليهودى المقيم فى مصر . فهو متعلق كل التعلق بفلسطين وليس بالوطن الذى يستضيفه الأمر الذى سيجلب على اليهود الكثير من المتاعب والنكبات .

---

(١) قارن ذلك بموقف الرئيس الأمريكى ترومان وكذلك الرئيس جونسون والسياسى الكبير الأوربى تشرشل وغيره من العديد من زعامات دول اوربا الغربية من حيث الانحياز الشديد لليهود وما ترتب عن ذلك من دعم سياسى واقتصادى واسع النطاق لليهود وللحركة الصهيونية .

ومع ذلك يوجد اكثر من دليل تاريخى عن ان اليهود فى مصر تأثروا بالحضارة الاغريقية وبتقاليد المجتمع الاغريقى . فلقد ترجمت التوراة فى العهد البطلمى ، وتزيا بعض اليهود بالملابس الاغريقية ، ومنهم من اتخذ اسماء اغريقية وربما حصل بعضهم على « حق المواطنة » فى الاسكندرية . ولكن هذا كله لا يعنى ان المجتمع اليهودى أصيب بنوع من التفكك ، بل لقد اثبتت التطورات السياسية والاجتماعية أن اليهود ظلوا كتلة صلبة محافظة على معتقداتها وتقاليدها ولغتها وعلى مقابرها .

ومع وجود ذلك التحيز البطلمى نحو اليهود ، فقد تعرضوا خلال حكم البطالمة الأواخر لهزات متفاوتة الشدة ، فلقد حاول بطليموس الرابع أن يفرض عليهم الاله « ديونيسيوس » ، وهى عبادة وثنية مرفوضة من جانب اليهود وادى امتناعهم عن عبادته الى ان ينزل بهم بطليموس الرابع بعض العقوبات وان يسحب منهم بعض الامتيازات التى لم يستردها اليهود الا بعد دفع غرامة مالية .

ثم ان الصراعات التى استشرت بين افراد الأسرة البطلمية الحاكمة كانت تضع الجالية اليهودية فى مواقف حرجة . فقد كان الأخ البطلمى يقاتل اخاه او اخته من اجل الاستحواذ على العرش ، وكان من الطبيعى أن يتطلع المتنافسون الى كسب اية قوة يمكن أن تدعمهم . وكان من المستحيل على اليهود أن يكسبوا كل الأطراف المتنازعة فى مثل هذه الظروف ، فكانوا يدعمون مطالبا بالعرش ضد آخر ، فاذا ما تفوق احد الطرفين فاما ان يكافئوا واما أن ينزل بهم العقاب ، ومن ذلك أن اليهود وقفوا فى وجه بطليموس الثامن خلال صراعه من اجل العرش ضد كليوباترة الثانية فلما رجحت كفته أنزل بهم غضبته .

فى أواخر العهد البطلمى ، وعندما كانت القوات الرومانية تدق ابواب مصر من فترة لأخرى ، وجد الرومان فى اليهود قوة مسلحة تدعم السياسة الرومانية ازاء مشكلة العرش المستعصية فى البلاط البطلمى .

دعم اليهود جهود « جابينيوس » — حاكم سوريا الرومانى — من اجل اعادة بطليموس الزمار الى العرش (٥٥ ق.م) . وعندما قدم « يوليوس

قيصر » الى مصر متدخلا فى شئون مصر البطلمية فاجاته قوات اغريقية معادية له اضطرته الى الاحتماء بالاسكندرية ولكن الاغريق فرضوا عليها الحصار ، ولم ينقذه الا قوة عسكرية يهودية مكنت يوليوس قيصر من فك الحصار . وكان طبيعيا أن ينحاز قيصر الى جانب اليهود . وبعد الانتصار البحرى الذى أحرزه اكتافيوس — المطالب بالعرش الامبراطورى الرومانى ضد منافسه انطونيوس عشيق كليوباتره السابعة ملكة مصر وحليفته — دخل اكتافيوس على رأس جيوشه المنتصرة مصر فرحب بمقدمه اليهود الأمر الذى أثار حفيظة الاغريق .

ونظرا لأن اليهود كانوا يمثلون قوة اقتصادية وفكرية — لها وزنها حينذاك — فقد كانوا فى نظر اكتافيوس أداة ليوازن بها قوة الاغريق ، وخاصة أن التنافس الاقتصادى والفكرى بين الاغريق واليهود كان قد بدأ يتحول الى ظاهرة اجتماعية فى مصر ، فطوع الرومان هذه الظاهرة لخدمة حكمهم فى البلاد .

فبعد الفتح الرومانى لمصر اتجهت الأزمة بين الاغريق واليهود الى الانفجار . اذ صاحب تضارب المصالح الاقتصادية صراع حاد بين الوثنية واليهودية فى نفس الوقت الذى كان فيه المصريون ينظرون الى اليهود بعين الريبة .

أما اليهود فكانوا يستشعرون القوة ، ليس فقط بسبب علاقتهم القوية مع الغزاة الجدد (الرومان) وانما لأن دويلات يهودية لها مكانتها قامت فى فلسطين وفى برقة على جانبى مصر . وكانت الاتصالات قوية بين هذه التجمعات اليهودية ، وكانت هذه الدويلات — فى أول الأمر — على علاقات قوية مع السلطات الرومانية الحاكمة — وكانت العداوة بين الاغريق والرومان ، واستخدام هؤلاء لليهود كقوة محلية يوازنون بها قوة الاغريق ، كان كل هذا من العوامل التى ساعدت اليهود على التطلع الى امتيازات جديدة ولكن هذا الوضع ادى الى أن ينظر الاغريق الى اليهود على اعتبار أنهم صنيعة الرومان مما سيعمق الخلافات بين الطرفين .

---

(١) عندما حاصر الاغريق يوليوس قيصر فى الاسكندرية فى أيام كليوباتره السابعة أنقذه اليهود من الورطة .

كانت سياسة اكتافيوس — بعد فتحه مصر — متوازنة ازاء اليهود والاغريق ، فقد الغى مجلس الشيوخ الاغريقى وابقى لليهود مجلسهم واعفى الاغريق من ضريبة الرأس بينما فرضها على اليهود . فسعى الاغريق لدى الرومان بكل ما يستطيعون من أجل استعادة مجلسهم ، وكذلك سعى اليهود ولكن من أجل رفع ضريبة الرأس عنهم .

حقيقة سلب الرومان الاسكندرية دورها القيادى على الطريقة الاغريقية ، ولكن احتفظ الاغريق باحتكار حق المواطنة دون اليهود الذين تمتعوا فقط بحق الاقامة فى هذه المدينة على هيئة جالية لها طابعها الخاص .

كان الاغريق يتباهون بمؤسساتهم الاجتماعية والرياضية وبان حضارتهم هى الاعلى ، وكان اليهود يتمنون الالتحاق بتلك المؤسسات ولكنهم يحتقرون تلك الآلهة الاغريقية والرومانية الوثنية ويفخرون بانهم اتباع دين سماوى .

ورغم ذلك ، فقد تأثر بعض اليهود بالحضارة الاغريقية ، فظهر ما يمكن أن نصفهم باليهود المتحررين وهم الذين تكيفوا مع الحضارة الاغريقية ولكن دون أن يتخلوا عن دينهم السماوى .

افاد الرومان من هؤلاء ومن أولئك ، افادوا من الاغريق فى الادارة لخبرتهم العالية فيها ، وافادوا من اليهود اقتصاديا فقد بلغ من نمو الراسمالية اليهودية أن تراكمت لدرجة مكنت اليهود من اقراض الملوك والاباطرة .

كان هذا التفوق الاقتصادى اليهودى يثير حسد الاغريق على هؤلاء اليهود الذين كانوا فى نظر الاغريق مجرد صنيعة للغاصب الرومانى .

لقد كانت عوامل الفتنة تتجمع حتى اصبحت لا تنتظر سوى حدث يشعلها :

فقد عمد اليهود الى استعراض عضلاتهم عندما جاءهم ملك يهوذا ، فساروا به فى شوارع الاسكندرية ، ومشى فيها بخيلاء ، وما كانت هذه الحادثة لتمر بسلام ، فالاغريق يرون فى الاسكندرية مدينتهم هم وليس للدخلاء حق فيها ، ثم أهكذا تطأ اقدام اليهود أرضها بصلف وكبرياء ؟ فما كان من الاغريق الا أن سخروا من ذلك الملك ، وحرضوا الادارة الرومانية عليه ، ثم عمد

الأغريق الى احراج اليهود أمام الحكم الرومانى أيما احــراج عندما وجهوا اصــابع الاتهام الى اليهود من حيث أن الديانة اليهودية تحتقر العقــائد الدينية الرومانيــة الخاصـــة بعبــادة الامبراطور ، وعمــد الأغريق الى وضع ايقونات تحمل صــور الامبراطور فى المعابد اليهودية ، وفى هذا العمــل ما فيه من فرض للعقيدة الوثنية على اليهود ، وكان الأغريق يدركون تماما أن اليهود لن يقبلوا اطلاقا وجود مثـل هذه الايقونات فى معابدهم ، ولكن ازالتها منها تعنى انهم يحتقرون الامبراطور وهو أمر يعرضهم لمشكلات معقدة مع السلطات الرومانية .

حدث هذا فى زمن كانت فيه التطورات المحلية والدولية تسير فى غير صــالح اليهود . فمفهوم الحرية الدينية — الذى كان سمة من سمات الحضارة الرومانية — كان قد أخذ يهتز بشــدة أمام نمو الدعوة الى تأليه الأباطرة الرومان . ومن ناحية أخرى كان اليهود قد غادروا زمن عزهم أيام أمجاد داود وســليمان .

أمــا فى مصر فكانت قد اسـندت ولايتها الى فلاكوس ذلك الرومــانى الذى يرى فى اليهود مجرد غرباء عن الاسكندرية . بينما كان اليهود يستخدمون كل مــا لديهم من حجج ليثبتوا انهم اسكندريون ولا يقلون عن الاغريق فى شيء ، وكان على كل من الطرفين أن يدافع عن وضعه وموقعه ، وكان أن تحول الجدل الى تشابك ففتنة ، فدار الاقتتال ، ولكن عمق الكراهية المتبادلة جعلت التشفى طابعه — فــلا قيم انسانية ولا رحمة ، فكل لا يرى للآخر حقا فى البقاء (١) .

كان الأغريق اكثر دربة على اســتخدام الســلاح ، واســرع الى الهجـوم به ، فطــاردوا اليهــود وانطلقوا فيهم قتلا ونهبــا وتخريبــا (٣٨ م) ، ولكن الادارة الرومانية لاترغب فى أن يتحول الأغريق الى قوة ضــاربة مســلحة ، وفى نفس الوقت كان لليهــود من يدافع عنهم امــام الامبراطور نفســه . فقد توســط لهم لدى الإمبراطور ملك اليهود فى فلســطين ، فكان أن اســتعاد اليهود كيانهم . ولكنهم كانوا يضمرون فى أنفسهم جولة ثانية ، يكونون قد اعدوا لها عدتهم من قبل ، وأن يدعموا رجالهم بمن يأتيهم لنصرتهم من يهــود فلســطين ، وقــدم اليهم فعــلا

(١) قارن ذلك بأحداث لبنــان خلال الحرب الأهلية بين المسلمين والمسيحيين والموارنة المعروفة بحوادث الستين (١٨٦٠) فى لبنــان ، وكذلك خــلال الحــرب الاهلية الثانية اللبنانية (١٩٧٥ — ١٩٨٤) اذ كانت بشاعة التشــفى واضـحة فى الحالتين بسبب عمق الكراهية بين الطوائف المتصارعة .

عدد ليس بالقليل منهم متهيات الفرصة للمواجهـة من جديد في (٤١ م) . ولكن الفتنة بين الاغريق واليهود لم تنتشر على نحو ما انتشرت عليه عـام (٣٨ م) اذ امكن للرومان السيطرة عليها ، ولكن ظلت النفوس مليئة بالاحقاد وروح الانتقام لتقع فتنة اخرى في (٦٦ م) ، ولكنها كانت في ظروف تختلف عن سابقتيها .

فقد حدثت ثورة يهودية على الرومان في فلسطين ، وامتدت شـرارتها الى مصـر (٦٦ م) . ومـع ان ولاية مصـر كانت مسـندة الى يهودى الا انه كان قد صـبأ ، ونجـح في أن يضرب الثوار اليهـود بالقوة العسكرية . لقـد كان ميزان القوى يبتعد بسـرعة من اليهود ، اذ ان ثـورة اليهـود هذه وقعت قبـل سنوات أربع من الضربة القاصمة التى وجهها الرومان ليهود فلسطين ودمر فيهـا الرومان هيكل سليمان (٧٠ م) .

لقد كان تدمير الهيكـل نكبـة لا تعادلها نكبـة فى نظر اليهود ، واعتقدوا ان ربهم لينصرنهم نصرا مؤزرا ليعيدوا بناءه ، حقيقة بدا يهود مصر اعجز من يدفعوا من انفسهم عادية خصومهم ناهيك عن اعـادة بنـاء الهيكل ، ولكن روح الثـورة اليهودية كانت قد انتشرت وبرز يهود برقة كقوة اعلنت عن نفسـها انها مسـئولة عن انقـاذ اليهـود من النكبـة وان يسـتعيد اليهود مقـومات عقيدتهم : بنـاء الهيكل . وما كان الرومان ليدعوا اليهود ليحققوا ذلك .

مرت سـنوات عدة حتى اعلنها اليهـود في برقة ثـورة كبرى (١١٥ م) ، وهناك سالت دماء مئـات الألوف من الاغريق بسـيوف اليهود ، وزحفت جمـوع اليهود الى الاسكندرية فحاصـروها ولكنهم عجـزوا عن فتحهـا ، وثارت كذلك جمـوع اليهود فى مصـر وانتقل الصـراع الى ريفها المتسـع (١١٦ — ١١٧ م) وتحول القتـال الى ما يشـبه المذابح بين الجمـوع المتقـاتلة فى هذا المكان ثم فى ذلك . واذا بريف مصـر يصـبح فى جهنم من الفـوضى الهوجـاء التى لا تبقى ولا تذر اينما حلت . وزاد ضرامهـا انتهـاز الخارجين عن القانون والفـارين من وجه العدالة والبطـالين لهذه الفوضى الدموية فانطلقوا يقتلون مـع من يقتـل وينهبون ما تطاله ايديهم ويدمرون مـع من يدمر حتى ولو كان ذلك من مؤسسـات البلاد الانتاجية .

وهناك ما يشير بقوة الى ان اليهود خططوا لتدمير مرافق البلاد ومؤسساتها الزراعية ، واحراق قراها وتدمير طرقها وتحطيم المعابد ، وكـم دمر منهـا ، وكم من رجال مصر المنتجين صرعوا بسيوف اليهود وخربت حقولهم ، ومثل المتقاتلـون

بالجثث ، وتطاردوا بين نيران الخراب ومعاول الهدم والتدمير حتى بارت مساحات واسعة من أراضى مصر من بلوزيوم (السويس) الى اتريب (بنها) الى طيبة (الاقصر) فى اقصى جنوب صعيد مصر (*)

ظلت القوات الرومانية عاجزة عن السيطرة على هذه الفوضى الهوجاء لفترة غير قصيرة ، حتى اعادت تنظيم القوى الكفيلة بالتصدى لهذه الجموع اليهودية الاجتياحية الدموية ، فتشكلت فرق من الأغريق وأخرى من المصريين الفلاحين ، واستطاعت هذه القوى — رغم فشل فرق الفلاحين فى التصدى للاجتياح اليهودى — ان تكسر شوكة اليهود ثم طاردتهم حتى وهنت قوتهم وقضى عليهم كقوة ضاربة قضاء مبرما .

ان نظرة عامة على احوال مصر فى أواخر العهد الرومانى الوثنى توحى بسرعة الى ان كافة مقومات الاستمرار لدى الرومان ولدى الاغريق ولدى المصريين على ما كانوا عليه من حضارة كانت تتلاشى لتفسح الطريق أمام المسيحية لتكون هذه الديانة عاملا من عوامل تقويض الامبراطورية الرومانية ككل ، ومن عوامل التغيير الجذرى فى مصر اذ لم تلبث أن هجر المصريون الفرعونية الى المسيحية (١) .

---

(١) حقيقة بقيت جاليات يهودية فى مصر ، ولكنها كانت منعزلة فيما يشبه (الجيتو) وبعد انتشار المسيحية فى مصر استولى اسقف الاسكندرية كيرلس على بيع اليهود فيها وطردهم منها فى (٤٢٥ م) ومن امتع المؤلفات الاكاديمية عن اليهود كتاب (اليهود فى مصر) للأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم (*)

الفصل الثالث

المسيحية فى مصر

ظهرت دعوة المسيح عيسى بن مريم فى فلسطين ، وحملته مريم الى مصر طفلا ، فكان ذلك من تراث المسيحية فى مصر . واخذت المسيحية فى الانتشار ، وقام مرقص بالتبشير بها فى مصر ، ووجدت دعوته فى بلادنا تربة خصبة واخذ العديد من المصريين يدخلون فى الدين الجديد . وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشارها فى مصر :

١ ــ هناك من يرى أن التراث الدينى المصرى الفرعونى كان من العوامل التى جعلت الدعوة الى المسيحية مفهومة بسرعة ومقبولة من المصريين ، وخاصة مفهوم التثليث ، ولكن هناك نقد موجه لهذا العامل من حيث أن المسيحية انتشرت فى بلاد أخرى دون أن يكون لديها مفهوم ما للتثليث (الاب ــ الابن ــ الأم) .

٢ ــ ذلك التسامح وتلك المحبة التى كانت من أسس الدعوة المسيحية . وكان المصرى خلال قرون طويلة عديدة يعانى مر المعاناة من التفرقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فكما مر بنا كان المصرى فى الدرك الأسفل بينما كان غيره من الأجانب (الرومان والأغريق واليهود) طبقات متميزة فى كل شىء . اما المسيحية فدعت الى المساواة بين معتنقى هذه العقيدة ، ومن ثم كانت المسيحية فرصة للمصرى للشعور بذاته واملا له فى حريته من الاضطهاد .

٣ ــ كان الانضواء تحت مظلة المسيحية تحديا لجبروت الرومان .

٤ ــ كانت العقيدة الفرعونية الدينية قد تدهورت وفقدت مقوماتها ، ووهنت بشدة مكانة كهنتها ، ومرت قرون طويلة واصحاب المعتقدات الأخرى من فرس وأغريق ورومان هم الذين يحكمون البلاد بقوة السيف . وكم من جهود ضخمة بذلها الحكام الأجانب لتوهين العقيدة الفرعونية بطريقة مباشرة . فما أن جاء القرن الأول الميلادى حتى كانت هذه العقيدة الفرعونية قد اهتزت واصبحت فى حالة احتضار وتخلى السبيل امام دعوة دينية جديدة مقبولة .

سرت المسيحية فى البلاد دون ادراك حقيقى لها من جانب السلطات الحاكمة الرومانية ، ومما ساعد على ذلك أن المسيحيين المصريين كانوا يتكتمون معتقدهم ، ولا يبوحون بتحولهم عن الوثنية الى الدين الجديد . وبمرور الوقت وبتكاثر الداخلين فيه أخذت عناصر الخلاف بين الوثنية والمسيحية تطفو على السطح .

وقد كانت المسيحية تنتشر فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة الرومانية تتخلى عن مبدأ حرية العقيدة الى مبدأ تأليه الامبراطور ، وعن تصاعد روح التعصب الرومانى فى هذا الصدد ودفع الشعوب الى ممارسة الشعائر التى تثبت عبادتهم للامبراطور . وكان ذلك متناقضا كل التناقض مع جوهر المسيحية .

ضغطت الادارة الرومانية فى مصر على الشعب كى يؤدى شعائر تلك العبادة التى كانت بغيضة اليه . وفى أول الأمر اخفى المسيحيون حقيقتهم ، ولجأوا الى مداراة الطغاة ، والى التظاهر بممارسة الشعائر الوثنية ، حتى أصبح من غير الممكن الاستمرار فى ذلك فبدأت المواجهة المتوقعة بين الحكم الرومانى ومسيحيى مصر .

لقد كان انتشار المسيحية فى مصر فى نظر حكامها الرومانيين يعنى خروج مصر من ايديهم ان آجلا أو عاجلا . ولجأت الادارة الرومانية الى الأسلوب التقليدى فى مثل هذه الظروف وهو الاضطهاد والقوة الغاشمة لعل ذلك يرعب الآخرين فيرتدوا عن معتقدهم .

ولكن الدعوة كانت قد سرت وأصبحت أعداد كبيرة من المصريين فى عداد اتباعها الأمر الذى أزعج الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) مما جعله ينظم حملة اضطهاد واسعة النطاق وعرف عهده « بعصر الشهداء » .

لقد كانت احوال مصر حينذاك تثير مخاوف الرومان على مستقبل مصر كولاية رومانية :

١ — فى أقصى جنوب الوادى كان الضغط المتواصل أو شبه المتواصل من جانب النوبيين يكشف عن تفوق لهم على الحاميات الرومانية هناك . وكان هناك تعاطف بين المصريين والنوبيين ، وبالتالى كانت مصر تتحول بنوع من السرعة الى ارض معادية للرومان .

٢ — اصبحت الاسكندرية بالنسبة للرومان مدينة مشاغبة ، بل اصبحت الاسكندرية تشكل فعلا خطرا مباشرا على الامبراطور الجالس على العرش . ففى ٢٩٥ م حظى ديمتريوس — المطالب بالعرش الامبراطورى — على تأييد كبير من الاسكندرية ، فانزعج الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) ، فارسل حملة ضده وضد الاسكندرية ، ودارت حولها وفيها معارك مدمرة استمرت ثمانية اشهر سقطت المدينة فى نهايتها بعد أن اصابها من التخريب الشيء الكثير .

٣ — تصاعدت حدة المقاومة السلبية المصرية المسيحية ضد الطغيان والاستبداد الرومانى الأجنبى ، ولجأ الأباطرة الرومان الى السلاح والى الارهاب الدموى فى عهد « نيرون » و « تراجان » و (ديسيوس) ، ومع ذلك ظلت المسيحية تنتشر فى البلاد حتى لجأ الامبراطور دقلديانوس الى تكثيف الاضطهاد ضد مسيحيى مصر .

كان دقلديانوس وادارته فى مصر تعتقد أن اسالة دماء مسيحيى مصر وانزال اشد الوان التعذيب بهم قد يؤدى الى استئصال شأفتهم من البلاد . ولكن الشيء الذى لم يدركه الامبراطور وادارته أن المصرى كانت لديه قدرة هذه على الصبر على المكاره الصادرة عن عجز عن ادراك مفاهيم حضارته . فشتان بين دين سماوى وتلك الآلهة التى أصبحت شيئا عجبا فى نظر المفكرين بل وكذلك البسطاء . لقد مضى وانقضى عهد الآلهة المتعددة المتصارعة المتنافسة وجاءت دعوة سماوية اكثر قبولا واقناعا للعقلية حينذاك .

لقد اصبحت المواجهة بين الامبراطور دقلديانوس وادارته من جهة والمسيحيين فى مصر لابد منها ، ومصيرية . الأمر الذى يفسر لنا صلابة الصمود المصرى وبشاعة ودموية الاضطهاد الدقلديانوسى ، حتى لقد اتخذت الكنيسة المصرية من هذا العهد بداية لتقويمها (٢٨٤ م) ولا زال معمولا به حتى الآن فى الكنيسة القبطية .

استمر انتشار المسيحية فى مصر مثلما كانت تنتشر فى الكثير من ولايات الامبراطورية الرومانية حتى وجد الامبراطور قسطنطين ان الأجدى له الاعتراف بها وتم ذلك فى ٣١٣ م . فكان تطورا جوهريا فى التاريخ . واعطى ذلك دفعة قوية للمسيحيين فى مصر ، واتجه رجال الدين منهم الى اتباع طرق

أسرع لتوصيل مبادىء هذه العقيدة الى مختلف ابناء مصر . ولذلك ترجموا الكتاب المقدس الى اللغة المصرية القديمة التى كانت سائدة حينذاك ، واستخدموا فى عملية الترجمة هذه حروفا يونانية أضيفت اليها حروف « ديموطيقية » فكان ذلك نواة « اللغة القبطية » . واندثرت اللغة المصرية القديمة ، واندثرت كذلك تلك العقائد الوثنية ، وذبلت العناصر الرومانية والاغريقية فى خضم المجموع المصرى الغلاب .

اصبحت لمصر كنيستها المعبرة عن شعبها المسيحى ، وسرعان ما انطلق الفكر المصرى من عقاله ، وافرزت مصر من الاحبار من كانت لهم شهرة مدوية فى مصر وخارجها . فقد نظمت الكنيسة المصرية نفسها فكريا واداريا ، وارتبط بها مسيحيو مصر برباط وثيق لحمته العقيدة وسداه الوطنية ، وأثرت الكنيسة بما تدفق عليها من أموال رعيتها ، وأوقفت لخدمتها مساحات شاسعة من الأراضى كانت معفاة من الضرائب .

ولا يمر وقت طويل حتى تحولت الامبراطورية البيزنطية — التى كانت مصر احدى ولاياتها — الى المسيحية حتى أخذت تظهر تيارات فلسفية ومذاهب مسيحية اختلفت فيما بينها حول قضية شغلت العالم ولا تزال تشغله : هل المسيح عيسى بن مريم « طبيعة واحدة » ام له « طبيعيتان » احداهما الهية والأخرى ناسوتية ؟ ومع اتساع الخرق ، وتعمق الخلافات بين الزعامات الدينية فيما بينها وبين بعض تلك الزعامات الدينية والقيادات السياسية ، اتجه الرأى الى عقد حوار بين الاطراف المختلفة للتوصل الى صيغة مقبولة . فانعقدت المجامع المسكونية ، ابتداء من ٣٢٥ م .

وفى هذه المجامع المسكونية تجلى دور رجال كنيسة الاسكندرية . وهو دور له دلالته ، اذ وقفت مدرسة الاسكندرية المسيحية بكنيستها الوطنية ندا بل أقوى من ند لمدرسة القسطنطينية ، واتضح خلال ذلك أن بيزنطة المسيحية الأغريقية تحاول ان تفرض سلطانها على مصر وعلى اكليروسها الذى كانت له كلمة مسموعة فى العالم المسيحى ، ومن ثم كان هذا الخلاف اقرب ما يكون الى جولة جديدة يخوضها شعب مصر للحفاظ على شخصيته المصرية .

ومرة أخرى وقفت الصلابة المصرية أمام جبروت (الامبراطورية) .. ولجأ الامبراطور الى قوته الغاشمة لعله يرغم الشعب على التخلى عن « المونوفيزيقية » عقيدة الكنيسة المصرية (القبطية) . بل لجأت السلطات البيزنطية أيضا الى

اسلوب الاضرار بالمصالح الاقتصادية المصرية ، فضيقت المجال الاقتصادى على الشعب ، وحمى جند بيزنطة (القسطنطينية) التجار اليهود وحالوا دون اعطاء المصريين فرصا متكافئة مع غيرهم الأمر الذى جعل صورة الحكم البيزنطى فى أعين المصريين قاتمة تماما .

لجأ المصرى المسيحى الى أسلوبه التقليدى فى مقاومة الطغاة (المقاومة السلبية) فقد هجر كثرة من المصريين مدنهم وقراهم ، وفروا الى الصحراء ، والى المعابد المصرية الفرعونية المهجورة والى أديرة الرهبان حتى لا تنالهم قبضة بيزنطة الحديدية .

ولعل تمرس المصرى - منذ قرون طويلة - على المقاومة السلبية كان وراء تزعم مصر وريادتها فى مجال الرهبنة . فمنذ القرن الرابع الميلادى . وعلى يد الراهب انطونيوس والراهب باخوميوس وضعت أسس الرهبنة فى مصر ، ومنها انتشرت الرهبانية الى مختلف أجزاء العالم .

وهكذا لم يؤد تحول الشعب المصرى الى المسيحية الى تجنيبه ويلات الاضطهاد على يد الاباطرة الجالسين على العرش .. سواء اكانوا اباطرة وثنيين ام اباطيرة مسيحيين .. وأصبحت مصر - مرة أخرى ولاية ثقيلة على كاهل الامبراطورية البيزنطية فى وقت كان فيه الصراع على اشده بين هذه الامبراطورية البيزنطية من جهة والامبراطورية الفارسية - الساسانية من جهة أخرى .

وقد تطور هذا الصراع فى فترة من الفترات لصالح الامبراطورية الساسانية اذ استطاعت أن تغلب الروم وأن تضرب بعمق فى الامبراطورية البيزنطية حتى لقد سقطت مصر فى يد الفرس الذين حكموها لمدة عشر سنوات .

ومع ما كان عليه الفرس من وثنية فقد اتبعوا مع مسيحيى مصر مبدأ الحرية الدينية ، اذ تركوا الشعب يمارس شعائر دينه دون اعتراض .. ولقد أثر ذلك كثيرا فى نفسية الشعب المصرى .

أليس من سخرية القدر ان يحظى المصرى بحرية العقيدة وبحق ممارسة شعائره المسيحية فى ظل حكم وثنى فارسى بينما كان يعانى من الاضطهاد على يد اخوة له فى الدين ؟

ولم يكن المصريون حينذاك يدركون ان آية نزلت على خاتم النبيين :

« الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء » .

كانت كلمة الله هى الحق ، اذ لم تلبث جيوش الامبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) أن انزلت الهزيمة بالفرس ، وعادت مصر مرة أخرى الى الامبراطورية البيزنطية ، ولكن دون أن ترجع عن اضطهاد الكنيسة القبطية ورعيتها (٥)

توحدت الجزيرة العربية فى ظل الاسلام ، وانطلقت جيوش المسلمين فيما وراءها ، ودق المسلمون أبواب مصر ليقابلوا الروم فيها ، ومنيت القوات البيزنطية بالهزائم ، ولم يقف الشعب المسيحى المصرى الى جانبها ، بل راى فى الفتح الاسلامى انقاذا له من مضطهديه ، وليجد نفسه تحت حكم اسلامى من مبادئه أنه « لا اكراه فى الدين » وليجدوا فى الدين الاسلامى مبادىء الانسانية الرفيعة فضلا عن وعد بجنات للمؤمنين خالدين فيها . فانتشر الاسلام واصبحت مصر الاسلامية درة العالم الاسلامى ، وبدخول المسلمين مصر ينقضى عهد قديم وبدأ تاريخ مصر الاسلامى الوسيط .

وفى ختام تناولنا لتاريخ مصر منذ فجر التاريخ حتى مطلع تاريخها الاسلامى الوسيط يجدر بنا أن نلقى نظرة على المرأة وأحوالها فهى تمثل نصف المجتمع .

* * *

الفصل الرابع

المرأة فى التاريخ القديم

للمرأة منذ فجر التاريخ المصرى مكانة متميزة ، فايزيس وما بذلته من اجل زوجها حبيبها ومن أجل ابنها فلذة كبدها حورس ليعتبر آية من آيات الوفاء . وحق لها ان تكون معبودة الجماهير فى مصر ، وأن تعمر عبادتها اطول فترة فى التاريخ ، حتى لقد عبدها بعض الرومان قبل انتشار المسيحية فى الامبراطورية بوقت قصير .

وعن طريق المرأة فى مصر كانت تتم عملية توريث العرش فى مصر القديمة ، وارتبط ذلك بتقليد فرعونى بزواج الأخ باخته ، ولم يكن هناك ادراك لدى المصريين بخطورة مثل هذا الزواج على مستقبل الأبناء والأسرات . وكان اذا تعرضت أسرة ملكية حاكمة للانقراض اصهر الزعيم المرشح للعرش الى وريثته من الأسرة المتداعية ليصبح له الحق الشرعى فى أن يكون فرعونا الها معبودا . وقد ظل هذا التقليد موجودا فى مصر حتى حوالى القرن الخامس الميلادى ، ولكن كان بمعدلات متناقصة ، حتى انقرض تماما من البلاد . ولا شك ان انتشار المسيحية لعب دورا رئيسيا فى ذلك .

كانت الملكة — زوجة فرعون — تلتزم باخلاقيات القدوة ، وكانت تنعت بصاحبة الفضل وحامية الفضيلة . ومنهن من قمن بتوجيه أمور البلاد ، ودعم السياسة التى ينتهجها زوجها فرعون مصر . ومن ذلك زوجة رمسيس الثانى ، فقد كانت تكاتب أم ملك الحيثيين فى ظروف عقد معاهدة التحالف بين الدولتين المصرية والحيثية .

وتعتبر حتشبسوت اشهر ملكات تاريخنا القديم ، ولكن اقترن حكمها بالتقصير فى الحفاظ على الامبراطورية المصرية وبمحاولة لحجب الحكم عن ابن زوجها فلعبت الدور التقليدى لزوجة الأب .

أن زيارة لوادى الملكات فى الجانب الغربى من الأقصر (طيبة) ، وروائع التماثيل التى خلدتهن عبر العصور ، وادوات الزينة وقطع الحلى

الرائعة ، ومكانة الأخت الزوجة في الثالوث المقدس ليؤكد لنا كم كانت مكانتها عالية في المجتمع .

كان فرعون أحيانا يتزوج من غير الأسرة الحاكمة ومن غير أخته ، كان يتزوج أحيانا من بنات الشعب ، واذا ما ولدت له وليا للعهد ارتفع مقامها ، وكان طبيعيا ان يثير ذلك حسد الملكة وربما نقمتها ان استطاعت .

وكان لفرعون محظيات ، سواء من المصريات أو من فاتنات اتى بهن او ارسلن اليه من البلاد المجاورة . فلقد هبطت مصر — في صحبة الأميرة جيلو خيبا — اكثر من ثلاثمائة من جميلات ميتانى ، كان لوصولهن فرحة عيد لدى فرعون الذى خلد هذه الذكرى الفريدة على آثاره . ومن المحظيات من عامة الشعب من استطعن النهى والأمر في البلاد .

أما المرأة المصرية العادية فكانت — بصفة عامة — على نشاط جم ، ولود ، تشارك في الارتفاع بمستوى أسرتها الاقتصادى سواء بالعمل في الحقل أو في التجارة أو بالنسيج . بل هناك ما يشير الى اشتغال المرأة ببعض الحرف الصعبة مثل قيادة السفن .

وكما هو متبع حتى الآن في المجتمع المصرى ، كانت الفتاة والفتى الراغبان في الزواج يسعيان الى التعارف أولا بطريقة أو بأخرى . كان يتأمل الفتى فتاته في طريق أو في بيت أسرة صديقة أو حفل عام ، وكثيرا ما كان يقام حفل خصيص لذلك التعارف لينتهى الأمر بطلب يد العروس من أهلها ، بل هناك حالات كانت الفتاة فيها تسعى بنفسها الى اختيار شريك حياتها . فلقد كان من تقاليد مجتمع مصر القديمة أن توافق الفتاة على الرجل الذى سيعيش في كنفه وله . وفوق هذا وذاك كان احترام رأى الوالدين والأهل من القواعد العامة في هذا المقام . فقد كان للوالدين دور رئيسى في اختيار زوج الابن أو الابنة .

كان تعدد الزوجات معروفا في مصر القديمة ، وخاصة بين الأسرات الارستقراطية ، الا أن القاعدة العامة هى الاكتفاء بزوجة واحدة . وكان تعدد الزوجات محظورا على الكهنة .

وفي عهد البطالمة والحكم الرومانى انتشر تعدد الزوجات بين الاغريق والرومان . الا ان ذلك كان أمرا غير مرغوب فيه .

ومن النقوش والآثار ما يؤكد لنا كم كانت الخادمات مكرمات فى مصر القديمة ، وخاصة فى عهد الدولة الحديثة . فقد صورها لنا الفنان وهى ممشوقة القوام فتية جميلة نضرة ، وقد ارتدت من الثياب جميلها ، وازينت كما تزين السيدات ، وتخطر فى مشيتها حاملة سلتها فى رقة ورشاقة . واغلب الظن انه كان من مفاهيم مجتمع ذلك العصر ان مكانة الأسرة وثروتها يجب أن تنعكس على من يخدمها ، فضلا عما فى ذلك من مفهوم انسانى حضارى متقدم .

ولكن هناك من الكتاب والمؤرخين من يولع بتشويه مصر فيما يكتبه ، ومن ينتقى نقائص المجتمع فيجعلها خلقه وتقاليده ، ومن هؤلاء المؤرخ العالمى هيرودوت اذ كتب عن المراة المصرية ما يشينها ، بل وصفها بما يتنافى تماما مع طبيعتها وتكوينها الجسدى كامراة . فلعله اخذ بما قاله مغرض أو انه زار مواخير تعف عنها اية نفس طبيعية . لقد الصق بها حتى ما لا يلصق بالفواحش من ساقطات جيله .

ولما وقعت مصر فى يد الاغريق وحكموا البلاد ، كانوا يترفعون عن الزواج من مصريات وكانوا يستقدمون بنات جنسهم من بلاد اليونان ، أو ينتظرون فرصة للعودة الى الدولة الأم (اليونان) ولكن لم تلبث الأحداث والتطورات ان قطعت السبل بين اغريق مصر واغريق اليونان ، فاتجه بعض الاغريق فى مصر الى الاقتران بمصريات . وكان ذلك فى نطاق محدود فى النصف الأول من العهد البطلمى فى مصر ، ولكن تزايدت هذه الحالات فى النصف الثانى منه ، وهو فترة تدهور الحكم البطلمى فى البلاد .

وتسربت بعض التقاليد الاجتماعية المصرية الخاصة بالزواج الى الاغريق فى العهد البطلمى ، فقد حدثت حالات عديدة من زواج الأخ بأخته الشقيقة ، كما اقترن العم بابنة أخيه . ولعل من الأسباب التى أدت الى ذلك الحفاظ على ميراث الأسرة أو لأسباب سياسية .

وفى العهد الرومانى سمح أيام الامبراطور هادريان بزواج مواطنى مدينة انتينوبوليس (١) بالمصريات (٢) ، ولكن — من ناحية أخرى — منعت القوانين

---

(١) Antinopolis

(٢) عرف ذلك بـ Epigamis

الرومانيــة زواج ذوى القــربى من الدرجة الأولى حتى الرابعــة . وبينمــا اباحت هذه القوانين زواج ابنــة الأخ بعمهــا الا انهــا اعتبرته زواجــا غــير شرعى ، ويرجح المؤرخون ان مثل هذا الزواج كان قاصرا على الرومانيين .

وكان الرومــان يعتبرون ذرية الزواج المختلط فى مرتبــة اجتماعيــة أدنى وغير شرعى ولعل ذلك لأن الرومان والاغريق كانوا يعتبرون المصريين فى مرتبــة اقل منهم . ولكن التقاليــد كانت تبيح للرومانى — المجنــد فى الجيش — أن يعيش حياته الأسرية حتى يسرح فيصبح زواجه شرعيا والأبناء شرعيين .

حتى اذا ما جاءت المســيحية وانتشرت فى البلاد خضــع الأقباط للقوانين المنظمة للأسرة وللمجتمــع فلا زواج اخــوة ، ولا زواج العــم لابنــة اخيه .، ثم بانتشــار الاســلام فى البلاد طبقت الشريعة الاســلامية على المسلمين واعطيت الحــرية الدينية للأقباط وأهل الذمة .

الباب الثالث

مصر في العصر الإسلامي والوسيط

الفصل الأول : مصر منذ الفتح العربي الاسلامي حتى الفتح الفاطمي .

الفصل الثاني : الدولة الفاطمية .

الفصل الثالث : مصر والحروب الصليبية .

الفصل الرابع : مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي .

الفصل الأول

مصر منذ الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح الفاطمي

بينما كانت مصر المسيحية تعانى من الاضطهادات البيزنطية كانت الدعوة الاسلامية قد انتقلت الى مرحلة نشر الاسلام فيما وراء الجزيرة العربية . وكانت مصر معروفة للعرب قبل أن يدخلوها فاتحين ، بل كان من بين رجالات العرب — ثم عظماء المسلمين — من كان له علاقات ومعرفة قوية بمصر وبأحوالها قبل الفتح الاسلامى ، فلقد زارها عثمان بن عفان (ثالث الخلفاء الراشدين) وعمرو بن العاص .

ولقد ترددت نبوءة تقول ان عمرو بن العاص سيتولى حكم مصر ، وأغلب الظن أنها نبوءة أطلقت لأهداف خاصة ، على أن قيمتها تكمن فى أنها تؤكد مجيء عمرو بن العاص الى مصر . ولا شك ان تلك الخبرة بامور مصر ساعدت عمرو بن العاص على فتح مصر عندما تولى هذه المسئولية فى عهد خلافة عمر بن الخطاب .

ادرك المسئولون عن الدعوة الاسلامية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ان العدو البيزنطى يستطيع ان يضرب ما تحت يد المسلمين من بلاد فتحوها حديثا ، بل وانه يستطيع أن يضرب بعنف ما دامت مصر تحت يده . وبينما كان لدى عمر بن الخطاب نوع من التردد والتحفظ ازاء الاندفاع نحو فتح مصر كان لدى عمرو بن العاص اصرار راسخ بضرورة فتحها . وفعلا أسندت قيادة المهمة اليه وتقدم بجيشه العربى الى داخل مصر ، وضرب الحصار على حصن بابليون (١) حتى اضطر المدافعون عنه من القوات البيزنطية الى التفاوض ، وأدى ذلك الى عقد معاهدة بابليون الأولى (٢٠ هـ / ٦٤١ م) .

ولكن مصر كانت ولاية عزيزة على الامبراطور البيزنطى ، وصمم هرقل على أن تستمر المقاومة ، وحث قواته — التى تحصنت فى آخر معاقلها فى

---

(١) سقط الحصن فى يد العرب فى ٩ ابريل ٦٤١ ، وكان قائما فى موقع مدينة قديمة عرفت بـ « بابليون » فنسب اليها . وكان الرومان قد شيدوا هذا الحصن ولا تزال بعض بقاياه موجودة حتى الآن فى قصر الشمع .

الاسكندرية — على أن تبذل أقصى ما لديها في الدفاع عنها ، ولكن ضيق المسلمون الخناق على القوات الرومانية ، ولم تفدها حصانة المدينة ولا ما حولها من مستنقعات ، فاضطروا الى فتح باب المفاوضات . وعقدت معاهدة بابليون الثانية في نفس السنة ورحل الروم عن الاسكندرية وعن مصر نهائيا .

ونصت معاهدة بابليون الأولى على اعتبار اقباط مصر « اهل ذمة » ، ومنحتهم حق الاحتفاظ بأملاكهم آمنين على أنفسهم ، ويدفعون للادارة الاسلامية ضريبة تقدر وفقا لحالة فيضان النيل . اما المعاهدة الثانية فقد نصت على جلاء الروم نهائيا عن البلاد وان تترك للمسيحيين كنائسهم ، وان يمنح اليهود حق الاقامة متمتعين بحرية العبادة .

وهكذا بدأ تطبيق مفهوم « التسامح وحرية العبادة » مع الفتح الاسلامى فالتسامح من مبادىء الدين الاسلامى أذ لا اكراه فى الدين . وبالتالى قدم المسلمون الى اقباط مصر ما افتقدوه طوال قرون عديدة ، الأمر الذى جعل الاسلام والمسلمين محل تقدير كبير من جانب الاقباط نظرا للطمأنينة التى نعموا بها بعد الفتح ، وابلغ دليل على ذلك عودة البطريرك « بنيامين » — بطرك الاقباط الارثوذكس — الى ممارسة مهام منصبة الدينى بعد غيبة بلغت ثلاثة عشر عاما ، كان خلالها هاربا بعيدا عن متناول يد الادارة البيزنطية الغاشمة .

واذا كان مبدأ التسامح الدينى يعطى كل صاحب دين او عقيدة الراحة النفسية والطمأنينة ، فان القدوة الحسنة — التى توفرت لدى المسلمين حينذاك — كانت كفيلة بان تجعل كل صاحب دين آخر أو عقيدة يعيد النظر فيما هو عليه من معتقد وسلوك . ولقد كانت اخلاقيات العرب وقتذاك تكسب الأفئدة وتستميل الآخرين وتستحثهم على تفهم حقائق الدين الاسلامى . ومما ساعد على ذلك أن الخلفاء المسلمين شجعوا توافد القبائل العربية على مصر ، فانتشر العرب فى مدن مصر وأريافها واقاموا بين افراد الشعب وجموعة .

وهناك فى القرية ادرك العربى قيمة العمل الزراعى ، وما يوفره له من مال وغذاء ، فاندمج فى عمل الفلاح ، وحاز الأرض ، وتعلم من المصرى كيف يمهدها ويخصبها ويزرعها ويجنى محاصيلها .

ولا شك أن المفاهيم التى غرسها الاسلام فى قلوب المؤمنين — وخاصة من حيث حسن معاملة أهل الذمة — كانت المعبر الرئيسى المؤدى الى سرعة تعايش الطرفين ، والى انصهار العرب مع الشعب ، والى أن يتمصر العرب ، وان يتعرب المصريون ، حتى غدت اللغة العربية هى لغة التخاطب بين الخاصة والعامة ، وتراجعت أمامها بسرعة اللغة القبطية مع تزايد عدد الداخلين فى الاسلام حتى أصبحت الغالبية العظمى من الشعب المصرى على الاسلام ، ولتفاخر مصر — من بعد — بأنها معقل الاسلام وأهم مركز حضارى اسلامى عالمى .

على ان هذا التحول لا يجب أن نتصوره قد تم دون وقوع مقاومة ، فلقد تمسكت مجموعات كبيرة — فى أول الأمر — ليس فقط بعقيدتها المسيحية ، بل وبرفض المفهوم الجديد للادارة الاسلامية . اذ استكثر عدد ليس بالقليل من الاقباط ما فرض عليهم من جزية ، واخذتهم العزة بأنفسهم فقرروا التخلص منها . ولقد اتخذت هذه المقاومة شكل ثورة تارة ، وتارة اخر لجأ المصرى القبطى الى الاسلوب التقليدى الذى درج عليه فى مقاومة الحكم والحكام ، وهو « المقاومة السلبية » اذ فرت أعداد ليست بالقليلة منهم الى الاديرة والى الرهبنة (٥) .

ومن بين الفترات التى اشتدت فيها المقاومة المسلحة الفترة بين ٧٢٥ م و ٨٣١ م ، ولكن لم تلبث أن هدأت الأمور ، وأصبح الطريق أمام الاسلام والتعريب مفتوحا .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان طبيعيا أن ينتهز الاقباط الارثوذكس فرصة هزيمة الامبراطورية البيزنطية — وهى فى نفس الوقت هزيمة للمسيحيين الملكانيين — فقام بعض الأقباط بالاستيلاء على كنائس الملكانيين وتطلعوا الى اذاقتهم من نفس الكأس الذى شرب منه لفترة طويلة اقباط مصر على يد بيزنطه ورجالها .

ولقد كانت هذه التجاوزات من انفعالات الساعة ، وأدركت الحكومة الاسلامية أن مثل هذه التجاوزات تضر بقضية حق الذمى فى ممارسة الحرية الدينية التى كفلها الاسلام لأهل الكتاب . ولذلك هيأت الادارة الاسلامية الفرصة لعودة البطريرك الملكانى فى عهد هشام بن عبد الملك ومارس البطريرك مسئولياته مستظلا بالتسامح الاسلامى .

وخلال عهد الولاة الأمويين فى مصر حظى الاقباط بحرية دينية سمحت لهم — فيما سمحت به — ببناء العديد من الكنائس . ويلاحظ أنه فى هذا العهد ايضا حصل أهل الذمة على مراكز عالية فى الادارة ، اذ كانت المناصب العالية فى الشئون المالية والادارية تسند فى كثير من الأحيان الى الأقباط واليهود ، وذلك لما كانوا عليه من دراية وخبرة بتلك الشئون .

وهكذا ، خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى كانت عمليات التحول الى الدين الاسلامى والأخذ باللغة العربية والتعايش بين المصريين المسلمين ومن بقى على معتقده المسيحى تسير كلها جنبا الى جنب حتى أصبحت مصر ليست مجرد ولاية اسلامية تتبع الخلافة الأموية ثم العباسية وانما واحدة من اقدر بقاع الأرض على متابعة المسئولية الكبرى : نشر الاسلام والدفاع عن حظيرته .

وخلال فترة قصيرة نسبيا تم تعريب الادارة فى مصر ، وفقدت الاسكندرية تماما ذلك التقسيم الذى عرفته من قبل ، ونعنى به التقسيم الذى يقوم على أساس من الدين أو العنصر أو المذهب ، اذ لم تلبث الاسكندرية أن أصبحت مدينة اسلامية قلبا وقالبا . ولكن اقتضى مرور بعض الوقت للوصول الى هذه النتيجة .

وهناك من يقول ان السبب الرئيسى فى تحول مصر من المسيحية الى الاسلام هو توافد القبائل العربية الاسلامية على مصر . ولا شك أن أعدادا ليست بالقليلة من القبائل العربية هاجرت الى مصر . ولكن من ناحية أخرى كان تحول المصرى من المسيحية الى الاسلام هو الذى أعطى لمصر طابعها الاسلامى الذى لا يزال غالبا حتى الآن .

وفى عهد الدولة العباسية — وخاصة فى النصف الثانى من تاريخها — أخذت الأطراف تقوى على حساب الحكومة المركزية فى بغداد ، فظهرت فى مصر عدة دول مستقلة وان كانت تتبع الخلافة العباسية اسميا وعلى رأس هذه الدول : الدولة الطولونية وتلتها الأخشيدية فالخلافة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية وخلفهم فى حكم مصر المماليك الذين كانوا آخر الحكام المستقلين — أو شبه المستقلين — فى مصر حيث أصبحت مصر — بعد الفتح العثمانى لها فى ١٥١٧ — مجرد ولاية تتبع الدولة الاسلامية العثمانية .

لقد كانت تبعيتها للخليفة العباسى اسمية ، وكانت لأحمد بن طولون

بتولى احمد بن طولون حكم مصر استعادت كيانها السياسى الخاص سياسته الخاصة به وبمصر حتى ولو تعارضت مع سياسة الخليفة العباسى او مع أصحاب الحكم فى بغداد . ومن أبرز مظاهر هذه الاستقلالية فى الحكم والادارة أن مصر فى عهد الأسرة الحاكمة الطولونية عادت مرة اخرى تمارس السياسة المصرية التقليدية التى تقول بأن تكون كلمة مصر هى العليا فى الشام .

وعلى نحو ما اعتادته مصر خلال اى أسرة حاكمة ، كان المؤسس ينجح فى اطلاق قدرات مصر الانتاجية والفكرية والعسكرية ، وان تتفجر مظاهر الثروة والحضارة فى عهد خليفته أو بعد ذلك بقليل .

ولقد كان الأمر كذلك فى عهد أحمد بن طولون ، وفى عهد خليفته خمارويه الذى ورث ثروة طائلة ، تجلت ذروتها فى زفاف ابنته (١) الى الخليفة العباسى (٢) ، يحفها جهاز باهظ التكاليف هو — فى رأينا — اقرب الى السفه من اى شىء آخر ولعل الهدف كان اثبات تفوق البلاد على غيرها ، وهو اسراف كان من العوامل التى أدت الى ضعف الأسرة الطولونية لتخلفها اسرة أخرى قصيرة العمر هى الأسرة الاخشيدية ، التى اهتزت امورها اهتزازا شديدا بعد وفاة مؤسسها كافور الأخشيدى ، وأصبح فتح مصر أمام القوة الفتية الناهضة فى المغرب أمرا يسيرا فلم تلبث أن دخلتها جيوش المعز لدين الله الفاطمى .

يجدر بنا عند هذه الوقفة ان نلقى نظرة على بعض أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية منذ الفتح الاسلامى حتى سقوط الدولة الاخشيدية نظرا لأن مصر من بعدها ستدخل فى مراحل جديدة سواء فى المجالات السياسية أو الاقتصادية فضلا عن الاجتماعية .

كانت الضرائب المفروضة على الشعب ينفق منها لسد حاجات البلاد ، وجزء منها يرسل الى خزانة الخلافة الاموية ثم العباسية مشاركة فى المسئوليات

---

(١) كانت تدعى قطر الندى .

(٢) بعد حروب طويلة أمكن التوصل الى صلح بين الخلافة العباسية والحكومة الطولونية فى مصر .

العامة للخلافة . وكان لأموال مصر دور رئيسى فى سـد حاجات الدولة الاسلامية العـامة وتمكينها من القيام بمسئولياتها علما بأن هذه المسئوليات العـامة للخلافة أخذت فى الانحراف فى النصف الثانى من تاريخ الدولة العباسية .

ومن ناحية أخـرى كانت ثروة مصـر واخلاص الفـلاح المصرى فى الانتـاج واتساع نطاق الملكية الخاصـة — التى تعتبر من المبـادىء العامة للفكر الاسلامى حينذاك — كان كل هذا من العوامل التى أدت الى تكـالب المسـئولين فى حكومة الخلافة ذوى الحظوة والمكانة على الحصول على منصب والى مصر .

فكانت مصر تمنح فى كثير من الأحيـان كاقطـاع للوالى ، وذلك قبل قيـام الدولة الطولونية ، وكان الوالى مسئولا عن ادارة أمور البـلاد وجمـع الأمـوال المقررة عليها ليرسلها دفعة واحدة أو على دفعات كبيرة الى خزانة الخليفة .

وبطبيعة الحـال كان الولاة يجمعون لانفسـهم مبالغ ضخمة كانت تعـود عليهم بالثـراء الكبـير .

كانت ارض مصر فى ذلك العهد موزعة على النحو التالى :

(أ) أراضى تملكها الحكومة :

١ — وهى الأراضى التى كانت ملكـا خاصـا للاباطرة ثم صـادرتها الادارة الاسلامية لصـالح الخلافة .

٢ — امـلاك لحكام مصر السـابقين الذين طردوا منهـا وصودرت لصـالح الحكومة .

٣ — الأرض الموات أو المهجورة .

٤ — اراضى آلت الى الحكـومة نظـرا لوفـاة اصـحابها دون وارث أو اراضى موظفين فصلوا من وظائفهم .

(ب) اراضى الاقطـاع :

١ — أراضى تمنح لموظفين كبـار .

٢ — أراضى تمنح مقـابل خدمات لها قيمتهـا عند الخليفة أو من كان الأمـر بيـده .

٣ — اقطاع هبة يستغل لفترة وكان يتحول الى ملك .

٤ — اقطاع حربى وقد توسع الايوبيون من بعد كثيرا فى هذا النوع من الاقطاع .

كانت الضرائب الشرعية مفروضة على شعب مصر وأرضها (١) ولكن فرضت ضرائب أخرى مباشرة وغير مباشرة ، وامتدت الى معظم اوجه النشاط الاقتصادى من رعى وصيد الى غير ذلك ، كما ظهر « التزام » الأرض وكان ذلك يتضمن ارهاق الملتزم للفلاحين أو التجارة والتجار وأصحاب العلاقة .

وكانت وطأة الضرائب احيانا من الفداحة لدرجة أنها دفعت جموعا من الفلاحين الى الثورة فى أيام أحمد بن طولون ، مما جعله يلغى الضرائب غير الشرعية . كذلك لجأ الفلاح المصرى الى اسلوبه التقليدى فى « المقاومة السلبية » بالفرار من القرية حتى شغلت الحكومة بالعمل على اعادة الفلاحين الى قراهم .

شهد هذا العهد — الممتد من الفتح الاسلامى لمصر حتى الفتح الفاطمى لها ، حركة بناء العواصم والمدن والمساجد والجوامع التى لا تزال شاهدة على تقدم فن تخطيط المدن والفن المعمارى الاسلامى . فبالفتح الاسلامى فقدت الاسكندرية دورها كعاصمة خلقت لتولى وجهها نحو الامبراطورية الأروبية المهيمنة على مصر ، وحل محلها عدد من العواصم الجديدة التى انشاها الحكام المسلمون :

الفسطاط ، والقطائع ، والعسكر . وبذلك تكون هذه العواصم الاسلامية قد عادت — الى حد كبير الى الموقع الوسط القديم (منف) .



---

(١) هى الخراج والزكاة اما الجزية فكانت مفروضة على أهل الذمة .

الفصل الثانى
الدولة الفاطمية

٩٦٩ — ١١٧١ م

أصبحت مصر فى أواخر الأسرة الأخشيدية هدفا رئيسيا للدول الكبرى فى منطقة الشرق الاوسط واوربا .

فقد كانت الدولة العباسية تتفكك الى العديد من الدول والدويلات المستقلة وشبه المستقلة حتى أصبحت الفرصة أمام الامبراطورية البيزنطية أوسع لتحقيق أهدافها فى البلاد الاسلامية وخاصة الاستيلاء على مصر .

وهناك فى أقصى الغرب من العالم الاسلامى نجحت الدعوة الشيعية فى اقامة (الدولة الفاطمية) وكان على رأسها خليفة شيعى اثنى عشرى آل على نفسه — معتمدا على القوة الضاربة المغربية — أن يفرض المذهب الشيعى على العالم الاسلامى ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولذلك أخذت الحملات الفاطمية تدق أبواب مصر حتى تمكن جوهر الصقلى من أن يفتحها .

وأقام فى مصر عاصمة جديدة (القاهرة) انتقلت اليها الخلافة الفاطمية وأصبحت مصر لأول مرة مقرا لخلافة اسلامية وان كانت شيعية .

وتكون مصر بذلك قد انتقلت عبر المراحل التالية فى العهد الاسلامى حتى الحكم الفاطمى :

١ — مجرد ولاية تابعة للحكومة المركزية فى المدينة المنورة أو الكوفة أو دمشق أو بغداد ، وهى مقار الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموى والعهد العباسى الأول .

٢ — فى العهد العباسى الثانى أصبحت مصر دولة اسلامية مستقلة تابعة للدولة الاسلامية العامة (الخلافة العباسية) تبعية اسمية .

٣ — أصبحت مصر مقرا لخلافة فاطمية تناوئ الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الأموية فى الأندلس .

يفسر بعض المؤرخين السهولة التى فتح بها جوهر الصقلى مصر بأن ذلك يرجع الى نجاح الدعاة الشيعة الذين أرسلتهم الدولة الفاطمية من شمال افريقية لنشر الدعوة فى مصر . ومع أن هذه الجهود لم تكلل الا بنجاح محدود جدا ، فقد كان للمصريين الذين تحولوا الى المذهب الشيعى دور هام فى فتح الطريق أمام جيش جوهر الصقلى .

عندما كان الفاطميون يدقون أبواب مصر وبعد أن استولوا عليها ، كانت لدى الشعب المصرى (السنى) مخاوف قوية من أن يفرض عليهم الفواطم بالقوة مذهبهم الشيعى ، ولقد كان جوهر الصقلى واعيا جدا لهذه المخاوف . ولذلك نلاحظ أنه ضمن فى عهد الأمان — الذى أصدره لطمأنة المصريين — المبادىء الرئيسية التالية :

١ — أن يظل المصريون على مذهبهم فلا يلزمون بالدخول فى المذهب الرسمى للدولة الفاطمية (المذهب الشيعى) .

٢ — ان تجرى الشعائر الاسلامية على ما ورد فى كتاب الله ورسوله .

٣ — تأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وممتلكاتهم .

٤ — استتباب الأمن وتوفير الاقوات واصلاح العملة ونشر العدل .

وقد انعكست هذه المبادىء على سياسة جوهر الصقلى فى مصر ، فقد ترك الجوامع الكبرى فى مصر على ما كانت علية من حيث استمرار ممارسة الشعائر الدينية على المذهب السنى ، وانما بنى الجامع الأزهر لتقام فيه الشعائر الدينية على المذهب الشيعى . وكان هذا الاتجاه من العوامل التى ساعدت على ابقاء الأرضية السنية الواسعة فى مصر صلبة وقوية أمام التيار الشيعى الحاكم ، وانه فعلا لنوع من الحرية المذهبية ذلك الذى طبقه الفواطم فى مصر بعد فتحهم لها ، مع أن المذاهب والتيارات الشيعية كانت تتعرض لاضطهادات السنة فى كثير من الأحيان .

لقد عمل الفاطميون على نشر مذهبهم والدعاية له فى كل فرصة وفى كل مناسبة ، ومن ذلك انهم اهتموا اهتماما كبيرا بالمواسم والأعياد والاحتفالات ، وليس فقط تلك المواسم والأعياد الشيعية وانما ايضا تلك التى اعتادها المصريون حتى ولو كانت أعيادا ذات أصول قديمة . ومن ذلك مشاركتهم فى

الاحتفال بـ (الغطاس) و (وفـاء النيل) وكذلك بخميس العهـد . وبالاضـافة الى ذلك فقد شاركوا فى الاحتفال بعيد (النوروز) الذى يقع فى ١١ سبتمبر .

وهنـاك من يرى ان الفاطميين لم يتوسعوا فى الاحتفالات الدينية الاسلامية ، وانما اقتصروا على الرئيسى منهـا مثل :

ـ عيد الفطر	ـ عيد الأضحى
ـ مولد النبى	ـ مولد الحسين
ـ مولد السيدة زينب	ـ ليلة الاسراء والمعراج
ـ ليلة النصف من شهر شعبان	

وكان الاحتفـال بعاشوراء من اكثر الاحتفالات التى عنى بها الفاطميون ، فهو لديهم ذكرى يوم استشـهاد الحسـين ، فهو يوم الحزن والآلام وهو يوم النحيب وطلب العفو عما بـدر من المسلمين يومذاك من تقاعس عن نجدة القتيل العطشان (الحسين بن على) .

فكانت المواكب تخرج الى الشوارع وتسير معذبة نفسها مثيرة الأشـجان فى النفوس مذكرة بتلك المأساة التى كان بطلها وضحيتها حفيد النبى صلى الله عليـه وسـلم .

كذلك كانت تقـام المعازى وفيها تلقى المراثى والاناشـيد المبكيات ، وتخرج النسـوة مولولات نائحات باكيات ، صرخاتهن تقطع القلوب .

وعلى مسـافة ليسـت بالبعيـدة تقترف الفاحشـة ويندس من ينـدس فى هذه المـواكب بغيـة سرقة أو فتنـة . متناقضـات مـلأت الاحتفـالات الدينية حينذاك ولا يـزال بعضـها قائمـا فى الموالد التى تقـام هنـا وهنـاك فى الديار المصرية ، وفى كثير من غيرها من بلاد المسلمين ، حتى الآن .

وهناك مقولة عامة عن ان الفاطميين مارسوا خلال حكمهم نوعا من المساواة فى المعاملة بين مختلف أصحاب الديانات . ان ذلك التسـامح الدينى كان واضـحا فى تولى عدد بارز من أهـل الذمة للمناصب العليا الادارية وعلى رأسهم :

ـ منشـا اليهـودى .

ـ عيسى بن نسطوروس .

وربما كان هذا التسامح الدينى هو السبب الرئيسى الذى ادى الى فتح ابواب الترقى أمام اليهودى العراقى يعقوب ابن كلس حتى اعتنق الاسلام وأصبح علما من أعلام الحضارة الاسلامية فى مصر .

وهناك ملاحظة هامة توصل اليها الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور من سياسة الخلافة الشيعية الفاطمية ، وهى أن الفاطميين وقد ايقنوا انه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر من انصار الدعوة العباسية قربوا اليهم اهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة .

حقيقة عدل الفاطميون عن هذه السياسة من وقت لآخر ولكنها دامت الى أن استاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة .

واتبع الحاكم بأمر الله سياسة غير تلك التى كانت فى عهد العزيز ابن المعز . فقد « اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود » بينما تقلد الوزارة « منصور بن عبدون النصرانى » .

ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذا الوزير اشارته الى الخليفة الفاطمى (الحاكم) بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس ، فأصدر مرسوما بهدمها . وكان لهدم هذه الكنيسة اثر كبير فى اذكاء روح الدعوة الصليبية التى أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس .

وتعدلت سياسة الظاهر بن الحاكم بأمر الله المذهبية الى الأخذ بالمبدأ السامى الاسلامى : لا اكراه فى الدين .

ان سياسة الفاطميين المذهبية كانت تتذبذب بين ممالأة الطوائف المسيحية واليهودية تارة وتنقلب عليها تارة أخرى . وهذا الاضطراب — فى اعتقادنا يرجع الى أن الحكم الفاطمى قام من أساسه على الفكر الطائفى الشيعى فى الوقت الذى كانت فيه القاعدة العامة فى مصر على المذهب السنى .

واذا اعتبرنا المعز لدين الله من اشهر خلفاء الدولة الفاطمية من الناحية السياسية ، فان الحاكم بأمر الله هو اشهر الخلفاء الفاطميين من ناحية المسائل الاجتماعية التى ظهرت فى عهده واثارت جدلا لا يزال محتدما حتى الآن بين مختلف المؤرخين والباحثين .

كان الحاكم بأمر الله رجلا محيرا ، فلم يحسم المؤرخون بعد أسباب تلك القوانين والأوامر الغريبة فى رأى الجمهرة ولكنها اجراءات عادية فى رأى عدد من الباحثين ، اذ يرى البعض أن الحاكم بأمر الله كان يواجه تسيبا اجتماعيا ، كانتشار شرب الخمر والفسوق ، فما كان منه الا أن اصدر سلسلة من القرارات التى بدت أقرب الى العشوائية والعفوية والاضطراب الذهنى منها الى التعقل والتفكير الناضج .

ولقد كان الحاكم بأمر الله مغاليا متعسفا فى الأوامر الخاصة بالتضييق على نشاط المرأة الاجتماعية خارج منزلها ، ولكن من ناحية أخرى يجدر بنا أن ننظر اليها من هذه الزاوية فقط وليس من زاوية (جنون) الحاكم بأمر الله .

فهناك من ذهب فى أيامنا هذه الى فهم وتفسير السفور بطريقته الخاصة ومن ذلك أنهم وضعوا على وجه بعض الفتيات والسيدات نقابا فلا ترى الا من ثقبين أمام العينين ومن فتحة للتنفس عند فتحتى الأنف ووضع فى كفيها (قفاز) . وأغلب الظن أن هذه التيارات تنشأ غالبا عندما يموج المجتمع بالفساد والانطلاق غير المقنن .

ولكن مما لا شك فيه أن العديد من أوامر الحاكم بأمر الله المتعلقة بتحريم بعض المأكولات لا تزال تثير جدلا : هل كان ذلك نتيجة اختلال ذهنى أو عقدة نفسية أم كان ذلك مجرد أسلوب خاطىء لتحقيق هدف معين ؟

ويلاحظ أنه فى عهد الحاكم بأمر الله ظهرت عدة دعوات الى رفعه الى مرتبة الألوهية . وهذه الدعوات ليست بجديدة على العالم الاسلامى ، فلقد ظهرت فى أكثر من مكان ولاكثر من زعامة اسلامية . ولكن الذى يهمنا هنا هو أن المذهب الشيعى نفسه ظل عقيدة الحكومة وليس مذهب أهل البلاد المصريين ، وان الدعوات المتطرفة الى تأليه الحاكم بأمر الله ، مثل تلك الدعوة التى قال بها كل من الاخرم و (الدرزى) ، لم تجد لها تربة صالحة فى مصر وانما لفظها المجتمع المصرى ووجدت الدعوة (الدرزية) مكانا لها فى الشام ولا تزال ذات شأن فى كل من لبنان وسوريا حتى الآن .

نسوق هذا للقول بأن طبيعة مصر وطبيعة المجتمع المصرى لا تقبل الا النظريات البسيطة المباشرة المعبرة غير المعقدة . فاذا ما أخذ بها الشعب المصرى أصبح من العسير على اية ضغوط أن تغيره . والمذهب السنى فى حقيقة الأمر

بسيط ومعبر عن أهدافه ، فآمن به المصريون ، ولم يأخذوا بالمذهب الشيعى ولا بالدعوات المتطرفة ولم يعط لمثل هذه الدعوات مكانا فى البلاد لأنها تتنافى مع الفكر المباشر البسيط المصرى . ومن هنا يمكن تفسير طبيعة هذا الشعب بانه من قبيل (السهل الممتنع) .

ولقد ادت تلك الاتجاهات الشيعية الحكومية الى أن يتحمل الشعب المصرى كثيرا من الويلات . فقد نظر العالم السنى الى مصر على اعتبار انها أصبحت شيعية بل وانها خرجت عن جادة الاسلام ، وخاصة عندما تناقلت الالسن انباء (ادعاء) الحاكم بأمر الله الالوهية ، وما دعا هو الى ذلك وانما فعلها المتطرفون ، فانطلقت من مشارق الأرض ومغاربها الدعوات الى انقاذ العالم الاسلامى من هذا المارق عن الدين . وهى دعوة تزعمها الخليفة العباسى ، كما تزعمها ابو ركوة الذى كان من سلالة (أموية) آل على نفسه ليقاتلن هذا (الكافر الحاكم بأمر الله) حتى يعيذ الاسلام الحق الى مكانته .

لقد فشلت المحاولتان وصمدت مصر الفاطمية للضغط ولم تستقر الدعوات المتطرفة الشيعية فى البلاد ولكن عهد (الحاكم) كان نذير اضطراب يعتمل فى البلاد لينفجر فى عهد خلفائه .

❋ ❋ ❋

نظرا لأن القوة الضاربة الفاطمية كانت تتكون - من البداية - من المغاربة ، كان من الطبيعى أن يحصل هؤلاء على مناصب وامتيازات مكافاة لهم على الفتح وعلى دعم الحكم الفاطمى فى هذه البلاد ، وخاصة ان القاعدة الشعبية المصرية كانت سنية ، وكان من المتوقع أن تظل سنية لفترة غير معروفة .

ولكن مثل هذا الوضع لا يستمر الا لفترة محدودة ، اذ لن تلبث المخاوف من هذه القوة العسكرية أن تظهر أمام اعين المسئولين عن الحكم فيصبحون على حذر متصاعد من تحول تلك القوة العسكرية الى قوة سياسية طامعة فى الحكم والادارة وفى المزيد من المناصب والاكراميات .

ومن ناحية اخرى ، كانت مكافاة مثل هذه القوة العسكرية بالمناصب قد تؤدى الى افسادها وانشغالها عن مسئولياتها الرئيسية (المسئولية الدفاعية) .

الي جانب ذلك فهناك عوامل التدهور التى تعمل عملها بفعل الزمن فى مثل

هذه الصفوة العسكرية الحاكمة المميزة . فيتجه الحاكم الى اصطناع قوة جديدة من غير تلك المصادر القديمة ، ولذلك نلاحظ ان الخليفة الفاطمى (المعز) كان يتجنب المغاربة ويشكل قوة عسكرية جديدة من الترك ، ولم يلبث الخليفة (الحاكم) أن خشى سيطرة (الترك) فاصطنع قوة من (السودانيين) .

ولقد وقع الصراع بين المغاربة والاتراك أولا ، ثم وقع بين هؤلاء من جهة والسودانيين من جهة أخرى . فكل يحاول أن يستأثر بالمناصب العليا والارزاق الوفيرة . وأدت تلك الصراعات الى فساد الأمور ايما فساد حتى اضطر الخليفة الفاطمى (المستنصر) الى الاستنجاد ببدر الجمالى — حاكم دمشق — الذى كان جنده من الأرمن ، فدخل بهم مصر وسيطر على القاهرة وأضاف بذلك الى ما كان موجودا طائفة عسكرية جديدة وأن كانت مسيحية .

كان الخلفاء الفاطميون فى نفس الوقت يفكرون فى أن تكون لهم قوة يعتمدون عليها فى الدفاع عنهم ولذلك اتجهوا الى قوة خاصة من (المماليك) يتولون تربيتهم وهم لا يزالون صغارا صبيانا . وربما يكون بعض المصريين قد انضموا الى هذه الفرقة ولكن سرعان ما تخلص منهم بدر الجمالى لعدم كفاءتهم فى قتال الصليبيين على ما ترويه بعض المراجع (١) .

ان ذلك التعدد فى القوى المتميزة المتتالية ليذكرنا بما حدث فى التاريخ القديم عندما كان الرومان يحكمون والباقى فى مراتب ادنى : اغريق ويهود وأخيرا المصريون . كذلك عندما حكم المغاربة اصبحوا هم يمثلون الفئة العليا ، ثم حل محلهم الاتراك لفترة ، وسعى السودانيون الى نفس الهدف ولكن لم يتمكنوا ثم جاء الارمن وسيطروا . نخلص من هذا أن الصفوة العسكرية التى تحصل على مميزات نتيجة اعتماد على القوة لتحكم وتسيطر دون ما التفات الى دور ما لأهل البلاد ، أن مثل هذا الحكم العسكرى يؤدى الى استبعاد الشعب عن دوره الحقيقى فى المشاركة فى التوجيه السياسى ، ويصبح الشعب مقتصرا على الانتاج الزراعى التقليدى دون رغبة فى التطور ناهيك عن التطوير . وهذا يؤدى الى نتائج فى منتهى الخطورة على مفاهيم الشعب المتعلقة بالحكم والحكام والرعية والدولة والانتماء .

---

(١) مختار العبادى : فى التاريخ العباسي ، ص ٢٧٠ .

ولقد زاد من تدهور الأمور وضياع المصالح الحقيقية للشعب المصرى ذلك الجدل المتطاول الذى ملأ صالونات الفكر فى الدولة الفاطمية .

وابرز مظاهر الصراع تلك الاختلافات حول المبادىء التى تحكم تعيين خليفة على نحو ما حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر ، اذ تنازع نزار والمستعلى وتوزع أصحاب الراى بين الرجلين وهزمت النزارية ففر رجالها الى الشام واقاموا لانفسهم كيانا سياسيا ناصب الفاطميين فى مصر اشد العداء .

دارت الخلافات بين الزعامات السياسية والفكرية والدينية حول وراثة الخلافة الفاطمية ، ودار الجدل وتبعه المؤامرات التى اضرت بمصالح البلاد ، والشعب لا يعنى كثيرا بتلك المحاولات ، ولم يدر أصحاب هذا الراى أو ذاك ان لا حاجة حقيقية الى هذا الحوار المرير (النظرى) غير المؤثر فى حقيقة تطور البلاد او فى انقاذها مما الم بها من ضعف . بل لقد كانت تلك المحاورات عامل اجهاز على الدولة الفاطمية فى مصر ، فعندما تبدلت الأحوال وعاد المذهب السنى مذهبا رسميا للبلاد ضاعت تلك المحاورات لتصبح مجرد احداث ذات نتائج سلبية .

لقد ادت كل الاحداث الى اضعاف الحكم الفاطمى فاخذ يتراجع ، فبينما كان الفاطميون قد وصلوا بنفوذهم - وهم فى ذروة مجدهم من أطراف المغرب الى المشرق - وكانت الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى بغداد (١) وحلب ودمشق فضلا عن الحجاز وشمال افريقية ، اخذت الدولة الفاطمية تتقلص فخرج المغرب عليهم وكذلك العراق ثم الشام وانحصر الفواطم فى مصر حتى انهى حكمهم صلاح الدين الأيوبى .

وانه لأمر جد دقيق ان يكون تطور ومصير الحركة الشيعية فى البلاد العربية الاسلامية مقاربا الى حد ما لمصير الحركة الاشتراكية فى البلاد العربية . فلقد انطلقت الحركة الفاطمية من اقصى الغرب وتوسعت شرقا وسيطرت على شمال افريقية وعلى مصر والشام وشرق الجزيرة العربية. وكادت بغداد والعراق أن تقع فى يد الحركة او فى يد اعوانها (حركة البساسيرى) وكاد المشرق كله أن يصطبغ بالصبغة الشيعية ولكن لم يلبث ان سقطت الحركة الشيعية الفاطمية سواء على يد القوى الخارجية

---

(١) كان ذلك لفترة محدودة .

(الصليبيين) او على يد القوى المناهضة لها فى البلاد الاسلامية نفسها أو بسبب أخطاء الحكم والادارة الفاطمية .

ذلك ما حدث أيضا للحركة الاشتراكية فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما انطلقت هذه الحركة وأصبحت تغطى ـ بطريقة أو بأخرى ـ بلاد المشرق والمغرب العربى بدرجات متفاوتة حتى ضربت هذه الحركة سواء على يد قوى خارجية (الصهيونية) أو على يد القوى الاجتماعية والاقتصادية من الداخل .

فهل هناك قاسم مشترك أعظم وعناصر واحدة أو متشابهة أدت الى انتشار واسع أظهرت عوامل وعناصر متشابهة أو متقاربة أدت الى تدهور تلك الفكرة ؟ هناك فعلا قاسم مشترك أعظم أدى الى سرعة الانتشار وهو التعاطف مع الفكرة (الفكرة الشيعية ومحبة آل البيت والاشتراكية) ولكن دون أن يمارس الشعب المصرى هذه الفكرة كعقيدة راسخة أو كايديولوجية محركة .

لقد أحب الشعب المصرى وتعاطف مع الفكرة الشيعية حبا فى آل البيت ولكن ليس دفعا لدعاتها الى المناصب والى كراسى الحكم ، وأحب الشعب المصرى الاشتراكية وتعاطف معها حبا فى المساواة ولكن ليس تحويلا لها الى نظام حكم معين .

ان هذه القاعدة العامة المصرية من فلاحى البلاد لم تتأثر بالدعوات الفاطمية . حقيقة كان حب (على) و (الحسين) من الأمور التى كانت ـ ولا تزال ـ قائمة ومنتشرة بين عامة الشعب ، الا أن هناك فارقا كبيرا بين هذا الحب الروحى وتحويل هذا الى فكر سياسى .

تدهورت الحكومة الفاطمية فى عهد المستنصر ، وخاصة خلال وأعقاب (الشدة المستنصرية) التى وقعت بسبب انخفاض مياه النيل ، وهى شدة استمرت سبع سنوات أكل فيها الشعب الميتة وأطفالا فى المهد ، بينما كانت قبائل لواته المغربية المحاربية تدمر بعض نظم الرى فى الوجه البحرى والجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى . فاستنجد (المستنصر) بوالى عكا (بدر الجمالى) فجاء من الشام الى مصر مدعما بقوة كبيرة من الأرمن واستطاع أن يفرض الأمن فى البلاد ... وأدت اجراءاته

الامنيـة والضرائبيـة الى ان يعـود الفلاحون الى الأرض يزرعونهـا بعـد أن « تحسـنت احوالهم وبعد أن رفع عن كواهلهم بعض الاعبـاء المالية » (١) .

ان العهـد الفـاطمى فى مصر شـهد حيوية واضـحة فى الفـكر والأدب وفى العلوم واشـهر المؤسسـات العلمية ظهرت فى مصر فى عهـد الفواطم : دار العلم ، الأزهـر ، المستشـفيات .

اسس الحـاكم بأمـر الله دار العلـم لتكون مركزا علميـا عالميـا يجتمـع فيه عباقرة كل علم من ادب ولغة وفقـه وفكر الى طب وفلك . وقـد وفر فيهـا المراجـع والنسـاخين . فكانت واحـدة من اشـهر المجتمعـات العلميـة فى العـالم .

اما الأزهـر فهو أعـرق وأعظم ما خلفـه الفـاطميون ، حتى لقد أصـبح الأزهر علمـا على مصر وليس القـاهرة فقط . ولكنه كان فى العهـد الفـاطمى مسـجدا للصلاة ، ومقرا للاحتفـالات الشـعبية ومركزا للتقاضى وللمحتسـب وجامعة للدرس والبحث . فكان له من وراء ذلك صيت مدو فى العـالم الاسـلامى ومتنا وراءه ..

وفى اواخر الدولة الفاطمية اضطربت أمور الحكم والرعية بسـبب التدهور الاقتصادى والمشـكلات السياسـية والعسـكرية الخطيرة التى فرضت نفسـها الفـاطمى ، والحملة الصليبية على بلاد الشـام . ولقد فتحت الحـروب الصـليبية على هذه الدولة وهى فى فتـرة ضـعفها ، ونعنى بذلك الصراع السـلجوقى - صفحة جديدة فى تاريخ مصر .



---

(١) انظر د. سرور : المصدر السابق ص ١٠٩ ، ادى هذاالى زيادة خراج مصر فى ايام بدر الجمالى من مليونى دينار الى ١ر٣ مليون دينار .

الفصل الثالث
مصر والحروب الصليبية

كان المشرق فى حالة صراع بين القوى الاسلامية ويعانى من فوضى الاقتتال بين الوحدات السياسية المتعددة فيه ، بينما كانت التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تهيىء أوربا للتطلع الى السيطرة على بلاد الشام باسم العقيدة المسيحية .

فقد نمت فى الشرق الاسلامى قوة السلاجقة (١)، وتطلعوا الى الشام الذى كان تحت يد الفاطميين وطردوا الفاطميين من بيت المقدس ١٠٧١ م ولكن هذه الدولة السلجوقية الكبيرة لم تلبث ان تحللت ، وظهرت على انقاضها فى الشام مجموعة من « الاتابكيات المتناحرة » .

وفى هذه الظروف تحولت الدعوة الى شن حرب عامة صليبية على الشرق الى مرحلة التنفيذ ، وتشكلت الحملة الصليبية الأولى ، وشقت طريقها الى الشام .. واستولت على انطاكيا وأخذت تتابع تقدمها فى البلاد الشامية دون أن تواجه مقاومة على نفس المسئولية ، بل لقد كانت زعامات عديدة اسلامية فى المنطقة تنظر فى حسرة الى نكبة ماثلة أمام أعينهم وكأن أيديهم قد غلت الى أعناقهم ، أو زعامات رأت فى مقدم هؤلاء الصليبيين واستقرارهم فى البلاد الشامية قوة يمكن أن يفيدوا منها لتحقيق اهداف خاصة أو للثأر من زعيم اسلامى مناهض .

كان حاكم مصر الفاطمى لا ينسى الضربات الناجحة التى وجهها السلاجقة الى الوجود الفاطمى فى الشام ، ورأى فى الظروف الجديدة فرصة لاسترداد ما يمكن أن يسترده من أرض هناك . ولقد انتهزها فعلا ، واسترد الأفضل بيت المقدس فى اغسطس ١٠٩٨ م ، ومد سلطة الحكم الفاطمى حتى نهر الكلب .

واغلب الظن ان الأفضل لم يكن يقيم الحملة الصليبية التقييم الحقيقى لها ،

---

(١) قوة فتية انطلقت من « وراء النهر » الى العراق فاستعان بها الخليفة العباسى المهيض الجناح للقضاء على الحكم البويهى الشيعى فنجح السلاجقة فى ذلك واتسعت دولتهم حتى أصبحت تغطى كذلك الشام وتركيا .

ولم يكن على مستوى الخطـــر الاعظم الزاحف على البـلاد من الشـــمال . اذ كان تقدمه الى تلك المنطقة الوسطى من الشام يعنى شيئا واحدا لدى الصليبيين هو ان الوجود الفاطمى فى الشام يحول دونهم وبيت المقدس .

لقــد اصـــبح الصـــليبيون فى مواجهـــة القـــوات الفاطمية فانزلوا بها بعض الضربات الأولية حتى بلغوا بيت المقدس وضربوا الحصار على المدينة اربعين يوما حتى اقتحموها وراحت سيوفهم فى نشــوة النصر تطيـــح بالرءوس ، اى رءوس ، وتبقر البطون ، حتى توقفت أنات آخر مســـلم أو مسلمة فى المدينة (منتصف يوليو ١٠٩٩) ، وجمعوا اليهود فى كنيسة ثم احرقوهم عن بكرة ابيهم فخلصت لهم المدينة المقدسة ، واهتزت أوربا طربا لهذه الأنباء المروعة .

لقد فشلت المقاومة الفاطمية فى انقـــاذ الشـــام من هذه الموجـــه الصـــليبية الغاشمة ، وتمكن الصليبيون من البلاد ، ولم يكن لدى عرب فلســـطين المقدرة على مواجهة هذا الاجتياح ، أو تنظيم مقاومة فعالة ضد قوى الاحتلال ، بل لقد عقــد الصليبيون مع بعض عرب فلسطين اتفاقيات سياسية واقتصادية بعــد استقرارهم فى بيت المقـــدس (١) .

افاق الحكم الفاطمى الى نفسه ، وأدرك ان الخطب أعظم بكثير جـــدا مـــا ظنوه ، وهب رجال الحكم يجمعون مـــا يستطيعونه من قوة علهم ينقذون الموقف . ولقد بذل الحـــكم الفاطمى فى مصر من الجهـــد والمال والدماء ما يفوق بكثير قدراته المرهقة حينذاك ، ولا شـــك أن الحماس الدينى كان وراء تفجير تلك الطاقات من جســـــد كان يترنـــــح .

حمـــلات عديدة بعث بها حكام مصر ضـــد الصليبيين فى الشـــام ، حملة فى ١١٠١ م ، وثانية فى ١١٠٢ وثالثة فى ١١٠٥ م . حملات خاضت المعركة بعد المعركة، ونكبت فى كل مرة بالهزيمة المرة ، حتى افتقد حكام القـــاهرة القدرة على متابعـــة القتال ، وركنوا الى مصر لعل الله يبدل الأحوال .

وكان الوضـــع فى الشـــام أكثر ســـــوءا وعلى حـــد قول مؤرخ الحـــركة الصـــــليبية (٢) :

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ص ٢٦٩ .
(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

« فى الفترة الواقعة بين الحملة الفاطمية الأخيرة على الصليبيين فى ١١٠٥ م وحملة السلاجقة عليهم فى ١١١٥ م كان أمراء الشام لا يقدرون المصلحة العليا للعالم الاسلامى ، ورفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام مما دفعهم الى محالفة الصليبيين للاحتفاظ باماراتهم خوفا من ان تلتهمها سلطنة السلاجقة فى مارس واحدة بعد أخرى » .

لقد قدم تقاعس القوى الاسلامية الفرص الواسعة للصليبيين للاستقرار فى الشام . وهناك من يرى ان الصليبيين عملوا على تفرقة صفوف المسلمين ، وضرب العرب بالأتراك ، والشيعة بالسنّة لاضعاف الجميع .

واقولها صريحة ان الصليبيين فى ذلك لم يفرقوا بين المسلمين بمثل ما قطع المسلمون بأنفسهم حبال المودة والتعاضد فيما بينهم . وانه لمن الخطر حقا ان نعلق مشاكلنا على شماعة الاطماع الأجنبية .

بل اقولها صريحة ، انه لمن تصور النظر — فى عرف السياسة حينذاك — ان لا يفعل الصليبيون بالمسلمين ما فعلوه من ضرب قوة اسلامية بأخرى ، لما كانت عليه تلك القوى الاسلامية من عداء لا يقل عن عدائهم فى بعض الأحيان للصليبيين .

واذا كانت مصر فى عهد الافضل قد بذلت تلك الجهود المضنية — ولكن الفاشلة فى محاولاتها لانقاذ نفسها وانقاذ الشام من النكبة الصليبية — فانها فى نفس الوقت استنفدت طاقاتها القتالية فى ظروف نظام الحكم القائم حينذاك . وكانت تلك الهزائم المتتالية بمثابة بداية النهاية للحكم الفاطمى فى مصر(١)، بل اصبحت مصر من بعد هدفا يسعى الصليبيون الى تحقيقه ، فاذا ما وضعوا ايديهم على الشام ومصر قبضوا على ناصية العالم الاسلامى ، وبدا لهم — فى بعض الأوقات — كأن الهدف اصبح قاب قوسين أو أدنى ، وخاصة بعد تتويج عمورى الأول ملكا على بيت المقدس فى ١٨ ديسمبر ١١٦٢ م .

واذا كان عمورى على هذا المستوى من الفكر الاستراتيجى ، فقد قيض الله للمسلمين زعامتين على جانب كبير من الصلابة فضلا عن الايمان بالمسئولية العامة : عماد الدين زنكى اتابك الموصل وخليفته نور الدين محمود .

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٦٠ .

فلقد آثر الأول الا يورط نفسه فى مستنقع الخلافة العباسية فى بغداد وركز قوته ضد الصليبيين فى الشمال فانزل بهم أول هزيمة كبيرة باستيلائه على الرها .

فاوقف بذلك الصليبيين عند حد . لتبدأ من بعده خطوات الحصر والتطويق . وكان ذلك على يد نور الدين محمود عندما سيطر على حلب وحماه وحمص ودمشق .

فى هذه الظروف الأخيرة اصبحت مصر — وكانت الادارة الفاطمية فيها تحتضر — فى نظر عمورى الأول ثمرة اينع قطافها ، وما كان نور الدين محمود ليتركه أو يترك له مصر ، وما كان شعب مصر — رغم ما كان يعانيه — ليتقاعس عن دفع الخطر عليه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وما اعظم هذا الشعب حين تتجمع عليه كافة أسباب الاستسلام ، فما وقع لمصر على يد حكام لا يتورعون عن التحالف مع الصليبيين ، وما تعرض له من غزوات وغزوات مضادة ، كان مجرد محن لابد أن تزول ، ومجرد ضربات قاسيات لابد لها من ان تتكسر على صخرة صلابته ان عاجلا أو آجلا .

فشاور الذى تولى الوزارة فى مصر (يناير ١١٦٣ م) كان عاصفة شر على البلاد لا يماثله فى ذلك الا خصمه ومنافسه ضرغام ، وفى خضم فوضى الصراع بين الشرين تقدم عمورى بجيوشه حتى بلبيس (خريف ١١٦٣ م) ولم يرده عنها الا صمود المدافعين واطلاق مياه الفيضان عليه وضغط نور الدين على الصليبيين فى الشام .

وكان (شاور) الذى فر من وجه خصمه ضرغام قد لجأ الى نور الدين ، وكان يضمر اغراءه بمصر ، ولكن نور الدين كان يريد مصر ليس نتيجة لاغراءات (شاور) ولكن بسبب متطلبات استراتيجية الصراع ضد الصليبيين . وبعث نور الدين أحد قواده ، شيركوه ، على رأس جيش الى مصر وسيطر عليها ولقى (ضرغام) مصرعه ، وتطلع (شاور) الى الانفراد بمصر ففعل مثل سلفه وتحالف مع عمورى ضد شيركوه . ودارت رحى قتال دموى مخرب على أرض مصر ، من بلبيس الى الاسكندرية تجلت خلالها روعة المقاومة المصرية المحلية ، ولكنه كان صراعا بين أطراف غير قادرة على الحسم فكان ان

اتفق على خروج الصليبيين وشيركوه من مصر ، وكان ذلك كسبا للجانب الاسلامى لأنه اعادة للأوضاع فى مصر الى ما كانت عليه قبل غزوة عمورى للبلاد .

وعاد عمورى ليدبر حملة جديدة على مصر ، ودخلها واذل البلاد التى وقعت فى قبضته ، وصمدت بلبيس حتى وهنت فاستسلمت فاستباحها الصليبيون ودمروها (نوفمبر ١١٦٨) ، وزحفوا الى القاهرة فآلى أهلها على انفسهم أن يموتوا وسيوفهم فى أيديهم لا ان تحصدهم — وهم مستأمنون — سيوف عمورى فكانت مقاومة رهيبة بينما كان (شاور) يحرق الفسطاط على أهلها ففروا الى القاهرة ليضيفوا الى حاميتها المقاتلة قوة الى قوة ، فاضاعوا الفرصة على عمورى حتى وجد نفسه بين نارين قوى الدفاع من البلاد فى داخلها وجيش جديد بقيادة شيركوه يستحث الخطى الى مصر لانقاذها فاسرع عمورى الى الانسحاب .

وفى هذه المرة لا شاور ولا امثاله يسند اليهم حكم مصر ، بل أسند الى شيركوه، بتقليد من العاضد الخليفة الفاطمى فى ١١٦٩ م ولكن لم يلبث ان توفاه الله فاسندت الوزارة الى صلاح الدين . الذى كان قد تردد اكثر من مرة عندما عرضت عليه مصر .

وانه لموقف فى المنطقة يثير التردد لدى اكثر السياسيين أو العسكريين طموحا . عصر تعددت فيه القوى المتطاحنة ، المستعدة للتحالف والتعادى بين ليلة وضحاها . وزعامات قوية صديقة ومعادية ، وشعوب عيونها مترددة فى الانحياز لهذا أو لذلك ، والايديولوجيات متعددة لا ترى فى الاخرى الا المروق أو الخيانة . والخطر الاعظم جاثم على أرض يمكن ان يضرب منها فى أكثر من اتجاه ، ومن ورائه جبهة أوربية مسيحية عريضة تدعمه بالمال والرجال والعتاد .

ومصر نفسها فيها وحدها ما فيها من تناقضات . حكم فاطمى شيعى يحتضر ، وارضية شعبية سنية ارهقتها المجاعات والصراعات بين التكتلات المتنافسة . سودانيون : مسيطرون على البلاط الفاطمى لا يتورعون عن الاقدام على اية خطوة للحفاظ على مكانتهم ومكاسبهم ، وارمن : كانت لهم سطوة منذ ان جاءوا مع بدر الجمالى ، واحتفظوا بمكانة من منطلق عملهم كحراس للخليفة الفاطمى .

تحمل صلاح الدين مسئولية هذا الموقف المعقد ، وعكف على ترتيب البيت المصرى من الداخل أولا ، وكانت أوضاع هذا البيت معقدة ، وكان من الطبيعى أن يواجه حركات داخلية معادية له ، وهو القادم اليهم من الخارج . وكان من اول

الاخطار التى هددت استقرار صلاح الدين فى مصر ثورة السودانيين عليه ، ومؤامرات الخلافة الفاطمية لما كانت تدركه هذه الخلافة من ان صلاح الدين (السنى الشافعى) لن يتقاعس عن القضاء على نظام الحكم الشيعى عندما تحين له الفرصة . وكان صلاح الدين فى نفس الوقت يخشى من أن يقوم بتصفية الحكم الشيعى فيواجه بثورة وربما بثورات أكبر من قدراته ، وخاصة أن صلاح الدين لم يكن قد تبين بعد حقيقة مشاعر المصريين نحوه .

لقد تحرك السودانيون فعلا ، وكان تحركهم لا يتورع عن طلب مساعدة الصليبيين ضد صلاح الدين ، لقد تفوقت المصالح الخاصة على المصلحة العامة ليس فقط لدى هؤلاء السودانيين ، وانما لدى الخليفة نفسه اذ ايد حركة السودانيين ، ولم يثنه عن متابعة ذلك الا خوفه بطش صلاح الدين به .

اما صلاح الدين فقد قرر ان يصفى هذا الوجود السودانى الخطر على مستقبل مصر والأمة ، فوجه اليهم ضربة قضت على مكانتهم القيادية فى البلاط الفاطمى . وبعد أن قتل « مؤتمن الخلافة » — المسئول السودانى عن البلاط — وضع مكانه بهاء الدين قراقوش الذى جعل كل صغيرة وكبيرة فى القصر تجرى بأمره ، فضرب به المثل عبر العصور التالية ، وانقض صلاح الدين على محلة السودانيين فى الفسطاط فأحرقها ، وطاردهم حتى « أبادهم بالسيف » .

ثم انقض صلاح الدين على الأرمن ، فأحرق ثكناتهم حتى لا يعطيهم اية فرصة للقيام بثورة ما على نحو ما فعل السودانيون .

وبدا صلاح الدين من بعد القوة الاعظم فى مصر . وأصبح قادرا على الاقدام على خطوة جريئة كانت تلح عليه وعلى نور الدين محمود ، وهى الغاء الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر الى الخلافة العباسية السنية والغاء المذهب الشيعى كمذهب رسمى للبلاد ، والعودة الى المذاهب السنية . وقد « تم الانقلاب فدعى فى القاهرة فى اول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) للخليفة العباسى . وجرى ذلك فى هدوء فى اول الأمر . ولكن لم تلبث القوى المضادة أن أعدت ثورة مضادة (١) .

---

(١) عاشور ، ج ٢ ، ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .

كانت عناصر الثورة متمثلة فى :

١ — المخلصين للمذهب الشيعى .

٢ — اتباع النظام القديم وعلى رأسهم :

(أ) عمارة اليمنى (الشافعى) لما كان يحظى به من كرم الفاطميين .

(ب) كنز الدولة أحد القادة الفاطميين .

(جـ) الجند السودانى المتبقى بعد تلك الضربة .

وكانت ثورة مضادة لا تتورع عن الاستنجاد بأعداء الاسلام والمسلمين ، استعانوا بعمورى الاول — ملك بيت المقدس — واستعانوا بالاسطول النورماندى . وبينما كان لاقباط مصر دور فى كشف مؤامرة الشيعة ضد صلاح الدين (١) ، استخدم الثوار « الحشاشين » (٢) لاغتيال صلاح الدين ولكن باءت محاولتهم بالفشل (١١٧٣ م) وتمكن صلاح الدين من القضاء على الثورة المضادة (١١٧٤ م) .

وانه لامر ذو مغزى ان تظهر طائفة الحشاشين — التى نظمت فرقا لاغتيال الزعماء المسلمين المخالفين لهم — فى فترة كان فيها العالم الاسلامى ينحدر نحو التفكك بسرعة كبيرة ، وان يغطوا معظم ارجاء العالم الاسلامى من فارس حتى مصر ، ولفترة طويلة من القرن العاشر حتى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر ، وان تظهر فرق الاغتيال السياسى فى الوطن العربى فى العقدين الاخيرين لتنال بالقتل خصومهم ومخالفيهم فى التوصل الى مواجهة ما لخطر التوسع الاسرائيلى .

ان مثل هذه الفترات من التفكك والشعور بالضياع كفيلة بان تفرز مثل هذه الجماعات ، وخاصة عندما يكون كل زعيم حاملا شعارا اخاذا بينما اعداؤه فى المنطقة يحرزون الفوز بعد الفوز .

---

(١) عاشور ، جـ ٢ ، ص ٧٠٦ .

(٢) جماعة ذات مبادىء خاصة اتخذت من مدينة « الموت » معقلا لها ، ونشرت الرعب فى معظم البلاد الاسلامية . وهى جماعة ذات أصول شيعية ولكن مبادئها غامضة . وقد قضى عليهم بعد استيلاء المغول على معقلهم ومطاردة الحكام المسلمين لهم فى أكثر من مكان .

بعد أن وطد صلاح الدين نفسه فى مصر ، ونجح فى الغاء الخلافة الفاطمية ، والمذهب الشيعى عمل على استعادة المذهب السنى لمكانته ، وكان الشعب المصرى سعيدا بذلك . فاكثر صلاح الدين من اقامة المدارس الشافعية ، ونشر القضاة الشافعية فى أماكن القضاة الشيعة .

ان هذا التحول الذى جرى دون ما ثورة شعبية مصرية شيعية يدل بجلاء على أن الشعب المصرى ظل محتفظا بسنيته رغم الجهود المضنية التى بذلها الفاطميون من أجل غرس المذهب الشيعى فى نفوس المصريين . ولكن فى نفس الوقت ظل المصريون محبين مخلصين لعلى ولآل بيته كل الحب الذى يصل فى بعض الأحيان الى مراتب أعلى بكثير مما تسمح به المذاهب السنية الأصولية .

كان صلاح الدين فى حاجة الى الأموال ، وكانت أحوال الشعب مترديه ، ووجد كبار الملاك ان صلاح الدين لن يجد من جهة غيرهم لتمويل مشروعاته وادارته ، وخشى هؤلاء على ممتلكاتهم وأموالهم منه ، فقاوموا مطالبه ، فضربهم صلاح الدين .

ولكن نلاحظ انه اقدم على خطوة تجعله فى محل النقد وهى انه حين وجه ضربته الى كبار الملاك ، لم يلبث أن احل محلهم رجاله من أهل الشام . وكان ادارة الاملاك الكبيرة والاقطاع من حق من ليس مصريا ، وان المصرى هو الذى يفلح الارض ويقدم انتاجه للأداة الادارية والعسكرية . وكم فى ذلك من نتائج سيئة على المدى الطويل .

ويبدو أن صلاح الدين لم يكن ينوى تكوين جيش من المصريين . وربما كان لديه بعض العذر فى الفترة المبكرة من حكمه ، الفترة التى لم يكن يدري فيها الا القليل عن حقيقة مشاعر المصريين نحوه . حتى اذا ما أثبت المصريون مقدرتهم العسكرية فى الذود عن حياضهم عدل صلاح الدين من فكرته واتجه الى تجنيد المصريين . وفى ذلك يقول أحد المؤرخين :

« لم يكن فى طاقة صلاح الدين أن يبادر الى تكوين جيش من أبناء مصر الذين لم يكن قد تبين فى الفترة الأولى مدى ارتياحهم اليه واطمئنانهم الى حسن سياسته . والواقع أن معركة دمياط كانت محكا لهذا الاختيار ، اذ انه خشى أن يغادر القاهرة ليواجه المهاجمين خوفا من انقلاب مصر من الداخل ضده فيقع بين عدوين داخلى وخارجى . وعندما قام أهل دمياط بدفع المعتدين

بجهـودهم الذاتيـة بدأ صلاح الدين فى تكوين نواة جيش مصرى لحمـا ودمـا يعتمـد عليه ويزيد به القوة العسكرية الضاربة فى مصر (١) .

ان هذا الموقف من تجنيد المصريين يحتاج الى وقفة ودراسـة مقـارنة بين صلاح الدين وبعض من حكموا مصر قبله ، وبعض من حكموها من بعده .

فالبطالمـة جاءوا من خارج البـلاد ، وفرضوا أنفسـهم عليهـا واعتمـدوا على الاغريق فى الدفـاع عن ملكهم ، حتى نضـب معين الاغريق ، وحتى نكبـوا بالهزيمة ، فاتجهـوا الى أبنـاء مصر بعـد موقعـة رفح (٢١٧ ق.م) .وأثبت المصرى كفـاءته فى ميدان القتـال .

وصلاح الدين جـاء على راس قـوة اسـلامية كردية وحكم البـلاد ، ولـم يجنـد أهلها الا بعد ان اثبتوا بأنفسـهم انهم مقاتلون اشـداء عن ديارهم .

ومحمد على باشـا من بعد ذلك بعدة قـرون تجنب تجنيـد المصريين حتى اثبتوا مقدرة عسكرية (ضد حملة فريزر فى رشيد) وحتى اضطر هو الى ذلك .

فهل نسـتطيع القـول ان تجنيـد المصريين أمر مسـتبعد من حـاكم يأتى الى مصر من الخـارج حتى يضـطر الى ذلك سـواء أكان متسـلطا أوربيـا (بطلميـا) أو كان منقـذا اسـلاميا مجـددا . واذا ما أخـذنا فى الاعتبـار ان المصرى اسـتبعد من الجندية لفترات طويلة جـدا من التاريخ لأدركنا أن هناك ظروفا معينة أدت الى فرض هذا المفهوم على عقلية الحاكم واسـتكان له المواطن لفترة حتى سنحت الفرصة لتغيير هذا المفهوم .

ان الدفاع المجيـد للشـعب المصرى عن دميـاط كان نوعا من الانطـلاقة الذاتية لمواجهـة هجـوم مفـاجىء شـنه الأسـطول البيزنطى فى ١١٦٩ . كانت المدينـة الميـنـاء بلا اسـطول ، وجيش صلاح الدين متحصن فى بلبيس والقاهرة والاسـكندرية . ومع ذلك دبر أهل دمياط حيلة ذكية اسـتخدموا فيهـا الأوانى الفخـارية المشـتعلة التى منعت الأسـطول المعادى من تحقيق أهدافه .

ومن بعد ذلك اسـتخدم صـلاح الدين قدرات مصر الاقتصـادية والبشرية

---

(١) د. محمد حلمى محمد أحمد : مصر والشام والصليبيون ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م ، ص ١١٢ ــ ١١٤ .

من أجل انقاذ العالم الاسلامى من الخطر الصليبى حتى حقق الانتصار الكبير فى حطين (١١٨٧) واسترد بيت المقدس . ولكنه لم يلبث أن واجه الحملة الصليبية الثالثة . وناشد صلاح الدين حكام المشرق الاسلامى وحكام المغرب الاسلامى أن يدعموه كما تدعم أوربا الصليبيين اذ طلب منهم :

« ان يمد غرب الاسلام المسلمين باكثر مما امد غرب الكفار الكافرين ... (وان) يقطع عنهم مادتهم من جهة البحر » .

ولكن ضاعت صيحات ونداءات صلاح ولم يستمع اليه احد من ذوى السلطان ، وكان العذر اقبح من الذنب اذ أن سلطان المغرب رفض امداده بالدعم العسكرى لأن صلاح الدين لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين .

ويواجه صلاح الدين أوربا ممثلة فى كبار ملوكها ويضطر الى عقد صلح الرملة (١١٩٢ م) ثم توفى هذا المجاهد الاسلامى بعد عام . واذا بالمنطقة تعود الى دواماتها المروعة :

— البيت الأيوبى الحاكم ينقسم على نفسه ولن يلبث أن يتصارع الاخوة فيما بينهم ولا يتورع بعضهم عن التحالف مع الصليبيين .

— أصبحت مصر هى العقبة الحقيقية أمام الوجود المستقر الصليبى فى الشام فاتجهت ضدها الحملات الصليبية الوحشية . وأبرز مثال على ذلك ما وقع لدمياط على يد الصليبيين عندما استولوا عليها فى أيام الملك الكامل . اذ تعرضت الى جانب حصار الصليبيين لها للأوبئة والمجاعة ولما سقطت بقروا بطون الحوامل واخذوا يفجرون بالنساء وجعلوا مسجدها كنيسة ، والملك الكامل يحاول أن يقنع القوى الاسلامية بضرورة دعمه دون جدوى .

وأخيرا عقد الملك الكامل صلحا مع فردريك الثانى على أساس انقاذ مصر من الصليبيين وترك بيت المقدس لهم .

ان هذه الخطوة لتدل على أن الملك الكامل كان قد ضجر من طول تحمل مصر للأعباء التى تفوق طاقتها فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يتقاعسون عن نجدته .

ولم تلبث المنطقـة أن تعرضـت للفوضى لا تدرى مع من ضـد من . حتى اتيلت جحـافل المغول على المشرق الاسـلامى ولكن فى الوقت الذى كانت فيـه القوى الصليبية تتدهور فى أعقاب المحاولة الأخيرة التى قام بها لويس التاسـع .

هاجم لويس التاسع مصر ليقضى على القوة الحقيقية القـادرة على تصفية الوجود الصليبى فى الشام ، واسـتولى على دمياط ، ففر منهـا أهلها بعد تدمير المدينة فعمل لويس التاسـع على تحويلهـا الى مدينة كاثوليكية وجعل جامعهـا كنيسـة باسـم نوتردام .

الا أن المقاومة الشـعبية ,وكذلك القـوات المملوكية اسـتطاعت أن توقع بجيش لويس التاسـع وأرغمته على الاستسـلام . وقصته معروفة حتى فديته ورحيله الى عكا ، وأمضى فيها أربع سنوات يعيد تنظيم القوى الصليبية . بينمـا كان الأيوبيـون والمماليك المتنازعون يسـعون الى الاسـتعانة بلويس التاسـع ، الا أن عمـر الصليبيين فى الشـام كان على وشـك الانتهـاء وكذلك كانت أيـام الأيوبيين قليلة اذ لم يلبث المماليك البحرية ان خلفوا الأيوبيين ، وصـدوا المغول ، ومـضى المماليك بنجـاح فى تصفية الوجود الصليبى فى الشـام حتى حققوا ذلك تمـاما فى ١٢٩١ .

ونخرج من كل هذا بالحقائق التاليـة :

١ — ان المسلمين فى الشـام عجـزوا عن الدفـاع عن ديارهم وعن تنظيم مقاومة فعالة مسـتمرة للوجود الصليبى . وكانت القوى الحاكمة فيه متصـارعة فأعطت الفرص الواسـعة لتوطيد أقدام الصليبيين هناك .

٢ — ان مصر والشام عانتا بمرارة من الصراعات بين الطامعين فى حكمهـا الذين كانوا لا يتورعون فى بعض الأحيان عن التحالف مع الصليبيين .

٣ — ان العـالم الاسـلامى ترك العبء الأكبر عـلى مصر لكى تنقـذه من الخطـر الصـليبى .

٤ — ان الشـعب المصرى شـارك بقدراته الذاتية فى الصراع ضد الصليبيين ولم يعطه الأيوبيون ولا المماليك الفرصـة الحقيقية لتشـكيل جيش كبير لخوض معـارك تحـرير الشـام .

٥ ـ ان مصر ردت عن العالم الاسلامى الخطرين الصليبى والمغولى . ولكن نجاح مصر ضد المغول يرجع الى ان المغول لم يلقوا بكل ثقلهم ضد مماليك مصر لاسباب كثيرة .

٦ ـ ان المماليك احتكروا الحكم فى مصر والشام . وخرجوا من التجربة الصليبية بنظرية استراتيجية خطيرة تقول ان الأجدى هو اغلاق موانى الشام فى وجه الغرب الصليبى بردم بعض موانيه (مثل عسقلان) ، وان الأجدى لحكم مصر ان يظل الشعب المصرى فى الفلاحة دون الجندية معزلوا الشعب عن مجريات الأحداث والتطورات .

وسنتناول فيما يلى تطور المجتمع المصرى وتاريخه فى عهد دولة المماليك بقسميها (البحرية) و (البرجية) .

الفصل الرابع

مصر فى العهدين الأيوبي والمملوكي

فى أواخر العهد الأيوبى تصارعت زعامات الأسرة الأيوبية على الحكم واخذ الاتجاه فى نفس الوقت ينحو نحو تجنب استخدام القوات الكردية وغيرها ، من أدوات الصراع على السلطة ، الى استخدام المماليك . واخذ نجم هؤلاء يصعد لعدة اعتبارات اهمها أنهم كانوا يعدون اعدادا فكريا وعسكريا جيدا بدرجة مكنتهم من التفوق على غيرهم ، واثبتت انتصاراتهم فى المعارك الحربية الحاسمة ذلك التفوق .

فلقد كان لفرسان المماليك الدور الرئيسى فى احراز الانتصار الكبير فى معركة المنصورة حتى اعطيت الفرصة لكى يجهز المتطوعة المصريون على مقاومة لويس التاسع وجيشه الى ان استسلم (١٢٥٠ م) .

ولا تكاد تمر عشر سنوات حتى أحرز المماليك نصرا حاسما آخر واعلى به انتصارهم على المغول فى موقعة عين جالوت ، فحق لهم أن يتباهوا بأنهم منقذو البلاد الاسلامية (١) ، وأن يدعوا أنهم أحق الناس بحكم ما تحت يدهم من بلاد . ولكن كانت هناك أوضاع تجعلهم يشعرون بالحرج وعلى رأسها مطالبة البيت الأيوبى بحقه فى حكم مصر .

كان البيت الأيوبى — الذى ركز وجوده فى الشام مناهضا لمماليك مصر وحكمهم — يرى أن الشرعية لهم وأن الافتيات من عبيد سابقين (المماليك) على الحكم وأصحابه أمر لا يقبله الأيوبيون ولا الشعب . ولكن قبضة المماليك على الشعب كانت قوية ، وسمعتهم — بعد تلك الانتصارات — كانت مدوية . وكان المماليك بعيدى النظر عندما عمدوا الى سحب ورقة الشرعية من يد الأيوبيين عن طريق جعل القاهرة مقرا للخلافة العباسية .

---

(١) كما هو معروف فى التاريخ ظل الضغط المملوكى على الجيوب الصليبية فى الشام حتى استطاع المماليك أن يصفوا الوجود الصليبى فى الشام فى أواخر القرن الثالث عشر ، الأمر الذى أعطاهم مكانة عالية فى نفوس المسلمين .

فبعد سقوط الخلافة فى بغداد على يد المغول (١٢٥٠ م) أقام المماليك امتدادا لها فى القاهرة ، وأصبح السلطان المملوكى يعين بواسطة الخليفة العباسى فى القاهرة ، وما كان هذا الخليفة ليستطيع — فى الغالبية العظمى من الأحوال — أكثر من أن يوقع على الأوراق التى تقدم اليه . وهكذا انتصر المماليك سياسيا على الأيوبيين كما انتصروا عليهم عسكريا . فخلصت مصر والشام لحكمهم فيما عدا جيوب صليبية لم تلبث أن صفيت على يد المماليك فى أواخر القرن الثالث . واستمر الحكم المملوكى للبلاد حتى الفتح العثمانى للشام (١٥١٦) ولمصر (١٥١٧) .

يعتبر عهد المماليك فى مصر — لدى جمهرة المؤرخين — مقسما الى :

١ — عهد المماليك البحرية .

٢ — عهد المماليك البرجية .

وهو تقسيم له دلالته ، حيث انه يمكن القول بصفة عامة أن العهد الأول كان عهد الازدهار ، وكان الثانى عهد تدهور استمر حتى الفتح العثمانى لمصر .

فى العهد المملوكى الأول كانت القاهرة كثيفة السكان نسبيا ، وكانت قبلة الذين يعانون من ضيق الحياة فى البلاد العراقية والشامية وفى شبه الجزيرة العربية والديار الأندلسية . وكانت القاهرة مزدهرة بأسواقها ومراكز العلم بها وعلى رأسها الأزهر والمدارس الدينية ، وبالحركة الدائبة فى مختلف شوارعها ومطاعمها وأماكن النزهة الصاخبة فى أعياد المسلمين والمسيحيين (الأقباط) . والتجارة الداخلية والخارجية نشطة والحجاج يفدون على مصر — فى طريقهم الى الأراضى الحجازية — بأعداد كبيرة .

كانت دولة المماليك فى العهد الأول فتية وقوية ، بينما كانت حكومات الشرق الاسلامى تعانى من مرارة الاجتياح المغولى ونتائجه .

كان المماليك — رغم ما كان بينهم من صراعات حول الحكم — قوة ضاربة سيطرت على البلاد . وشكلوا ما يمكن وصفه بالأوليجاركية الحاكمة المستأثرة بالمناصب القيادية فى الجيش والادارة ، ومستأثرة الى جانب ذلك بأرض مصر التى وزعت فيما بينهم وعلى الجند على هيئة اقطاعات .

كان مماليك السلطان يعرفون بالمماليك السلطانية ويشكلون الجيش الأول ، وقوات الأمراء من المماليك تشكل الجيش الثانى الذى كان يضم كذلك (أولاد الناس) . وأولاد الناس هؤلاء هم ابناء المماليك . فالمماليك كانوا يشترون من القوقاز بصفة خاصة ومن أماكن عديدة أخرى . فكانوا عبيدا فى أول الأمر ثم يعتقون . أما أولاد الناس فكانوا يولدون أحرارا . وكانت مكانتهم أقل من أولئك . بل وتدهورت فيما بعد .

وتميز المماليك — فى العهد الأول — بترابطهم فيما بينهم ، وبولائهم لسلطانهم ولأمرائهم ، ويرى أحد مؤرخى هذه الفترة أن ذلك الترابط بين السلطان ومماليكه وبين الأمير ومماليكه يرجع الى أن السلطان أو الأمير كان يشترى المملوك صغيرا صبيا ويربيه حتى يشب فيعتقه ، فيرتبط المملوك بسيده برباط الأستاذية ، وترابط المماليك فيما بينهم برباط أشبه بالأخوة ، وكان هذا الترابط والولاء من العوامل التى جعلت السيطرة لهؤلاء المماليك .

كان ذلك فى العهد الأول حتى اذا ما اضطر السلاطين والأمراء الى شراء المماليك فى سن الشباب تغير الحال ، فضعفت روابط الأستاذية وضعفت روابط الأخوة ، وانطلقت الفوضى من بعد نتيجة لذلك الانحلال فى الروابط (١) وكانت المطالب المتتالية بزيادة الجوامك أو الرواتب وتأخر الحكومة المملوكية فى دفعها هى الأسباب الرئيسية لشغب المماليك وخاصة المعروفين باسم الجلبان .

فقد كان المماليك يحصلون على الاقطاعات ، حسب رتبهم ، وكانت تدر عليهم دخلا وفيرا ، ولذلك لم تكن لهم رواتب فى الغالبية العظمى من الأحوال . حتى اذا ما تدهورت أحوالهم وأصبحت الاقطاعات لا تقدم الدخل المطلوب لجأت الادارة المملوكية الى منح الرواتب للمماليك . وكانت تدفع لهم تلك الرواتب من الخزانة السلطانية . فاذا ما تعرضت الخزانة للافلاس وتوقف السلطان عن الدفع تحول المماليك الى أعمال شغب رهيبة حتى أصبح الشغب ظاهرة من ظواهر العهد المملوكى الثانى .

فمتى بدأت هذه الظاهرة ! قد يكون من الصعب تحديد هذه البداية ، كما يصعب كذلك تتبع تصاعدها بدقة ، ولكن يمكن الاعتماد على رواية

---

(١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف .

احد كبار المؤرخين — وهو ابن اياس — لأحداث « المماليك الجلبان » فى تحديد بداية ولو تقريبية لتلك الظاهرة ، كما يزودنا هذا المؤرخ بتطور هذه الظاهرة حتى أصبحت واحدة من نكبات مصر خلال العهد الثانى من حكم المماليك ، وكانت فى نفس الوقت عاملا جوهريا فى سقوط دولة المماليك فى نهاية الأمر على يد العثمانيين .

فمن البدايات الأولى لحوادث شغب الجلبان يقول المؤرخ ابن اياس :

« أول حوادث الجلبان فى الفتك » وتمت فى شعبان ٨٧٧ هـ ، و ذلك عندما « ثارت جماعة من المماليك الجلبان » ضد أحد كبار رجال الادارة ، فانطلقوا ضده حتى هاجموا داره (١) ».

وفى الأعوام التالية تصاعدت شدة وعنف فتن المماليك ، ففى عام ٨٧٩ هـ :

« ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك وهو فى داره ، فلما بلغ ذلك السلطان بعث ... للأمراء بأن يلبسوا آلة السلاح وأن يثبوا على المماليك الجلبان ، فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة فأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود الفتنة » (٢) .

وأمكن اقناع الأطراف المتنازعة بعقد الصلح ، وهدأت الأمور ، ولكن الى حين .

وفى فتن اخرى نلاحظ تطورا خطيرا يتمثل فى توالى ضعف شديد من جانب السلطان ازاء الجلبان وفتنهم ، على النحو التالى :

« ثارت فتنة كبيرة فى القلعة بين المماليك الجلبان حتى تنازعوا بالسيوف

---

(١) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى الجزء الثالث من سنة ٨٧٢ الى سنة ٩٠٦هـ (١٤٦٨ — ١٥٠١) القاهرة ، ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م. ص ٨٢.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٩٦ .

فحنق منهم السلطان ... ورمى الترس من يده ، ونزل من القلعة ، وتوجه نحو شطنوفة » (١) .

ومعنى هذا أن السلطان لم يعمد الى استخدام القوة ، ولا حتى التهديد باستخدامها ، وانما عبر فقط عن غضبه ، وترك مقر حكمة معتكفا معتزلا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا (٨٨٣) .

ويتصاعد شغب الجلبان ويصل الى أن يشعر السلطان انهم يريدون اغتياله ويحدثهم معاتبا على هذه الطوية عتاب من لا يملك القدرة على الوعيد ، فعلى حد تعبير المؤرخ ابن اياس عن ذلك وعن الرعب الذى كان يجتاح العاصمة من فتن الجلبان :

« قويت الاشاعات بثوران فتنة المماليك الجلبان وكثر القال والقيل فى ذلك ، ونقل أرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة ، فلما تزايد الكلام فى ذلك صلى السلطان الجمعة ، فلما فرغ من الصلاة دخل الى الحوش وجلس على الدكة ، ثم أحضر (الأغوات) ، وأعيان المماليك الجلبان وكلمهم بكلمات كثيرة ، ووبخهم بالكلام ، حتى قال : ان كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك ، فاستغفروا له ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان وسكون الفتنة قليلا ، فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى اشيع بين الناس ان السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولا يعلم أين سيتوجه ، وقد تزايد القول فى ذلك ، فكان كما يقال :

لعمرك ما ضاقت بلاد باهلها

ولكن اخلاق الرجال تضيق (٢)

هكذا تجلى عجز السلطان عن مواجهة مطالب الجلبان بكل وضوح الى درجة اعتزامه ترك كرسى الحكم ، عندما ضاق به الحال وقال للجلبان :

« انا انزل لكم عن السلطنة وامضى الى مكة » ولم يستطع السيطرة

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٧ (٨٨٣ هـ) .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٥ — ٢٤٦ (٨٩٣ هـ) .

عليهم الا بدفع الأموال لهم قبل رحيلهم فى مهمة عسكرية للدفاع عن حدود البلاد الشامية ضد الضغط العثمانى عليها (١) .

فالجلبان حين كانوا يكلفون بمهمة عسكرية يطالبون السلطان بأموال زائدة عن الحد ويعمدون الى نهب الأسواق ، وكانت الظروف تضطره الى استرضائهم حتى يحشدوا قوات كفيلة بصد هجوم العثمانيين الذين كانوا يضغطون على الحدود الشامية .

كانت هذه الانتهازية تحرج السلطان المملوكى ايما احراج . وكان ذلك يدفعه الى الحصول على الأموال من الرعية بكافة السبل التى يمكن ان يسلكها ، من ذلك انه عندما :

« أرسل (ازدجر) نائب حلب (٢) يستحث السلطان (٣) بخروج تجريدة (٤) ثقيلة او يخرج السلطان بنفسه ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض (٥) ثم عرض الجند بحضرة الاتابكى ازبك (٦) ، وكان هو المشار اليه فى تعيين الجند بما يختاره منهم ، ثم عرض القرانصة (٧) واولاد الناس ، وصار الذى لا يطيق السفر منهم يقدم له بديلا كاملا بفرس ولبس وغير ذلك ، او يورد مائة دينار من له اقطاع وجامكية ، ثم ان المماليك المعينة للسفر اطلقوا فى الناس النار ، وصاروا ياخذون ابغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى اخذوا ابغال الطواحين والاكاديش التى بها ، وتعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت ان تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان » (٨) .

وكان المماليك اذا احرزوا نصرا او شبه نصر عادوا الى مصر منفوخى الأوداج فى كبرياء لا حدود له ، ملوحين باسلحتهم مطالبين بالأموال بل باكثر

---

(١) ابن اياس : جـ ٣ ، ص ٢٦٩ (٨٩٥ هـ) .
(٢) اى نائب السلطان المملوكى فى حكم ولاية حلب .
(٣) اى السلطان المملوكى الحاكم فى القاهرة .
(٤) اى حملة . (٥) اى التجمع والحشد .
(٦) احد اعيان المماليك . (٧) نوع من الجند المملوكى .
(٨) ابن اياس : بدائع الزهور — جـ ٣ . ص ٢١٩ ، (٨٩٠ هـ)
و ص ٢٥٢ (٨٩٣ هـ) .

مما يتوقعه متسئول ، ولكن هذا أمر لا يدخل فى اعتبار المماليك ، الم يعرضوا انفسهم للموت ؟ وهل للموت ثمن ... واذا كانت هناك مكافأة تعطى لمن جميل راسه على كفيه فلتكن عظيمة القدر ولا شأن له عن طريقة تدبير الأموال المطلوبة ؟ فكل هذه امور لا تقارن بما قدمه من تضحيات ؟ حتى ولو كانت تضحيات صورية .

« ففى ذى الحجة (١) تكاثر دخول العسكر الى القاهرة من غير تستر ، وقد جاءوا طالبين وتنوع فتنة وصرحوا بذلك ؟ ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المماليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .... وفى ربيع الآخر (٢) ثارت المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم ؟ فلما رأى منهم عين الجد نفق (٣) عليهم كالعادة (٤) .

ويلاحظ هنا ان المماليك اصبحوا يعتمدون على الرواتب ، ولا يعتمدون على الاقطاعات التى كانت توزع عليهم . وذلك لأن تدهور الانتاج الزراعى جعل الاقطاعات لا تدر عليهم الدخل المناسب لهم ، الأمر الذى جعل المماليك وجها لوجه مع الادارة وعلى راسها السلطان .

كيف واجه السلطان هذه المطالب الزائدة عن الحد ؟ لقد كانت خزينته خاوية ، ونفقات ارسال الحملة تلو الحملة باهظة ؟ وشر الفتنة مستطير ؟ وعيون الجلبان مفتوحة على كل موقع فيه مال أو يظن أن به مالا .. لجأ السلطان الى اساليب اثارت ضجة بين العلماء المشايخ لانها كانت غير شرعية ، فقد طالب بأن تدفع الايجارات مقدما لعدة اشهر من السنة ؟ وكذلك قطع رواتب الأيتام والضعفاء و « سائر

---

(١) من عام ٨٩٥ هـ .
(٢) من عام ٨٩٦ هـ .
(٣) أى انفق ووزع الأموال عليهم .
(٤) ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

أوقاف الجوامع والمدارس والترب (١) ، وقطع معلوم (٢) الصوفية والصدقات الجارية » (٣) وعمل على فرض الأموال على « الأوقاف والأملاك التى بمصر القاهرة من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين ومراكب وغير ذلك » (٤) .

و « رسم السلطان لكسباى المحتسب (٥) بان يجمع له من أعيان التجار الذين بالأسواق ، فلما عرضوا عليه قال لهم : ساعدونى بشىء من المال على خروج التجريدة ثم أفرض (٦) عليهم أربعين ألف دينار ، فضجوا من ذلك ، وقالوا : ما نقدر على هذا القدر كله ، فلا زال يخفض .

ولقد قسم السلطان البلاد بين جباة غلاظ القلوب ووقع منهم من العسف والقسوة ما كان نادرة زمانه ومن ذلك « ان بعض الرسل توجه الى ... امرأة ساكنة فى حوش ، ولم يجد عندها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك الرسول بأجرة الحوش ... فجاء عليها من الأجرة عشرين نصفا (٧) من مدة خمسة أشهر ، فلم تجد شيئا تعطيه ... فقالت له : اقطع هذه الشجرة (التى بالحوش) وبعها وخذ ثمنها .. (فقطعها) .. وقد حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التى كانت تستظل تحتها فى أيام الصيف » (٨) .

ولما انفلت الأمر من يد السلاطين ، وتصارع المماليك ، وتشاغبوا محطمين الأسواق ناهبين للأرزاق ، وتدهورت انتاجية اقطاعات الجند ، بدل الحال ، وارتفعت الاسعار وأصبحت حياة الشعب هى القاهرة الشديدة .

ولقد عبر ابن اياس — المؤرخ المعروف — عن نقمته على المماليك

(١) أى المقابر .
(٢) أى المبالغ المقررة .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ (٨٩٦ هـ) .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٨ (٨٩٦ هـ) .
(٥) المحتسب مسئول كبير فى الحكومة عن مراقبة الأسواق والأسعار والآداب وغيرها .
(٦) أى فرض عليهم .
(٧) عملة فى ذلك الوقت .
(٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ (٨٩٦ هـ) .

باساليب كثيرة وكان من اطرفها انه حشد فى احدى صفحاته عدة اسماء بغيضة لبعض المماليك على النحو التالى :

« قبض السلطان على جماعة من الامراء منهم قانصوه الفاجر ... وتانى بك الابح واسنباد الأصم » (١) ولكن اشد هجوم وجهه للمماليك ذكره لبيت الشعر التالى :

ما كنت احسب ان يمتد بى زمنى
حتى ارى دولة الاوغاد والسفل (٢)

هكذا كان المماليك عنصر شغب فى المدن الكبرى المصرية وخاصة فى العاصمة فضلاً عن اضطهادهم المتواصل للفلاح .

وكان هناك عناصر شغب اخرى يضرب كثيرا على اطراف الوادى ، واحيانا يضربه فى عمق الوادى ، وهو العربان .

وكان المماليك اقدر على ضرب عناصر المعارضة والشغب بقوة فى عهدهم الأول . ولكن فى العهد الثانى بدا واضحا ان حوادث اجتياح العربان للقرى ، وحوادث عصابات السرقة (المناسر) (٣) كانت اكثر ونتائجها اشد عن ذى قبل .

ومن ذلك انه فى ٨٧٩ هـ .

« هجم طائفة من العربان المفسدين على جماعة من الناس ... واستمروا يعرون الناس ... وسلبوا ... الأمراء (٤) ... واضطربت أحوال الشرقية فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل (٥) .. » .

وتزايد شر عربان « لبيد » ونشر « الهوارة » الفوضى فى الصعيد (٦) ،

---

(١) بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢١ (٩٠٦ هـ) .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
(٣) مفردها منسر .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٢ (٨٧٩ هـ) .
(٥) ابن اياس : ج ٣ ، ص ١١٩ ، ١٤٣ .
(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص .

وكان للهوارة شأن كبير فى جنوب مصر وسيظل لهم هذا الشأن حتى عهد على بك الكبير فى الثلث الثانى من القرن الثامن عشر .

وعندما بعث السلطان المملوكى حملاته المتعددة ضد الضغط العثمانى على الحدود الشمالية الشامية قل عدد القوات المملوكية فى مصر الأمر الذى أعطى للعربان فرصة لاستعراض عضلاتهم : وزاد طمعهم فى خق الترك » .

ويمكن الاستنتاج من ذلك ان العربان كانوا لا يرون اى حق للمماليك فى حكم مصر . وهذا صحيح . ولكن من ناحية أخرى فانه من المعروف ان العربان لا ولاء لهم للحكومة المركزية ، وان الولاء لديهم انما يكون للعشيرة .

ان ذلك الخلاف الجوهرى فى مفهوم الولاء جعل العربان يستبيحون ما تصل اليه ايديهم اذا ما وهنت الحكومة المركزية . وجعلت السلطة المركزية تنزل بهم من الضربات ما يخرج عن حد الشريعة الاسلامية . ومن ذلك ما فعله المماليك « بالعرب الاحامدة » فى وجه قبلى :

« انتصر (الامير آقبردى الدوادار) على العرب الاحامدة ، وكان توجه الى الوجه القبلى بسبب ذلك ، فقتل منهم ما لا يحصى . واسر نساءهم ، وأولادهم ، وبعث بهم الى مصر ، فباعوهم كما باع الرقيق من الزنج . ووقع لآقبردى مع الأحامدة أمور غريبة ، يطول الشرح فى ذكرها ، وعذب منهم جماعة بالنار ، وطم منهم جماعة بالتراب وهم أحياء . وتفنن فى عذابهم تفننا » (١) .

ومع ذلك فقد لعب البدو فى مصر دورا له اهميته فى مواجهة الاخطار التى كانت تهددها . فقد كانوا قوة عسكرية غير نظامية مستعدة لدعم الحكومة بفرسانها .

وكانت ازمة النقد والعملة من ابرز مظاهر التدهور الاقتصادى فى العهد المملوكى الثانى . وكانت معاناة الشعب بصفة عامة والتجار بصفة خاصة ناتجه عن تدهور قيمة العملة وسك العملة النحاسية بدلا من العملة الفضية ، بل وسك العملات المغشوشة . وكان ذلك يؤدى

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ (٨٩٢ هـ) .

الى رفض الرعية استخدام تلك العملات فضلا عما كان يصيب السوق من حالة توقف وارتفاع فى الاسعار يهوى بحجم التجارة الى مستويات شديدة التدنى .

فقد ضج « الناس » قاطبة ... بسبب الفلوس (١) الجدد وغلو البضائع ... وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان . وقصد أن يخرجها بأغلى من الفلوس العتق فلما تكلموا فى أمر الفلوس العتق اخذ ناظر الخاص يعارض فى ذلك لاجل غرضه ، فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه فى وسط المدرسة الصالحية ورجموه » (٢) .....

صاحب ذلك التدهور الاقتصادى تعرض شعب مصر الأوبئة اجتياحية عديدة ، اعنفها الطاعون الذى انقض على البلاد فى فترات ، ولكن بعض الطواعين كان اشبه بذلك الطاعون المروع الذى اجتاح أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وعرف باسم « الموت الأسود » .

ويحدثنا احد المؤرخين عن طاعون ٨٨١ هـ ، وطاعون ٨٩٧ هـ فيقول :

« فشى أمر الطاعون بالقاهرة ، وهذا الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ... وفى شوال (٨٨١ هـ) تزايد أمر الطاعون بالقاهرة ، وفتك المماليك والأطفال والعبيد والجوار والغرباء فتكا ذريعا ، وكان طاعونا مهابا يموت منه الانسان فى يومه .. وفى ذى الحجة فحش الطاعون جدا ومات من مماليك السلطان نحو من ألفى مملوك وزيادة ، خارجا عن المماليك السيفية والقرانصة ، ... حتى قيل أن السلطان حمل (الطعام) بنفسه ... الى دور الحرم لقلة الطواشية (٣) .

« وفى أواخر هذا الشهر (رجب) تناقص أمر الطاعون وخفة ..... بعد ما جرف الناس جرفا واخلا الدور من أهلها ... قيل أحصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ، وورد اسمه لديوان المواريث ، خارجا عن الطرحاء ، ومن لم يرد اسمه » الى الديوان ، فكانوا نحو مائتى الف انسان وزيادة .

---

(١) العملة النحاسية التى ضربت حينذاك .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٩ (٨٨٦ هـ) .
(٣) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ (٨٨١ هـ) .

وهنـــاك محـاولات عـديدة لتحديد عـدد ضـحايا الطـاعون . وذهب البعض الى ان مصر فقدت حـوالى ٣٥ ٪ الى ٥٠ ٪ من سـكانها . ويـرى ابن اياس ان القـاهرة وحـدها فقـدت على الاقـل ٢٠٠ الف من أهلهـا . فاذا اخذنا فى الاعتبـار ان تعـداد القطـر المصرى كله حـوالى ٦ — ٧ ملايين نسـمة فتكون مصر قـد فقـدت حـوالى ٣ الى ٥ر٣ مليـون نسـمة فى فتـرة وجيـزة جـدا . واذا كان تعـداد القـاهرة حوالى نصف مليون نسـمة فانها تكون كذلك قـد فقدت نصف أهلها . وانهـا لنسـبة مروعـة بكـل الروع .

كيف برر بعض المفـكرين اجتيـاح الطـاعون لسـكان مصر عـلى تلـك الصـورة البشـعة ؟ :

يري ابن اياس :

« كان مـدة انقطـاع الطـاعون من مصر كثـر بهـا الزنـا واللواط وشرب الخمـر واكـل الربـاء وجـور المماليك فى حق النـاس ، وقـد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : مـا من قـوم يظهـر فيهم الزنـا الا اخذوا بالفناء ، قال العلامة شـهاب الدين ابن حجر : والحكمـة فى ذلك أن الزنا حـده ازهاق الروح فى المحصـن ، فاذا لم يقم فيـه الحـد فيسـلط الله تعالى عليهم الجن يقتلونهم ، ولمـا كان الزنا يقـع من بنى آدم سرا سـلط عليهم الجن يقتلونهم سرا من حيث لا يرونهم ، وقاعدة العـذاب انه اذا نـزل يعم المستحق له وغيره ، وقال ابن مسـعود رضى الله عنه : اذا بخس المكيال حبس القطـر ، واذا كثر الزنـا وقـع الطاعون ، واذا كثر الكذب وقع الهرج » (١) .

ولدينـا عـدة ملاحظـات واستنتاجات من تلك النصـوص التاريخية :

١ — كانت درجـة وسرعة تفشى الطـاعون فى المماليك وغير المصريين اعظم بكثير جـدا بالقياس باصـابات المصريين (الفلاحين وأهل البلاد الاصليين) . وهذا يرجع الى أسباب عديدة من اهمها أن المنـاخ فى مصر غير ذلك الذى نشـأ فيه المماليك والغرباء ، وبذلك يكون استعدادهم لتلقى العدوى أكثر وأسرع . وهذا يفسر فناء أعداد كبيرة من المماليك رغم ما كانوا يتمتعون به من مستوى معيشـة عالية . ونظرا لتلك النسـبة العالية من الضحايا المماليك ، فقد كان ذلك يعنى أن

---

(١) ابن اياس . بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٩ (٨٩٧ هـ) .

قوة المماليك قد اهتزت ، فضلا عن ان قدرة السلاطين والامراء على شراء مماليك جدد كانت قد اصبحت اكثر ضعفا عن ذى قبل بسبب تدهور الاحوال الاقتصادية . ولكن الاحياء منهم سرعان ما عملوا على الافادة من خلو كثير من الاقطاعات من أصحابها ، بل لقد تقاتلوا فيما بينهم على الحصول على تلك الاقطاعات الشاغرة (١) .

٢ — ان الغرباء ربما كانوا يعيشون حياة متواضعة فى اماكن غير صحية ، الأمر الذى يجعلهم عرضة اكثر من غيرهم .

٣ — ان قسوة الطاعون فى المدينة كانت اشد من قسوته فى الريف وذلك بسبب تلوث البيئة المدنية وضيق المتنفس ، وازدحام الحارات والمنازل وتراكم القاذورات ، بينما تكون الشمس عامل تطهير مستمر فى الارياف بفعالية أكثر بكثير مما نجده فى المدن .

٤ — ليست هناك اشارة واضحة عن تفشى الطاعون بين العربان ، وذلك أن كثافتهم السكانية فى المناطق المفتوحة على جانبى الدلتا وفى الصحراء تحول دون تفشى المرض بينهم .

٥ — ان هناك اشارات واضحة عن عناية مماليك العهد الأول بنظافة الشوارع واضاءتها ، وفى العهد المملوكى الثانى كانت العناية بالنظافة العامة اقل ، حقيقة امتدت عناية المماليك فى العهد الثانى الى المستشفيات ، ولكن الاحتياجات اليها كانت اكثر واكثر .

٦ — ان التدهور الاقتصادى الذى ساد الفترة الأخيرة من عهد المماليك أدى الى تفشى الفقر ، والفقر يعنى ضعف المناعة وبالتالى يصبح الفقراء اكثر عرضة للمرض .

لقد بلغت اعمال التعسف والقسوة درجات غير انسانية بمعنى الكلمة ، وتفاقمت الازمة ، حتى تحرك العامة ضد هذا الطغيان ، وكان تحركا له مغزاه ، ولكن غير قادر على كسر شوكة الطغاة أصحاب الحكم والسيف ، وكان الشعب فى ثورته هذه يلقى بغضبه ضد المشايخ الذين يبررون للسلطان اعماله ومن ذلك

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ (٨٩٧ هـ) .

حركة « العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشينى الذى ولى قضاء الحنابلة فيما بعد وكادوا أن يقتلوه .... وسبب ذلك انه نقل عنه انه افتى السلطان بحل ما يجى اليه من أجرة الاملاك » (١) .

ان العامة هنا يقصد بهم أهل القاهرة من المصريين من سكان المدينة من اصحاب الحرف والتجار وملاك العقارات الصغار . وكان هؤلاء الذين تنزل بهم انواع العنت والارهاق . وكانوا هدف الحكومة المملوكية كلما احتاجوا الى فرض ضرائب شرعية أو غير شرعية .

اما الفلاح المصرى فلم تكن أرضه له ، وانما لاقطاعى مملوكى ، يأخذ منه كل ما ينتج . ويترك له ما قد يسد رمقه ، على ادنى مستوى للرمق . كيانه فى نفس قنوعة صبورة ، مع أسرة على طبعه ، فلسفته فى الحياة حياة بلا فلسفة ، صباحة بايمان ، ويومه عمل رتيب ، وزوجه سكن له فى عش من طين وبوص ، ونار من بقايا حطب انطاع المملوك ، غذاؤه محدود التنوع جدا ، ولكن مشقته العمل تطلق منه طاقات وتشكل مفتول العضلات .

كان الفلاحون قد حظوا بقدر من الرعاية والعناية المحدودة فى ظل الدولة الأيوبية ، ولكن نصيبهم فى المجتمع المملوكى لم يكن سوى الاهمال والاحتقار ، وقد ذكر العلامة ابن خلدون — وهو الذى قضى فترة من انشط مراحل حياته فى ظل سلطنة المماليك — ان الفلاحة معاش المستضعفين ، ويختص أهلها بالذلة ، وهذا الحكم الذى اصدره ابن خلدون على الفلاحين ، انما يعبر فى الواقع عن نظرة معاصريهم اليهم . فالفلاح فى جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر ، بل أن بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة لتثبت أن الصفات السابقة متأصلة فى الفلاح وليحاول أن يلصق به كل نقص ورذيلة » (٢) . فاذا صادف وارتقى رجل من الأرياف الى بعض وظائف الدولة الكبيرة غضب المماليك وصاحوا : أما كان فى مماليك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح ؟ .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ . ص ٢٦٣ (٨٩٤ هـ) .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المقال السابق من كتاب الأرض والفلاح ص ٢٢١ .

وقد انعكست هذه الظاهرة على المجتمع ، ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر في القرن العاشر تزوج قاهرية ، فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها لئلا تعرف زوجته ان أمه فلاحة ، وهددها بالضرب ان علم أحد انها أمه » (١) .

وقد قال عنه المقريزي :

« وزاد الفلاح القليل من خبز وشعير وجبن القريش والبصل والغلال لأهل الدولة ... الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد »(٢) .

وحيث كانت حالة الفلاح على هذا النحو المتردي ، فقد لجأ الى اسلوبه التقليدي في التخلص من الارهاق ، وهو الفرار من القرى ، والأراضي الزراعية الى المدن وخاصة الى القاهرة حتى لقد كانت الحكومة من حين لآخر — تعمل على اخراج أهل الريف من العاصمة واعادتهم الى قراهم (٣) .

ومع ذلك احتفظ المصري عبر العصور بطريقته في نقده للحكم الظالم بالتشنيع المثير عليه . ولقد عبر المؤرخ ابن اياس عن ذلك بقوله « احتمل مصر ما يطاقون من التشنيع اذا أطلقوها في حق الناس » .

وهنا نتساءل : لماذا لم يتحرك الفلاح ضد أولئك الحكام الذين افرطوا كل الافراط في ظلمه ؟ .

في اعتقادنا ان الأسباب الرئيسية وراء ذلك هي :

١ — ان النظام الاقطاعي الذي ساد مصر في العصر المملوكي لا يعطي فرصة للتجمع الشعبي ضد المستبدين المتسلطين به . فكل قرية أو أكثر تتبع اقطاعا أو أكثر ، وبالتالي لا علاقات بين مختلف اجزاء البلاد تسمح بايجاد رأي عام شعبي قادر على خلق زعامة للدفاع عن جموع الفلاحين والعامة والمطحونين .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(٢) بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص (٩٠٨ هـ) .
(٣) أنظر د. سعيد عاشور : مصر في عهد المماليك البحرية .

٢ ـ الجهل الشــديد المنتشر بين صفوف الفلاحين .

٣ ـ لم يعط الفلاح المصرى فرصــة لكى يحصل ميــلاحا اذ كان محتقــرا من جانب حكامه المـــاليك . بينمـــا كان هؤلاء المـــاليك يملكون القـــوة الضـــاربة القـــادرة على النيـــل من اى تحـــرك اذا وقع ، واذا ما وقع مثـــل هذا التحـــرك يكون محليـــا وليس عامـــا .

وكان المشـــايخ والعلمـــاء ـ وهم الذين أطلـــق عليهم حينـــذاك مصطلح المعممين ـ ذوى مكانة قيــادية ، ولكن محــدودة . كانت الحــكومة المملوكيــة تعمل من وقت لآخر على استصدار الفتاوى التى تبرر لهــا الحصــول على الأموال وكانت كثيرا ما تنجــح حــكومة المـــاليك فى ذلك . ولـــكن من وقت لآخـــر كانت تواجــه بمعارضـــة بعض هـــؤلاء المعممـــين وخاصــة فى القضــــايا المتعلقـــة بالأوقـــاف (١) .

وفى عهــد المماليك انتشرت الطرق الصوفية ، وتعــددت المنتسبـــون اليهـــا بالفقـــراء ، وظهرت طائفــة المجاذيب والدراويش بشكل أكبر من ذى قبـــل ، كما انتشر البهـــاليل والمعتوهون من مدعى الشـــفافية والإلهيـــة ، وكان فسادهم فى الموالد لا حـــد له ، حتى قال عنهم المؤرخ المقريزى :

« لا ينسبون الى علم ولا ديانة والى الله المشتكى » (٢) .

ورغم ما كانت عليـــه البلاد من تدهور فقد كانت هنـــاك مظاهـــر بذخ واسراف . وكانت عمليـــات التعمير وتوســـيع الطرق تجـــرى من حين لآخـــر ، والاحتفـــالات والمواكب كانت تجـــرى فى شـــوارع القـــاهرة وتنفق عليهـــا الوف الدنانير وكانت الأسواق مليئة بالحركة فى الأرياف ، وكذلك القاهرة ألا اذا نالتهـــا ســـيوف وجبروت المـــاليك .

ففى عهـــد المماليك البحـــرية كانت المدن كثيفـــة السكـــان تموج بالحـــركة بيعـــا وشراء ودواوين حكم نشـــط ومســـاجد عامرة وأســـواق المـــواد الغذائية عديدة على رأسـها دار التفاح أى ســـوق الفـــاكهة . وكانت أســـواق الملابس والأجـــواخ مزدهـــرة ، وهنـــا وهنـــاك تجـــد الصيرفى الذى يبـــدل لك العملة ،

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٠١ (٨٧٩ هـ) .
(٢) انظر د. سعيد عاشور : مصر فى عهد المماليك البحرية .

وفى مكان يقف (عريف) السوق لينقل الى المحتسب انباء اى خلل او غش .

والمحتسب يراقب الاسعار والنظافة ، والآداب العامة ، وخاصة ان الاسواق — مثل أسواق الحلاويين والدجاج — تكون مليئة بالنساء بل غالبا ما تكون اغلبية المتعاملين منهن .

وفى عهد المماليك — وخاصة عهد المماليك البحرية — كانت الاحتفالات تأخذ طابعا ترفيهيا رائعا بالقياس الى العهود التالية . ومن أمتع الاحتفالات (الرؤية) لتحديد بداية شهر الصوم (رمضان) فكان الاهالى يطوفون بالشموع الكبار والصغار فى موجات فرح عارمة .

واكتسب عيد (وفاء النيل) عظمة خاصة فى عهد المماليك فكانت له تقاليده ورسومه وشعبيته الضخمة .

أما (عيد الشهيد) فكان مليئا بالمباهج ولكن يبدو أنها زادت الى حد اصبح مثلا للخلاعة والفسوق .

ومن صور الاحتفالات التي وقعت بالقاهرة ما جرى بعد شفاء السلطان المملوكي . فيحدثنا ابن اياس عن ذلك قائلا :

« حصل للسلطان الشفاء ودخل الحمام فلما دخل يوم الجمعة ... توجه الى الجامع وصلى الجمعة ... وتخلق الخدام بالزعفران ، وفرقت ... على الناس البنود الحرير الأصفر ، فوضعوهم فى أواسطهم جماعة من الخدام ... ومقدم المماليك ، وغلمان السلطان قاطبة ، وأعيان الناس من الحجاب ... ولما رجع السلطان من الجامع لاقته المغانى ... ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه ... واخلع على الأطباء والمزينين الخلع السنية ودقت البشائر بالقلعة ، ونودى بالزينة فى القاهرة » (١) .

وفى مناسبة اخرى وهى عودة السلطان من الحج يروى ابن اياس : « أوكب السلطان (٢) .. وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم بالقماش

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٢٢٩ .
(٢) اى اقام موكبا .

والقماش ، وسارت القضاة الاربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة وقد زينت له زينة حافلة ... ولعبوا قدامه بالفراشي الذهب ... ولاقاه .. الشعراء الشبانية (١) السلطانية ، وابن رحاب المغنى ... واصطفت له جوق المغانى من النساء على الدكاكين ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من التبانة الى القلعة وفرشت له .. عدة شقق من باب القلعة الى الحوش ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة .. ثم ان السلطان اخلع على من كان معه من ارباب الوظائف ... ودخل عليه (٢) جملة من التقادم (٣) من مال وتحف ما يعادل مائتى الف دينار من أمير مكة وقضاتها ومن أعيان التجار الذين بها وكذلك من أمير المدينة الشريفة وقضاتها ومن أمير الينبع وغير ذلك » (٤) .

وكان الاحتفال بختان ابن السلطان على نحو من البهجة لا يتناسب مع مسئوليات السلطان المالية نحو تغطية نفقات الحملات العسكرية التى كان يوجهها الى الحدود الشامية ، ولا يتناسب مع التدهور الشديد للرصيد المالى للدولة .

« ففى رجب (٨٩٥ هـ) كان ختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد ، الذى تسلطن بعده ، وكان عمره يومئذ نحوا من سبع سنين واشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة ايام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بأن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق مثل : سوق الشرب ، والجواهرة ، والوراقين ، وسوق الفاضلة ، والباسطية ، وسوق الحاجب ، والصاغة ، وغير ذلك من الأسواق ، وخرج الناس فى القصد والفرجة عن الحد ، وكان العسكر غائبا فى التجريدة والناس فى أمن من اذى المماليك ، فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم ما لا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر واغنام وابقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين الف دينار ، ومن جملة ما اهداه المقر الشهابى أحمد بن العينى طشت وابريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان واشياء كثيرة غير ذلك » (٥) .

---

(١) اشبه بالشرطة .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٧١ (٨٩٥ هـ) .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٦٢ (٨٨٥ هـ) .
(٤) اى الهدايا .
(٥) اى على السلطان .

كذلك كان حفل ختان ابناء الاثرياء على نوع كبير من الفخامة على النحو التالى :

« فى هذا الشهر (١) كان ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى ، فكان له مهم حافل جدا ، وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات ، وحضر جمجه بن عثمان (٢) عنده ، وكان النيل فى أواخره ، فأمر كاتب السر سكان البركة بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة ، وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة ارطال زيت وطبلية فيها أكل فاخر ... حتى كانت البركة تضىء بالنور ... وأحرق حرقة نفط حافلة لم يسمع بمثلها ، حتى خرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وبلغ كرى (٣) كل مركب أربعة اشرفية (٤) ، واستمرت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية .. واجتمع بالبركة نحو اربعمائة مركب موسوقة بالخلايق ، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وسائر مغانى البلد من رجال ونساء ، وانطلقت السن النساء بالزغاريت ، وأنفق فى تلك الليالى من الأموال ما لا يحصى » (٥) .

وكانت حفلات الزفاف المملوكية تتسم هى الأخرى بالاسراف وبالتقاليد الاجتماعية حينذاك ومن ذلك أفراح زفة أحد كبار رجال المماليك وهو قانصوه :

« حمل الجهاز من الأزبكية الى دار قنصوه ... لقناطر السباع ، .... فكان به من الحمالين التى عليها الأمتعة زيادة على اربعمائة حمال ، فدهش الناس لرؤيته ، ورجت له القاهرة .... قيل كل ما صرف عليه نحو

---

(١) شعبان ٨٨٦ هـ .

(٢) اسمه الحقيقى جم وكان من الأسرة الحاكمة العثمانية فى استانبول فر منها بسبب صراعه من أجل الجلوس على العرش الى مصر لعله يحقق هدفه فى تولى السلطة العثمانية بمساعدة المماليك .

(٣) أجرة .

(٤) عملة ، ومعنى هذا ارتفاع أجرة المراكب بسبب الطلب عليها للنزهة فى تلك الليلة .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

مائتين الف دينار ، ولما كان ليلة العرس .... بالأزبكية وكان حافلا ، ومدت هناك الأسمطة الحافلة ، ثم ان قانصوه ... ركب بعد العشاء من باب السلسلة ، ومشت قدامه الأمراء المقدمين ، وهم بالشاش والقماش ، ومشت الخاصكية قدامه وبايديهم الشموع الموقدة ، فشق من القاهرة حتى وصل الى الأزبكية ... ولكن حصل تلك الليلة غاية الضرر من المماليك الجلبان ، خطفوا العمائم ، وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا الشمع من أيدى الخاصكية ... » (١) .

وصور لنا احد المؤرخين منشأ حديقة الأزبكية قائلا :

« ومن الحوادث اللطيفة ان فى اثناء هذه السنة كان ابتداء منشأ الأزبكية على يدى ... الاتابكى أزبك ... الذى نسبت الأزبكية اليه ، اقول : وكانت هذه البقعة ارض ساحة خراب ، ذات كيمان فى ارض سباخ ، وبها اشجار اثل وسنط ، وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم ، وكان فى هذه الأرض جامع خراب يسمى جامع الجاكى ، وهو باق الى الآن ، وكانت هذه الأرض قديما عامرة بها المناظر بالبساتين ، وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل ، ثم ان بعض الملوك حفر بها خليجا ، وأجرى اليها الماء من فم الخور ... وبقى من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى على هذا الخليج قنطرة وفوقها دكة للمتفرجين ، يجلسون عليها للفرجة ، ... واستمرت هذه البقعة على ما ذكرناه الى سنة خمس وخمسين وستمائة ، فلما تلاشى أمرها ، وضعف جريان الماء فى (الخليج)وحفر الملك الناصر قلاوون خليجه المسمى بالخليج الناصرى وذلك فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فطمع (الخليج) وخربت مناظر اللوق التى كانت هناك ، وصارت هذه البقعة خربة مقطع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت اليها احد من الناس ، حتى اعاد احد المهتمين اليها الماء ليزرعها محاصيل تقليدية ، واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة فى دولة الملك الأشرف قايتباى ، فحسن ببال الاتابكى أزبك أن يعمر هناك مناخا لجماله ، وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة ، فلما أن عمر المناخ حلا له هناك العمارة ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوار والمقعد والمبيتات والحواصل وغير ذلك ... وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهدها ، ثم حفر بها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ (٨٩٢ هـ) .

هذه البركة الموجودة الآن ، وجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، وجدد عمارة قنطرة (الخليج) التى كانت قديمة ، ثم بنى على هذه البركة رصيفا محاطا بها ... واصرف على ذلك ... ما يزيد على مائتى الف دينار ... (١) وشرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة والاماكن الجليلة ، ولا زالت تتزايد فى العمارة الى سنة احدى وتسعمائة ، وقد رغب الكثير من الناس فى سكنى الأزبكية ، وصارت مدينة على افرادها ، ثم انشأ بها الجامع الكبير وجعل به خطبة ، وانشأ به المئذنة العظيمة ... ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع والحمامات والقياصر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع » (١) .

وقد علق المؤرخ ابن اياس على اتمام هذا العمل الجليل بقوله :
« وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ولا به نفع للمسلمين » (٢) .

كان بعض مفكرى ذلك العصر ينظرون الى مثل تلك المنشآت الترويحية نظرة غير جمالية . ولعله انتقد هذا العمل لأن حديقة الأزبكية اصبحت فيما بعد ملتقى اللاهين خلال الاعياد ونزهة للشباب وما يصاحب ذلك من أمور مخلة بالآداب .

وانه لما يلفت النظر قول المؤرخ ابن اياس ان الشعب المصرى - خلال احد تلك الاحتفالات - لم يكن مبتهجا فقط بتلك الافراح ولكن مغتبطا بغياب المماليك رغم ان هؤلاء المماليك كانوا قد تركوا القاهرة الى الحدود الشمالية الشامية للدفاع عنها .

فى أعتقادنا ان الارهاق والعسف - الذى حل بالشعب المصرى على يد المماليك - جعل مشاعر المصرى حينذاك لا تتعلق بمصير الشام ومصر ، بقدر ما تتعلق برغبته فى ان « يرتاح » من هؤلاء المماليك ولو لفترة محدودة .

ويعكس ذلك ايضا الحقيقة القائمة حينذاك وهى ان الهوة اصبحت كبيرة بين الاوليجاركية الحاكمة المملوكية والشعب المصرى ، وان المماليك كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وكان الشعب هو الطبقة المحكومة .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١١٦ - ١١٧ (٨٨٠ هـ) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١١٨ (٨٨٠ هـ) .

كما تكشف تلك الصورة التاريخية عن وجـود فئـة أخرى من الشعب ممثلة فى اثريائه ولكنهم اثرياء لا يحكمون ، وكانوا على ثراء فاحش بالقياس الى فقـر الشعب . ومن ثم نسـتطيع القول أن هناك نوعا من الفئة الوسطى كانت تتكون اسـاسـا من :

١ ـ التجار على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية .

٢ ـ المتعممين وخاصة أولئك الذين يتولون الأوقاف والمدارس وشئون المساجد باوقافها ومقامات الاولياء بما يقدم اليها من نذور .

وليس لدينـا ما يدل على ان أيا من ابنـاء الشـعب المصرى كان يتطلع الى الحكم ، اذ كان هناك نوع من الاعتراف باحتكار هؤلاء المماليك للحكم ، وأغلق هؤلاء المماليك على انفسهم فئتهم فلم يعطوا فرصة لمشاركة وطنى مصرى لهم فى الحكم . ولا شك ان المفهوم الاسلامى لنظام الحكم ـ الذى كان شائعا حينذاك ـ كان من عوامل ابعاد المصرى عن التطلع الى الحـكم فمادام الحاكم مسـلما فان ذلك كان يرضيه بغض النظر عن جنسه أو اصله .



الباب الرابع
المجتمع المصرى فى العهد العثمانى

الفصل الأول : المجتمع المصرى فى العهد العثمانى
حتى الحملة الفرنسية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨

الفصل الثانى : مصر فى أيام الحملة الفرنسية
حتى تولية محمد على (١٧٩٨ ـ ١٨٠٥)

الفصل الأول

المجتمع المصرى فى العهد العثمانى حتى الحملة الفرنسية ١٥١٧ - ١٧٩٨

فى مطلع القرن السادس عشر كانت فى منطقة الشرق الاوسط أكثر من قوة تتصارع على السيطرة عليه . كانت الدولة العثمانية التركية السنية قد اتخذت من الاناضول قاعدة لها وانطلقت مجاهدة أوربا حتى أخذت تدق أبواب فيينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وفى الشرق كانت قد قامت الدولة الصفوية الشيعية فى ايران (فارس) وكانت تركز أكثر على التوسع على حساب البلاد الاسلامية وعلى نشر مذهبها الشيعى وكانت مستعدة للتعاون مع الدول الأوربية سواء المعادية للدولة العثمانية أو الطامعة فى مصر .

وبينما كانت الدولتان العثمانية والفارسية فتيتين ناهضتين كانت دولة المماليك فى مصر قد شاخت وفقدت مقومات استمرارها ، فى الوقت الذى وجدت فيه هذه الدولة المملوكية — الممتدة من وادى النيل حتى جبال طوروس وحتى أطراف اليمن — نفسها مسئولة عن دور أكبر من قدرتها الا وهو مواجهة أخطر عدوان كان يهدد العالم الاسلامى وهو العدوان البرتغالى ، اذ تمركز البرتغاليون عند مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وشرعوا فى وضع خطة واسعة النطاق لضرب الأراضى المقدسة والسويس ، ولكن محاولة المماليك لكسر شوكة هذا الخطر باءت بالفشل وتفوق البرتغاليون فى المياه الاسلامية الجنوبية لأنهم لم يجدوا جبهة اسلامية موحدة تناوءهم هناك .

فقد دار صراع مرير بين الدولتين الفارسية والعثمانية أدى الى أن توجه الأخيرة ضربة عنيفة للفرس جعلتهم يتبعون طويلا وراء حدودهم ، ثم التفت العثمانيون الى دولة المماليك فهزموهم فى موقعة مرج دابق ١٥١٦ ، ومن بعدها تابع العثمانيون الزحف واستولوا على الشام ومصر وخضع لهم الحجاز وبعثوا بقواتهم من بعد الى العراق واليمن وشمال افريقية ، وأصبحت مصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية واصبحت القسطنطينية (الأستانة) عاصمة الشرق الاسلامى وفقدت القاهرة مكانتها القيادية التى اشتهرت بها خلال القرون الاسلامية السابقة .

عاشت مصر تحت الحكم العثمانى فترة من أشد فترات تاريخها ضعفا وعزلة عن العالم . وهذه السنوات الفاصلة بين الفتح العثمانى (١٥١٧) والحملة الفرنسية (١٧٩٨) كانت بالنسبة لأوروبا بداية لتطور النهضة ، تلك النهضة التى تصاعدت فيها قدرات أوربا الاقتصادية والعسكرية والثقافية والاجتماعية فضلا عن السياسية . ومن هنا أخذ التخلف فى مصر بالقياس بتقدم أوروبا يزداد حدة سنة بعد أخرى حتى اذا ما عاد انفتاح مصر على أوروبا وجدت مصر نفسها أمام أوربا الحديثة فى القرن التاسع عشر بينما مصر لا تزال تعيش فى مستويات القرن السادس عشر أو أقل .

فمن خصائص الحكم العثمانى فى مصر وفى الغالبية العظمى من ولايات الدولة العثمانية أنه كان حكما سطحيا بعيدا عن مفهوم الدولة الحديثة مع أن هذا التوسع العثمانى فى مصر والبلاد العربية جاء مع العقود الأولى من عصر النهضة الأوروبية . وبدأت منذ ذلك التاريخ الفجوة الحضارية تتسع بين مدى التقدم الحضارى فى الشرق الاسلامى ومداه فى أوربا .

فلقد ألقى عبء الخدمات العامة على الشعب ولم يكن فى مقدور الشعب أن يتحمل هذه المسئولية ، فكان أن أهملت هذه الخدمات — فضلا عن المرافق العامة — اهمالا شديدا استمر لمدة قرون .

فسطحية الحكم العثمانى تعنى أن العثمانيين كانوا مسئولين عن الأمور الرئيسية التالية :

١ — حماية البلاد من العدوان الخارجى .

٢ - استتباب الأمن الداخلى .

٣ — نشر العدل .

٤ — جمع الضرائب المفروضة على البلاد وعلى الأهالى وعلى الأرض والعقارات والحرف وارسالها الى خزانة السلطان .

٥ — وجود نظام يضمن ادارة البلاد وولاء أهلها للسلطان ممثلا فى الوالى الذى يبعث به السلطان لفترة محدودة والحامية المتعددة الفرق ، والديوان الذى يقدم المشورة المقبولة للوالى أو المفروضة عليه فرضا من قبل القيادات العسكرية عندما ضعفت الادارة العثمانية .

اما بقية الأعباء المنوطة بالدولة فلم تكن من مسئوليات السلطات العثمانية ، ومن ذلك ما كان يتعلق بالخدمات التعليمية والثقافية والاجتماعية والاصلاحات الاقتصادية على مختلف أوجهها . وأن تمت مشروعات فى تلك المجالات فكان ذلك يتم بطريقة اقرب الى العشوائية منها الى التخطيط الهادف البعيد المدى .

كان الحكم فى أول الأمر فى قبضة العثمانيين ، ولكن نظرا لأن المماليك كانوا قد انخرطوا فى خدمة العثمانيين وكان المماليك مسئولين عن ادارة البلاد لمعرفتهم بهـا فقد سيطروا على البلاد من دون العثمانيين ابتداء من حوالى منتصف القرن الثامن عشر حيث اصبح زعيمهم - وكان يلقب بشـيخ البلد - هو صاحب الكلمة العليـا فى البـلاد .

وكان المماليك عصبة حاكمة عسـكرية اوليجركية الشـكل ، احتكرت امـور السياسة والحرب والادارة ، وتركت - هى الأخرى - الخدمات العامة دون رعاية على اعتبار أنها من وجهة نظرهم من مسئوليات الرعية ، فظل التعليم قاصرا على اساليبه التقليدية : الكتاب والأزهر وبعض المدارس ذات الطابع الدينى التى لا تعنى بالعلوم ولا تدرى بتطورها السريع فى بعض دول أوربا ، وتخلف الانتـاج الادبى فى مصر عما كان عليه فى القرون الاسلامية السابقة . وظل المستوى الثقافى على هذا النحو حتى مجىء الحملة الفرنسية وعهد محمد على .

ونتيجة لهذه السطحية فى الحكم المملوكى كان الاقتصاد المصرى قد تحول الى الاكتفاء الذاتى . على أسوأ ما يوصف به ذلك الاكتفاء الذاتى القائم على سد الرمق اليـومى .

كان المماليك يعنون اساسا بالحصول على اكبر قدر من الدخل السنوى من الفلاح المنتج الوحيد تقريبا فى مصر حينذاك ، وكانت الضرائب تجمـع من الفلاح فى أول العهد العثمانى بواسطة احدى فرق الجيش العثمانى (الحامية العثمانية) ثم انحلت هذه الحامية وتسلط المماليك على البلاد .

فلقد نمت قوة العسكر والمماليك ، وضاعت هيبة الوالى العثمـانى ، فكان اقصى ما يستطيعه هو أن يوقع ما يقدم اليه من أوراق . واصبح عزله رهن تحرك الزعامات العسكرية ضده . وقدم لنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى صورة حيـة لمثل هـذه الأحـداث :

اجتمع العساكر بمنزل قائمقام بالأسلحة وآلات الحرب .. واحاطوا بالقلعة.. وضربوا مدافع على الباشا ورموا بنادق ، فنصب الباشا بيرقا ابيض يطلب الأمان ، وفر من كان داخل القلعة من العسكر ، فبعضهم نزل بالحبال من السور ، وبعضهم خرج من باب المطبخ ، فعند ذلك هجمت العساكر الخارجية ونقيب الاشراف والقاضى ياخذان له أمانا من الصناجق والعسكر ، فتلقوهما واكرموهما وسألوهما عن مقصدهما فقالا لهم :

ان الباشا يقرئكم السلام ويقول لكم انا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين ، وقد فروا . والمراد أن تعلمونا بمطلوبكم فلا نخالفكم . فقالوا لهما :

« اعلموا أن الصناجق والأمراء والاغوات والعسكر قد اتفقوا على عزله ، وان ماندوه بيك قائمقام (١) وأما الباشا فانه ينزل ويسكن فى المدينة الى ان نعرض الأمر على الدولة ويأتينا جوابهم » فأرسل القاضى نائبه الى الباشا يعرفه عن ذلك فأجابه بالطاعة واستأذنهم على نفسه وماله واتباعه ، وركب من ساعته فى خواصه ونزل من باب الميدان وشق من (الرميلة) الى السلبية والعامة قد اصطفت يشافهونه بالسب واللعن الى أن دخل بيت على اغا الخازندار . وهجم العسكر على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا بعض اسباب حسين اغا مستحفظان .

وخرج حسين اغا من باب المطبخ ، فلما رآه يوسف بك اشار الى العسكر فقطعوه ، وقطعوا اسماعيل افندى بالمحجر .. (أما) ذو الفقار (فقد) وقع فى عرض بلديه على خازندار وحسن كتخدا الجلفى فحماه من القتل » .

تلك صورة من الصور المتكررة لعزل وال وتنصيب قائمقام حتى يأتى الوالى الجديد الذى لا حول له ولا قوه ، ويلتف حول هذا الوالى نوع من المرتزقة ، يتركون اماكنهم بطريقة أو باخرى لأمثال لهم التفوا حول الوالى الجديد . وهى عملية انتقال مليئة بالقتل والنهب والفزع من الاضطراب .

ومن الامور التى ساعدت على استمرار هذه الأوضاع لفترة طويلة أن مصر لم تتعرض لهزة قوية تقدح الأذهان وتجعلها قادرة على اعادة النظر فى أمورها . حقيقة قام على بك الكبير فى ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر بمحاولة لاخراج

---

(١) اى يتولى الباشوية لحين تولية وال جديد .

مصر من عزلتها ولكن عندما سعى الى ضم الشام لم يفكر فى رفع مستوى شعب مصر الى مستوى هذه المسئولية التى قصرها على القوات المملوكية ، وبعد أن انهارت محاولة على بك الكبير فى سنة ١٧٧٢ م — بسبب قصور النظام المملوكى نفسه — عادت الأمور الى ما كانت عليه قبله من حيث تسلط الاوليجركية المملوكية على البلاد ممثلة فى محمد أبو الذهب ثم مراد بك وابراهيم وهما اللذان كانا يحكمان مصر حكما ثنائيا عندما نزلت الحملة الاستعمارية الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت الى أرض مصر فى صيف ١٧٩٨ / ١٢١٣ هـ .

كانت الأوليجركية المملوكية متناحرة فيما بينها ، منقسمة الى قسمين متقاتلين : فقارية وقاسمية ، وكثيرا ما وقع القتال بين المماليك وانتشرت الفوضى فى البلاد بسبب ذلك . وكانت النكبات تحل بالبلاد نتيجة لما وقع من صراع بين الزعامات المملوكية .

كانت للمدن مكانتها وخاصة القاهرة والاسكندرية وطنطا واسيوط ، وكانت القاهرة — عاصمة ولاية مصر — تضم الجهاز الحاكم والادارى والمركزى المتميز المتمتع بكثير من المميزات والحياة الرغدة نسبيا ، والقوات العثمانية والعسكرية الأخرى تعيش على ما تحصل عليه من أموال من الريف . وتضم القاهرة الصناعات الحرفية المحدودة ولكن كانت تضم — ومثلها فى ذلك كبريات المدن الاخرى — جماعات من التجار والملتزمين الذين كانوا احسن حالا بكثير من الفلاحين ، وجماعات العلماء الذين عاشوا كذلك حياة أكثر سعادة من حياة أهل الريف .

ولكن هذه الطوائف لم تكن تفكر فى الوصول الى الحكم ونعنى بذلك رجال الدين وطوائف الحرف والتجار والملتزمين . وسنتكلم عن رجال الدين فيما بعد ، اما طوائف الحرف فكانوا يعيشون كل فى حى خاص بهم ، ولكل طائفة شيخها الذى يعتبر مسئولا عن افراد طائفته وتطبيق العرف المتبع بينها . وكانت الطائفة ذات تقاليد محترمة ، فهناك (المعلم) الذى يكون مسئولا عن « العمال » والصبية الذين يعملون معه فى دكانه ، وكان الترقى من « صبى » الى « عامل » ومن « عامل » الى « معلم » لا يتم عشوائيا ، وانما بعد اختبار المقدرة الفنية حتى لا تتدهور الحرفة وتقل جودة الانتاج . وغالبا ما كان « العامل » يتزوج ابنة « المعلم » وهكذا كانت العلاقات داخل الحرفة أبوية فى العمل وابوية فى الحياة الاجتماعية .

وكانت هناك معايير تحمى الصبى من قسوة (المعلم) سواء اكانت القسوة بدنية أو مادية ، كأن يدفع للصبى اجرا ضئيلا ، أو ينهال عليه ضربا مبرحا .

ولكن من ناحية اخرى كان (المعلم) يشارك العمال والصبية افراحهم والمناسبات والاجتماعية وكان يرعاهم اذا مرضوا .

لقد كان ذلك نوعا من التكافل الاجتماعى بين صاحب العمل والعمال ، وكان له دور هام فى غياب المسئولية الاجتماعية الحكومية .

كانت الادارة العثمانية ثم المملوكية تعامل المصرى معاملة غير كريمة ، ولعل فترة الحكم العثمانى — المملوكى تعتبر اسوأ فترات بالنسبة للشعب المصرى وان كانت الاحكام المقارنة هذه يعوزها كثير من الدقة ولعل قرب العهد بالحكم العثمانى المملوكى ؛ ولأنه تدهور وقامت على أنقاضه دولة مصر الحديثة كان من العوامل التى جعلت الأمثلة عن سوء معاملة الادارة للشعب مرصودة فى المصادر باقية فى الأذهان .

وقد عبر احد المؤرخين عما كان يقترفه رجال الادارة من صنوف القسوة والمباذل وخاصة من جانب المماليك والكشاف ومن معهم من الجند . بقوله أنه كان يصدر منهم : « من الأمور الشنيعة والأفعال المنكرة الفظيعة من الزنا واللواط جهارا وافتضاض الابكار نهارا .. وصارت لهم اسمطة واطعمة غالية المقدار تحمل الى خيامهم اثناء الليل واطراف النهار ، وتهديد الكشاف بما فيه القتل ان قصروا عن ذلك . بل ويسلكون بهم اسوأ المسالك ، وصار المسلمون معهم فى أمر مريع ليس لهم منه خلاص .. صار ارزل الجند واقلهم مقلدا بالسيوف المسقطية والسروج بالذهب المنقطعة . .. والمرد الجميلة المزينة بانواع الزينة المكملة ، راكبين خلفهم اجود الخيول ، فى لهو ومرح لا يزول .. مع الفسق بنساء الفلاحين وافتضاض ابكار بنات المسلمين وغير ذلك من القبايح المنكرة » .

كانت ضريبة الميرى (الأموال الاميرية المقررة على الارض الزراعية) تتزايد قيمتها سنة بعد اخرى ، وحدثنا احد رجالات القرن الثامن عشر عن وقع هذه الضريبة على الفلاح بقوله :

« فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة ، او يأخذ على زراعة الى اوان طلوعه بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التى تحلب على عياله او يأخذ مصاغ زوجته .. ولو قهرا عليها ويدفع الثمن للنصرانى (الصراف) او لمن هو متولى قبض المال وأن لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه وخشى الملتزم او المشد من

قرأره من البلد أخذ ولده رهينة حتى يغلق (١) المال .. ومنهم من يتجو بنفســـــه فيهرب تحت ليلة ، فلا يعود الى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه » .

وهذا يفسر لنا المثل الذى كان شائعا حين ذاك « مـــال الســـلطان خرج من بين الظفر واللحم » .

ومن أشد الضرائب قسوة على الفلاح تلك التى كانت لا تتمتـع بالشرعية ، وكانت من وضع وفرض المسئولين فى الادارة ، ونخص بالذكر ، « ضريبة الفرد » ، وكانت الفردة ثقيلة جدا على كاهل الفلاح وأصبحت ظلما مرعبا حتى صارت مثلا الى وقتنا هذا ، وهذه الفردة لم تصـــــب الفلاح فقط بل أصــــابت بشــدة كذلك « الملتزم » (٢) .

هذا الى جانب اخذ البلص ... وطلب الكلف الخارجة عن المعقول ، وكان لا يفوق « نزلة الصراف » سوى « نزلة الكاشف » .

وكان الكاشف مســئولا عن وحــدة ادارية واســعة فى مصر ، وكان يتولى ادارتها ، وكان يحصل فى مقابل ذلك على أموال تفرض على الأرياف (٣) .

لقد كانت الضرائب المربوطة على الفلاحين لصالح كاشف الاقليم مرهقــة ، وكان اذا ما نزل الكاشف قرية ارتجت واضطربت لما كان يصحبه من جنـد ، ولما كان يطلبه من مواد غذائية وهدايا (٤) .

ومن الضرائب التى لا سند لها اطلاقا ضريبة (حق الطريق) . وكان يستوفيها من يبعثه الملتزم للتحقيق فى شكوى تقدم بها فلاح ضد آخر . وفى حالة عدم دفـع المشكو فى حقه هذه الضريبة ربما تعرض لدفع اضعاف مـــا كان ســيدفعه فى أول الأمـــر (٥) .

---

(١) اى يقوم بتسوية حساباته .
(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٢ ، ص ١٥٤ حوادث ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ .
(٣) يوسف الشربينى : هـز القحـوف ، جـ ١ ، ص ٦ ، د . عبـد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٩ .
(٤) محمـد أبو السرور البكرى المنح الرحمانيـة ، نقـلا عن د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى ، ص ٥٧ .
(٥) الجبرتى : عجائب الآثار ، ٢٢١ — ٢٢٢ .

كان الفلاح يقوم على زراعة أرضه ، وقليل منهم كان يملك أرضه ملكا ، ومعظم الريف كان موزعا على نظام الالتزام ، وهو نظام قام على أساس التزام الملتزم دفع الضرائب للحكومة ويقوم هو بجبايتها ، كما كان يحصل على قطعة أرض (الوسية) يعمل فيها الفلاح دون أجر . وأما ما عرف (بالعونة) فهو تسخير الفلاح فى أرض الملتزم . وبذلك يكون الفلاح مسخرا للعمل لديه ومسخرا للعمل فيما تكلفه به الحكومة من مراقبة فيضان النيل وحماية الجسور ، وتطهير القنوات وتوسيعها وغير ذلك من الاعمال العامة التى فضلت الحكومة أن يكون دورها فى تنفيذها قاصرا على التوجيه دون أن تكلف نفسها أعباء مالية تذكر .

والالتزام — عندما استقر كنظام — هو تحمل احد أصحاب رؤوس الأموال مسئولية دفع الضرائب الاميرية مقدما عن منطقة التزامه وقد يضم الالتزام قرية بزمامها أو اكثر من قرية ، وكانت القرية تقسم الى « ٢٤ قيراطا قد يصل القيراط الى عشرات الأفدنة » (١) وحيث أن الملتزم كان لا يقيم طويلا فى التزامه كان له « قائمقام » غالبا ما كان من الفلاحين من أصحاب الامسلاك و « مباشر » يسجل حسابات الفلاحين و « الخولى » المسئول عن ادارة « الوسية » .

كان الملتزم بصفة عامة لا يعنى عادة الا بجمع الأموال ، ومن هنا كانت صورته كئيبة ، وكانت له مجموعة من المسئولين الذين يعينونه على ذلك . ومن أبرز هؤلاء : مشايخ القرى والصراف والمشد والخفراء وكانوا يتصفون بالقسوة البشعة .

واذا كانت صورة الملتزم غالبا بغيضة فان صورة الصراف كانت أشد بغضا ، وكثرة من الصرافين كانوا من النصارى لمهارتهم فى علم الحساب ، وكانت أساليب القسوة بالفلاح وأخذ الرشوة منه وابتزازه والاختلاس مضرب الامثال حتى لقد أصبحت « نزلة الصراف » مثلا شائعا ، لأنها كانت كنزول البلاء .

وعن حالة الفلاحين تحت نظام الالتزام قال المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » :

« .. كانوا مع الملتزمين اقل من العبد المشترى ، فربما كان العبد يهرب من سيده أن كلفه فوق طاقته أو أهانه أو ضربه ، أما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به

---

(١) ابراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى ، محاضرة ألقيت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى ١٩٧١/١/١٨ ونشرت فى كتاب « الأرض والفلاح فى مصر عبر العصور » ص ٢٣٦ » .

ان يترك وطنه واولاده وعياله ويهرب . واذا هرب الى بلد اخرى واستعلم استاذه مكانه احضره قهرا وزاده ذلا ومقتا واهانة » .

وكان اذا تخلف فلاح من تقديم خدماته ومسئولياته نحو الملتزم أصيب بالويلات على النحو التالى :

« .. فمن تخلف لعذر ، احضره الغفير ... وسحبه من شنبه واشبعه سبا وشتما وضربا » (١) .

هذا خلاف ما يلقونه من الاذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصرانى والصراف والعمدة والعهدة خصوصا عند قبض المال يغالطهم ويناكرهم وهم له أطوع من استاذهم وأمره نافذ فيهم فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواقى لا يدفعها (٢) .

ويصور لنا عبد الرحمن الجبرتى حال الفلاحين بعد أن ينصرف عنهم الملتزمون والكشاف والصرافون وغيرهم من اتى ديارهم ليجمع أموالهم فى عهد المماليك (فيقول) :

« ان من عادة الفلاحين وأهل القرى اذا انقضت ايام الحصاد والدرارى وشطبوا ما عليهم من مال الخراج لملتزميهم ويكون ذلك فى بادىء زيادة النيل ، وارتفع عنهم الطلب ، وانحلت كشاف النواحى وقائمقام الملتزمين والصيارف والمعينون ، وقلت النواحى منهم .. فعند ذلك ترتاح ملبوساتهم ويزوجون بناتهم ويختنون صبيانهم ، ويشيدون بنيانهم ويصلحون جسورهم وحبوسهم » .

وللجبرتى رأى خطير فيما رسبته تلك المعاملات القاسية التى تعرض لها الفلاح ، فيقول :

« واذا التزم بهم (ملتزم) ذو رحمة ، ازدروه فى أعينهم واستهانوا به وبخدمه ، وماطلوا وسموه بأسماء النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم ، ولينالوا بذلك اغراضهم بوصول الأذى لبعضهم

---

(١) الجبرتى : عجائب ج ٤ ، ص ٢٢١ .
(٢) الجبرتى : ج ٤ ، ص ٢٢١ .

وكذلك اشياخهم اذا لم يكن الملتزم ظالما يتمسكون هم ايضا من ظلم فلاحيهم وربما وزعوا خراج اطياتهم وزراعاتهم على الفلاحين » .

هكذا بينما كانت الأرض هى مصدر ثراء المماليك كان الفلاح يحصل على النزر اليسير ويذهب عنه غالبية ما ينتجه نتيجة لضريبة الميرى التى ترسل الى السلطان وضريبة الكشوفية التى تذهب الى جيب الملوك المسئول عن الكشوفية (المديرية) وفائض الالتزام الذى يذهب الى جيب الملتزم .

تنبه الملتزمون والحكام الى جوهر المشكلة وهى أن ظلم الفلاح وابتزاز امواله قد يؤدى الى دخل مؤقت مناسب للحكومة والملتزم ، ولكن الى حين ، وانه لابد من اعادة النظر فى اسلوب التعامل مع الفلاح بما يضمن استمراره فى القيام بعمله دون أن يفكر فى الفرار من ارضه وقريته . فكان طبيعيا أن يكون اول خطوة فى هذا الصدد هى تخليصه من الضرائب غير الشرعية وغير القانونية ، وكانت هذه الضرائب كثيرة حقا ، وهى المسئولة الأولى من ارهاق الفلاح ولذلك نلاحظ أن عددا من الملتزمين اكتفوا بجمع ضريبة « الميرى » و « فائض الالتزام » دون غيرها . وفى هذا يحدثنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى عن أحد الملتزمين الذين التزموا جانب العدل فى معاملة الفلاحين (١) .

وادى ذلك الى أن اصبح نظام « الالتزام » و « الملتزم » فى موقف دقيق حيث تهدد الملتزم بخسائر مادية شديدة تجعله غير قادر على تغطية ما سبق أن دفعه للحكومة ، هذا فضلا عن التزامه امام الحكومة عن استمرار الانتاج بمعدلاته المعتمدة فى الدفاتر .

ويسجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى صورة من صور التعديات على الفلاح فيقول :

« وقف الارنؤدى لخطف (البضائع) من الفلاحين ، فكانوا يأتون بذلك فى أواخر الليل وقت الغفلة ويبيعونه باعلى الاثمان ... الأرنؤود .. وقع منهم القتل فى كثير من الناس ، حتى فى بعضهم البعض ... اباحية اسهل

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٢ ، حوادث ١٢٠٥ هـ — ١٧٩٠م ، ص ٢١٣ .

ما عليهم فتسل النفس واخذ مال الغير وعدم الطاعة لكبيرهم واميرهم وهم أخبث منهم ، فقطع الله دابر الجميع » (١) .

ونظرا لغياب القيادة التي تتولى الدفاع عن مصالح الفلاح وحقوقه وعدم قدرة الفلاحين على تكوين رادع ضد القوى الضاغطة عليه المضطهدة له عاد الى الاسلوب التقليدى السلبى فى مقاومة الظلم ، وهو الفرار من القرية . فعلا ، وبتوالى السنين ، تحولت مجموعة غير قليلة من القرى الى خراب وتوقفت فى زمامها الاعمال الزراعية .

وكان نهب المصرى يتم على كافة المستويات حتى من كانوا فى أعلى المناصب . ويكشف الجبرتى لنا ذلك فى رواية عن حادثة وقعت لاحد كبار المماليك وهو حسين بك .

فقد هاجم — حسين بك — حى الحسينية (١٧٨٦ م) ونهبته دون وجه حق على الاطلاق ، فقرر الشيخ الدردير أن يعامل المماليك بنفس المعاملة وقال للأهالى الذين وفدوا عليه :

« فى الغد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة واركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » .

فاضطرب المماليك وعملوا على تسوية الموضوع واستدعى ابراهيم بك الى مجلسه حسين بك هذا وعنفه على فعله ، فما كان من حسين بك الا أن رد عليه :

« كلنا نهابون ، وانت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وانا انهب كذلك ! » .

وانه لمن اشد صور التدهور الاخلاقى ما صوره لنا الجبرتى عن حادثة انفجار (البارود) فجأة فى حانوت فى السوق فقد تهدمت الدور والمحلات على من فيها . فجاء (الوالى) و (المحتسب) برجالهم لانقاذ

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١١٦ (١٢١٤ هـ — ١٨٠٠ م)

من لا يزال حيا واستخرج الجثث . ولكن تحولت المسألة الى نهب واستيلاء على ما يعثرون عليه . وفى ذلك يقول الجبرتى :

« .. أخذوا ما فى داخل الحوانيت .. حتى الحوانيت التى لم يصبها الهدم فتحوها وأخذوا ما فيها / واصحابها ينظرون ، ومن طلب شيئا من متاعه يقال له : هو عندنا حتى تثبته ... وقيامه قايمه ومن يقرأ ومن يسمع ... ووقفت اتباعهم بالنبابيت من كل جهة يطردون الناس ولا يمكنون أحدا من اخذ شىء .. اما القتلى ... ان كانت امرأة جردوها ، واخذوا حليها ومصاغها ... ثم لا يمكنون اقاربهم من أخذهم الا بدراهم يأخذونها ، وكانما فتح لهم باب الغنيمة على حد قول الشاعر (مصائب قوم عند قوم فوائد) » .

ومن النكبات التى تعرض لها الفلاح تسلط العربان على كثير من الارياف بسبب ضعف القوة العسكرية والمركزية واستخدام الحكومة للعربان كقوة عسكرية مساعدة وفى هذا يقول الجبرتى :

« وقفت العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والدقهلية وسائر النواحى ... وتسلطوا على القرى والفلاحين .. بالعرى والخطف .. وافساد المزارع ورعيها حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهائمهم الى خارج القرية للرعى أو للسقى لتربص العرب لذلك ووثب أهل القرى على بعضهم بالضرب .. وضربوا (اى العرب) على (الفلاحين) الضرائب وطمعت الصورة فى البلاد وطالبوهم بالثارات والعوائد القديمة الكاذبة ، وآن وقت الحصاد فاضطر (الفلاحون) لمساعدتهم (١) .

كانت مظالم الحكام تتكاتف مع نوازل الطبيعة ضد الفلاح فتزيد من بؤس حاله . فقد كان انخفاض الفيضان يرغم الفلاحين على الفرار من القرى بحثا عما يسد أودهم ويصور لنا الجبرتى بأسلوب مؤثر واحدة من تلك النكبات التى وقعت بالفلاح فى عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م : (٢) .

---

(١) عجائب الآثار ، ص ٨٨ — ٨٩ (١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م) .
(٢) أى الإدارة والملتزمون .

ومع ان عبد الرحمن الجبرتى لم يكن من أكثر المراقبين للاحوال الاجتماعية فى مصر قدرة على تحديد مشكلات الفلاح الا انه استطاع أن يبين من اين تأتى الى الفلاح المظالم مبديا فى نفس الوقت بأسلوب العصر الله وتعجبه من هذه الأحوال فيقول بصدد خراب اقليم القليوبية فى ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م :

« لم يبق به الا خمسة وعشرون قرية فيها بعض سكان والباقى خراب وليس فيها ديار ولا نافخ نار » .

وقعت كذلك الشدائد بمصر بشكل متوال ، فيضانات مغرقة وقحط وجفاف وانخفاض النيل وطاعون وامراض وكوليرا ، كانت تنقض على المدن والأرياف . وكانت تفنى بيوتا بأسرها .. وخاصة بيوت المماليك الذين كانوا لا يتحملون مثل تلك الأوبئة فى مناخ غير بيئتهم الأولى التى ولدوا فيها .

وفى ذلك يقول الجبرتى عن مجاعة من تلك المجاعات وقعت فى عام ١٧٨٤ فصور تلك المجاعة مثلما صور تدهور المجتمع المصرى حينذاك فيقول :

« انقضت هذه السنة ، كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء ، وقصور النيل ، والفتن المستمرة ، وتواتر المصادمات والمظالم من الأمراء ، وانتشار اتباعهم فى النواحى لجبى الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ... ودفع المظالم والفردة .. حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم ، واشتد كربهم ، وطفشوا من بلادهم .. احتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم .. (وتتبع أصحاب السلطة) (١) من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب اضعاف ما يقدر عليه ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة ، ولما تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار .. ثم مدوا (١) أيديهم الى المواريث .. فاذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أولا .

وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر .. ولا يعارض فيما يفعل فى الجزئيات وأما الكليات فيختص بها الأمير .

---

(١) الادارة .

فحل بالناس مالا يوصف من أنواع البلاء الا من تداركة الله برحمته ، او اختلس شيئا من حقه ، فان اشتهروا عليه عوقب على استخراجه وفسدت النيات وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض .. فيتتبع الشخص عورات اخيه ، ويدلى به الى المظالم .. حتى خرب الاقليم ، وانقطعت الطرق — وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ومنعت السبل الا بالخسارة ..

وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم ، وانتشروا فى المدينة بنسائهم واولادهم يصيحون من الجوع ، وياكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره .. فلا يجد الزبال شيئا يكنسه .. واشتد بهم الحال حتى اكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال ، فاذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه واخذوه ومنهم من ياكله نيئا من شدة الجوع . ومات الكثير من الفقراء بالجوع .. وقل التعامل الا فيما يؤكل .. وصار الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل ..

ومن فتك الطاعون بالناس حدثنا الجبرتى :

« زاد أمر الطاعون ، وقوى حمله بطول شهرى رجب وشعبان ، وخرج عن حد الكثرة ، ومات به ما لا يحصى من الأطفال ، والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء ، ومن الأمراء الالوف ، والصناجق نحو اثنى عشر صنجقا .. وعسكر القليونجية (١) والارنؤود .. حتى كانوا يحفرون حفرا ان بالجيزة بالقرب من مسجد ابى هريرة ويلقونهم فيها ، وكان يخرج من بيت الأمير فى المشهد (٢) الواحد الخمسة والستة والعشرة ، وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين ، ويقف فى انتظار المغسل أو المغسلة الخمسة والعشرة ، يتضاربون على ذلك ، ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضا او ميتا او عائدا او معزيا او مشيعا او راجعا من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولا فى تجهيز ميت و باكيا على نفسه موهوما ، ولا تبطل صلاة الجنائز من المساجد والمصليات ، ولا يصلى الا على اربعة أو خمسة أو ثلاثة . وندر جدا من يشتكى ولا يموت » .

فى خضم هذا التدهور الشديد فى اوضاع المصرى ، كان هناك نفر

---

(١) رجال البحرية .
(٢) الجنازة .

قليلٌ جداً من الفلاحين استطاع أن يشق طريقه وان يصل الى مرتبة موازية لمرتبة الأمراء المماليك ليعيش من بعد على نسقهم .

وقد قدم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة لهذا (الحدث) النادر فى زمانه ، وهى ليست مجرد صورة وانما هى — من وجهة نظرى — تحفة من التحف التى يقدمها لنا المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتى . حدثنا هذا المؤرخ عن هذه النادرة من « نوادر الزمن » فيقول « الحاج صالح الفلاح .. وهو استاذ الأمراء المعروفين بمصر المشهورين بجماعة الفلاح .. كان متمولا ذا ثروة عظيمة وأصله غلام يتيم فلاح من قرية من قرى المنوفية .. يقال لها الراهب ، كان خادما لبعض اولاد شيخ البلد فانكسر عليه المال فرهن ولده عند الملتزم .. حتى غلق ابوه ما عليه من المال .... وكان نبيها خفيف الروح والحركة ولم يزل يتنقل فى الاطوار حتى صار من ارباب الأموال واشترى المماليك والعبيد والجوارى ويزوجهم من بعضهم ويشترى لهم الدور ... ويدخلهم فى الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لأرباب الحل والعقد والمتكلمين وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة ، واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية أوده باشيه وغير ذلك حتى صار من مماليكه ومماليكهم .. شهرة عظيمة بمصر وكلمة نافذة وعزوة كبيرة ... » (١) .

وفى خضم المآسى التى كان يعانى منها الفلاحون ، كانت هناك فترات فى العهد المملوكى العثمانى يشع فيها وميض الفرحة والسرور ، فرحة يشارك فيها الجميع بدرجات متفاوتة . فمع أن الأفراح كانت افراح الحكام والأعيان والأثرياء ، الا أن الشعب الفقير الكادح كان يفرج بها عن نفسه وعما كان يعانيه من شظف العيش ، ويصور لنا عبد الرحمن الجبرتى عرسا مملوكيا جاءه الشعب من مختلف اجزاء البلاد القريبة من القاهرة ، وقد اقيم هذا الحفل فى منطقة بركة الفيل وكانت من اهم مناطق القاهرة حينذاك فيقول :

« فعملوا على معظم البركة اخشابا مركبة على وجه الماء يمشى عليها الناس للفرجة ، واجتمع بها أرباب الملاهى والملاعب وبهلوان الخيل وغيره

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، (١١٢٥ هـ / ١٧١١ م) .

من ســـائر الأصناف والفرج ، والمتفرجون والبياعون من ســـائر الأصناف والأنواع ، وعلقـــوا القنـــاديل والوقدات على جميع البيوت المحيطة بالبركة — وغالبها سكن الأمراء والأعيـــان ، وفى كل بيت (من بيـــوت المـــاليك) ولائم وعزائم وضيافات وســـماعات وآلات .. واســـتمر هذا الفرح .. مدة شـــهر كامل والبلد مفتوحـــة والناس تفد ليلا ونهـــارا للحظ والفرجة من جميـــع النواحى « .. وردت الهدايا والصلات (الى على بك الكبير) من اخوانه الأمراء والأعيان والاختيـــارية والوجاقلية والتجـــار والمباشرين والاقباط والافرنج والأروام واليهـــود والمدينـــة عامرة وحضرت مشـــايخ البلدان واكابر العربان ومقـــادم البنـــادر بالهـــدايا والأغنام والجواميس والســـمن والعســـل .. » (١)

كان وفاء النيـــل والاحتفـــال بكسر الخليج وتدفق ميـــاه النيـــل فيه احتفالا عـــاما . ولكن اتخذ فى عهـــد الفوضى فى عام ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م شـــكلا آخـــر فيقـــول الجبـــرتى :

« .. أوفى النيـــل المبـــارك ســـبعة عشر ذراعـــا وكسر ســـد الخليج فى صبح يوم الســـبت بحضرة الباشـــا والقاضى ومحمد على وباقى كبـــار العســـكر وكان جمعـــا مهولا وضرب الجميع بنادقهم وجرى المـــاء بالخير ، وركبوا القوارب والمراكب ودخلوا فيـــه وهم يضربون بالبنـــادق وكذلك من كان منهم بالبيوت وكان الموســـم خاصا بهـــم دون أولاد البلد ... وكذلك ســـكنوا بيوت الخليـــج مع (الســـاقطات) من النســـاء » .

وفى هذا الاحتفال قتل عـــدد ليس بالقليـــل من الناس برصاصات طائشة . وكان من يســـقط صريعا لا يســـلم الى ذويه الا بعد أن يدفعوا مبلغا من المال .

ومن وقت لآخر كانت تقع فى مثل هذه الأعياد والاحتفالات مبـــاذل ومهـــازل فريـــدة . ومن ذلك ما صـــوره لنـــا عبد الرحمن الجبـــرتى عمـــا حدث فى أحـــد أعيـــاد شـــم النســـيم .

فعيد شـــم النســـيم يعتبر واحدا من الأعيـــاد الشـــعبية التى يحتفل بهـــا المســـلمون والأقباط على حـــد ســـواء ، ومن ثم فهو أقرب ما يكون الى العيـــد

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٧١ .

(التسومى) . وكان يخرج فيه الناس — على مختلف مستوياتهم — الى الحدائق والحقول ومعهم أطعمتهم ، ويقضون يوما جميلا فى يوم ربيع . ولكن مثل هذه الأعياد ومثل هذا الاستمتاع بالطبيعة وخاصة بواسطة السيدات والفتيات كان يثير الرجال لتصاعد الرغبة فى الاستمتاع بهن دون القدرة على الوصول اليهن ، فينقلب هؤلاء الى معتدين ، ويتحول شم النسيم الى يوم نكد وانتهاك الحرمات .

وقد صور لنا المؤرخ الجبرتى احدى هذه الحوادث المؤسفة التى وقعت خلال (شم النسيم) عام ١٧٣٢ م .

يقول عبد الرحمن الجبرتى فى حوادث عام ١١٣٥ هـ — « فى أول الخماسين طلع الناس على جرى العادة فى ذلك ، لاستنشاق النسيم فى نواحى الخلاء ، وخرج سرب من النساء الى ناحية الأزبكية ، وذهب منهن طائفة الى غيط الأعجام تجاه قنطرة الدكة ... فحضر اليهن جماعة سراجون (١) وبأيديهم السيوف من جهة الخليج — وهم سكارى — وهجموا عليهن واخذوا ثيابهن ، وما عليهن من الحلى والحلل .. وجميع من كان هناك من النساء الاكابر ، ومن جملة ما ضاع حزام جوهر ، وبشت جوهر ، قالوا أن الحزام قيمته تسعة أكياس (٢) والبشت خمسة اكياس . ومن جملة من كان هناك آمنة الجنكية ، فعروها ، واخذوا ما عليها ، وكان لها ولد صغير ، وعلى رأسه طاقية عليها جواهر وبنادقة وزوج اساور جوهر وخلخال ذهب بندقى (٣) قديم واربعمائة مثقال . ومن جملة ما اخذوا لباس شبيكة من الحرير الأصفر ، وفى كل عين من الشبيكة لؤلؤة فى كل لؤلؤة شريط مخيش ، والدكة كذلك ، واخذوا أزرهن ومرجيباتهن ، وارسلن الى بيوتهن ياتين بثياب يستترن بها ، وذهبن . وكانت هذه الحادثة من اشنع الحوادث » .

---

(١) حرفيو السروج .

(٢) الكيس كان يساوى ٥٠٠ قرش ، وكان للقرش قوة شرائية بالقياس الى قيمته التافهة الحالية حتى انه يمكن القول ان القرش حينذاك يعادل عشرة جنيهات حالية .

(٣) نسبة الى البندقية .

ان هذه الصـورة التى قدمهـا لنـا عبد الرحمن الجبـرتى تكشـف لنـا عن جوانب هـامة :

١ — ذلك الثراء الفـاحش الـذى كانت عليـه بعض المخـدرات حتى كان ما تحمله أو يحمله احـد الأولاد يعتبر ثروة طائلة ، والواقع ان احـد اسـاليب تجميـع المـدخرات كان شراء مثل هذه الملابس الغاليـة الثمن المرصـعة .

٢ — أن من « المشـغولات » كان متقـدما حينـذاك وأن أنواعا معينـة من الملابس كانت ذات قيمة ماليـة جـدا .

٣ — ان النسـاء كن يخرجن الى المتنزهات دون الرجال ويبـدو أن ذلك كان من الأمور المتفق عليهـا عرفيـا حتى لا تفـرض القيـود على التجمعـات النسـائية فى الحقـول والمتنزهات العامة .

على أن ما حـدث فى ذلـك اليـوم من هجـوم دبـره السـكارى ، ليس بمختلف عما حدث فى مثل هذه الأعياد فى وقتنا هذا وخاصـة فى الحقول والمتنزهات العامة . ولكن خروج الأسرات بكاملهـا بعضها مع بعض فى الاحتفالات والأعياد الآن قلل الى حـد كبير من وقوع مثـل تلك الأحداث « الشـنيعة » .

لقد كانت الخرافات تمـلأ المجتمـع المصرى ، وليس بوسـعنا أن نسـجل مظـاهر ذلك بالتفصـيل ولكن نسـوق مثلا أو مثلين عن الشـعوذة فى الدين . ومن انتشـار بعض الأفكار والخرافات بشـكل سريع فى المجتمـع دون تمحيص أو مناقشـة .

فمن أبرز الأمثـلة التى تكشـف عن الاسـتعداد الـكبير لدى الشـعب للاسـتهواء وتقبـل بعض الأفكار غير الواقعية سريان اشـاعة عن أن القيـامة سـتقوم يوم (جمعة) حـددوه فيقول الجبرتى :

« اشـيع فى النـاس بمصر بأن القيـامة قائمـة يـوم الجمعـة سـادس عشرين الحجـة ، وفشـا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والريف ، وودع النـاس بعضـهم بعضـا ، ويقول الانسـان لرفيقـة ، بقى من عمـرنا يومان ، وخـرج الكثير من الناس والمخـاليع الى الغيطان والمتنزهات ، ويقـول بعضهم لبعض : دعونا نعمـل حظـا ونـودع الدنيـا قبـل أن تقـوم القيـامة . وطلع أهل الجيزة نسـاء ورجالا ، وصـاروا يغتسـلون فى البحـر ، ومن الناس

من علاه الحزن وداخله الوهم ، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ، ويدعو ويبتهل ويصلى ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه فى نفوسهم ومن قال لهم خلاف ذلك أو قال هذا كذب لا يلتفتون لقوله ، ويقولون هذا صحيح ، وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان فى الجفور وفى الزايرجات ولا يكذبان فى شىء يقولانه .. ومضى يوم الجمعة واصبح يوم السبت فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال ان سيدى احمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر ، اللهم انفعنا بهم فاننا يا اخى لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظ ، ونحو ذلك من الهذيانات » .

ومن امثلة الخرافات التى ذكرها الجبرتى عن المجاذيب :

« تعلقت (امراة) برجل من المجاذيب يقال له الشيخ البكرى ، مشهور ومعتقد عند العوام . وهو رجل طويل حليق اللحية يمشى عريان ، واحيانا يلبس قميصا وطاقية ويمشى حافيا .. فصارت هذه المراة تمشى خلفه اينما توجه ، وهى بازارها ، وتخلط فى الفاظها ، وتدخل معه الى البيوت وتطلع الحريمات . واعتقدها الناس وهادوها بالدراهم والملابس واشاعوا أن الشيخ لحظها وجذبها وصارت من الأولياء ، ثم ارتقت فى درجات الجذب ، وثقلت عليها (الشربة) ، فكشفت وجهها ولبست ملابس كالرجال ، ولازمته اينما توجه ، ويتبعهما الأطفال والصغار ، وهوام العوام . ومنهم من اقتدى بها ايضا ، ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته وقالوا انه اعترض على الشيخ والمراة فجذبه الشيخ ايضا ، أو أن الشيخ لمسه فصار من الاولياء . وزاد الحال ، وكثر خلفهم اوباش الناس والصغار وصاروا يخطفون أشياء من الأسواق ، ويصير لهم فى مرورهم ضجة عظيمة . واذا جلس الشيخ فى مكان وقف الجميع ، وازدحم الناس للفرجة عليه ، وتصعد المراة على دكان أو علوة ، وتتكلم بفاحش القول ، ساعة بالعربى ومرة بالتركى .. والناس تنصت لها . ويقبلون يدها ، ويتبركون بها ، وبعضهم يضحك ، ومنهم من يقول : دستور يا اسيادى ... وبعضهم يقول لا تعترض بشىء ... فمر الشيخ فى بعض الأوقات — على مثل هذه الصورة والضجة — ودخلوا من باب بيت القاضى الذى من ناحية بين القصرين ، وبتلك العطفة سكن احد الأجناد يقال له جعفر كاشف ، فقبض على الشيخ ، وادخله الى داره ، ومعه المراة وباقى

المجاذيب فاجلسه واحضر له شيئا ياكلة وطرد الناس عنه ، وادخل المراة والمجاذيب فضربهم ،وعزرهم ، ثم ارسل المراة الى المارستان وربطها عند المجانين واطلق باقى المجاذيب بعد ان استغاثوا وتابوا ولبسوا ثيابهم .. ودارت الشربة من رؤوسهم .. واستمرت المراة محبوسة بالمارستان حتى حدثت الحوادث فخرجت وصارت شيخة على انفرادها ويعتقدها الناس والنساء ، وجمعت عليها الجمعيات وموالد واشباه ذلك » .

هكذا كانت البدع منتشرة بشكل متطرف ، ومثل هذا الانتشار كفيل بأن يثير انتباه بعض المعتدلين ، فضلا عن انتباه من يفد من المفكرين الاصلاحيين على البلاد . ويقدم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة تاريخية عن دعوة مبكرة الى القضاء على البدع والانحرافات خاصة من حيث المبالغة فى اسناد الكرامات الى أولياء الله الصالحين . فلقد وفد (واعظ) من الاتراك الى القاهرة وأخذ يحث الناس على ترك البدع والخرافات وأنكر على الناس « بناء القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ، ويجب هدم ذلك » .

واستطاع الرجل أن يجمع حوله جبهة شعبية وقفت الى جانبه بقوة ضد رجال الأزهر وضد رجال الادارة ، ولكن القوة العسكرية استطاعت أن توجه ضربة الى تلك الجبهة الشعبية .

ونلاحظ أن عبد الرحمن الجبرتى يكشف لنا عن عامل هام دفع الادارة الى توجيه ضربة الى هذه الجبهة الشعبية الاصلاحية . فقد ذكر أن رجال الادارة خشوا على أنفسهم وعلى هيبتهم من هذه الحركة فقرروا ضربها حتى لا تكون سابقة لتحرك ضد الادارة . وليكون ضربها عبرة لمن يفكر فى ذلك حتى ولو كانت أهدافه اصلاحية .

فيقول عبد الرحمن الجبرتى : (١٧١١ م) .

« اما الباشا فانه .. ارسل بيورلديا الى ابراهيم بك وقيطاس بك يعرفهم ما حصل وما فعلة العامة من سوء الأدب وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت انا والقاضى على السفر من البلد . فلما قرأ الامراء ذلك لم يقر لهم قرار ، وجمعوا الصناجق والأغوات ببيت الدفتردار واجمعوا رايهم على ان ينظروا هذه العصبة من اى وجاق ويخرجوا من حقهم وينفى ذلك الواعظ من البلد » .

وفعلا نفذوا ما اتفقوا عليه بالقوة :-

وانه لن الجدير بالذكر ان دعوة الى منع التدخين ظهرت ١٧٤٣ ، أى قبل ان تظهر هذه الدعوة فى اى مكان آخر فيقول عبد الرحمن الجبرتى ان الادارة العليا العثمانية نفسها هى التى سعت الى ذلك واصدرت « فرمانا بابطال شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت » .

وكان الهدف من ذلك هو منع العلانية وبالتالى منع (الدعاية) غير المقصودة لمثل هذه العادة الضارة ، وهذا يذكرنا بالأوامر الادارية التى صدرت أخيرا فى أكثر من دولة بمنع التدخين فى الأماكن العامة .

حقيقة دعا محمد بن عبد الوهاب الى القضاء على البدع ودعا الوهابيون كذلك الى ابطال التدخين ، ولكن الدعوة الى تجنب هذه البدع قد ظهرت فى مصر قبل أن تظهر فى الجزيرة العربية . وهذا أمر طبيعى لما كانت عليه مصر — مهما كانت احوالها — من تقدم كبير للغاية بالقياس الى ما كانت عليه قبائل الجزيرة العربية من تخلف يعود بها الى مستوى الحياة البدائية البدوية لولا بقية من الفكر الاسلامى ظلت لديهم ، الأمر الذى تطلب حركة اصلاحية شديدة القوة فى الجزيرة العربية (الحركة الوهابية) وفيما وراءها ، وهذه هى قيمة هذه الحركة الوهابية .

ولدينا بعض الملاحظات على الأمثلة سالفة الذكر :

١ — ان الشعب كان مستعدا للترحيب بمثل هذه الدعوات الدينية ومستعدا كذلك للدفاع عنها قدر استطاعته . ولقد حدثنا عبد الرحمن الجبرتى عن أن الشعب حمل (العصى والنبابيت) دفاعا عن الرجل ودعوته . وذلك هو اقصى ما كان يتسلح به المصرى حينذاك .

٢ — ان بعض علماء الأزهر لم يكونوا على المستوى المناسب وكان بعض منهم يصدر فتاوى تدل على سطحية فهم الدين الاسلامى . ومن ذلك قول بعض علماء الأزهر حينذاك بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت .

٣ — أن الفكر الادارى العسكرى حينذاك مسئول عن اجهاض الاتجاهات الاصلاحية ، فلم يكن رجال الادارة من اتراك وشراكسة على مستوى مثل هذه الدعوة . ومن ثم كانوا يتقبلون فتاوى بعض رجال الأزهر وخاصة اذا كانت تتمشى مع مصالحهم .

ومن أبرز مظاهر الفوضى خــلال القــرن الثامن عشر أن العديد من الطوائف وأصحاب الحرف أخذت تقوم بنفسـها للحصول على حقوقها أو للدفاع عن مصـالح أحـد أفرادها . ومن ذلك تحركات الأشراف ضـد اعتداءات الترك عليهم ، وهى تحركات لم يقض عليها الا بالقوة المسلحة .

ومن تلك التحركات والاضرابات والاضـطرابات ما كان يحدث بين المنتسبين لاروقة الأزهر وكانت مصادمات ذات نطاق واسع .

ومن الملاحظ أن المغاربة كانوا يشكلون جماعة قوية سواء من حيث التماسك أو من حيث القدرة على انزال قوة مسلحة للدفاع من مصالحهم أو للمشاركة فى قوة أمن الدولة .

فلقد استبعد المماليك المصريين من الاشتراك فى القـوات المسـلحة سـواء المدافعة عن أرض مصر أو عن أرض الاسلام ، بل استبعدوهم حتى عن حراسـة قافلة الحج . اذ كان يتولى هذه المهمـة الممـاليك والمغـاربة والأتراك والهنـود واليمانية والمتاولة » (١) .

وبينما كانت حكومة المماليك لاهية عما تطورت اليه أوربا ، وبينما كان الشعب يعانى من المظالم والتخلف الشديد ، كانت الدول الأوربية قد أخـذت فى الاهتمـام بأمور مصر أكثر عن ذى قبل . اذ أصبحت لدى هذه الدول الأوربية رؤية امبريالية استعمارية جديدة للمنطقة بأسرها .. فنلاحظ أنه فى سبعينيات وثمانينيات القـرن الثامن عشر توالى عقـد سلسلة من المعاهدات بين مماليك مصر والدول الأوربيـة وخاصة انجلترا وفرنسا الدولتين المتنافستين حينذاك على ثروات الشرق .

لقد أدى ذلك الصراع بين انجلترا وفرنسا الى أن تركز فرنسا على مصر أكثر من انجلترا ، وخاصة من حيث مشاريع احياء الطريق القصـير بين الشرق والغرب عبر مصر ، وانتهى الأمر بأن نفـذ نابليون بونابرت خطتـه فى ضرب الامبراطورية البريطانية بأن يبدأ بالسـيطرة على مصر . وعندما هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى ١٧٩٨ فوجىء المصريون حكومة وشعبا بحضارة جديدة تنقض عليهم لم يكونوا يتوقعونها .

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، حوادث عام ١١٨٥ هـ .
والمتاولة هم شيعة فى الشام .

الفصل الثانى

مصر فى أيام الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على ١٧٩٨-١٨٠٥

فى يوليو ١٧٩٨ هبطت الحملة الفرنسية ارض مصر لتستعمرها ، وكانت لدى الفرنسيين تقارير عن احوال مصر السياسية والاقتصادية وبعض الصور عن اوضاعها الاجتماعية ، ولكن ماذا كان لدى الجانب المصرى من حيث حجم وقيمة المعلومات عن الفرنسيين الذين فرضوا على بلادنا منذ ذلك التاريخ مواجهة عسكرية حضارية ومن نوع جديد .

وبادىء ذى بدء ، كان نزول الحملة الفرنسية الى ارض مصر يعنى مواجهة بين حضارتين عميقتى الجذور مختلفتى المناحى ، ولكن واحدة منها متطورة والثانية متخلفة من حيث التقدم العلمى . ومع أن المبادىء النظرية للتقدم الغربى موجودة فى جوف الفكر الاسلامى فانها كانت غير ممارسة فى المجال العملى وغير مقننة .

ورغم ما كان يعانيه المواطن الشرقى من استبداد حكامه واضطراب أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية فان المشرق لم يتعرض الى هزة توقظه وتجعل أهله يدركون حقيقة ما اصبحت عليه احوالهم بالمقارنة بما اصبحت عليه دول العالم الغربى بصفة خاصة ، وكان هبوط الحملة الفرنسية واستيلاؤها على مصر هزة حقيقية وضربة قوية وجهت الى النظام التقليدى الذى كان سائدا فى مصر . وحق للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتى أن يستهل عام ١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م بقوله :

« وهى اولى سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك بمهلك القرى بظلم اهلها مصلحون » .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر مفاجأة مروعة ، رآها المصرى نكبة من اعظم النكبات التى نزلت به وبوطنه . حقيقة استهان بأمرها فى أول الأمر ، ولكن لم يلبث أن ادرك انه فى مواجهــة عصر وقــوى لم يكن يتوقعها او يتصــور مــدى قدراتهــا .

فما هى تلك العوامل التى جعلت المصرى على جهل كبير جدا بالتطورات التى وقعت فى أوربا الغربية حتى بعدت المسافة بين الشرق والغرب بعداً شاسعا ، مع أن الحضارة الاسلامية حتى القرن الثالث عشر الميلادى على الاقل كانت متفوقة ، وكان الغرب ينهل منهــا ؟ .

وانه لسؤال هام حقا ، حيث أن من مســئوليات المفكرين فى أى مجتمع أن يكونوا على بينة من تطور المجتمعات الأخرى الصــديقة منها او المعــادية لهــا او المتفاهمة معها ، ومن حيث أن من مسئولياتهم اكتشاف السـلبيات والايجابيات فى حضارتهم ومقارنتها بمثيلاتها لدى الحضــارات الأخــرى ، وذلك حتى يمكن ســد الثغرات الحضارية فى الوقت المناسب .

كان الاحتكاك بين المجتمع المصرى ومجتمع أوربا الغربية محدودا للغاية فقد كانت التجارة الخارجية والملاحة بين موانى مصر وموانى حوض البحر المتوســط الغربية لا تعتمد على أيــد مصرية ، فقد كان الحكم العثمــانى ــ المملوكى لا يولى التجارة الخارجية الأهمية اللازمة لها ، بل تركوا مسئولية النقل البحرى للأجانب فلم يكن لمصر أســطول بحرى أو حربى ، وبالتالى كانت مجــالات الاحتكــاك التجارى محدودة جدا . وكانت البيــوت التجارية الأوربية تعتمد على تجــار لها فى المــدن الكبرى المصرية ، بينما لم يكن فى الموانى الأوربية تجار مصريون ، وبالتالى كان فى استطاعة تجار الدول الأوربية فى مصر أن يرسموا صورة عن أحوال مصر بينما لم تكن هناك معلومات عن أوربا تصل الى المصريين الا النزر اليســير ، وخاصــة أن التمثيل السياسى فى البلاد الأجنبية كان من مسئوليات الحكومة العثمانية فى الأستانة (القسطنطينية) . ومن ثم كانت العلاقات التجــارية بين مصر وأوربا الغربيــة من جانب واحد تقريبا ، الأمر الذى أضعف فرص تعرف الشعب المصرى على المجتمعات الأوربيــة الغربيــة .

وفى الوقت الذى كانت فيه العلاقات الاقتصــادية على هذا النحو من التأثير السلبى الخطير على قدرات الشعب المصرى فى التعرف على مجتمعات غرب أوربا ،

كانت العلاقات العسكرية التصادمية أو التحالفية معدومة تقريبا بين مصر وغرب اوروبا . فقد كان الجيش العثمانى هو المسئول عن الدفاع عن بلاد المسلمين بصفة عامة ، وكان المماليك — فضلا عن الجيش العثمانى — مسئولين عن الدفاع عن مصر . ولم يكن المصرى يجند او يدعى للتجنيد .

ومن المعروف أن الحاميات العثمانية فى مصر انحلت ، وباع الجند العثمانى تذاكر المرتبات والتموين الخاصة بهم الى افراد من الشعب المصرى فى مقابل مبالغ معينة ، حتى لقد سجل فى قوائم الجند العثمانى فى مصر تجار وأصحاب حرف ونساء وهم لا يدركون من فنون الحرب شيئا . وكل ما فى الأمر انهم اصبحوا أصحاب تذاكر الجند العثمانى وحلوا محلهم فى استلام الرواتب .

وتولى المماليك أمر الحكم والحرب ، ولكن مفهوم الحرب لدى المماليك كان الدفاع عن مصر والاسلام باللسان والتصارع فيما بينهم على خيرات مصر . واذا حدث وانتدبتهم الدولة العثمانية لحرب فيما وراء مصر تهربوا ، وحتى اذا ذهب بعضهم الى حرب فانها غالبا ما تكون ضد فارس أو ضد روسيا او فى البلقان وهى مناطق لا تقدم حينذاك حضارة حديثة على نحو ما كانت تقدمه أوربا الغربية .

ولهذا لا نجد اثرا واضحا لمفهوم الحضارة الغربية لدى المماليك الذين كانوا الطبقة المرشحة حينذاك لتفهم التطورات التقدمية التى حدثت فى أوروبا الغربية . وهكذا كان عدم الاحتكاك المباشر بين المجتمع المصرى — على اختلاف مستوياته — والمجتمع فى غرب اوروبا من العوامل الرئيسية التى جعلت مستوى المعرفة المصرية بالحضارة الأوروبية الغربية لا يرتفع عن الصفر الا قليلا .

وحتى عندما كانت هناك فرصة للتعرف على بعض جوانب الحضارة الاوروبية الغربية ، فان انتهازها كان محدودا للغاية . فقد كانت فى الموانى المصرية الرئيسية (الأسكندرية ودمياط ورشيد) جاليات أوربية محدودة العدد ، وكان أكبرها فى الاسكندرية الجالية الفرنسية لما كانت علية غرفة تجارة مرسيليا من نشاط تجارى مع مصر . فلم يؤد وجود هؤلاء التجار الأوربيين فى المدن الكبرى المصرية الى أى تعرف معقول بحضارة اوربا ، فالاوربيون لم يكونوا مستعدين لأن يقدموا عناصر حضارتهم الى الشرق الاسلامى ، ولا المسلمون كانوا مستعدين لاتعرف على الحضارة الحديثة من تلك التلة القليلة من الأوربيين فى مصر . وهذا الرفض من جانب المصرى كان يرجع الى نوع من التنافر الشديد بين الحضارتين ، والى اقتناع تقليدى غرس فى اذهان المصريين عدم جدوى ما لدى الافرنج من مظاهر حضارية ،

فقد كان المسلمون بصفة عامة يرون أنه مهما كانت ميزات الأوربى المتحضر فسيلقى الأوربيون عقاب الله لما كانوا عليه من عقائد دينية ، فلا يليق بمسلم أن يتخذهم مثلا أعلى أو أن يأخذ من حضارتهم حفاظا على صدق اسلامه من الزيغ .

لقد عاشت مصر زهاء ثلاثة قرون دون أن تخوض حربا أو تواجه غزوة خارجية . ومع ما لهذا العامل من اهمية فى تحديث الحضارات فان هذا العامل لم يكن له الدور المحسوس فى مجتمعات اسلامية كانت فى صراع عسكرى وعلى علاقات واسعة مع دول غرب أوربا . ونعنى بذلك « الجزائر والمغرب » ، فرغم قربهما الشديد من أوروبا الغربية وتعرضهما لهجماتها ورغم سيطرة أسبانيا على (سبته) و (مليله) ورغم الصراع العسكرى والدينى بين أسبانيا والمغرب والجزائر ، فان ذلك كله لم يؤد الى تطوير جوهرى فى مجتمع المغرب الاسلامى . حقيقة كانت أسبانيا متخلفة حضاريا بالقياس بانجلترا وفرنسا الا اننا نعتقد أن المسلمين بصفة عامة تجنبوا الى أقصى درجة ممكنة « تفهم الحضارة الغربية » مهما كانت الظروف المواتية أو غير المواتية . وكان الأوروبيون من جانبهم غير مستعدين لتقديم حضارتهم الى المسلمين .

تلك هى العوامل الرئيسية التى جعلت المصرى جاهلا بطبيعة المجتمع الأوربى وتطوره حتى أصبحت مصر مجالا للتنافس الفرنسى الانجليزى والاستعمارى . فقبيل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، كان هناك صراع دبلوماسى تجارى بين فرنسا وبريطانيا ، فكانت فرنسا عندما تعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر تسارع حكومة انجلترا الى عقد معاهدة مماثلة أو أحسن منها — ان أمكن — مع هؤلاء المماليك . حتى مال ميزان المماليك ضد التجار الفرنسيين فأخذوا منهم ضرائب أكثر وأكثر ، بينما كان المماليك فى نظر القنصل الفرنسى فى مصر قوة عسكرية تافهة يمكن للجيش الفرنسى أن يوجه اليها ضربة قاضية تؤدى الى وضع مصر فى يد فرنسا لتتمتع هى بخيراتها .

ولم يدر المسئولون المماليك ولا الشعب المصرى بما يدبر للبلاد فى العاصمة الفرنسية بعد أن اجتاحت القوات الفرنسية ايطاليا واطلت على الطريق الى مصر من قرب ، وتبين لنابليون بونابرت أن قدرات فرنسا الثورة ستكون أكثر تفوقا فى صراعها مع انجلترا اذا ما أصبحت مصر قاعدة لتكوين امبراطورية شرقية فرنسية . واستطاع بونابرت أن يقنع حكومة فرنسا حينذاك بقيمة حملة فرنسية على مصر لن تجد الا مقاومة محدودة من المماليك ثم يصبح شعب مصر اداة للفرنسيين فى

الانتاج ويحصل الشعب المصرى — من وجهة نظر نابليون بونابرت — من وراء ذلك على بعض جوانب الحضارة الفرنسية .

كان سكان المدن يعيشون فى أحياء قذرة الا اذا تشدد حاكم فى النظافة ، والشوارع مظلمة الا اذا صدرت الأوامر بالانارة حفاوة بمقدم عيد أو تولية وال جديد ، ولولا المدارس والجوامع والأعياد وبعض ايمان بالنظافة ، ولولا بعض الاحياء التى كان يسكنها الاثرياء وعلية القوم مثل الازبكية ببركتها الجميلة والقوارب السابحة فيها ونسيمها وظلال اشجارها الباسقة وقصور المماليك المتناثره والسهرات حولها لكانت حالة القاهرة لا تطاق .

اما الفلاحون فكانوا يعيشون فى بيوت من طين مع ماشيتهم وفى نهارهم فى اوحال حقولهم ، يتقوتون بجبن وخبز وبعض خضراوات ولحم فى المواسم المتباعدة ولكنهم فى معظمهم فى قوة بدنية لا بسبب الغذاء ولكن بسبب الممارسة الشاقة فى الحقل تحت وهج الشمس الذى يقتل حشراتهم وجراثيم لا يدركونها ، وحصل جسدهم على مناعة طبيعية من العديد من الأمراض الا أن كثيرا منهم فقد بصر احدى عينيه او كلتيهما أو تشوه وجهه بالجدرى أو اعوجت قدماه منذ صغره . ومع ذلك فهو يعيش يومه مثل غده ويخشى مجىء مسئول لتفريمة وطلب الأموال منه او ملتزم يحصل الأموال والمحاصيل حتى آخر بارة أو آخر أردب .

ويجد الفلاح فى كثرة الأولاد عزوة ، وكانت زوجته الولود قادرة فى اغلب الأحيان أن تغطى نسبة الوفيات العالية فى الأطفال وهى سعيدة بشقائها فى بيتها وحقلها وهى المتعة الحلال الوحيدة ، وأمور الجنس عندها وعنده مكشوفة ، وقد لا تعرف ولا يعرف غير المجتمع القروى ولكن الأسواق كانت تجارة ومتعة وكذلك زيارة اولياء الله الصالحين ، واما من حج وزار من الفلاحين فهم قلة نادرة ومن تمكن من ذلك فهو فى مكانة عالية .

وما كان الفلاح يعرف من النقود الا النزر اليسير جدا منه ، وزوجته لا تمتلك من المصاغ الا التافه منه ، واثاث بيته حصير وصندوق و « كانون » و « فرن » وحطب ، واثمن من هذا كله ما يمتلكه من ماشية هى عدته وعتاده وثروته وأداة انتاجه .

والتعاون كان تلقائيا فى عمليات الزرع والحصد والرى ، وما اجمل التعاون لولا انه كان بين من لا يجد الا قوته يومه .

كان افـراد الشـعب المصرى فى نظـر الاولجاركية المملوكيـة مجموعة من الصـعاليك والاوباش والحرافيش والحشرات . وقد اكثر عبـد الرحمن الجبرتى وصف (العامة) فى المجتمع المصرى القاهرى بهذه الصفات ، مع ان الجبرتى كان من العلماء ، أو بمعنى آخر كان بعض العلماء ـ فضـلا عن المماليك ـ ينظرون نظرة استعلاء الى (العامة) وبالتالى كان الاوليجاركية المملوكية والطبقـة الوسـطى لا ترى فى (العامة) الا انها قاعدة غير محترمة .

وقد تقتصر صفة الاوباش والحرافيش على ما يمكن ان نسـميه (الدهماء) وهم قاع المجتمع المصرى الفقير ولكن يشتغلون بالاعمال البسيطة وهم غير متعلمين وعندهم سرعة للاستجابة لحالات الفوضى والاضطراب لتصعيد الاضطرابات والقيام باعمال النهب والتعرض للناس .

ولا شك ان العامة كانوا يكنون كراهية للحكـام حيث أن لا علاقة بينهم وبين الحكام الا علاقة السيد بالمسود ، والحكـام يأخذون ولا يقدمون ، و (العـامة) تكدح دون ان تجد من الحكام عطفا أو مشروعات عامة لخدمة مصـالحهم . ونظرا لأن الأوليجاركية المملوكية قد بلغت حدا متطرفا فى ارهاق العامة بالضرائب والتكاليف فقد كانوا دائما على استعداد للانضمام الى المتظاهرين ضد الحكم وتحول التظاهرات الى عنف ومصـادمات .

والقيادة المقبولة للعامة هى العلماء ومن هو ملتحق برجال الدين والشريعة ، وكان هؤلاء اذا فاض بهم الأمر يحركون (العامة) ضد المماليك . ولكن لم تكن هناك قيادة قادرة على تجميع (العامة) فى حركة عامة ضد الحكم المملوكى ولذلك لم تقـع ثورة شعبية ضد المماليك ، وانما حدثت تظـاهرات ونـوع من العصـيان المدنى ضـدهم .

وكان المماليك منذ ان اسـتبدوا بالحكم فى مصر قـد احتكروا الادارة العليا والمناصب العسكرية ، دون أن يتجهوا الى الانفصال عن الدولة العثمانية ، حقيقة كان الوالى العثمانى الذى يصدر له فرمان السلطان بتولية مصر قد جرده المماليك من سلطاته ، الا ان المماليك اعتبروا وجود هذا الوالى جزءا من عقيدتهم السـياسـية وهى الاعتراف بالسلطان العثمانى خليفة وسيدا للبـلاد دون ان يسـمحوا له أو لنائبه فى مصر (الوالى) ان يوجه أمور البلاد .

وكان ابرز الفترات فى تاريخ مماليك مصر فى عهد على بك الكبير خلال ستينيات القرن الثامن عشر ، ومن بعده استشرت الخلافات بين المماليك حتى لقد انتهى الأمر قبيل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر الى أن تقوم حكومة ثنائية من (ابراهيم بك) و (مراد بك) وهذا يعنى أن التفكك فى داخل المؤسسة المملوكية كان قد أصبح الظاهرة المميزة لهذا النظام المملوكى فى مصر .

وكان هؤلاء المماليك رجالا أفسدتهم الصراعات المتتالية والتنافس على جمع الأموال والأتباع بأحسن الأساليب المتوفرة لهم حينذاك وكانوا يقربون العلماء منهم ولا يعكفون على العلم والدرس ، الأمر الذى جعلهم متخلفين تخلفا شديدا جدا اذا قيسوا بالحكام فى أوربا فى زمانهم ، ولكنهم كانوا على حال أحسن بكثير جدا من قوات السلطان العثمانى نفسه . اذ كانت تجمع رجالا ابتعدوا بعدا شديدا عن السلوكيات الحضارية الاسلامية الواضحة .

لم يكونوا على دراية بما حدث ويحدث فى أوربا من تطورات ونهضة عظيمة ، وكانوا يعملون على ابتزاز ما يمكن ابتزازه من الأوروبيين المتعاملين اقتصاديا مع مصر . ومع ذلك فقد تيقن معظم حكام أوربا ان حماية النشاط الاقتصادى الأوربى مع مصر لم تعد بيد السلطان وانما أصبحت بيد مماليكها ، وان الاجدى التوجه اليهم مباشرة لعقد الاتفاقيات المنظمة للعلاقات المصرية مع دول أوربا . وهذا يفسر المعاهدات التى عقدتها انجلترا وفرنسا مع مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

* * *

من المعروف ان الحملة الفرنسية قامت من الموانى الفرنسية والموانى التابعة سرا حتى تتجنب الاسطول الانجليزى بقيادة نلسون . وعلم نلسون بخبر ابحار الحملة ولكن دون ان يعرف وجهتها فأخذ يجوب البحر المتوسط باحثا عنها حتى وصل الى الاسكندرية ، وكان محمد كريم هو الرجل الذى يمكن أن يتحادث مع الانجليز حينذاك عندما بعث اليه نلسون رجاله ليعرفه بمقصده ويحذره من مخططات الفرنسيين .

وقد عرض لنا المؤرخ الجبرتى ما حدث حينذاك قائلا :

حضر الى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضرت خمسة عشر مركبا ايضا ... واذا بقايق (قارب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة انفار ، فوصلوا الى البر واجتمعوا

بكبار البلد والرئيس اذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض السيد محمد كريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروهم انهم انجليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى اين تصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد عمر مكرم منهم هذا القول ، وظن انها مكيدة ، وجاوبوهم بكلام خشن . فقالت رسل الانجليزى « نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا : هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ، ولا لغيرهم عليها سبيل ... فاذهبوا عنا » .

وبعد أيام معدودات بعد مغادرة نلسون للشواطىء المصرية وصلت سفن الحملة الفرنسية وانزلت قواتها واستعدت لمهاجمة الاسكندرية ، فطير محمد كريم الخبر الى السلطات الحاكمة فى القاهرة ، واخذ محمد كريم يعد المدينة للدفاع عن نفسها بما تحت يده من رجال غير مدربين وسلاح تافه .

اسرع محمد كريم الى دعوة الرجال الى الجهاد فى سبيل الله فانها لديه حرب مقدسة ضد الصليبيين الجدد . وكان طبيعيا ان ينعكس التركيب الاجتماعى والمستوى الحضارى على الطريقة التى جمعت بها القوات المدافعة . فقد كان (العربان) هم القوة الضاربة التى يمكن اعدادها حينذاك ، اما اهل المدينة فلم يكن لديهم خبرة سابقة بالحرب الشعبية ، ولم تكن بالمدينة حامية عسكرية الا النزر اليسير منها . وكان هؤلاء (العربان) لا يعرفون من العسكرية الا فن الكر والفر الأهوج على طريقة داحس والغبراء . عيونهم على ما يمكن ان يكون غنيمة وليست على القناة . وخط الرجعة لديهم أهم من اقتحام خطوط الاعداء .

تجمع المشاة والفرسان المسلحون للقتال فى نظام بدائى وبلا خطة واضحة ، وانطلق فرسان العرب فقتلوا بعض الجند ممن كان بعيدا عن المعسكرات الفرنسية، فاذا بهم زرق العيون بيض الوجوه ، اجمل من نسائهم ، فاستنتجوا — على الطريقة الشرقية — ان الفرنجة أهل لهو ومتعة ، وليسوا أهل حرب وقتال ، وانها لساعة نزال يفر بعدها ذوو الشعور المسدلة والقد المياس امام صناديد العرب او يتهاوون طالبين الرحمة من تحت اقدام الصافنات حاملات الكماة . وعندما وقعت المعركة ضاعوا فيها وسقطت الاسكندرية بسهولة فى يد الفرنسيين .

ولما وصلت انباء نزول الحملة الفرنسية الى ارض مصر الى اسماع كبار المسئولين فى القاهرة استهانوا فى اول الأمر بالخطر ، وتذكروا نكبة الفرنسيين فى

١٢٥٠ عند المنصورة وتشدقوا بأن نفس المصير ينتظر الغزاة الجدد ، وبأن بيت ابن لقمان لا يزال شاهدا وقائما ليستضيف قائد (الفرنجة) مكبلا ذليلا . واشار الوالى العثمانى — المهيض الجناح — على كبار القوم أن يبعث برسالة الى السلطان ليرسل الى مصر على الفور جيشا عرمرما يرد الجيش الفرنسى من حيث اتى وهى اشارة اثارت سخرية مؤرخنا الكبير الجبرتى اذ كان ذلك فى نظره كمن يطلب الترياق من العراق فلا يصل الا بعد ان يكون المريض قد فارق الحياة .

واتفق مراد بك وابراهيم بك على اعداد جيش بقيادة الأول ، فسار بكتائبه من الفرسان والمشاة برا واتخذت سفنه القديمة طريقها هابطة فى النيل حتى التقى المماليك بالفرنسيين على مقربة من شبراخيت .

و « التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس : فلم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح ، وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين لم يقتل الا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطبجية .... فلما عاين ذلك مراد داخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقال والمدافع وتبعه عساكره .... ووصلت الأخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس » (١) .

لقد تقررت المعركة الحاسمة عند مشارف القاهرة ، وهناك امتدت القوات الفرنسية من بشتيل الى امبابة ، وفى مواجهتهم احتشد المماليك ومن عبر الى البر الغربى من المقاتلين المتطوعين . ولكن « الاجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ...... [و] شرعوا فى نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التى لا يعرفها احد ... ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وارسلوا البعض منها الى بلاد الارياف واخذوا ايضا فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأدوات الارتحال، فلما رأى اهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهروب ولولا ان الأمراء منعوهم من ذلك وزجروهم وهددوا من اراد النقلة لما بقى بمصر منهم احد » (٢) . واتفق الراى حينذاك على « عمل متاريس من

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٦ .

بولاق الى شبرا ويتولى الاقامة ببولاق ابراهيم بك وكشافه ومماليكه ... وقد كانت المشايخ تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرءون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ الاحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وارباب الاشاير ويعملون لهم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء (١) ... [و] ونادوا بالنفير العام وخروج المتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم ، فاغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما او يجلسون فى مكان خرب او مسجد ويرتبون عليهم فيما يصرف عليهم له من الدراهم ... وبعض الناس يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغيره ، ... وخرجت الفقراء وارباب الاشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون باذكار مختلفة ... وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى القلعة فانزل منها بيرقا كبيرا اسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وامامه وحوله الوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك ... وعلا سعر البارود والرصاص ... وارسل ابراهيم بك الى العربان ... ورسم لهم ان يكونوا فى المقدمة ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والحضارى وغيرهم ... وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم ، واما بلاد الارياف فانها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا ، وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحى وصار قطر مصر من أوله الى آخره فى قتل ونهب ... وافساد المزارع » (٢) .

انها لفرصة سنحت لكل صاحب غرض فى نفسه ، فقد اقتربت (الهوجه) يضيع فى خضمها كل اثم او جريمة ، وما ذلك الا لغياب نظام ادارى للدولة على مستوى العصر ، ولغياب الاخلاقيات مما افقد الناس الرؤية ، ومن اعجزته الحيل تطلع الى السماء منتظرا نزول الكرامات .

واطلت الطائفية برأسها ، فقد كان طبيعيا ان تؤدى الرؤية المصرية للحملة الفرنسية من زاوية الصراع الصليبى الى أن تتصاعد الريب والشكوك بموقف الاقباط وبالشوام النصارى وبالعدد القليل جدا من الفرنجة (الأجانب) ، فكان

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٦ .
(٢) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٦ — ٧ .

أن « طلب امراء مصر التجار من الافرنج بمصر فحبسوا بعضهم فى القلعة وصــاروا يفتشون بيوت النصــارى الشــوام والاقبــاط والاروام والكنــائس والأديرة على الاســـلحة » .

استعد الطرفان المصرى والفرنسى للمعركة وعندما التقى الجمعــان فتكت المدفعية ورصاص البنادق بالمماليك ، وتطايرت اجسادهم وسرعان ما دبت الفوضى فى الجانب المملوكى بعد اقل من ساعة اذ فروا من الميدان وفرق كثرة منهم فى النيل وانسحب مراد بك بما لديه من قوات الى الجيزة ثم اوغل من بعد جنوبا فى صــعيد مصر ، بينما اصيب ابراهيم بك — المعسكر على البر الشرقى — بالذهول فانسحب بقواته نحو الصالحية فى الشرقية .

اما العامة فهرولت عائدة الى قلب المدينــة واحيائها مذعورة رجالها ، مولولة نساؤهم ، والاشاعات تلاحق الجميع ان الفرنسيين قد عبروا النيل وانهم يقتحمون المدينة هاتكين سافكين مدمرين . وما كانوا كذلك .

اجتاح الذعر المدينة ، ولا امل لكل قادر الا ان يغادرها قبل ان يقتحمها عليهم العدو (الكافر الفاجر) . ويصور لنا الجبرتى هذه المأساه فيقول « فالامراء اركبوا النساء ، بعضهم على الخيول وبعضهم على البغال والبعض على الحمير والجمــال ، والبعض ماش كالجوارى والخدم ، واســـتمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ... كل واحد مشغول بنفسه عن ابيه وابنه ، فخرج تلك الليلة معظم اهــل مصر .... البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لجهة الشرق وهو الاكثر ، واقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ... والحال ان الجميع لا يدرون أى جهــة يسلكون وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الاعرج أو البغل الضعيف باضعاف ثمنه ، وخرج اكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه ، وزوجته حاملة طفلها .... وخــرج غالب النســـاء ماشـــيات حاسرات واطفــالهن على اكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، ومــا كانوا يدرون ان شرا مستطيرا ينتظرهم خارج اسوار المدينة » .

فيروى الجبرتى :

« فلما خرجوا من ابواب البلد ، وتوسطوا الفلاة ، تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم واحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته او يســد جوعته ، فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر » .

لقد كان من المعروف أن العربان لا يتورعون عن انتهاز مثل هذه الفرصة للنهب والسلب ، ولكن الملاحظ هنا ان الفلاحين شاركوا فى هذه النكبة ولعل سبب ذلك هو ما كان ينزل بالفلاح من غبن وارهاق فظيع على يد الحكام ، وخاصة على يد الادارة التى كان مقرها فى القاهرة فجاء يوم التشفى فى هؤلاء . ثم اليس من الأمور التى تسقط هيبة الانسان أن يدعى مسئوليته عن حماية الديار فاذا جاء الامتحان سقط سقوطا مروعا .. اهكذا يتخلى الكبار عن مصر فى يوم محنتها .. اهكذا يكون الفرار ليتركوا الشعب لمصير مجهول ؟

ليذق الهاربون عذاب ما اثموا وما غفلوا عنه من واجب مقدس كانوا به يفتخرون وهم عنه لاهون . ثم ان قرون الظلم الطويلة التى مرت بالفلاح جعلته يشعر أن هؤلاء الحكام وسكان الحضر من الاثرياء لاهم لهم الا الظلم والتهر للمتعة دون أى تقدير للفلاح الذى يرهق نفسه من اجلهم .

مأساة شعب عاش معزولا متخلفا عن عصره فحلت عليه نقمة واطماع الآخرين .

❋ ❋ ❋

قبل ان يصل بونابرت بحملته الى أرض مصر كان قد أعد منشورا طبعه باللغة العربية والفرنسية ، ليوزع النسخة العربية على المصريين ليبين لهم نياته واسباب غزوه لمصر ونظرا لأهمية هذا المنشور سنورد نصه ثم نحلله .

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته .

يعرف اهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها .

فأما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم .

يا أيها المصريون قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم

فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء احسن ، فيها الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من الأهالى فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

وسابقا كان فى الأرض المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك .

أيها المشايخ القضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فان المماليك امتنعوا عن اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما اطاعوا أصلا لطمع أنفسهم (١).

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم .

طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم اثر . . .

المـــادة الأولى :

جميع القرى الواقعـة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو ابيض وكحلى وأحمر .

المـــادة الثانيـة :

كل قرية تقوم على المعسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المـــادة الثالثـة :

كل قرية تطيع العسكر الفرنساوية ايضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه .

المـــادة الرابعـة :

المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شىء منها .

المـــادة الخامسـة :

الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من اهالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئنا .

وكذلك تكون الصلاة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية . تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر مسيدور (١) من اقامة جمهور الفرنساوى يعنى آخر شهر محرم سنة هجرية ١٢١٣ (٢) .

يبدأ المنشور بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وليس الدولة

(١) مسيدور : احد اشهر السنة الفرنسية حينذاك .
(٢) انظر الجبرتى حوادث عام ١٢١٣ هـ / ١٧٠٨ م .

الفرنسية ، وانما أتبع البسملة بشعار الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة) ونلاحظ هنا أن مصطلح Egalité ترجم الى العربية بـ (التسوية) وهى ترجمة غير دقيقة ، واطلق نابليون بونابرت رتبة السرعسكر وكلمة سر (الفارسية) تعنى راس اى قائد القوات العسكرية ، كما اضاف صفة (الأمير) الى نفسه اتباعا لما كان مستخدما فى الدوائر الاسلامية (أمير الجيوش) ، وبذلك يحاول بونابرت أن يضفى على نفسه شيئا من الفكر الاسلامى وخاصة القول بانه موحد بالله (لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه) حتى يستبعد المصريون انه انما جاء باسم الصليب وباسم العقيدة المسيحية التى تقول بالأب والابن والروح القدس .

والمنشور موجه الى « أهالى مصر » ، وهو يهدف الى التفرقة بين الحكام والشعب ، وهذا اسلوب اتبعته الغالبية العظمى من الدول التوسعية لعلها تعزل الشعب عن الحكومة وبذلك تضعف المقاومة التى تنتظرها . ومثل هذه الدعاية تصادف نجاحا فى المجتمعات التى يعانى فيها الشعب من ظلم حكامه ، مثلما كان عليه الحال فى مصر المملوكية . وفى نفس الوقت اكد المنشور أن الحملة — وهى موجهة ضد المماليك — غير موجهة الى السلطان العثمانى ، بل اشار الى أن الفرنسيين « فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى » وان الفرنسيين « أعداء أعدائه » .

فقد كان الفرنسيون يدركون حقيقة عمق الولاء المصرى للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وانهم حين يثورون على وال أو حاكم ظالم — حتى ولو كان السلطان نفسه هو الذى عينه — انما يثورون ضد الطاغية وليس ضد السلطان العثمانى . ومن ثم كان بونابرته حصيفا حين ركز على انه انما جاء ليضرب المماليك الذين خرجوا عن طاعة السلطان ، فحل عليهم العقاب وها هم الفرنسيون قد قدموا لانزال العقاب بهم ، ولينقذ المصريين منهم .

واثار منشور بونابرت قضية قانونية وهى حق المماليك فى احتكار حكم مصر ، وتساءل اين حجة هذا الحق الذى يدعيه المماليك . والحقيقة ان اثارة هذه القضية كانت نتيجة التكوين الفكرى القانونى لنابوليون بونابرت ولا يقابله فى الشرق أمر مشابه ، حيث ان تولية مسلم حكم مسلم أمر مفروغ منه وان المقياس الشرعى هو سلامة العقل والبدن واتباع الشريعة الاسلامية وعدم ظلم الرعية ، وانما الأمر المرفوض رفضا باتا لدى المسلم المصرى حينذاك ،

وبعد ذاك ، هو أن يحكمه ذمى ومن ثم لم تلفت تلك القضية نظر المصريين وراوا فى تلك العبارات القرآنيــة والايحــاءات الاســلامية ، وفى التفرقة بين المماليك — على علاتهم — والشــعب ، وجدوا أن الأمر يهدف الى فتح كافة القنوات التى تســهل وقوع مصر فى قبضة فرنســا .

وأثار المنشــور قضية اخرى وهى ان المماليك ليســوا من أهل البلاد وانما هم مجلوبون من بلاد « الأباظة والجراكســة » وهو أيضا فكر اوربى ينطلق من مفهوم (القوميــة) اراد به بونابرت أن يثير المصريين على المــاليك من هــذا المنطلــق القومى ، واضــاف الى ذلك ان « العلمــاء والفضــلاء والعقــلاء بينهم سيدبرون الأمور » أو بمعنى آخر ان الفئات المثقفة ســيتولون توجية أمور البلاد . هــذا الفكر الذى كان لدى بونابرت لم يكن لدى المثقفين حينــذاك مفهــوم القوميــة فى مصر لم يظهر الا فيما بعد ، وانما الراســخ فى الأذهــان مفهوم الدولة الاســلامية العـــامة .

ومع أن نابوليون بونابرت كان ابنــا للثورة الفرنســية وكان (علمــانى) الفكر والســلوك فقد ظهر أمام المصريين بأنه يؤمن بالقــدر ، وذلك حين قال فى منشورة : « فأما رب العالمين القــادر على كل شىء فانه قد حــكم على انقضــاء دولتهم » والقدرية كانت من أكثر النظريات رســوخا فى ذهن الشرقيين حينذاك .

وصرح بونابرت فى منشــوره أن الفرنســيين « مســلمون مخلصون » وقدم اثبــاتا لذلك وهو ان الفرنســيين عنــدما اســتولوا على رومــا « خربوا كرسى البــابا » ، وهو عمــل فعــلا يعتبر ضربة للقدســية البابوية المسيحية . ولقد كان بونابرت فعلا لا يقــدر البابوية الا من الناحيــة الســياســية ، وكان الفــكر الدينى قد تراجــع بفعل الثورة الفرنســية فعلا . وعلل بونــابرت ضرب البابوية وكذلك فرســان القديس يوحنــا فى مالطــة بأنهم كانوا يحثــون على « مقــاتلة المســلمين » وهو تعليــل ان كان صــحيحا فى نظر بونابرت فهو ليس الســبب الحقيقى وراء ضربه للبابوية وفرســان القديس يوحنــا . وانما أراد نابوليــون بونابرت من وراء ذلك الادعاء كســب قلوب المســلمين المصريين واثبات انه يقدر الاســلام والمســلمين . لقد اتخذ بونابرت من أحداث أوربا ما يحاول به كســب ثقــة المســلمين من طريق لوى رقبة التاريخ والأحداث .

لقد كان اتهام الفرنسيين بانهم صليبيون هو اقوى سلاح لتحريك الشعب ضدهم ، ومثل هذا الاتهام سريع التصديق بين المسلمين . حقيقة كان من مبادىء الثورة الفرنسية حرية الاعتقاد والحرية الدينية . ولكن لم يكن هذا معروفا فى الشرق ، ثم ، كيف يصدق مسلم ان مسيحيا اوربيا لا يتورع عن تدمير بلاد المسلمين مع ان التراث التاريخى مليء بعدوان الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى ؟ فتاريخ الحروب الصليبية راسخ فى أذهان المسلمين بصفة عامة وفى أذهان المصريين بصفة خاصة . وما كان المصرى لينسى الدماء الغزيرة التى سالت على ارض مصر دفاعا عنها ضد الغزاة الصليبيين ولا المدن والقرى التى احرقوها .

فلا غرو ، أنه لم يكن لهذا القول صدى فى نفوس المصريين اذ كانوا على يقين أن الهدف الصليبى وراء الحملة الفرنسية . والحق انها صليبية من نوع جديد (امبريالية) ولا يوجد فارق كبير بين الاستعمار باسم الدين (الحروب الصليبية) والاستعمار باسم (المصالح الاقتصادية والاستراتيجية) فكلها تهدف الى استبعاد الشعوب ووضعها فى خدمة مصالح دولة اجنبية معتدية .

وقال بونابرت ان المساواة بين الناس مبدأ الهى ، وان ما يفرق بين الفرد والآخر هو العقل والفضائل والعلوم . وهنا يختلف عن الشائع بين المسلمين وهو أن الفرق انما بالتقوى والتقوى كلمة فضفاضة يمكن أن تشمل فيما تشمل العلم والفضيلة ، ولكن ما كان يهدف اليه بونابرت هو التركيز على دور العقل والعلم فى العصر الحديث وكذلك الفضيلة وهى فى نظر الانسانيين الأخلاقيات الانسانية .

ثم كشر بونابرت عن أنيابه حين طلب من الشعب المصرى أن يقف ساكنا ساكتا خلال القتال بين الفرنسيين والمماليك وهدد القرية ـ التى تقاوم الجيش الفرنسى ـ بأن (تحرق بالنار) ، ومعنى هذا أن نابليون بونابرت لا يطبق القانونية الدولية التى تحرم المسئولية الجماعية ، فضلا عن أن أسلوب الحرق هذا يتنافى مع أخلاقيات الحضارة الحديثة ومع ذلك فان اسرائيل حاليا تطرد الأهالى من بيوتهم بعيدا فيما وراء الحدود ثم تهدم منازلهم مع أن القوانين الدولية كلها تحرم ذلك .

ومن ثم يمكن القول :

١ — ان بونابرت استخدم اساليب دعاية لاقناع المصريين ان غزوته لا علاقة لها بنظرية الحروب الصليبية وكان الشعب المصرى — رغم هذا — يرى انها حملة صليبية ولم تؤثر فيه الأساليب والحجج التى قدمها بونابرت .

٢ — ان المصريين كانوا غير مستعدين اطلاقا لتفهم شعارات الثورة الفرنسية ، فمهما كانت مبادئها سامية فلا قيمة لسموها ازاء خطة لاستعمار البلاد بالقوة .

٣ — هدف بونابرت الى ايقاع الفرقة بين الشعب والمماليك على اعتبار ان المماليك يمثلون القوة العسكرية التى ستتصدى للحملة ، ولكن رغم ما كان الشعب يعانيه من ظلم المماليك فان ذلك لا يؤخذ فى الاعتبار عند تعرض البلاد لغزو أجنبى .

وكان اول خطأ اقدم عليه بونابرت هو تعيين برطلمين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن فى القاهرة ، ولم يسبق ان تولى نصرانى هذا المنصب من قبل . واغلب الظن ان بونابرت كان لا يثق فى اى مصرى مسلم يتولى هذا المنصب .

لقد كان الرجل قبطيا مصريا وانما كان يونانيا ، فكان بلا جذور محلية ، وانما كان مصيره مرتبطا بمصير الحملة الفرنسية فى مصر . فالأجنبى المستعمر حين ينتقى معاونيه فانه يفضل فى كثير من الأحيان من يرتبطون به ارتباطا مصيريا ، واكثر هؤلاء يكونون من غير القاعدة الشعبية المصرية ولا من الانتلجنسيا الوطنية .

اثارت الحملة الفرنسية لاول مرة فى تاريخ مصر الأزمة بين الأقباط والمسلمين . ولكن نلاحظ ان هذه الأزمة كانت مقصورة على القاهرة اما القسم الأكبر من الأقباط فكان يقيم فى الصعيد ، ولم نسمع عن اية ازمة بين المسلمين والأقباط هناك . ثم ان الأقباط كانوا يشكلون جزءا من الادارة المملوكية ، ولم يكونوا يشكلون اقلية منفصلة عن بقية الشعب المصرى . بل لقد كان الأقباط على حذر من الحملة الفرنسية لما كانت تحمله من مبادىء الثورة الفرنسية التى لا تعطى للدين المسيحى مكانته . هذا الى ان

الأقبـــاط الأرثوذكس كانوا ينظرون بعين الحـــذر الشـــديد الى الكنائس الأوربيـــة الغربية ، وكانت هذه الكنائس الأوربيـــة لا تضع أقبـــاط مصر والكنيســـة القبطية فى مكانة لائقـــة .

ما هى القوى التى تصـــدت للفرنســـيين أو تعاونت معهم ؟

لنحدد هذه القوى التى تصدت للوجود الفرنسى فى مصر :

١ ـــ القاعدة الشـــعبية كلها دون تحفظ لم تقبل وجـــود الفرنجة الصليبيين على أرض مصر . ولا قيمة لأى مبرر يســـاق اليهم لقبولهم وما كان تعاملهم معهم الا امر مســـايرة الى حين .

٢ ـــ القيـــادات الدينية ويمكن أن نقســـمها الى الفئات التاليـــة :

(أ) اغلبية عظمى على مســـتوى البلاد رافضة رفضـــا تاما التعـــاون مع الفرنســـيين وهى تمثل القاعدة الشـــعبية من رجال الدين الموجـــودة فى كل قرية وكل مدينة . ومستوياتها الثقافية محدودة .

(ب) رجال الدين ممن أطلق عليهم الجبرتى اســـم (المتعممين) فى القاهرة وهم يمثلون القاعدة الشـــعبية من رجال الدين فى القاهرة . وهم على اتصال مباشر أكثر بالأحيـــاء والقاعدة الشـــعبية .

(جـ) كبار رجال الدين والمشايخ من ذوى المناصب أو المصـــالح الاقتصادية ، وهؤلاء كانوا يمثلون (الصفوة) ، وهذه الصفوة تفضـــل ما يســـمى بـ « التعقل » عند مواجهة الأزمات وهؤلاء كانوا يلعبون دور المدافع عن مصالح الشـــعب فى أيام المـــاليك ، فامتد دورهم هـــذا الى أيام الوجود الفرنسى فى مصر ، وهو الدفاع عن مصالح الشـــعب والبلاد أمام الفرنســـيين ، وهذا الدور لا يعنى قبولا للوجود الفرنسى وانمـــا يعنى قبـــول الأمر الواقع المفروض حتى يفرج الله كربة المســـلمين . ونظرا لأن مســـــتواهم الفكرى كان عاليا ـــ بالقياس الى غيرهم ـــ فقـــد كانوا قادرين على تحـــديد مواطن القوة والضـــعف فى المجتمـــع الفرنسى الممثل فى رجال الحملة الفرنســـية ، واكتشـــفوا أنهم أمـــام حضـــارة متقدمة ، وان المجتمـــع المصرى الاســـلامى فى حاجـــة الى التطوير ، ويمثل هؤلاء الشـــيخ الشرقاوى وحسن العطار وعبدالرحمن الجبرتى .

(د) عدد محدود جدا لا نعرف منه الا الشيخ خليل البكرى واسرته التى تعاونت مع الفرنسيين تعاونا زاد عن الحد وليس هناك من تفسير الا من حيث تغلب الأغراض الخاصة على المصلحة الوطنية. والغريب ان الرجل كان من الاشراف ، واسندت اليه نقابة الأشراف فى أيام الحملة الفرنسية . وان سلوكه هذا انعكس على اسرته فخرجت ابنته عن المقبول فى علاقاتها مع الفرنسيين .

وهنا نتساءل : لماذا من بيت الاشراف خرجت هذه الحالة التى وضعت نفسها واسرتها فى خدمة الفرنسيين حتى لقد كادت ابنته أن تتفرنس ؟ فهل هى حالة خاصة ؟ المعروف أن الاشراف لهم كيان خاص بمقتضى عراقة المحتد حيث انهم من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم فهم يستمدون مكانتهم من منطلق اوتوقراطى وليس من منطلق وطنى مصرى. وهم يضعون انفسهم فى مكانة فوق مكانة اهل البلد ، ورزقهم من الحكام ومن تبرعات الأهالى تبركا بهم . ومع ذلك فالصفوة من رجال الدين المصريين اكثر عمقا وارتباطا بالقاعدة الشعبية منهم . واصبحت (الشرافة) ذات أهداف سياسية فى اكثر من ولاية عثمانية . ففى الشام كونوا قوة ضاربة محلية تتحدى السلطات الأخرى .

وفى الحجاز كان الاشراف يحكمون من مكة ، وكانوا يمثلون اصحاب الحق فى الحكم وفى أسرة او اسرتين محددتين تتوارثان الحكم هناك . أما فى مصر فلم يكن لهم مجال قوى وان كانوا محترمين احتراما زائدا .

٣ — العامة : خلال الفترة الواقعة بين هزيمة المماليك فى معركة امبابة ودخول الفرنسيين القاهرة تحركت العامة لأول مرة فى التاريخ ضد حكامهم المماليك تحركا ثوريا حيث انتفض « الجعيدية واوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بك ومراد بك فى القاهرة واحرقوهما ونهبوا عدة بيوت من بيوت الأمراء » .

وبذلك عبر هؤلاء « الاوباش » عما كان يجيش فى قلوب اهل القاهرة من ظلم المماليك وجبروتهم وخيبة املهم فيهم فى الدفاع عن الديار . ولكن لماذا تحركت فقط « اوباش الناس » . والجعيدية والحرافيش والحشرات ، قد توحى هذه الاوصاف بأن أصحابها ممن لا خلاق لهم من الفئات الدنيا الفقيرة ولكن فى الحقيقة هم رجال يكتسبون قوتهم ببعض الاعمال الحرفية ، ولكن بينهم نوع من التضامن ضد العناصر

القيادية الاستغلالية . وهم القادرون على تحويل التحركات الشعبية الى عنف ونهب ».

وهؤلاء هم الذين كانوا القوة الشعبية المستعدة لقتال الفرنسيين ، وكانوا هم الاقدر على تجميع العامة فى حركة شعبية ، ولا شك أنهم — رغم مساوئهم — كانوا عنصر مقاومة خطير ضد الفرنسيين ، وضد الأجانب الاستعماريين وضد الطغاة ».

فلكل منهم عزوة محددة او غير محددة فى حيه . وقد يكون على ثروة بسيطة ولكن متجددة بفعل عمله او سطوته ، وينظر اليه العامة بنوع من الفخر ويحتقرهم الخاصة والعلماء . واغلبهم يستطيع ان يستخدم السلاح وعلى الأقل السلاح الأبيض البلدى وتعوزهم الاخلاقيات خارج حيهم اما عن أهل الحى فهم عنه مدافعون ولهم تعصب فى الدين حتى ولو كانت ممارساتهم فى بعض الأحيان غير شرعية . واتهمهم الجبرتى فى ثورة القاهرة الأولى انهم خرجوا عن الحد اذ « امتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب . ونهبوا دور النصارى والشوام والاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، واخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

٤ — البدو العرب : كانوا فى الصحراء الشرقية والغربية وفى البحيرة عنصرا من عناصر الفوضى ، والغالبية العظمى يضعون مصالحهم الخاصة فوق اية مصلحة اخرى ، وعندهم نوع من الاتفاق على نهب الفلاحين وسكان المدن وقوافل التجارة ومواكب الحجاج مادام فى استطاعتهم ذلك . ومن ثم فان المفهوم الوطنى أو الاسلامى كان ظاهريا فقط ، ولم يكن هناك ولاء سوى الولاء للعشيرة . فهم يمثلون البدائية العشائرية المتخلفة . وليس معنى هذا أن كل العشائر العربية اتخذت هذا الموقف الخطير من الشعب فى وقت الأزمة فالهوارة لعبت دورا فى مقاومة الفرنسيين .

٥ — المغاربة : وقد نشط فريق منهم فى التحريض على قتال الفرنسيين ، ونشط بعض آخر فى التعاون مع الفرنسيين فعملوا فى خدمتهم .

٦ — الاقباط ونصارى الشوام : وقد ربط بينهم الجبرتى باستمرار مع ان الاقباط مصريون منتشرون فى طول البلاد وعرضها ، أما نصارى الشام فهم فى المدن الكبرى فقط ، بل يمكن القول انهم مركزون فى القاهرة والاسكندرية . وهؤلاء

النصارى الشوام غالبا ما يكونون على المذهب الارثوذكسى ، والاعمال الرئيسية للاقباط هى التجارة والحرف وما يسند اليوم من أعمال ادارية فى مجال الحسابات والضرائب وهى مجالات مهروا فيها عبر العصور . وقد تحدث الجبرتى عن الاقباط فى موضوعية حيث انتقد بشدة تطرف العامة عندما اتجهوا الى نهب دورهم عند اقتراب الحملة الفرنسية من القاهرة ، وانتقد الجبرتى بعد ذلك أى اعتداء عليهم ، كما انتقد المتعاونين من الاقباط مع الفرنسيين .

٧ — الدولة العثمانية : كانت تؤمن بأنها مسئولة عن الدفاع عن مصر وتحريرها من الاستعمار الفرنسى . وكانت سلطات الدولة العثمانية ترى أن المماليك مسئولون عن نكبة الفرنسيين لمصر . وكان علاجها للمشكلة فى أول الأمر عن طريق تحرير مصر بقدراتها الذاتية ، ولما فشلت اعتمدت على الحملات المشتركة العثمانية الفرنسية فى ١٨٠١ ، تلك الحملات التى انهت الوجود الفرنسى فى مصر ، ولكنها اوجدت للانجليز دورا لهم ،أو على الأقل سمح ضعفها الى اعطاء هذا الدور للانجليز ، ذلك الدور الذى سيتصاعد ويستمر حتى ينهار تماما على يد الحكم الوطنى الثورى فى خمسينيات القرن العشرين .

٨ — تعاون اشراف مكة وحكام طرابلس الغرب مع الفرنسيين فى مصر . حيث وضع شريف مكة علاقاته الاقتصادية بمصر فوق مفهوم الجهاد الاسلامى ضد الغزاة،وكذلك فعل يوسف القرمنلى والى طرابلس . ومن ثم يمكن القول ان العوامل الوطنية كانت اقوى من العوامل الاسلامية لدى حكام الحجاز وحكام طرابلس (الغرب) . حقيقة قدمت حملة محدودة العدد من الجزيرة العربية الى صعيد مصر للجهاد ضد الفرنسيين . وكانت هذه الحملة بقيادة الكيلانى . ولكنها حركة محدودة وليست حركة عامة .

ومن ثم يمكن القول أن القاعدة الشعبية والقيادة الدينية الاسلامية كانت اعمق القوى الاجتماعية فى مصر ايمانا وولاء لمصر ، ومعها على نفس المستوى الاوليجاركية المملوكية ، وتليها الطائفة القبطية ، اما نصارى الشام فاقلها ولاء ، واخيرا العرب او البدو الذين يرفضون سيطرة حكومية أيا كانت هذه السيطرة ، ويضعون انفسهم على هامش الدولة . فمفهوم الولاء للدولة هامشى ويلى بكثير مفهوم الولاء للتركيب العشائرى الذى ينتمون اليه .

ثورة القاهرة الأولى :

واذا كان المماليك يحاربون فى معركة امبابة وعيونهم معلقة ببيوتهم وحريمهم فى القاهرة ، فقد اصبحوا بعد هزيمتهم وتمركزهم فى الشرقية يحاربون الفرنسيين هناك وعيونهم معلقة بالعرب الذين يتربصون بالمماليك لنهب معسكراتهم . وابرز مثال على ذلك ان ابراهيم بك أودع حريمه ومتاعه عند بعض العرب قرب (القرين) فما كان من العرب الا ان اخبروا الفرنسيين بمكانهم فزحفوا ضدهم وتصدى ابراهيم بك للحملة الفرنسية ولكن بينما هو فى المعركة سمع بأن العرب هجمت على معسكره فترك المعركة لينقذ اهله ومتاعه . وفعلا قاتل العرب واجلاهم عن معسكره .

هكذا كانت الأوضاع مترديه من كافة جوانبها فى المعسكر المملوكى وكانوا بعيدين كل البعد عن ادارة الحرب الحديثة ، وكان التركيب الاجتماعى يلعب دورا كبيرا فى شل المقاومة بعد الهزيمة . فقد كان العرب والعربان عنصر فوضى مريعا فى البلاد .

لم ييأس المصرى للفرنسى ابدا ، وكان يدعو الله ان ينقذ البلاد من هذه النكبة، وكانت مخاوف المصرى من غدر الفرنسيين به لا تهدأ وكل عمل صالح لا يفهمه المصرى الا من زاوية خبث وغدر الاجنبى المستعمر ، وابرز مثال على ذلك انه ما ان سمع المصريون بنكبة الاسطول الفرنسى الذى اغرقه الانجليز فى معركة ابى قير البحرية حتى عمت الفرحة قلوب المصريين . ولم يصدر عن الديوان اى بيان يندد بما حدث بل صدرت الاوامر بمعاقبة كل من يتحدث عن هذه النكبة . بل لقد تشفع الشيخ الصاوى — عضو الديوان — لانقاذ تاجر مصرى وأحد النصارى من أمر بقطع لسانهما لانهما تحدثا عن اغراق الاسطول الفرنسى . فقد قرر عليهما غرامة مالية فى مقابل عدم قطع لسانيهما . فابدى الشيخ الصاوى استعداده لدفع المبلغ ودفعه ، ولكن المسئول الفرنسى طلب توزيع هذا المبلغ على الفقراء ولكنه لم يوزع على الفقراء وانما رد المبلغ من حيث جاء .

واصبحت عيون المصريين معلقة بما سيقوم به السلطان العثمانى لطرد الفرنسيين من مصر ، وكانت تأتيهم المكاتبات من وقت لآخر بان السلطان يستعد لتحمل مسئولياته ، وكان المماليك يبعثون بمثل هذه الوسائل الى المشايخ . وكان المصرى ينتظر بادرة أمل فى تحرك السلطان العثمانى . ومن ذلك انهم عندما رأوا رجلا روميا على هيئة خاصة ظنوه مبعوث السلطان الى الفرنسيين لأمرهم بأن يغادروا البلاد فورا .

والمعروف ان اجراءات الفرنسيين الادارية كانت من الاسباب الرئيسية التى ادت الى ثورة القاهرة الأولى وبصفة خاصة موضوع تسجيل العقارات حيث ان التصرفات العقارية كانت معظمها عرفية بينما اصر الفرنسيون على أن يتقدم كل صاحب عقار بمستند ملكيته . وقد ادى هذا الأمر الى بلبلة عامة واضطراب وأعد الناس للتحرك عند الوقت المناسب .

كذلك ادى هدم ابواب الحارات الى اعتقاد المصريين ان الغرض هو فتح الطريق أمام الفرنسيين ليفعلوا بالسكان ما يشاءون وقت ما يشاءون لأن تلك الأبواب كانت تغلق ليلا تحمى من بداخلها .

وكان أول احتجاج على افعال الفرنسيين واتباعهم خروج الرجال والنساء — والنساء بكثرة — من احياء فى قلب القاهرة فى تظاهرة كبيرة وصلت الى بيت بونابرت وذلك بسبب هدم « التراكيب المبنية على المقابر بتربة الازبكية وتمهيدها بالأرض » واضطر بونابرت الى وقف الهدم .

على ان ثورة القاهرة الأولى على الفرنسيين هى التعبير الشعبى العام الذى كان كامنا فى النفوس حتى تهيأت الظروف لانطلاقه قويا عنيفا عاما . وتجمعت الأسباب وانتظرت الشرارة ، وهى غالبا ما تكون مسأله اقتصادية متعلقة بالضرائب . فقد حددت الضرائب على العقارات والوكالات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت ، وبذلك يكون الفرنسيون قد أغضبوا كافة الفئات ، فتحركت العامة « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين » وحدد لنا الجبرتى القيادات الشعبية التى حركت الثورة ، وهى ليست قيادات عامة ، وانما هى مجموعة من القيادات الشعبية تفاهمت على الثورة وقامت كل منها بدوره فى محلته ويتعاون عشوائيا مع الآخرين من أمثاله وهذه القيادات الشعبية هى على حد تحديد الجبرتى :

١ — حشرات الحسينية .

٢ — زعر الحارات البرانية .

٣ — بعض المتعممين .

القاسم المشترك الاعظم بين هؤلاء هو انهم يفتقرون الى العقار الثابت ، ومن ثم ليس لديهم ما يخشون على ضياعه ، باستثناء (المتعممين) الذين ربما كانت لهم ارزاق مخصصة معرضة للضياع ، ولكن وازع الدين اقوى ، ولأن مكانتهم كانت

اقل من العلماء والمشايخ فقد كانوا أقرب الى العامة من غيرهم من رجال الدين .،

وقد حاولوا تحريك القاضى فرفض فرجموا بيته بالحجارة ثم اقاموا المتاريس وخرجت كافة الناس للقتال والمدافعة .، ولكن بدون قيادة أو تخطيط وانما حسبما يمليه الموقف وما يفرضه الصياح .، لقد كانت الثورة تعبيرا شعبيا عن رفض التسلط الفرنسى ولكنها لم تستمر طويلا (*)

ثورة القاهرة الثانية :

وما ان شاع بين أفراد الشعب ان اتفاقية فى ١٨٠٠ وقعت تقضى بجلاء الفرنسيين عن البلاد حتى عمت الفرحة ، واخذ المصريون يبدون حقيقة مشاعرهم ، فاذا ما قدم مسئول عثمانى الى القاهرة ليتباحث فى بعض أمور الجلاء استقبلهم الأهالى بكل ترحيب ، وعندما طلبت الأموال من الأهالى لتغطية بعض نفقات رحيل الفرنسيين عن البلاد تسابق كل مقتدر على التبرع . وعلى حد قول الجبرتى :

« لعلمه أن ذلك لرحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة » (*)

وكلما مر بهم فرنسى غمزوه بكلمات السخرية والاستهزاء .

واصبح موقف القبط ونصارى الشام حرجا بعد توقيع اتفاقية العريش (١٨٠٠) ، فقد بدا فى عيون الشعب ان ساعة القصاص ممن تعاون مع الفرنسيين قد حانت . والهب المماليك العائدون الى القاهرة المشاعر الشعبية ضد القبط ونصارى الشام حيث يقول الجبرتى ان المماليك كانوا يرددون لعن « النصارى البلدية » وهم الاقباط ونصارى الشام الذين تعاونوا مع الفرنسيين . وعندما نشبت ثورة القاهرة الثانية اطلق العثمانيون النداءات بأن « اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم » فما كان من العامة الا أن شنت الهجمات على النصارى . فكانوا يقتلون « من يصادفونه من النصارى القبط والشوام » .،

لقد كانت التجربة مريرة خلال ثورة القاهرة الثانية فقد كان بونابرت خلال ثورة القاهرة الأولى لا يزال يتمنى البقاء فى مصر واقامة مستعمرة فرنسية فى الشرق ومن ثم فهو فى حاجة الى تعاون الشعب معه ، ولذلك كانت ضرباته للثوار فى حدود مقتضيات ومتطلبات اخماد ثورة .، اما خلال ثورة القاهرة الثانية فقد كان الفرنسيون اشبه ما يكونون بأسد جريح ، فقد مقومات البقاء وهاجمته كل القوى التى كانت

تخشى بأسه ، فانطلق هائجا يضرب بكل قسوة دون رحمة . فبقاء الفرنسيين بعد نقض اتفاقية العريش وبعد ثورة القاهرة الثانية اصبح محفوفا بمخاطر لا نهاية لهـا .

لقد كانت تجربة المصريين خلال ثورة القاهرة الثانية مريرة مدمرة ، وكانت خيبة املهم فى العثمانيين والمماليك كبيرة ، حيث هزمهم كليبر ليتفرغ بعد ذلك لانزال غضبه التدميرى بأحياء القاهرة المقاتلة .

وقد افاد مينو من ذلك عندما نزلت الحملة الانجليزية الى مصر فى ١٨٠١ وتقدمت القوات العثمانية نحو القاهرة حيث أصدر مينو أوامره الى المصريين بأن يلزموا الهدوء والا يغتروا بمقدم القوات العثمانية والانجليزية وذكرهم بما حدث فى أعقاب اتفاقية العريش وما نزل بالقاهرة خلال ثورتها الثانية من دمار وتقتيل واسع النطاق .

ونلاحظ فعلا أن القاهرة لم تتحرك عندما اقتربت القوات العثمانية والانجليزية وظلت الأمور هادئة فيها الى حد كبير حتى استسلم الفرنسيون .

السياسة الدينية لنابليون وخلفائه فى مصر :

كان بونابرت يعمل على كسب القاعدة الشعبية الى جانبه ، وكان محقا حين اتخذ من الدين والتقاليد الدينية وسائل للتقرب من القاعدة الشعبية العريضة . ولذلك عنى بأن يستمر الشعب فى ممارسة هذه التقاليد . وكان القاهريون قد توقفوا فعلا عن القيام بكثير من الاحتفالات الدينية ، وهناك أمثلة عديدة على هذه الأساليب التى تشكلت منها سياسة بونابرت الدينية التى امتدت حتى نهاية الحملة الفرنسية .

ويمكن ان نحدد المراحل الرئيسية للسياسة الدينية للحملة الفرنسية :

١ — فترة التقرب والمشاركة فى الاحتفالات الدينية وتبدأ منذ صدور منشور بونابرت حتى ثورة القاهرة الأولى .

٢ — الاتجاه الى الافادة من العناصر المذهبية المسيحية وتصاعد ذلك بعد ثورة القاهرة الثانية ومصرع كليبر .

٣ ــ محاولة مينو أن يكون حاكما اسلاميا على الطريقة الفرنسية وهى بداية النهاية للسياسة الدينية .

عندما وقعت مصر فى قبضة بونابرت توقف الشعب المصرى عن عقد الاحتفالات الدينية لعدة أسباب :

١ ــ لأن اقامة مثل هذه الاحتفالات فى وجود الاستعمار الفرنسى لا يتناسب مع طبيعة هذه الاحتفالات ، فهى تقام بكل تلقائية ، فى الظروف العادية ، أما فى مثل هذه الحالة فانها تجعل الشعب غير مستعد نفسيا لاقامتها .

٢ ــ ان الشعب المصرى كان يعتقد أن الفرنسيين ضد الدين الاسلامى ، وانهم قد يهاجمون المسلمين اذا عقدوا مثل تلك الاحتفالات .

وقد علم بونابرت بتوقف الشعب المصرى عن عقد احتفالاته التقليدية الاسلامية ، ولذلك دعا الى اقامة تلك الحفلات مثل الاحتفال بارسال الكسوة الشريفة الى مكة المكرمة ، واقامة المولد النبوى الشريف ، ودعوة الناس الى اقامة شعائر الدين الاسلامى بنفس الأساليب المعتادة ودعوة الأعيان والمشايخ والتجار لحفلات افطار وسحور رمضانية « وطاف كبار الفرنسيين على الأعيان يهنئونهم بالعيد (١) » ، وأقيمت الموالد على النسق الصاخب الذى كانت تقام به من قبل .

وعنى الفرنسيون بالاحتفال بارسال الكسوة الشريفة الى مكة المكرمة ولذلك « اجتمع الناس فى الأسواق وطريق المرور وجلسوا للفرجة ، فمروا (بالكسوة) وأمامهم الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبنشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين كتخدا مستحفظان وأمامه نفر الينكرجية المسلمين نحو المائتين واكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع » .

وعلق الجبرتى على مشاركة النصارى فى موكب الكسوة بانها « أغرب المواكب وأعجب العجائب ، ولما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال وتنوع الأمثال واجتماع الملل وارتفاع السفل وكثرة الحشرات وعجائب المخلوقات واجتماع الأضداد ومخالفة الوضع المعتاد » (٢) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

ولقد كانت الاحتفالات الدينية تحت الاحتلال الفرنسى ذات طبيعة مختلفة فعلا ، ليس فقط من حيث الحالة النفسية التى كان عليها الشعب ، وانما لأن الاحتفالات تضمنت مظاهر لم تكن معتادة من قبل . فالفرنسيون غير المسلمين هم الذين يسمحون بها ، والنصارى يشاركون فى بعضها وهذا ما لم يكن يحدث من قبل مطلقا .

وقد أدرك عبد الرحمن الجبرتى — وعلى الأغلب أدركت الصفوة المثقفة — أن الفرنسيين حين شجعوا المصريين على اقامة الاحتفالات الدينية وخاصة (الموالد) لم يكن ذلك الا لالهاء المصريين . لقد شجع بونابرت ذلك ، أما كليبر فقد شجع بتطرف اقامة تلك الموالد لأن الفرنسيين — على حد قول الجبرتى :

« رأوا فيها من الخروج على الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات » ما يشغل الشعب عن مقاومة الفرنسيين .

وكان الجبرتى ناقدا لاذعا لما كان يجرى فى تلك الاحتفالات فيقول :

« ركب [المحتسب] ... وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير ، والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رءوسهم وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشع مهول » (١) .

والى حد قريب كانت الموالد موبوءة بتلك المظاهر اللا أخلاقية . وكانت أكثر العلاقات الجنسية غير السوية تقع خلال تلك الموالد ، التى يؤمها المحترفون والمنحرفون ، وكذلك الوافدون من الأرياف ويقيمون فى الخيام أو فى الخلاء رجالا ونسوة ولعدة أيام .

ولقد انتقد الجبرتى بشدة هذه المظاهر غير الأخلاقية ، وان لم ينتقد اقامة الموالد نفسها ، ورأى فيها عارا وسبة فى جبين المجتمع ، وانتقد كبار رجال المشايخ لأنهم كانوا يحضرون تلك الموالد ويغضون الطرف عما يجرى فيها من آثام .

وقد أبدى بونابرت ميلا الى تولية النصارى بعض المناصب الادارية التنفيذية بالاضافة الى ما سبق أن قام به فى هذا الصدد . فقد احتفل بونابرت

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٤٣ .

بتنصيب بعض النصارى على نحو ما يرويه الجبرتى :

« ... واجتمعت عساكرهم ... ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام .. ولبس المعلم جرجس الجوهرى كركه بطرز قصب على اكتافها الى اكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بازرار وكذلك فلتيوس ... وتعمموا بالعمائم الكشميرى .. وركبوا البغال الفارهة ، واظهروا البشر والسرور » .

حقيقة هناك مصريون تعاونوا مع الادارة الفرنسية ولكن هذا فى نظر الشعب المصرى المسلم مداراة أما بالنسبة للقبط والنصارى فالمسلم كان يرى ذلك اتفاقا ضد المسلمين .

حقيقة رفع الفرنسيون من مكانة القبط ونصارى الشام الاجتماعية الا انهم لم يسمحوا لهم بأن يتجاوزوا الحد الذى يثير حفيظة القاعدة الشعبية الاسلامية العريضة . وفى هذا يقول الجبرتى :

« ان نصارى الشوام رجعوا الى عاداتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق ، وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك ، ونبهوا (اى الفرنسيين) ايضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شىء من ذلك بمرأى منهم كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » (١) .

كان طبيعيا أن يتغير موقف بعض القبط والنصارى الشوام من المسلمين بعد ان تعرضت بيوت نصارى القاهرة للنهب والسلب . وكان طبيعيا أن يتصاعد اعتماد الفرنسيين على القبط والنصارى الشوام للأسباب التالية :

١ — ان المستعمر يجد أنه من اللازم له أن يتعاون مع اقلية أو طائفة كانت لا تتمتع بكافة حقوق المواطنة . فالأغلبية عند المستعمر للاستغلال والاقلية أو الطائفة للتعاون وتبادل المنفعة . وهذه قاعدة عامة .

٢ — حاجة المستعمر الى طائفة يثق فيها لتقوم بدور هام فى الادارة

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٤ — ٤٥ .

وتنفيـذ أهداف المسـتعمر ، ولا يسـتطيع الا ان يعتمـد على طائفـة معينة او اقليـة .

٣ — ان رابطة الدين تسـهل اختيـار الطائفة . وقد كان القبطى لا يتمتـع بالمواطنة كاملة طبقا للشريعة الاسـلامية التى الزمته بالجزية فى مقـابل حمايته ، اما مفهوم المواطنة عند الغرب وفى فرنسـا بالذات فهو ان الجميع سواسـية امام القانون ، ولذلك حصل البروتستنتات واليهود على حقوق المواطنة كاملة بعد الثورة الفرنسـية . فطبق بونابرت هذا المبدأ فى مصر ، فجاة دون تمهيد . فقد قضـت فرنسـا حوالى ثلاثة قرون حتى وصلت الى تلك النتيجة . بينما فرضها الفرنسيون بين ليلـة وضحـاها .

وزادت أواصر العلاقة بين الفرنسـيين من جهة والاقباط ونصارى الشـام من جهة أخرى ، وكان هذا واضـحا خلال الأعياد العـامة مثل شـم النسـيم فيقـول الجبرتى : ان القبطـة والشـوام والأروام اسرفوا فى الخـلاعة والشرب والاسـتهزاء بأمر مصر ، فكانوا يقلـدونهم فى الـكلام والملبس ، الأمر الـذى كان يوغر صـدور المسـلمين حتى اذا ما وقعت اتفاقية العريش ١٨٠٠ اصبح موقف النصـارى والقبط المتعاونين مع الفرنسـيين دقيقا . ولم يلبث ان وقعت ثـورة القاهرة الثانية ضـد الفرنسـيين فكان من بين النداءات التى انطلقت خلال هذه الثورة « اقتلوا النصـارى وجاهدوا فيهم » ، وعندما تسـامع العـامة بذلك اخذ العـامة يقتلون من يصـادفهم من الأقباط والنصـارى ، بل امتـد القتل الى من جاورهم من المسـلمين .,

وكان الأقباط والنصارى يتوقعون هذا التطور واسـتعدوا لمواجهته بجميـع الرجال والسـلاح والذخيرة وتحصنوا فى دورهم يرمون بالبنادق من اعلى وجماعات المسـلمين تحاول اقتحام بيوتهم من أسـفل . حتى اذا ما انتهت الثورة وسـيطر الفرنسـيون على القاهرة مرة أخرى ، خرج الأقبـاط ونصارى الشـوام ليصفوا حسـاباتهم مع المسـلمين ، وقاموا بعمليات اذلال لهم .

فيقول الجبرتى : « وتطاولت النصارى من القبط والنصارى من الشام على المسـلمين بالسـب والضرب » .,

وكان من المعتاد انه اذا مر مسـلم من ذوى المكانة على قبطى وقف الأخير

احتراما له ، وبعد ثورة القاهرة الثانية كان الأقباط والنصارى يرغمون المسلم على الوقوف عند مرورهم .

وعلى اى حال ، عندما استعاد العثمانيون مصر بعد طرد الفرنسيين (١٨٠١) استاءوا مما وقع بين المسلمين والاقباط من فتنة كان سببها الحقيقى وقوع مصر فى يد المستعمر الفرنسى ولذلك عملوا على تسوية القضية . فأصدروا تعليماتهم بعدم التعرض لأهل الذمة . وبرر العثمانيون تورط الاقباط فى بعض الأفعال بقولهم « ان الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية هو صيانة اعراضهم واموالهم » .

وهناك رواية للفارس الفرنسى لاسكارس عن المعلم يعقوب وهو من اعيان الاقباط ، الذى شكل تحت امرته قوة عسكرية قبطية محدودة وضعت فى خدمة الفرنسيين والأقباط .

فلأول مرة فى تاريخ مصر تشكلت قوة عسكرية أو على الأقل شبه عسكرية ، وأقام عين قبطى بتحصين بيته على هيئة قلعة .

ولأول مرة يفكر عين قبطى فى الرحيل على رأس مجموعته من مصر الى دولة اجنبية اوربية . فقد غادر المعلم يعقوب مصر مع بعض من رجاله مع الفرنسيين . وقد مات الرجل ولم نسمع عنه الا من الفارس لاسكارس الذى قال ان مشروعا لاستقلال مصر كان لدى المعلم يعقوب . ويكون بذلك أول من فكر — اذا كان ذلك صحيحا — من منطلق طائفى ذى صبغة قومية فى استقلال مصر .

وجذور هذه الفكرة — ان وجدت — هى أن بعض الأقباط اعتقدوا أنهم هم سلالة المصريين الفراعنة ، وأن المسلمين فى مصر من العرب أو ممن ضحى بمصر فى سبيل مفهوم الدولة الاسلامية العامة .

واذا كان لهذه الفكرة أساس فان ذهاب بعض الباحثين الى القول بأنها أول دعوة قومية تظهر فى مصر الحديثة يعتبر افتياتا على المفهوم الوطنى القومى ، حيث لا يمكن أن يكون هناك انسجام بين المفهوم الوطنى القومى مع هذا المفهوم الطائفى .

زواج الفرنسيين من مصريات مسلمات :

من المعروف أن الدين الاسلامى يحرم زواج مسلمة من ذمى ، مهما كانت الظروف . وعندما جاء الفرنسيون الى مصر كانت بعض زوجات الضباط معهم . وظهر النموذج النسائى الأوربى أمام المجتمع المصرى . من حيث السلوك الاجتماعى والملبس ،وشاهد المجتمع المصرى ما كانت عليه المرأة الفرنسية من حرية وانطلاق ، وكان طبيعيا أن تسعى بعضهن الى التعرف على نساء بعض البيوت الاسلامية ، وكان من بينها بيت الشيخ خليل البكرى ، وكانت ابنته على نوع من التحرر والاستعداد للخروج على التقاليد الاجتماعية المصرية الاسلامية . وشجعتهن على ذلك بعض النسوة اللاتى لهن معارف واسعة مريبة مع رجال عصرها وامثالهن هن اللاتى يبدان بتخطى التقاليد و (سحب) أو التغرير بفتيات ونسوة اخريات يكن على استعداد لذلك .

ونظرا لفرار المماليك من القاهرة وتركهم للجاريات دون عائل ، فقد أصبحن — خاصة تحت الحكم الفرنسى — يتمتعن بحريتهن ولا يستطيع أحد أن يسيطر عليهن . ولذلك كن مستعدات لأن يلقين بأنفسهن تحت أقدام الفرنسيين حتى « نططن الحيطان » اليهم ، على حد قول عبد الرحمن الجبرتى .

وبعد تولية مينو ، واشتهار زواجه من زبيدة واعلان اسلامه رسميا ، شجع مينو اقتران الفرنسى بالفتيات المسلمات بعد اعلان الاسلام بنطق الشهادتين فقط ، أو بمعنى آخر اعلان اسلامه رسميا دون أن يكون ذلك فعليا . وحدثت فعلا زيجات عديدة بين الجنود الفرنسيين والفتيات المصريات المسلمات فى أيام حكم مينو .

والمعروف لدينا أن مينو اصطحب معه زوجته زبيدة ، ولا نعرف ما حدث لبقية المصريات المتزوجات من الفرنسيين وأغلب الظن ان الغالبية العظمى منهن بقين بعد رحيل الحملة ، وبعضهن قتلتهن السلطات العثمانية بعد خروج الحملة الفرنسية . واغلب الظن أن معظمهن أردن أن يلعبن نفس اللعبة مع رجال القوات العثمانية التى استقرت فى مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية .

فيحدثنا الجبرتى عن ذلك فيقول ان بعض هذه النسوة استطعن الزواج من العسكر العثمانى وقال ان العسكر :

« أمهروهن المهور الغاليـــة وأنزلوهن المناصب العاليـــة » (١) .

وتعليل ذلك أن الجنـد عنـدما ينزلون بلدا يكون احتكاكهم — فى مجـالات العلاقات النسـائية — مع السـيدات (البطالات) ، وهن على معرفة واسـعة بالنســاء ممن غادرهـم أزواجهن الفرنسـيون فكانت المهمـة سـهلة أمامهـن لتزويجهن من العثمانيين . وأما تفسـير تقـديم المهور الغاليـة واسـناد المناصب العالية لهن ، فاغلب الظن أن ذلك يرجـع الى ما أصبحن عليه من خبرة بأمـور الحيـاة ، اكتسـبتها تلك النسـوة خلال معاشرتهن للفرنسـيين . فهن نســاء لـكل غــاز .

على أنه يجب أن نحذر باسـتمرار أن هذه الأمور كانت تقـع فى القـاهرة ولا تقع فى المدن الأخرى الا فى النادر ، أمـا فى الريف المصرى فلا يمكن أن تقـع . ومن هنا تأتى أصالة الريف وقدرته على الحفاظ على تقاليده وشـخصيته وصلابته فى مواجهة الضغط الأجنبى الاجتماعى باتباع الريف لأسـلوبه المفضل فى مقـاومة الأجنبى الا وهو (المقـاومة السلبية) .

والملاحظ أن الجبرتى لـم يشر الى حالـة ولـو واحـدة تزوج فيها فرنسى بمسـيحية قبطية ، رغم ما كان بين العديد من الاقبـاط والفرنسـيين من تبادل ثقة وقوة ارتباط . وربما يمكن القول أن الفرنسـيين كانوا فى حاجة الى استمالة القـاعدة الشـعبية الاسـلامية بينما لم تكن هنـاك حاجـة الى ذلك بالنسـبة للأقباط خاصة وقد أخلص العديد منهم للفرنسيين .

وربما تكون هذه الزيجـات قد تمت ولـم يذكرها الجبرتى لأنهـا زيجـات طبيعية ، وانما ركز الجبرتى على الحالات الشـاذة اللافتة للنظر .

وقد بلغ غلو المصريات المتفرنسـات ذروته فى أيام مينو وصور ذلك الجبرتى بقوله ان الفتيات والنسـوة جذبهن الزى الفرنسى ومرح الفرنسـيات ، حتى لقد بلغ الأمر ببعضـهن أن شـاركن فى بعض المسـئوليات الادارية وكن اذا ذهبن فى نزهة يقلدن الفرنسيين فى أغانيهم .

وقد عزا عبد الرحمن الجبرتى هـذا التطور الى أن خـراب بولاق كان من

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص ١٤ ربيع ثانى ١٨٠١/٨/٢٤ .

أسباب ذلك ، وهو لم يزد من ذلك . فلماذا اقتصر على ذكر خراب بولاق مع ان أحياء أخرى عديدة أصيبت بالدمار خلال ثورة القاهرة الثانية ؟.

مما لا شك فيه أن بولاق أصيبت بخراب اشد مما أصيب به اى حى آخر . فقد كانت المقاومة فيه عنيفة وطويلة الأمد بالنسبة لغيره من الأحياء . ومن ناحية أخرى فقد كان حى بولاق منفصلا عن القاهرة (القديمة) ، وكان مجاورا أكثر من غيره لمعسكرات القوات الفرنسية . لذلك كانت أعداد الأسر التى وقع أفرادها ضحية القتال أكثر . فاذا أضفنا الى ذلك التدهور الاقتصادى والفقر الذى زادت حدته خلال وأعقاب ثورة القاهرة الثانية فان هذا التردى فى الأوضاع يفتح ابوابا أوسع أمام الانحراف الفكرى والاجتماعى .

الديوان :

وتشكل الديوان من عدد من مشايخ وعلماء القاهرة ومعهم بعض الفرنسيين ؟ وكان أول عمل للديوان هو شغل الوظائف الرئيسية الشاغرة وعلى رأسها منصب أغات مستحفظان (أى قائد قوات الشرطة) ووالى الشرطة ومنصب المحتسب . واسندت هذه المناصب الى غير المماليك ، ولكن واضح من أسماء من تولى هذه المناصب أنهم كانوا من اصول غير مصرية . ويقول فى ذلك الجبرتى أن تعيينهم كان : « باشارة أرباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب للمماليك لمعرفتهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم » ، ولذلك شغل تلك المناصب رجال من « بقايا البيوت القديمة » وهم من أصول تركية ووصفهم الجبرتى بأنهم « لا يتجاسرون على الظلم لغيرهم » .

ويمكن القول ان الديوان كان بمثابة مجلس شورى تحت رقابة وتوجيه الفرنسيين ، وان السلطات التنفيذية وضعت فى يد عناصر من الاتراك الذين اقامت أسراتهم فى مصر فترة طويلة ، وكانوا من المشاركين فى الادارة أيام المماليك . ومن ثم كانوا على نوع من الخبرة ، وعلى كراهية للمماليك .

أما المشايخ والعلماء فقد قبلوا المشاركة فى الديوان للأسباب التالية :

١ — ان تاريخ المشايخ والعلماء يؤكد أنهم كانوا الواسطة بين الشعب

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ ص   مايو ١٨٠١ .

والحاكم ، وانهم كانوا المدافعين عن حقوق الشعب امام الادارة المملوكية . ويلتف حولهم الشعب وقت الشدة ، ومن ثم فان قبولهم عضوية الديوان هو من قبيل الاستمرار فى لعب هذا الدور : حماية الشعب من الظلم والتعدى عليه .

٢ — أن المشايخ والعلماء كانوا يعلنون من وقت لآخر ان المماليك ظلمة ، وكانوا لا يقدرون فى المماليك الا قوتهم العسكرية ، ولكن من الناحية الاجتماعية كانوا لا يرون فيهم اية مميزات بل كانوا يسبونهم لكونهم كانوا عبيدا ارقاء ولأنهم كانوا يقترفون الموبقات والتعديات ويطبقون شريعتهم وليس الشريعة الاسلامية فى المعاملات . وهو أمر كان مثار خلاف شديد بين المماليك من جهة والعلماء والمشايخ والشعب من جهة اخرى .

كان هدف نابليون بونابرت من اقامة الديوان هو أن تحصل قراراته على نوع من الشرعية على اعتبار انها صادرة عن هيئة مصرية ، ولكن هذا المفهوم كان فى ذهن بونابرت فقط حيث ان المشايخ والعلماء كانوا لا يرون اية شرعية لأى قرار يصدر تحت حد السيف الفرنسى . ومن ثم فهم مكرهون مضطرون وليس عن رغبة وايمان بما يفعلونه وانما هى مسايرة الحاكم المتسلط حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

واغلب الظن أن بونابرت لم يدرك هذه الحقيقة ، وان أدركها فقد تجاهلها حيث انه كان يرمى الى تحقيق اهدافه المرسومة باية طريقة .

ومن ناحية اخرى كانت معلومات السلطات الفرنسية عن الشعب المصرى وأحواله الاجتماعية والاقتصادية محدودة ، ومن ثم كان فى حاجة الى من يتداول معهم فى مثل تلك الأمور . وهؤلاء المشايخ والعلماء أعرف الناس بطبائع الشعب .

وفوق هذا وذاك كان المشايخ والعلماء يمثلون الانتلجنسيا المصرية حينذاك ، والمستعمر فى حاجة ماسة الى هذه الانتلجنسيا لادارة اموره .

وخلال السنوات الثلاث التى أقامها الفرنسيون فى مصر ، كانوا يعيشون على أرض معادية وخاصة فى الصعيد الذى يمكن أن نقول انه لم يخضع للفرنسيين رغم تعدد انتصاراتهم على القوات الوطنية . فقد تحول المصريون الى حرب عصابات تميزت فيها كل من المنيا وابو جرج وبنى عدى وطهطا وجهينة

وسوهاج وجرجا وقنا وقفط واسوان بمقاومة طويلة وفعالة ضد الفرنسيين .

* * *

يتحدث كثير من المؤرخين — وخاصة الفرنسيين منهم — عن الدور الحضارى الضخم الذى اسدته الحملة الفرنسية لمصر . ويذهب هؤلاء المؤرخون الى القول بأن مصر الحديثة الناهضة ما هى الا من صنع تلك الحملة ، والمتواضعون منهم يقولون أن الحملة الفرنسية هى التى وضعت اساس النهضة المصرية الحديثة .

ومع اعترافنا بأن الحملة الفرنسية كسرت الحواجز التى كانت بين مصر والعالم الغربى المتقدم ووضعت أمام الشعب المصرى صورة من صور المجتمعات الأوربية المتقدمة ، وجعلت الشعب قادرا على عقد المقارنات بين أوضاعهم وأوضاع هؤلاء الغزاة ، مع اعترافنا بهذا فان التحول الحضارى فى مصر خلال واعقاب الحملة الفرنسية تام على أكتاف المصريين ونظام الحكم فى أيام محمد على .

أن قيمة الحملة الفرنسية هى انها اصابت المجتمع المصرى بهزة عنيفة وانها بذلك أيقظت فيه روح المقارنة والتغيير وتقبل التغير . اذ اصبح الناس اقدر على اعادة النظر فى أحوالهم الاجتماعية ، واعادة النظر هذه هى المفتاح الحقيقى للتحول التقدمى الاجتماعى .

ولنضرب أمثلة على تعمد رجال الحملة الفرنسية عدم اطلاع المصريين على أدوات النهضة الأوربية . فقد كانت أعمال الطباعة على الماكينات الجديدة قاصرة على الفرنسيين ، وأصدر الجنرال مينو أمرا بمنع المصريين من التعرف على عمل هذه الماكينات أو استخدامها فكانت توضع فى غرفة مغلقة فيستحيل على أحد أن يصل الى المطبعة ولم يكن المصريون يرون الا الأوراق بعد طباعتها .

ان هذا الأسلوب هو فى الحقيقة أبشع مظاهر الاستغلال الاستعمارى لشعب مصر ، وينفى عن الحملة الأهداف الانسانية التى وردت فى منشور بونابرت .

وأيا كانت نتائج الحملة الفرنسية على مصر فانها تركت بصماتها على

تاريخ مصر الحديث من الناحية السياسية أكثر من الناحية الاقتصادية أما اثرها الاجتماعى — وان كنا نؤكد أنه على جانب من الأهمية — فانه اقرب الى الاستنتاج استنادا الى ما حدث لمصر من بعد ذلك من تطور وتحديث ».

- ما هى اهم النتائج الاجتماعية للحملة الفرنسية وما هى اهم آثارها الاجتماعية ؟

١ — لقد وجهت الحملة الفرنسية ضربة حاسمة للطائفة الحاكمة المملوكية بل لقد أصبح النظام المملوكى فى حالة احتضار ينتظر من يجهز عليه ، وفقد المماليك ثقة الشعب المصرى فيهم لانهم اهملوا فى الدفاع عن سواحل مصر فهبطت الحملة واستسلمت الاسكندرية قبل أن يرسل اليها المماليك قوة مناسبة . وخلال معارك شبراخيت وامبابة كان التفكك والانهزامية والاختلافات واضحة تماما بين صفوف المماليك ، بينما كان الفرنسيون ثابتى الجنان منظمى الحركة حديثى التسليح يعرفون ما يفعلون . والواقع أن المماليك اصبحوا هدف السلطات العثمانية التى سعت الى التخلص منهم بأية وسيلة وكادت السلطات العثمانية تقضى عليهم غدرا لولا تدخل الانجليز . ولقد وجد عدد ليس بالقليل من المماليك أنهم فى حاجة الى تأييد انجلترا ، وكانت انجلترا فى نفس الوقت فى حاجة الى قوة فى داخل مصر تتحالف معها ، وكان هذا واحدا من الأسباب التى أطالت عمر المماليك الى حين ، حتى جاء محمد على ووجه الضربة القاضية الى المماليك فيما عرف باسم « مذبحة القلعة ١٨١١ » .

٢ — لقد شككت الحملة الفرنسية منذ صدور منشور بونابرت فى حق المماليك فى الحكم فهل اغتصبوا الحكم من العثمانيين ؟ حقيقة كان مماليك ما قبل السلطان سليم يحكمون ولكن ما هو السند الذى على اساسه يحكم هؤلاء ليفيدوا وحدهم من خيرات مصر ، وعلى حد قول المنشور : أين « الحجة التى كتبها الله لهم » ليتولوا أمر مصر دون ابنائها ، والواقع أن المماليك فرضوا فرضا فى حكم مصر وابعدوا رجال السلطان العثمانى عن المناصب الادارية او شلوا حركتهم .

٣ — لقد كان واضحا أن الفرنسيين وجهوا نداءهم الى العلماء والأعيان وابناء شعب مصر على اعتبار أنهم هم الذين يجب أن يتمتعوا بخيرات بلادهم ولا شك أن هزيمة المماليك على ذلك النحو المخزى جعل صورة المماليك لدى

المشايخ والأعيان والشعب مهزوزة جدا واصبحوا وكانهم يتطلعون من بعد الى نظام جديد ينقذ البلاد من التدهور ويحفظها من غزوة أوربية جديدة .

ولقد قدم الفرنسيون للعلماء والأعيان نوعا من نظام للحكم كانوا قد اعتادوه وهو الديوان . فقد كان هناك ديوان فى العهد العثمانى ، ولكنه كان لا يقدم خيرا للبلاد ولا يمثل فيها اعيان وشيوخ مصر على نحو ما فعل بونابرت فى الديوان الذى انشاه ، ولقد كانت التجربة هامة حقا . ورأى فيها بعض الكتاب المحدثين انها برلمان مصر الأول . والحقيقة أن مثل هذا النوع من الدواوين لا يمت الى الديمقراطية بصلة حيث انه كان ينفذ اوامر الحاكم العسكرى الاستعمارى الأجنبى .

حقيقة يمكن أن نقول ان هذا الأسلوب من الدواوين غرس فى اذهان الأعيان والمشايخ رغبة فى ان يظهر حكم يتولى فيه ابناء الشعب المصرى حكم انفسهم بانفسهم ، ولكن الظروف التى أتت بعد ذلك اثبتت أن المشايخ كانوا يقتصرون على القيام بدور الوساطة بين الحاكم والرعية . فلم يفكر اى منهم فى ان يتولى الحكم بل بحثوا عن (تركى) ليحكم وذلك لأنهم ليسوا اهل سياسة حيث أن السياسة والحكم كانت من الأمور البغيضة الى قلوب المشايخ بصفة خاصة من حيث ارتباطها بالتآمر والدم .

ومفهوم المواطنة كان لا يزال لديهم مفهوما اسلاميا فهم رعية السلطان العثمانى خليفة المسلمين وهو المسئول عن اسناد الحكم لمن يراه كفئا ... ولكن كان المشايخ والأعيان فى نفس الوقت قد شرعوا يمارسون حقا هاما وهو حق عزل الوالى الذى لا يقوم بواجبه نحو الشعب . وهذا فى حد ذاته خطوة هامة فى تاريخ مصر السياسى تجلت خلال الأزمة التى نشأت عن محاولات الوالى العثمانى خورشيد باشا التمسك بولايته ضد مرشح العلماء للولاية « محمد على » .

٤ — أن نظم تسجيل المواليد والوفيات وحجج الأرض والعقوبات والاجراءات الأمنية والصحية جديدة على المصرى ذات اثر فى اعادة النظر فيما بعد فى الأنظمة القديمة التى كانت تتبع فى هذا الصدد .

٥ — تبين المصرى بالمشاهدة المباشرة نظام الجيش الفرنسى الدقيق ، وعاين كيف أن خروج الفرنسيين من مصر لم يتم على يد المماليك ولا على يد

الشعب ولا على يد العثمانيين ، وانما بعد تلك الحملة الكبيرة التى قدمها الانجليز لمعاونة الجيش العثمانى فى اخراج الحملة نهائيا فى ١٨٠١ ثم شاهدوا استمرار الانجليز فى مصر ثلاثة أعوام اخرى ليخرجوا منها فى ١٨٠٣ . انه لخطر عظيم ولم يمكن رده الا باستخدام دولة حديثة أوربية (انجلترا) .

٦ — ان المظالم التى نزلت بالشعب خلال ذلك الصراع بين العثمانيين والمماليك والانجليز من جهة والقوات الفرنسية من جهة اخرى جعلت الشعب يعيد النظر فى حق هؤلاء العثمانيين فى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين . ومن مظاهر النكبات التى حلت بالاسكندرية واقليم البحيرة فترة الحرب لطرد الفرنسيين من الاسكندرية (١٨٠١) ان المماليك والعثمانيين والانجليز غلبوا مصالحهم عندما كسروا السد الذى يمنع انسياب مياه البحر المالحة صوب أقليم البحيرة والأرياف هناك ، وأدى ذلك الى تحطيم طرق المواصلات الى الاسكندرية وطغيان المياه الملحة على مساحات واسعة من أراضى البحيرة . الأمر الذى ادى الى نتائج قاسية وصفها الجبرتى بقوله :

« أما أهل الاسكندرية فانهم جلوا عنها .. الى أزمير وبعضهم الى قبرص ورودس .. ولم يبق بالبلدة الا الفقراء والعواجز » .

ومع هذا فقد فرضت الادارة على الاسكندرية « فرد » الأمر الذى يؤكد ان الادارة فى ذلك الوقت (١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م) لم تكن تقدر تدهور أحوال العامة الاجتماعية والاقتصادية على الاطلاق .

تعتبر الفترة الواقعة بين خروج الحملة الفرنسية من مصر ١٨٠١ وحركة (الجمهور) المصرى ضد الوالى العثمانى خورشيد لاسناد الحكم لمن اختاروه مصلحا (محمد على) (١٨٠٥) ، تعتبر هذه الفترة (١٨٠١ — ١٨٠٥) فترة انتقالية من اشد الفترات فوضى واضطرابا .

فهى فترة صراع مريرة بين مراكز القوى العديدة ، عثمانية ومملوكية . وهى فترة ظهرت فيها الزعامة المصرية الشعبية بمظهر ايجابى ، اذ تحرك الجمهور — على حد تعبير الجبرتى — وارغم خورشيد باشا — الوالى المعين من قبل السلطان العثمانى — على مغادرة البلاد ، واعلنوا محمد على واليا على مصر . فكان ذلك نهاية عهد وبداية عهد .

الفصل الثالث

مصر في عهد العثمانية العائدة

كان المصريون يرحبون كل الترحيب بتحرير مصر من الاستعمار الفرنسى ، واستقبلوا عودة العثمانيين استقبالا عظيما ، ولكن سرعان ما خاب ظنهم ، فيقول الجبرتى ان عسكر العثمانيين كانوا يعتبرون المصريين « كفرة ... وفرنسيس » (١) وذهب قاضى العسكر العثمانى الى القول بأن مصر « كلها ملكا للسلطان لأن مصر قد ملكها الحربيون .. فيحتاج ان اربابها يشترونها من الميرى ثانيا » (٢) ومعنى هذا ان قاضى العسكر العثمانى اعتبر أن مصر فتحت عنوة ، وبذلك ليس من حق المصريين ان يمتلكوا فيها عقارا الا بشرائه من خليفة المسلمين السلطان العثمانى .

اما العسكر فكانوا على نفس المعتقد بل واكثر تطرفا فى هذا الصدد . فقد كان بعض العسكر العثمانى يعتبر المصريين « كفرة ... وفرنسيس » (٢).

وعلى هذا الأساس قرروا على الأقل مشاركة المصريين فى ارزاقهم فدخلوا ميدان التجارة بائعين شارين ، وفرضوا الاتاوات ، واقتحموا المساكن للسكنى فيها رغم أنف أصحابها ، وأخذوا يضايقون النساء فى الطرقات مضايقة توحى بأن للعسكر حقا فيهن (٣) .

حقيقة نهى الوالى العثمانى عن تلك الأعمال ، ولكن دون جدوى ، وخاصة أن المرتبات لم تكن تدفع للقوات العثمانية بانتظام .

عادت السلطات العثمانية الى مصر ولديها بصيص من الرؤية نحو اعادة تنظيم الولاية ، ولكن رؤية من منطلق تقليدى وليست ابداعية ، وابرز مثال على ذلك محاولة تنظيم دفاتر الأراضى والعقارات واثبات الملكيات والتصرفات . وقدم لنا

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص   ١٨ أغسطس ١٨٠١ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ص   ٨ أكتوبر ١٨٠١ .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص   أغسطس ١٨٠١ .

عبد الرحمن الجبرتى صورة تفصيلية عن البيروقراطية العثمانية السائدة فيقول :

« كل من كان تحت يده شيء ... (من الرزق الاحباسـية)(١) يكتب لـه مرضحال ويذهب به الى ديوان الدفتردار فيعلـم عليـه علامته ، وهى قـوله ، (قيـد) بمعنى انه يطلب قيـوده من محـله التى تثبت دعـواه . ثم يذهب بذلك المرضحال الى كاتب الرزق ، فيكشف عليها فى الدفاتر المختصة بالاقليم الذى فيه الأرصاد بموجب الاذن بتلك العلامة ، فيكتب له ذلك تحتها ، بعد أن يأخذ منه دراهم ويطيب خاطره بحسب كثرة الطين (٢) وقلته وحال الطالب ، ويكتب تحته علامتـه فيرجع به الى الدفتردار فيكتب تحته علامة غير الأولى فيذهب به الى كاتب الميرى فيطالبه حينئذ بسنداته وحجج تصرفه ومن اين وصل اليه فان سهلت عليه الدنيـا ودفـع لـه مـا أرضـاه .. كتب لـه تحت ذلك عبـارة بالتركى لثبوت ذلـك والا تعنت على الطالب بضروب من العلل ، وكلفه بثبوت كل دقيقة يراها فى سنداته وعطل شغله ، فما يسع ذلك الشخص الا بذل همته فى تميم غرضه باى وجه كان اما أن يستدين أو يبيع ثيابه ويدفع ما لزمه فان ترك ذلك واهمله بعد اطلاعهم عليه حلوه (٣) عنه ورفعوه ، وكتبوا لمن يدفع حلوانه ثلاث سـنوات او اكثر ، وكتبوا له سـندا جديدا يكون هو المعول عليه بعد ، ويقيد بالدفاتر ويبطل اسـم الأول وما بيده من الوقفيات والحجج والافراجات القديمة ولو كانت عن اسلافه . ثم يرجع كذلك الى الدفتردار فيكتب له علامة لكتـابة الاعـلام فيذهب به الى الاعلامجى ، فيكتب له عبارة فى معنى ما تقدم ، ويختم تحتها بختم كبير فيه اسـم الدفتردار ، ويأخذ على ذلك دراهم أيضـا ، وبعد ذلك يرجع الى الدفتردار فيقدر ما يقـرره عليها من المال الذى يقال له مال الحمـاية ثم يذهب بها الى بيت الباشـا ليصحح عليها بعلامته ويطول عند ذلك انتظاره لذلك ويتفق اهمالها الشهرين والثلاثة عند الفرمانجى (٤) ، وصاحبها يغدو ويروح فى كل يوم حتى تحفى قدماه ولا يسـهل بها تركهـا بعدما قاسـاه من التعب وصرفه من الدراهم ، فاذا تمت علامتهـا دفع أيضـا المعتـاد الذى على ذلك ، ورجع بهـا الى بيت الدفتردار ، فعند ذلك

---

(١) الرزق الاحباسية هى عقارات وأراضى خصص الصرف منها على أوجه الخير والمسـاجد .

(٢) الأرض الزراعية .

(٣) حلوه عنه بمعنى رفعوا يده عنه أى أصبح لا حق له فيه .

(٤) الموظف المسئول عن كتابة (المرسوم الوزارى) .

يطلبون منه ما تقرر عليها فيدفعه فى تلك السنة ، ثم يكتبون له سندا جديدا ويطالب بمصروفه أيضا وهو شىء له صورة أيضا ، فلا يجد بدا من دفعه ، ولا يزال كذلك يغدو ويروح مدة أيام حتى يتم له المراد (١) .

اتهم عبد الرحمن الجبرتى العسكر العثمانى بالفساد والعبث بأموال وأرواح الناس ، وقدم لنا صورا عديدة عن ذلك ، منها قوله :

« يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرا أو يلاقشون النساء فى مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حياء ... وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح » .

فقد كانوا يزورون أوراقا ويقدمونها للمسئولين فى القرى يدعون أنهم جاءوا فى مهام رسمية ويطلبون « حق طريقهم مبلغا عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزموهم بالكلف الفاحشة ، ويخطفون الأغنام ، ويهجمون على النساء ... فطفش الفلاحون ، وحضر أكثرهم الى المدينة حتى امتلأت الطرق والأزقة منهم » (٢) .

لقد كانت القوات العثمانية على أسوا حال فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت تجمع من مختلف الملل وكان تدريبها العسكرى تافها ، وتنظيمها المالى مضطربا ، بحيث لم تكن الرواتب والمؤن تدفع بانتظام بل تتأخر لمدد تطول الى حد يدفع العسكر الى الاقدام على عمليات النهب . وكان السلطان سليم الثالث قد أدرك — وخاصة بعد الحملة الفرنسية — ضرورة تحديث القوات المسلحة ، ولكن لم يشرع فى ذلك الا بعد فترة ، ودفع حياته ثمنا لمحاولته هذه .

وزاد من الطين بلة أن السلطة العثمانية السائدة كانت قد وجدت نفسها واحدة من القوى المتحكمة فى مقدرات البلاد فالى جانبهم كان يوجد المماليك والانجليز . وكان العثمانيون يعملون على أن تخلص لهم مصر ، وكان المماليك يخططون لاستعادة سلطتهم المطلقة ، وكان الانجليز يريدون حكما فى مصر يدور فى فلكهم .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢١١ — ٢١٢ ، ذى القعدة ١٨٠٢/١٢١٦ .
(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٩ جمادى الأولى ١٢١٦ .

اما الشعب فلم يوضع الا فى اعتبار ثانوى ، فلا ديوان للمشايخ ، ولا محاولة للافادة من تجربة المصريين خلال كفاحهم ضد الوجود الفرنسى . الأمر الذى أوجد مقارنة بين الحكم العثمانى العائد والحكم الاستعمارى البائد .

فى محاولة لوضع حد للصراع الدموى المرير بين المماليك والعثمانيين عرض المماليك على الباشا العثمانى أن يقسم القطر المصرى الى قسمين : الوجه البحرى للعثمانيين والوجه القبلى لهم مع استمرار خضوعهم للسلطان العثمانى ، وأراد الوالى العثمانى أن يصفى المشكلة بأن يوافق على ما عرضه المماليك ولكن بأن يكون لهم اقليم اسنا وما وراءه جنوبا (١) أى اقل من ١/٨ ما طلبه المماليك ، حيث أن المنطقة الممتدة من آسيا الى حدود مصر الجنوبية فقيرة جدا اذ يضيق الوادى الزراعى بشدة بعد اسنا حتى الشلالات . ومعنى هذا كسر شوكة المماليك لو قبلوا هذا العرض ، وعزلهم عزلا قد يقضى عليهم .

ان المماليك بعد أن ضربوا ضربات شديدة على يد الفرنسيين قنعوا فى عهد الاحتلال الفرنسى بحكم (الصعيد) ، ومن ثم فقد كانت هذه السابقة مهيئة للمماليك لأن يقبلوا وضعا مشابها فى الظروف الجديدة .

ان المماليك الذين كانوا يحتكرون الحكم فى مصر ويتمتعون بالحكم الذاتى ، اصبحوا بعد الحملة الفرنسية يحافظون على مكانتهم فى مصر بالاستناد الى الدعم البريطانى ، وأعلنوا لأول مرة انهم يقبلون التمتع بالحكم الذاتى فى الصعيد فقط وهو الأمر الذى رفضه الوالى العثمانى وعرض شريطا من الوادى فقيرا يمتد من اسنا حتى حدود مصر الجنوبية .

وحاول الوالى أن يقنع المشايخ والعلماء أن يكاتبوا المماليك بشأن الاقتراح العثمانى ولكن المشايخ والعلماء رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة دون أن يكشف لنا الجبرتى النقاب عن سبب رفضهم ولكن الطريقة التى عرض بها الجبرتى رفض المشايخ والعلماء القيام بهذه المهمة ينم عن استياء هؤلاء المشايخ العلماء من هذا العرض الذى تقدم به الوالى ، وأغلب الظن أنهم رفضوا لأنه عرض غير مقبول من الجانب المملوكى وغير منطقى لأنه يقسم مصر الى قسمين ويؤدى الى تفكيك مصر التى لم تعرف من قبل التجزئة .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

ان رفض المشايخ والعلماء القيام بهذا الدور بين المماليك والعثمانيين يوحى بأن أيا من الطرفين المتقاتلين لم يكن يقدر قيمة وحدة البلاد المصرية عبر العصور ، وان الزعامات المصرية الوطنية كانت على مستوى أعلى من العثمانيين ومن المماليك فى الحرص على مستقبل وحدة البلاد .

ادت الحملة الفرنسية الى أن تتفهم الصفوة المملوكية حقيقة ما كان يدور من صراع فى أوربا بين الفرنسيين والانجليز . ولذلك نلاحظ وجود فريق يميل الى الافادة من هذا الصراع عن طريق التفاهم مع احد طرفى النزاع . وابلغ مثال على ذلك رحيل محمد بك الألفى مع الحملة الانجليزية الى انجلترا واقامته هناك من ١٨٠٣ الى أن عاد مع حملة فريزر الى مصر . ومن هنا يجدر المقارنة بين المعلم يعقوب الذى رحل مع الفرنسيين فى ١٨٠١ ، ومحمد بك الألفى الذى رحل مع الانجليز فى ١٨٠٣ .

المعلم يعقوب كان يهدف الى أن يصبح الحكم والادارة فى يد (الأقباط) ونصارى الشوام بدعم من دولة أجنبية استعمارية (فرنسا) . وكان محمد بك الألفى يهدف الى أن يستعيد المماليك — بقيادته — الحكم بدعم من انجلترا حتى ولو حصلوا على موضع قدم لهم فى البلاد ، رغم أن هذا لم يكن واضحا فى الوثائق وفى كتابات الجبرتى ، ولكن قبوله أن يأتى فى ركاب الانجليز يعنى قبوله بوضع مميز للانجليز فى مصر ، وبالتالى لا يختلف يعقوب كثيرا عن محمد الألفى فى أن مصالح الأقلية وضعت فوق المصلحة العامة .

ان تلك التطورات خلال الفترة بين ١٨٠١ — ١٨٠٥ تكشف عن أن النظام القديم كان يحتضر ، فلا الحكم العثمانى العائد بقادر على أن يمسك بمقاليد الأمور ولا المماليك قادرون ، والانجليز اقاموا فى البلاد حتى ١٨٠٣ وأنقذوا المماليك من مذبحة كان يدبرها لهم العثمانيون . لقد أصبح المجتمع المصرى مستعدا لاحداث تغييرات جوهرية فى بنائه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والعسكرى . وهذا ما حدث خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى شهدت بناء دولة مصر الحديثة .

الباب الخامس

المجتمع المصرى وبناء الدولة الحديثة

الفصل الأول : تصفية النظام الحاكم القديم

الفصل الثانى : الفلاح

الفصل الثالث : العمال والصناعة فى عهد محمد على

الفصل الرابع : التحديث فى الجيش والتعليم والادارة .

الفصل الخامس : طائفة العلماء

الفصل السادس : بعض العناصر عرقية ومذهبية واجنبية فى المجتمع المصرى

الفصل السابع : رؤية فى التركيب الاجتماعى .

الفصل الأول

تصفية النظام الحاكم القديم

أحدثت الحملة الفرنسية فى مصر بصفة خاصة ومعظم بلاد الشرق الاسلامى هزة ، وهى هزة هيأت النفوس لاعادة النظر فى أوضاعها ، وهيأت الظروف لظهور زعامة تستطيع أن تحدث تغييرا لمواجهة ما يحدق بمصر وبالعالم الاسلامى من أخطار .

فى هذه الظروف تولى محمد على الحكم فى ١٨٠٥ . وكان عثمانيا ، اى من النظام القديم . وتولى الحكم ومصر تموج بالقوى التقليدية التى تريد الحفاظ على مكانتها .

فالعثمانيون وقد عادوا الى مصر اخذوا يسعون الى استرداد ما كان لهم من تفرد فى حكم البلاد ، والمماليك — وقد مزقتهم الأحداث — مقتنعون بأنهم امضوا فى حكم البلاد ردحا طويلا ، وبأنهم هم الذين تحملوا اقسى الضربات دفاعا عن مصر ضد المغتصب (الصليبى) الفرنسى . والوالى الجديد محمد على يرى أن هؤلاء المماليك فقدوا مقومات استمرارهم فى الحكم وان العثمانيين لا تتوفر فيهم امكانيات انقاذ البلاد من سقطتها الحضارية .

وما كان فى استطاعة هذا الوالى الجديد ان ينطلق وراء افكاره وهو يعتمد على قوة عسكرية محدودة مشاغبة ، حتى ولو وقف الى جانبه زعماء الشعب . وما كان ليستطيع كذلك أن يتحدى بتطلعاته السلطان العثمانى لما كان يتمتع به هذا السلطان من نفوذ وقوة حينذاك تفوق قوة ونفوذ محمد على . فيستطيع محمد على أن يفرض نفسه واليا على البلاد ، وأن يضطر السلطان الى أن يعينه واليا ، فهذا أمر كان يتكرر فى اكثر من ولاية عثمانية ، ولكن أن يستطيع محمد على تحدى السلطان تحديا سافرا فهذا ما لم يكن يستطيعه فى ذلك الوقت المبكر من حكمه ، والا تعرض ان آجلا أو عاجلا الى ضربة عثمانية قد تكون قاصمة وهو لا يزال فى أول الطريق .

كان طبيعيا والظروف هكذا أن يستخدم محمد على أساليب الملاينة والاسترضاء والانحناء للعاصفة ان هبت عليه على أن يداورها دون أن يفقد مواقعه . واستطاع أن يخرج من اكثر من أزمة ، وان يتخلص من أكثر من زعامة حتى تمكن فى نهاية الأمر من أن ينفرد بالحكم انفرادا حقيقيا .

فلقد حاول السلطان العثمانى أن يبعده عن مصر ، فظل محمد على وراءه حتى الغى نقله الى سالونيك وجدد له الحكم فى مصر ، ولا شك ان الظروف الدولية خدمت محمد على ، حيث ان عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٦ من العوامل الحاسمة فى التاريخ العالمى ، ففيهما بلغت قوة الامبراطور نابليون ذروتها فى أعقاب انتصاراته الكبرى على قوى البر الأوربية (الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبروسيا وروسيا) ، وانقلبت موازين السياسة العثمانية ، فاذا السلطان العثمانى ينفض يده من انجلترا — عدو فرنسا اللدود — ويسعى الى التقرب من الامبراطور نابوليون لعل الدولة العثمانية تستطيع أن تسترد شيئا مما فقدته على يد روسيا عدوة الدولة العثمانية اللدود .

ولم تلبث مصر — التى جلا عنها الانجليز فى ١٨٠٣ — أن أصبحت هدفا لانجلترا للضغط على الدولة العثمانية حتى تضطر الى فصم عرى الروابط مع فرنسا . فبعثت بحملة محدودة الى مصر بقيادة فريزر ، فعرفت باسمه فى التاريخ المصرى . وكان من بين أهداف هذه الحملة ان يتعاون معها المماليك فى السيطرة على البلاد .

وكان هناك قسم من المماليك أيقن أنه لن يستطيع استرداد ما كان لهم من حكم الا بدعم أجنبى ، وكان على رأس المنفذين لهذه السياسة محمد بك الألفى ، وكان الرجل قد رحل من قبل الى انجلترا ، وشاهد هناك مدى التقدم الحضارى ورأى فى عودة القوة العسكرية الانجليزية الى مصر فرصته فى أن يزيح ذلك الوالى الجديد (محمد على) ويحكم مصر بدلا عنه .

ولم يكن الانجليز يسعون الى احتلال البلاد والاستقرار فيها ، ولكن كانوا يسعون أساسا الى اقامة حكم فى مصر يدور فى فلكهم ولا يخضع — ان أمكن — للسلطان العثمانى . لقد راهن الانجليز على حصان عجوز ، ولكن لم يكن أمامهم حينذاك من يتحالفون معه خير منهم ، من وجهة نظرهم . فقد كان محمد على — فى نظرهم — رجل السلطان فى مصر ، ولا سبيل الى كسبه ، فضلا

عن أن محمــد على كان فى صراع دءوى مع القوى المملوكية العســكرية المناهضــة له . وكان على الانجليز أن يســتقروا على حليف فى داخل أرض مصر ، اذ كانت قوتهم — كما ســبق أن ذكرت — محدودة لا تهدف الى احتلال كامل البلاد .

كانت الظروف عنــدما نزلت حملة فريزر على ســواحل مصر الشــمالية فى ١٨٠٧ تبــدو مواتيــة للانجليز ولمحمد بك الالفى ، اذ كانت لدى محمــد على قوة عســكرية محدودة يقاتل بها خصومه المــاليك فى الوجه القبلى . فهاجمت الحملة الاســكندرية ، وكانت حينذاك لا تزال تحت ادارة عثمانية .

ونلاحظ ان الاســكندرية فى هذه الحالة لم تبــد مقــاومة تذكر ، واستسلمت المدينة للغزاة الجدد . ولو قارنا بين مقــاومة أهــل الاسكندرية — بقيــادة محمد كريــم — ضــد الحملة الفرنســية بقيــادة نابوليــون بونابرت ، بمقــاومتها لحملة فريزر لوجدنا أنه رغم ضعف مقاومة الاســكندرية للحملة الفرنســية فانه شــتان بين الحالتين . لقد ســلم الحاكم العثمانى المدينة والميناء للانجليز بسهولة وآثر الســلامة ، وغادر البلاد من بعد . فكان ذلك آخر مظهر من مظاهر الوجود العثمانى الادارى المباشر فى مصر ، ولم تعــد الاســكندرية منذ ذلك التاريخ ذات كيان خاص ولم يعد وجه الاســكندرية الى خارج مصر (١) ، وانما أصبحت بمثابة العاصمة الثانية او المدينة الثانية للبلاد .

زحفت القوات الانجليزية لاحتــلال رشــيد ، وتقدمت دون مقــاومة تذكر ، واقتربت من مشــارف المدينة دون أن تلوح لهم مظــاهر الاســتعداد للمقاومة ، وبــدا لهم أن المدينة ستســقط فى يــدهم بنفس الســهولة التى ســقطت بهــا الاســكندرية .

وتدفقت القوات الانجليزية على المدينــة ، بل واســتعدت لاخــذ قســط من الراحة ، ولكن لا يكاد يمر وقت قصــير حتى انطلق المصريون فى هجوم شامل ، منظم فى نواح ، وانفعالى فى نواح أخرى ، وسرعان ما تحولت رشــيد الى حــرب شــوارع طاحنة .

لقد تجنب الأهالى الاصطدام فى حرب مكشــوفة مع قوات منظمــة عاليــة التســليح جــدا بالنســبة لهم ، نظرا لما كان يتمتــع به الايجليز من كثافة نيران

(١) Alexandria ad Aegyptum

عاليــة ، ومدفعيــة لا يملك مثيلهــا أهل البلاد . ولقد أفقدت حرب الشــوارع الانجليز مميزاتهم القتالية عندما انقض الأهــالى عليهم من كل نافذة أو باب يكمن وراءه مقــاتل أو مقاتلة . ونزلت الهزيمــة العســكرية بالقوة الانجليزية . فكانت واحدة من الهزائم القليلة التى منيت بهــا القوات الانجليزية خلال عهد الحــروب النابوليونيــة .

وقد لا نكون مبالغين حين نقارن بين معركة رشــيد هذه ومعركة ستالينجراد ففى كل منهما منى الغــازى المعتــدى بهزيمــة مريرة فى حرب شــوارع دموية ، انتصرت فيهــا الروح القتاليــة الوطنيــة على جيش احتلال شديد البأس .

وحرب الشــوارع فى مدينــة رشــيد ، هى الأولى فى الشرق العــربى بين أهل البلاد وجيش الغــزاة قبل أن يســتقروا فيهــا ، وهى من هذه الناحيــة تختلف عن ثورتى القــاهرة الأولى والثانيــة .

وبعد ذلك الانتصار فى رشــيد ، تجمعت قوى البلاد الشــعبية والحــكومية لمواجهة المعتدين وتفوقت عليهم فى معركة (الحماد) . واصيب أعوان الانجليز من المماليك بصدمة قاصمة . وعبر عنهــا المؤرخ المصرى المشــهور على لسان محمد بك الألفى أبلغ تعبير مؤثر حــين كتب مســجلا آخر كلمــات الألفى وهو يحتضر احتضــار عهــد المماليك نفســه (١) .

وحيث أن هدف انجلترا من وراء تلك الحملة كان اقامة نظــام حكم فى مصر يســتمد قوته من الانجليز وبالتالى يدور فى اتجــاه عجلة الامبراطورية الانجليزية ، وحيث أن هذا الهدف أصبح بعيد المنال ، فقد آثر الانجليز الانســحاب من مصر .

ان قيمة هذه الانتصارات التى حققتهــا الشــعب المصرى فى أكثر من مواجهة ومعركة ترجع الى أن صانع النصر هو « جمهور مصر » ، وهــذه نقلة لها دلالتها فلقد أصبح الذود عن تراب الوطن عقيــدة تترســخ فى النفوس ، بعد أن كان أمر القتال والحرب حكرا على صنف معين من غير المصريين . ورفع المصرى ســلاحه التافه دفاعا عن وطنه . وانطلقت جموع المقاتلين من القاهرة الى شمال الدلتــا للمشــاركة فى القتــال دون انتظــار لأوامر الحاكم .

ولا شــك لدينــا أن واحــدا من عوامل هذا التحــرك القتــالى هو الرؤية

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

المصرية الاسلامية التقليدية لعدوان الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى ، وهى الرؤية الصليبية . ومع ان الفكر الصليبى لم يكن فى مخططات الانجليز ، الا ان الأهداف البعيدة للعدوان الغربى تضمر فيما تضمره تدمير العقيدة الاسلامية بطريقة او باخرى ، ولسبب او لآخر .

رفعت تلك الانتصارات من مكانة محمد على لدى سلطات الأستانة ، وعمت الفرحة البلاد ، ومع أن انعكاسات ذلك الانتصار فى الداخل كانت منطقية فيما يتعلق بالمماليك ، كانت غير عادلة بالنسبة للزعامة الشعبية .

فمحمد على كان قد قرر أن ينفرد بالحكم ، ولا يطيق أن يقبل قيدا على نفسه حتى ولو كان القيد هو زعامات مصر الوطنية المنتصرة على قوى العدوان . فمحمد على راى ان ذلك التفوق الذى حققه زعماء الشعب يعنى انهم قد يتمكنون من ان يصبحوا ليس فقط قوة قيادية بل قوة ضاربة ، ولهذا السبب ولأسباب اخرى قرر محمد على تصفية الزعامة الشعبية ففرق بين هذه الزعامات ، واستخدم العلماء ضد بعضهم البعض ، ثم نفى اقواهم وهو عمر مكرم (١) .

كانت الضربة التى وجهها محمد على الى الزعامة الشعبية بمثابة الضربة الأولى التى وجهها للنظام القديم ، وكانت الضربة الثانية موجهة الى المماليك .

كانت تجربة محمد على — منذ أن تولى الحكم — مريرة مع المماليك ، صراعات ، ومؤامرات ، وفتن ، ومحمد على يريد الاستقرار فضلا عن الانفراد بالحكم . وتبين لمحمد على خلال تلك التجربة ان لا جدوى من اقناع المماليك بالتعاون الجدى معه ، ولا جدوى من وراء اقناعهم بتطوير أنفسهم بما يتلاءم مع متطلبات العصر الحديث . وبمرور الوقت اخذ محمد على يقتنع اكثر فأكثر ان لا انقاذ لمصر من وهدتها ولا سبيل الى الانطلاق نحو عالم حديث الا اذا اجتث النظام المملوكى من جذوره ، وذلك بعد أن فشلت مختلف الأساليب التقليدية لترويضهم . فقد فشلت المؤامرات والصدامات العسكرية فى القضاء على قدراتهم على اثارة الفتن والفوضى . بل لقد أصبح هؤلاء المماليك على مقدرة خطرة فى الاتصال بالدول الكبرى المتنافسة والعمل على كسب هذه

---

(١) سنتناول العلماء والمشايخ الأعيان بنوع من التفصيل فيما بعد .

أو تلك الى جانبهم ، ولقد كان على محمد على ان يجد طريقـا آخر لتوجيه ضربة لا تقوم لهم من بعـدها قائمـة .

اما وقد قويت مكانة محمـد على لدى السـلطان العثمـانى بعـد خـروج حملة فريزر من مصر ، وساءت سـمعة المماليك بسـبب تعـاون بعضهم مـع الغـزاة الانجليز (أعـداء الدين والدولة) ، واسـند السـلطان العثمـانى الى محمد على مهمـة توجيه ضربة رادعة ضـد الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ، فان الظروف على هذا النحو قد تهيأت لتوجيـه ضربته للمماليك . بل ربمـا كان الوقت لا يسـمح حينذاك الا بتوجيه هذه الضربة .

فمحمد عـلى — وقـد لبى نداء السـلطان لارسـال حملة ضـد الحـركة الوهابية فى الجزيرة العربيـة — لا يمكن ان يقـدم على ارسـال قواته الى هنالك الا بعـد أن يطمئن على عـدم قـدرة المـماليك فى مصر على التحـرك ضـده او القيـام بحركة تطعنه من الخلف . ووصـل محمـد على الى قـراره النهـائى ، وهو ان هذا التشـكيل الاجتماعى المملوكى يجب ان يصفى نهائيـا ، فدبر ما عرف باسـم « مذبحة القلعة » الشـهيرة فى ١٨١١ فقضى عـلى الغالبيـة العظمى من رءوس المـماليك ، وطارد بقيتهم ممن كان فى الوادى قتـلا وتمزيقـا حتى لم يتبق منهم فى مصر الا النادر وفرت البقية الباقية من المماليك الى خارج البـلاد ، فكان ذلك نهايتهم ولم تقم لهم من بعد قائمة .

كانت ضربتا محمد على حاسـمة للزعامة الشـعبية وللمـماليك للانفـراد بصناعة القـرار السـياسى ، وكان أيضـا يسـعى الى الانفـراد بالتحـكم فى مختلف جوانب الاقتصـاد المصرى . وكان نظـام الالتزام — المطبـق فى عهـد المماليك — يجعل من الملتزم واسـطة بين محمـد على والفـلاح المنتج .. الأمـر الذى يحـول دون احـداث تغيير جوهـرى فى الانتـاج ، ويحـول دون القيـام بمشروعـات عـامة ..

فلماذا تذهب كثرة من الأموال الى جيوب الملتزمين ضيقى الأفق والامكانيات ؟ ولماذا لا تكون هناك خزانة موحدة تصب فيهـا كافة فوائض الانتـاج ليتصرف فيهـا ؟ ذلك سـؤال طرحه محمد على .

فلقد كان الملتزم حينذاك يلتزم قطعة من الأرض ، يدفع عنهـا مبلغا سـنويا الى الحـاكم ، وكان همـه الأول ليس جمـع المـال فقط الـذى ارتبط به مـع

الحكومة ولكن أيضا الحصول على أكبر قدر من الأموال ليختص هو بنصيب كبير على حساب الفلاح وعلى حساب الدولة فى آن واحد .

وكانت الغالبية العظمى من الملتزمين من :

١ — المماليك .

٢ — المشايخ .

٣ — موظفى دوائر الحكومة .

٤ — مشايخ البدو .

٥ — اعيان البلاد .

وكان الالتزام غير وراثى ، ولا يستقر فيه صاحبه لمدد طويلة ، الأمر الذى لا يعطى الفرصة للتطوير والتنمية . وفوق هذا وذاك اصبح نظام الالتزام لا يتمشى مع التطورات الاقتصادية العالمية ومن ثم كان ينتظر من يجهز عليه . وحيث أن النظام الملوكى كان هو السند القوى لنظام الالتزام ، فقد كانت الضربة التى وجهت الى المماليك بمثابة المقدمة المنطقية للاجهاز كذلك على الالتزام . فقد وضع محمد على يده على التزامات المماليك ، واتبع سياسة ذكية لرفع يد الملتزمين عما تحت يدهم .

لجأ محمد على الى اساليب ملتوية احيانا ، واحيانا أخرى الى استخدام اساليب مباشرة ليرغم الملتزمين على ترك التزاماتهم . ومن ذلك انه طلب من الملتزمين أن يحددوا قيمة دخولهم من التزاماتهم ، فخشى هؤلاء من أن يكون وراء ذلك اعادة النظر فيما يدفعونه ، وكان من المعروف حينذاك ان محمد على — مثله مثل اى حاكم — يسعى الى زيادة موارده . ولذلك قدم الملتزمون بيانات غير حقيقية ليثبتوا لمحمد على ان « فائض الالتزام » لا يقيم أودهم . وأنهم يتحملون مسئوليات اقتصادية واجتماعية متعددة الجوانب مكلفة .

فانتهز محمد على هذه الفرصة وسحب منهم الالتزامات ، ووعدهم بتقديم تعويضات مقابل ذلك ، ولكن محمد على لم يلبث أن تخلص حتى من دفع المعاشات المحدودة التى وعدهم بها ، وخلصت ارض مصر لمحمد على ، واصبح هو بمثابة المالك الوحيد الحقيقى لأرض مصر .

ماذا كان صدى الغاء الالتزام ؟ لقد قدم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورا معاصرة لذلك الاجراء ونتائجه . ولكن يجدر بنا أن نحذر كل الحذر من أن نأخذ ما كتبه دون تمحيص حيث ان هذا المؤرخ كان شديد النقد لمحمد على واعماله متحيزا ضده ، ميالا الى المماليك . ومع ذلك فمن رواياته ما يعد شهادة على عصره ، وذلك حين قال ان الفلاح المصرى شعر انه مقبل على عصر جديد ، عهد خلا من الملتزمين ، وبالتالى ابتعاد شبح المظالم عنه . فعلى حد قول الجبرتى كان الفلاح ......

« ... اذا دعى للشغل باجرته (يقول للملتزم) روح انظر غيرى ، انا مشغول فى شغلى ، انتم ايش بقالكم في البلاد ، احنا صرنا فلاحين الباشا » (١) .

عمد محمد على الى توزيع ارض مصر الزراعية على الفلاح وعلى اسرته وعلى كبار رجال الدولة . وزعرسا على الفلاحين لا لتكون ملكا لهم ، ولكن ليفلحوها لصالح خزينة الباشا . وكانت توزع المساحات على الفلاحين بمعدل اربعة الى خمسة افدنة للاسرة ، وحددت لهم المحاصيل التى يزرعونها واساليب الزراعة ، ولا يبيعون محاصيلهم الا للحكومة وبالاسعار التى تحددها ، ومعنى هذا ان الفلاح لم يعد حرا فى زراعة ارضه فضلا انه كان ممنوعا من التصرف فيها ، وليس لهم حق توريثها .

ولكن اذا كان الغاء الالتزام قد جعل من محمد على المالك الوحيد لأرض مصر ، فقد ادى توزيع الأرض على الفلاحين الى نوع من استقرار الاسرة فى قطعة ارض معينة نادرا ما كانت تنتزع منها او تنقل الى غيرها .

هل تعتبر تلك الخطوة التى اقدم عليها محمد على بتوزيع الأراضى على الفلاحين ارهاصا لتطور مفهوم حق الانتفاع الى حق الرقبة ؟ .

تعرض لهذه المسألة الدكتور حسين خلاف فى كتابه التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث (١) ، وذلك حين قال عن موقف بعض المؤرخين من هذا الموضوع :

« .... ويضيفون أن موقف محمد على من الملكية الزراعية يعتبر على أية

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .
(٢) د . حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

حال تمهيداً لما جرى فيما بعد من اقرار للملكية الخاصة ، اذ قضى هذا الوالى على طبقة الملاك والملتزمين ، وهى التى كانت تقف وسيطا بين ولى الأمر والفلاحين ، كما انه ثبت الفلاحين فيما كان فى ايديهم وزادهم على توالى الزمن حقوقا فى اراضيهم » (١) ...

ويدعم هذه الفكرة قول احد الأجانب المعاصرين لعهد محمد على حين يقول :

« انه على الرغم من أن ملكية الأرض معتبرة من حق صاحب السلطان ، فانى لا أعرف حالات طرد فيها الفلاحون من أراضيهم ، ما داموا يؤدون الضرائب المفروضة عليهم بانتظام . وكثيراً ما كانت الأرض تنتقل من يد الى اخرى ، ويسجل النقل فى المحكمة لقاء مبلغ يزيد كثيرا على قيمة ضريبة الأرض المقررة ، وعلى ذلك فقد نشأ نوع من حق الملكية المكتسب » .

ومن ثم ، يمكن القول ان اجراءات محمد على تلك كانت بمثابة ارهاص مبكر جدا لمسيرة تؤدى الى تكوين مفهوم ما للكية الفلاح للأرض ، وان استقرار الفلاح فى أرض على ذلك النحو كان بمثابة بداية لمرحلة انتقالية من مفهوم حق انتفاع الى حق الرقبة .

على ان الظروف اضطرت محمد على الى تطبيق نظام عرف باسم « نظام العهدة » . فقد اتبع محمد على سياسة خارجية نشطة كل النشاط وخاض غمار حروب كثيرة فى شبه الجزيرة العربية وفى السودان والشام وكريت واليونان والاناضول ، وفقدت مصر خلال ذلك أعدادا كبيرة من زهرة شباب الفلاحين ، كما استوعبت الصناعة الحديثة ومشروعات شق الترع وغيرها عددا كبيرا من الأيدى العاملة فى الوقت الذى كان فيه النمو السكانى لا يغطى حاجة عمليات بناء الدولة الحديثة الى الايدى العاملة ، وانتشرت ظاهرة تناقص عدد سكان القرى ، بينما كان محمد على فى حاجة الى تزويد خزانته بواردات مالية متزايدة ، فابتدع « نظام العهدة » ، ويقضى بأن يقوم المسئول عن « العهدة » بجمع الضرائب المفروضة على أرض العهدة . ويختلف هذا النظام عن نظام الالتزام من حيث أن المتعهد كان

---

(١) المصدر السابق ، هامش ص ٩٥ .

يجمع الضريبة ، دون ان يحصل على زيادة (١) ، ومن حيث انه اسهم فى نمو عـدد كبـار الملاك فيما بعد .

كانت لا تزال تحت يـد محمـد على مساحات شاسعة من الأراضى الزراعيـة غير المستغلة كشفتها عمليات المسح التى قام بهـا ، فضلا عن مسـاحات اخـرى كبيرة فى قلب الوادي المنتج يستطيع ان يتصرف فيها . ولذلك شرع فى توزيع بعض هذه المساحات على كبار موظفيه ومعاونيه اختارها لهم فى الأراضى التى تحتـاج الى استصلاح ، حتى يمكنهم من بذل اقصى الجهد فى سبيلها واعفاهم من الضرائب حتى يحولوها الى اراضى منتجة . وعرفت هذه بالابعديات ، وكانت تمنح فى أول الأمـر مدى الحياة فقط ، ثم اعطى اصحابها من بعد حق نقلها الى الابن الأكبر حتى صـدر قـرار فى ١٨٤٦ الذى اعطى لاصـحاب الابعـديات حق التصرف بالرهن والبيـع ، وبالتالى اصبحت ملكية وراثية .

كذلك وزع محمد على على افراد اسرته مساحات واسعة من الأراضى الزراعية، ولكنه اختارها من الأراضى الزراعية الجيدة الانتاج ، وعرفت باسـم الجفـالك (٢) الامر الذى حول افراد اسرة محمد على الى كبار الملاك حتى لقـد بلغت مسـاحة الأرض الزراعية التابعـة لهم فى مطلع القرن العشرين الى حوالى سـدس ارض مصر الزراعيـة .

وايـا كان الأمر ، فقد ادت تلك الاجراءات ، فضلا عن الاصلاحات التى قـام بها محمد على الى احداث نقلة فى الانتاج الزراعى المصرى ، وان ظـل الفلاح مثقلا باعباء ارهقته كل الارهاق .

---

(١) يتضح ذلك فى عهـد الخديو اسـماعيل عندما فرض « نظـام المقـابلة » (١٨٧١) الذى اعطى حق الملكية لمن يدفع ضريبة ست سنوات مقدما .

(٢) مفردها شفتلك (جفتلك) .

الفصل الثانى

الفـــــــــلاح

حرمت الحكومة على الفلاح أن يبيع شيئا من انتاجه الزراعى من الحبوب والا وقع تحت طائلة العقاب ، وللتأكد من ذلك كان رجال الحكومة « يكبسون » بيوت الفلاحين ، وهنا تقع الطامة وهى أن أولئك الرجال كانوا لا يفرقون بين خزين الفلاح من حقه فى الحبوب التى أنتجها التى يطعم أسرته منه وبين الحبوب الممنوع بيعهما (٥)

كانت الحكومة تشترى من الفلاح انتاجه من المحاصيل التى حددتها وكان ثمن الشراء تحدده الحكومة بنفسها ، وكان ثمن بيعه بواسطتها كبيرا الأمر الذى يجعلنا نقول ان حضارة مصر الحديثة التى نشطت ابتداء من عهد محمد على انما كانت بعرق الفلاح المصرى .

ان سياسة الاحتكار هذه لم تكن وقفا على المحصولات الزراعية المخصصة للتصدير ، وانما امتد هذا النظام الاقتصادى الى المحاصيل التى تسوق محليا والتى كانت ضرورية لسد حاجات الشعب الغذائية . حقيقة كانت هذه الحاجات محدودة حينذاك ، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار بشكل جعل الحياة مرهقة الا بالنسبة للفئات الغنية أو ذات الدخل العالى .

ولقد قارن احد المؤرخين المصريين بين حال الفلاح قبل وبعد تطبيق نظام الاحتكار فقال :

« وقد أثر نظام الاحتكار على القطاع الزراعى من السكان من عدة نواح . فمن ناحية حرم الزراع من أى حافز لتحسين أحوالهم فهو قد جردهم من كل مبادرة وحرمهم تماما من الفوائد التى كان بمقدورهم أن يجنوها من الفرص التجارية التى توافرت فى عهده (محمد على) ثم سحقهم فى النهاية بالضرائب الباهظة وكان محمد على فى ذلك يختلف إختلافا تاما عن حكومة المماليك التى كانت باستمرار تترك

شئون الزراعة للفلاحين وحدهم ، كما انه بتطبيقه لنظام الاحتكار وضع الفلاحين وجها لوجه أمام البيروقراطية الحكومية . ففى زمن المماليك كان مشايخ القرى والملتزمين وحدهم هم الذين يتعاملون مع الطبقة الحاكمة ، بينما كان المزارعون يتمتعون بما يكاد يكون استقلالا تاما داخل قراهم ، ويحتمون وراء ما أقرته العادات ، من خلال ذلك تحققت لهم حماية مصالحهم ، اما البيروقراطية فى عهد محمد على ، فقد تجاهلت الأساليب المعتادة وأرهبت الفلاحين ، وكانت النتيجة هى البؤس والحرمان اللذان حلا بسكان مصر الزراعيين » (١) .

ولقد كان من نتائج سياسة الاحتكار — من وجهة نظر بعض الأوربيين — تذهب الى « أن افقار الفلاحين على هذا النحو يعود بالضرر على الحكومة نفسها اذ يتأخر فى دفع ما عليه من ضرائب ويهمل ارضه ثم يهجرها ، هذا الى أن النقص فى ايرادات الخزينة انما هو نتيجة مباشرة لتدهور زراعة الأرض » (٢) .

كانت القرية المصرية تمثل وحدة اقتصادية مظهرية ، فهى وحدة تقوم على اساس خدمة مصالح الحكومة (حكومة محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) اكثر منها لخدمة مصالح الريف بصفة خاصة أو الشعب كله بصفة عامة ، فقد كانت القرية ككل مسئولة عن دفع الضريبة المقررة عليها ، وكانت الأراضى على المشاع ، حقيقة لم يكن ذلك سائدا فى كل البلاد المصرية ، ولكنه كان نظاما سائدا تقريبا فى جنوب مصر فى الصعيد بصفة خاصة . وكانت الأراضى الزراعية توزع من وقت لآخر على الفلاحين دون أن توزع الضريبة على عدد الافدنة المنزرعة أو على عدد الاسرات أو الرجال القائمين على العمل الزراعى ، وانما كانت تربط على القرية وعلى المستقرين فى القرية ان يدفعوها بغض النظر من اية تطورات اجتماعية أو اقتصادية الا فى الحالات الصارخة .

هذه المسئولية الجماعية فى دفع الضريبة المربوطة على القرية كانت تتمشى الى حد كبير مع مفهوم (المشاع) فى عملية الانتاج فى زمام القرية حيث ان المفروض حينذاك ان يقوم الفلاحون بالزراعة لتسديد الضريبة بغض النظر عن الحالات الكثيرة التى تؤدى الى خروج الفلاحين من القرية . ولقد كانت المغادرة كثيرة فى

---

(١) د . أحمد عبد الرحمن مصطفى / الفلاح والأرض فى عصر محمد على ، محاضرة القيت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى ٢٥ يناير ١٩٧١ ، ص ٢٦٨

(٢) تقارير باورنج .. ، عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠٣ .

القرى منها ما هو برغبة الفلاحين انفسهم ومنها ما هو تنفيذا الأوامر الحكومة . لقد كانت مسئولية القرية فى دفع الضريبة تفرض على المستقرين فى القرية دفعها ، وبالتالى كانت الاعباء الضرائبية تزداد على كاهل هؤلاء المستقرين كلما زادت معدلات خروج الرجال من القرية لسبب أو آخر .

بل لقد بلغ الأمر فى هذا الصدد أن الوفيات لم تقلل من نسبة الضريبة المربوطة ، وانما كان على القائمين فى القرية أن يدفعوا نفس الضريبة المقررة بغض النظر عمن توفى من أهلها .

فاذا اخذنا فى الاعتبار أن الاوبئة كانت تنقض على القرى من وقت لآخر بحيث ترتفع نسبة الوفيات بشكل ملحوظ ، وان أعمال السخرة ، والجيش استوعبت اعدادا كبيرة من الرجال العاملين فى الزراعة ، اذا اخذنا فى الاعتبار هذين الأمرين تبين لنا كم كانت الاعباء تتضخم على كاهل المستقرين فى القرية القائمين على الزراعة بأساليبهم التقليدية وتنفيذا الأوامر الحكومة .

ان مثل هذه الاوضاع كفيلة بأن تجعل حياة الفلاح تعسة الى حد كبير ؛ وهى حياة تزين له بمرور الوقت فكرة مغادرة القرية الى المدينة أو الى أية جهة بعيدة عن قريته ، واحيانا كانت جماعات الفلاحين تهاجر الى الشام الأمر الذى سبب لمحمد على متاعب كثيرة .

واسلوب آخر لجأ اليه الفلاح المصرى لتخليص نفسه من الاعباء المتزايدة عليه ظلما وهى تفضيل العمل فى الابعديات والجفالك التى كان يمنحها محمد على لافراد أسرته وكبار الموظفين وقادة الجيش ، حيث كان يلقى حماية صاحبها من ناحية ويتخلص فى نفس الوقت من اعباء السخرة .

أما قسوة الأموال التى كانت تفرض فجأة على القرى فان الفقرة التالية تكشف لنا مدى قسوتها :

« ... الفرد (١) (متوالية) على القرى .. حتى خربت القرى وانتقر اهلها ورحلوا عنها فكان يجتمع أهل عدد من القرى فى قرية واحدة بعيدة عنهم ثم يلحقها

---

(١) الفردة : مبلغ من المال يفرضه الوالى فرضا على قرية أو ملاك .

وبالهم فتخرب كذلك واما غالب بلاد السواحل هربت أهلها وهدموا دورها ومساجدها » (١) .

كانت المشكلة الحقيقية التى تواجه مصر حكومة وشعبا هى أن دافعى الضرائب فى مصر كانوا يقدمون أموالا للخزانة تعادل ما يدفعه الانجليز لحكومتهم من ضرائب وضعف ما يدفعه الفرنسيون وأربعة أمثال ما كان يدفعه الأسبان (٢) . ولكن شتان بين مستوى الفلاح الأوروبى والمصرى .

هذا فضلا عن السخرة التى كان يتعرض لها الفلاح فى عهد محمد على بل ومن بعده .

وفيما يلى نص يتحدث عن كثافة أعداد الرجال المستخدمين فى السخرة فى فترة محدودة :

« لما كانت الترع الثلاث التى يراد حفرها فى أطراف القناطر الخيرية مصمما على اتمام نصف اشغالها فى هذه السنة اقتضى الحال لاجراء عملية حفرها جلب ١٨٢٠٧٧ شخصا وقد وجب توزيعهم على المديريات بموجب دفاتر تعداد النفوس . ولما كانت مديريات الاقاليم الوسطى والوجه القبلى فيها اشغال ضرورية من ترع وجسور وغير ذلك فى هذه السنة ، وقد اشتغلت اهاليها بتلك الاشغال المذكورة لزم جمع الأشخاص المطلوبة من مديريات البحيرة واستقر رأى مجلس العموم على ذلك فى عمل الحفر ابتداء من ١٥ جمادى الثانى من هذه السنة (١٢٦٤ هـ) ».

ومن هذه يتبين لنا أن أعداد العمال — ومعظمهم كان يجلب من الارياف — كانت كبيرة جدا وتتضح خطورة ذلك اذا وضعنا فى الاعتبار أن أقصى عدد لسكان مصر حينذاك هو ٥ خمسة ملايين نسمة فان نسبة المستخدمين رسميا فى السخرة كانت نسبة رهيبة . حقيقة لم تكن هذه النسبة تطبق باستمرار على هذا النحو المريع ولكن الحقيقة التى يمكن أن نستخلصها من الوثائق فى عهد محمد على هى أن أعدادا كبيرة من رجال وشباب مصر كانت تساق سوقا الى السخرة سواء فى أعمال الحكومة الكبرى أو فى اعمال على مقربة من القرية أو المديرية (*)

---

(١) الجبرتى : عجائب ، جـ ٤ ، ص ٦٥ (جمادى الأول ١٢٢٢ هـ) .
ومحمود سامى ، تقويم النيل ، جـ ٢ ، ص ٥٦٣ — ٥٦٤ .
(٢) من تقرير باورنيج نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٤٦٩ .

ماذا كانت رؤية المراقبين الاوربيين لأحوال الفلاح المصرى ؟ ان هذه الرؤية مهمة لنا لأن على أساسها كان الأوربيون يضعون سياساتهم ازاء مصر .

فيرى احدهم .

« أن أبناء العرب وهم الجمهرة العظمى من السكان يعاملون على أنهم قوم حلت بهم الهزيمة وليس ثمة سوى عمل واحد يطالبون بادائه وهو خدمة الأرض وزراعتها ، أما الوظائف والسلطان فمن نصيب شعبين غريبين عن مصر هما الترك والمماليك ، ولا يطلق الاسم الاخير الا على الارقاء البيض الذين جيء بهم الى هذه البلد ...(١) وفى ظل الترك والمماليك وهما الطائفتان اللتان تسيطران على البلاد اصبح ابناء العرب وهم أول من غزا مصر من المسلمين الطبقة المسودة اذ قلب لهم الحظ ظهر المجن على نحو لم يسبق له مثيل . وقد تم هذا التغيير فى غير عنف ودون أن يحدث ما يسترعى الانظار اليه ، وربما كان من المستطاع تبرير ذلك بما طبعوا عليه من صفات خاصة وليس ذلك راجعا الى أن تعوزهم صفات الذكاء وسمو الخلق . فقد حبتهم الطبيعة من هذه الصفات بما جعلهم امة تأسر محبتها القلوب الى اقصى الحدود .

فاذا نظرنا اليهم بوصفهم أفرادا فان تفوق ابن العرب على التركى قد يكون ظاهرة ملحوظة ، غير أننا اذا تصدينا للحكم على امة من الامم لا يعول عند ذلك على المزايا الفردية وانما يكون المعول على اتحاد الاهالى وعلى الروح العامة وعلى الاستعداد للسيطرة أو الخضوع . واذا كان الوضع على هذا النحو فمن الواجب أن نعترف بأن أبناء العرب أدنى مرتبة من غيرهم (٢) .

وفى نص تقرير بورنج دراسة عن « أخلاق المصريين ، وبطبيعة الحال فان التقرير يعكس رؤية أجنبية للفلاح المصرى كانت توضع على أساسها سياسات المسئولين فى انجلترا وأهدافهم الاقتصادية والاجتماعية ، جاء فى هذا التقرير :

« .... ليس هناك من يضارع فلاحى وادى النيل فى الصبر على طول الاذى ، والخضوع لذوى السلطان ، والبشر عند الشدائد ، و ... روحهم المرحة وابتهاجهم على الدوام . فما يبدو على الرجال وهم مصفدون بأثقل الأغلال خلال

(١) نقلا عن فؤاد شكرى ، بناء دولة ، ص ٢٣٧ .
(٢) نقلا عن فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ٢٤٠ .

قيامهم بالاشغال العامة ، انهم اقل ابتساما من اى زميل لهم مهما آذتهم تلك الاغلال التى تهرأ منهم اللحم حتى تبلغ العظم ، والغناء والموسيقى يلازمان العمل مهما شق . وقد ترى الجموع السوط فى يد من يشرف عليها ، وهو يلهب به ظهور العمال فى غالب الاحيان ومع ذلك فان الغناء لا ينقطع والروح المعنوية لا يعتورها الوهن على الاطلاق . ومن العسير أن يجد الانسان وسط هذا الجمهور فردا تلازمه الكآبة وانكسار الخاطر ، فهذه الروح المرحة التى تتقبل المصائب على انها أمر لا محيص عنه ، لا يستطيع شخص أن يحد منها أو يقضى عليها ، بل أنها لتثبت فى الوقت نفسه بكل ما تبدو عليه مسحة البهجة أو السرور ، سواء كان ذلك حقيقة أم خيالا ، على أن الموت نفسه يقترن فى مصر بمظاهر الابتهاج ، اذ تسير المواكب فى خطا سريعة كأنها مواكب النصر ، وتنطلق الصيحات وتعزف الموسيقى على نحو لا يمت الى الحزن بسبب .. » .

« وهذا الشعب الذى طالما تالق نجمه خلال تاريخه الزاهر ما يزال محتفظا بحماسته وحبه لكل ما يثير الاعجاب ، وربما لما يستمتع به من خيال خصب وما يزال حتى اليوم يفيض حيوية وظرفا وميلا الى الفنون والشعر . هذا الى انه شعب باسل يستثير التنافس غيرته ، لبق قانع ، قدير على احتمال النصب والجهد .

أما من حيث المزاج فهو على نقيض الأتراك فالمرء حين يرى أبناء العرب فى مرح دائم والترك تبدو عليهم سيما الجهد والاكتئاب لا يسعه الا أن يتساءل أى الشعبين احسن حظا واتعس حالا أهو الشعب الظالم أم الشعب المظلوم . ومرد ذلك كله الى طبيعة ابن العرب ، وهذه الطبيعة التى تعينه على الرضا بحالته البائسة هى نفسها التى تحول دون خروجه من هذه الحالة ، ذلك لأن ابناء العرب شعب خفيف الروح يعنى بتوافه الأمور لا يثبت على رأى ، ثرثار لا يعمل شيئا قبل أن يعد له الف مرة ، مولع بالقصص والنوادر ، سريع التصديق مرهف الحس والتفكير حتى ليفوته ادراك الرأى السديد ، حجم النشاط ولكن فى غير المراد أو ثبات ، لا يدرك معنى الشرف أو الوطنية يجيد المحاكاة ولكنه يميل الى الاعتماد على ذاكرته أكثر من الاعتماد على عقله . ولهذا كان سريع الحفظ سريع النسيان ، وهو شعب يشبه الترك وجميع الشعوب الاسلامية فى انه لا يشغل باله بالتفكير فى المستقبل فاذا كانت عبارة من العبادات تستطيع فى بعض الأحيان أن تصور اخلاق شعب من الشعوب فان ثمة عبارة لا ينقطع ترديدها على أفواه أبناء العرب جميعا

وهى : « بكره ان عشنا وكان لنا عمر » وقد غرست فيهم حالة العبودية التى كانوا عليها ، رذائل توارثوها ، وهم كذابون منافقون ينكرون الجميل فقد كنت أتحدث فى يوم من الأيام الى « كاشف » — كان قد نجا من مذبحة سبتمبر ١٨١١ — فانحى باللائمة على جميع تصرفات محمد على وعلى نظامه ولكن عندما سألته عن مسلك الباشا ازاء أبناء العرب قال :

اما فى هذه الناحية فهو على حق لأنه لو وضع ثقته فيهم لغدروا به لا محالة » .

فقد جاء فى تقرير البارون بوالكونت (١) :

« وعندما اصبح محمد على مالكا لجميع الأراضى المصرية اخذ يبحث طبيعتها ويتعرف على أحوال سكانها الذين سيستعينون بهم على استثمارها . على أن موارد هؤلاء السكان محدودة ولما كان قد نشأوا فى ظل العبودية وسط اعمال النهب والسلب فانهم لم يستشعروا قط رغبة فى اقتناء ثروة ، ليس لديهم على الاطلاق ما يضمن بقاءها فى حوزتهم ، وكان من اثر قناعتهم ومعيشتهم فى جو معتدل لا يتغير ان اكتفوا بقليل من الحاجات واستساغوا — الى حد كبير — ما هم فيه من ذل واستعباد حتى اصبحوا لا يفكرون فى رفع مستواهم فى الناحية الأدبية . وهكذا كانت تعوزهم الدوافع التى تحفزهم أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الكسل الذى ألفوه ....

فعندما أراد (محمد على) حفر قناة الاسكندرية (٢) أخرج جميع سكان الأقاليم المجاورة من ديارهم وسيقوا الى السهول المحرقة الجرداء تحت وطأة السياط وكان من أثر ذلك أن أتم الفلاحون عملهم فى عشر شهور بعد أن مات منهم اثنا عشر الفا . وقد استطاع فريق آخر من الفلاحين عدته ثمانون الف ، أن يعيد فى خمسة أيام حفر ثمانية فراسخ من الترعة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر (٣) .

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة .
(٢) يقصد قناة المحمودية .
نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد علي ، ص ٢٢١ .

وكان هناك تصور خطير لدى السلطات الحاكمة عن تراخى الفلاح المصرى حدثنا عنه باورنج فيتول (١) :

« قد يكون فى تراخى الفلاحين ما يبرر — الى حد ما — ذلك الاشراف الذى تبسطه الحكومة على الزراعة ، اذ تطالب بزراعة أصناف معينة فى مناطق معينة دون أن تترك للزراع أو المالك الحق فى اختيار المحصول الذى يراه أعود عليه بالفائدة من سواه » .

ولكن باورنج استدرك وقال :

« ان الرغبة فى جمع المال والاحتفاظ به قوية بين الفلاحين ومسيطرة عليهم ، كما هو شأن اية طائفة اخرى من بنى الانسان . ولو صارت حقوق الملكية اكثر تحديدا ، ونالت قسطا أوفر من الاحترام وادخل على الادارة المالية فى مصر شىء من التنسيق لكان من الممكن أن تطمئن كل الاطمئنان الى اهتمام الفلاحين بمصالحهم » (٢) .

ويرى باورنج أن لدى الفلاحين نقائص عديدة :

« التواكل من اظهر خصائصهم ، فكثيرا ما يلتمسون الأعذار حتى لا يؤدوا عملا .. فان لديه كلمة « كده » يقولها فى جميع المناسبات ... شاع (بينهم) ميل الى تأجيل الأعمال ... الى غد أو بعد غد ... (جوابه) بكره أو بعد بكره ذلك أن نشاط المرء من تلقاء نفسه أو باختياره صفة يعز وجودها فى بلاد الشرق (٣) .

ويرى احد الأجانب المراقبين الاحوال مجتمع مصر فى أيام محمد على أن :

« من أهم العوامل التى ادت الى تأخر أبناء العرب ما يشعر به كل منهم نحو الآخر من حسد وغيرة ، ووصف طاغية منهم انما يصدر عن الخوف وليس أدل — على صحة هذا القول — من أنهم أسلس قيادا للترك واطوع لهم عن طيب خاطر مما لو كان سادتهم من أبناء جلدتهم وقد حدث

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠١ .
(٢) تقرير باورنج نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠١ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٦٩ — ٧٠٠ .

فى بعض الجهــات أن بدىء احلال حاكم من ابنــاء العــرب محل الترك ، فاعقب هذا اللون من التجديدات قيــام الاضطرابات على الأثر .

ولمــا كان ابنــاء العــرب لم يشــغلوا حتى الآن ســوى الوظائف الثانوية ســواء اكان ذلك فى الجيش ام فى الادارة ، فان من العســير أن نتنبــأ بما تكون عليه حالهم اذا اســندت اليهم مناصــب رفيعــة « ولمــا كانوا قد رزحــوا قــرونا طويلة تحت وطاة الاســتبداد والجأتهم الضرورة الى ان يصطنعوا الكذب والنفاق ولم يجــدوا أمــام أعينهم مثــلا يحتــذونها ســوى أولئك الذين ظلموهم ، ولمــا كانوا الى جانب ذلــك اشــد تعصــبا من أولئك الظــالمين ، فاكبر الظن أن مصر ما كانت لتفيد شــيئا ، لو أن ابنــاء العرب تولوا حكمهــا بدلا من الأتراك » (١) .

ويرى بعض المراقبين لأحــوال المجتمــع المصرى فى عهــد محمــد على ان اصلاح هذا المجتمــع لا يمكن أن يتم الا بالتوســع فى الخدمات التعليمية فيقول :

« ولقــد ادرك محمــد على ، اكثر ممــا ادرك ســواه ، مــدى افتقــار مصر الى الرجــال القــادرين على ادارة الأعمــال . وكان لهذا الاعتبار بصــفة خاصــة اثر فى جميــع ما اتخــذ من وســائل لنشر التعليم فى البــلاد ، وفى الحــق انــه ليخيــل الى أن احيــاء الشــعوب التى يدب فيها الفســاد ومــا اكثرها الآن فى بلاد الشرق أمــر لا يمكن تحقيقــه الا عن طــريق التعليــم ، ومهما يكن التقــدم الذى يرجوه المرء عن هذا الطريق بطيئا الا انه دائم الأثر ، ومن الواجب أن يكون المقــام الأول للتربيــة والتعليم فى الدول عــامة ومصر خاصة ، كما يجب أن يلقن الصــغار مبادىء الخلــق الكريم ، وان يحــال بين الرذيلة ودور التعليم فى غــير هوادة » (٢) .

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٣٥٨ .
(٢) المصــدر نفســه .

الفصل الثالث

العمال والصناعة فى عهد محمد على

الفئة الثانية المنتجة هى الحرفيون . وكان هؤلاء هم اهل الصناعة على مستوى ذلك العصر ، وكانوا على مستوى متواضع للغاية . وكان الحرفيون يقومون باعمالهم فى رتابة دون تدخل من جانب الحكومة الا فيما يتعلق بجمع الضرائب والاعانات (والفرد) .

حتى اذا ما شرع محمد على فى احداث تغييرات جذرية فى مجال الانتاج الحرفى والصناعى اصبح الحرفيون هدفا من أهدافه ، اذ عمد الى السيطرة سيطرة كاملة على وسائل الانتاج . أو بمعنى آخر ، مثلما اصبح الفلاح فلاح الباشا ، عمل محمد على على أن يكون الحرفى فى خدمته وتحت توجيهه (*) .

كان الحرفيون يقومون باعمال صناعية لتغطية حاجات البلاد من المواد الغذائية ومن الملابس والأدوات البسيطة ومتطلبات البناء والتأثيث ، فضلا عن بعض الصناعات الحديدية المحدودة جدا .

وكان حجم دكاكين وورش الحرفيين صغيرا ، وراس المال كان ضئيلا ، وعدد العمال المشتغلين فى الورشة لا يتعدى فى الغالبية العظمى عدد الأصابع . بل كانت كثرة من مواقع الانتاج الحرفى فى منازل اصحابها أو فى محلات صغيرة مستأجرة .

وكان التطلع محدودا لدى الحرفيين ، حيث كانوا يتطلعون الى سد الحاجة المحلية الاستهلاكية ولا شىء وراء ذلك ، اذ كانت فكرة التصدير غير متوفرة الا لدى عدد محدود جدا من الحرفيين .

واذا كانت هناك مصانع على نوع محدود من الاتساع ، فهى مصانع السلاح ومستلزمات رجال الحرب . ومع ذلك فكانت هى الأخرى على مستوى متواضع للغاية .

وضـع محمـد عـلى الحـرفيين تحت سـيطرته عن طـريق التحـكم فى تزويدهم بالمواد الخـام ، وتحديد دورهم فى عملية الانتـاج ، مانعـا اى حرفى من ان يبيـع اى جـزء من انتاجه الا الى الحكومة ، كما منع تسرب اى انتـاج حرفى الى السـوق حتى منع المواطن المصرى كذلك من الشراء الا من الحـكومة وسـد منـافذ التهريب عن طريق العـديد من المكلفين برقابة العمـل والانتـاج وتسـليم الانتـاج وتصريفـه ، وكذلك عن طريق تجميـع اصـحاب الحـرفة الواحدة فى موقع معين حتى تسـهل عمليـات الرقابة والحصر .

حقيقة كانت الرقابة شـديدة ، وكانت العقـوبات رادعة ، ولكن فى مثـل هذا الشـكل من الاحتكار الحكومى ، لا يمكن التحـكم تحكما مطلقـا فى التهريب ، وحتى اذا كانت عمليـات التهـرب محـدودة للغـاية ، فان نتيجـة ذلك التحـكم القاسى تؤدى الى نتائج سـلبية خطيرة على المـدى القريب والبعيـد على حـد سـواء . وهذا يقـودنا الى الاجابة على سـؤال : ما هى العوامل الرئيسـية التى ادت الى تدهور حال الحرفيين وانتاجهم ؟.

١ ـ كان الحرفيون قبـل عهـد محمد على يعملون من منطلـق المصـلحة الخاصـة (الربح) والحفاظ على مسـتوى الانتـاج ، وكانت له حـرية الحركة فى شراء المواد الخام وفى تصريف انتاجه ، أما بعـد أن فرض محمـد على نظـام الاحتـكار فانه بذلك تدجعل الحرفى مجـرد آلة تفكر له الحكومة وتسـيطر عليه ، ولا تعطيـه فرصـة للحركة الأمر الذى لا يقضى فقط على الابتكار ، وانما يؤدى الى تراجع انتاجيـة العـامل سـواء من حيث حجمه أو دقته أو من حيث المهارة الفنيـة .

٢ ـ كان من المفروض فى مثـل هذا الشـكل من الاحتكار والتحـكم وفى مثل تلك الأوقات من تفوق الانتـاج الأجنبى وتقـدمه ، أن تقوم الحـكومة بتنظيم حملة للتوجيـه والارشـاد والتدريب والتحـديث وتقـديم رءوس الأموال . وهذا ما لم تقم به الحكومة وانما احتكرت ما كان قائما بالفعـل ، لكى تحصـل على الأرباح . وهـو اسـلوب لا يثبط الهمم فقط بل كان يهـوى بالدخـول التى كانت ضـئيلة بالفعـل ، فأضاف الاحتكار أسـبابا جديدة لتدهور الانتـاج الحرفى فى وقت كان فيـه هذا الانتـاج مهددا بالتدهور ان عاجلا او آجلا بسـبب النهضة الصـناعية العالميـة منـذ انطـلاقة الثورة الصـناعية فى انجلترا وامتدادها لأوربا .

بل هنـاك من يرى أن محمد على نفسـه كان راضيا بسـيطرته الاحتكارية تلك وبالضربة التى وجهها الى الحـرفة والحرفيين فيقـول الدكتـور حسـين خلاف « ان محمد على كان ينظر الى الصـناعة الصـغيرة نظرة خاطئة ، واغلب الظن انه لم يأسـف لما لحقها من تدهور ، اذ كان اضمحلالها بفسـح المجال لتصريف منتجات المصانع الحكومية ، كما ان اضطرار ارباب الصناعة الصـغيرة الى تركهـا كان يزيد العرض من العمـال القـادرين على العمـل فى المصـانع الحـكومية » (١) . واغلب الظن أن محمـد على رأى فى الحرف والحرفيين فى أول الأمر مصـدر دخل له ، وكان الرجـل فعـلا بسـعى الى الحصول على اكبر قدر من الأموال لمواجهة متطلبات طموحـه وتطلعـاته ومشروعاته . ولقـد أدت فعـلا سياسـة الاحتكار هذه الى هجر الكثيرين من العاملين فى الحـرف لحرفهم ، ولـكن لا ندرى هل أدى ذلك الى دعـم مصـانع الحكومة بعمـال مهـرة . ولذلك صدق د. حسين خلاف حين قال ان ما حدث للفـلاح نتيجـة سياسـة الاحتـكار من مغـادرة ارضه بحثا عن عمل غير الفلاحة ، حدث كذلك للعامل الحرفى حين « هجـر الكثير منهـم الصناعة » (١) .

٣ ـ لم تسـتطع الرقابة الشـديدة التى فرضـها محمـد عـلى بواسـطة المكلفين بتلـك المهمـة « منـع التهـرب من الاحتـكار ، بـل كان هـذا التهـرب قائما على نطـاق واسـع ، بل سـاعد فيـه ضعف الأداة القائمـة بالرقابة ، وانتشـار الرشـوة بين أفرادها . وفى مثل هذا المناخ من العسف والرشـوة ونقص العـائد بالنسـبة للمنتج لا تنجح أية عملية اقتصـادية انتاجيـة النجـاح المرجو ، ان لم تتراجـع عن ذى قبل » (٢) .

كان محمد على معنيـا اكثر بتحـديث الصـناعة عن طريق اقتباس أدوات النهضـة الحديثـة الأوروبيـة أو اسـتيرادها ، فاقـام العـديد من المصـانع الكبيرة التى تخـدم صناعة القطن والمواد الغذائيـة وحاجات الجيش من الأسلحة واقام ترسـانة كبيرة فى الاسـكندرية وورشـا حديثة فى القاهرة .

كان الوالى هو المالك لتلك المصـانع ، وكان يجتهد فى ادارتهـا والتدخل

---

(١) سنتناول العمال والصناعات التى أنشأها محمد على بعد قليل .

(١) دكتور حسـين خلاف ، التجـديد فى الاقتصـاد المصرى الحديث ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، طبع بدار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٢ الطبعة الأولى ، ص ١٨١ .

(٢) التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، ص ١٨٠ .

فى توجيهها ، ادار بعضها بالطاقة البخارية التى كانت اختراعا مدويا حينذاك ، ولكن لقى مشاكل عديدة فى استمرار استخدامها ، ولجأ الى استخدام حيوانات الجر فى ادارة الآلات ، بل استخدم الطاقة البشرية فى ادارتها .

كانت المصانع الحديثة مركزة فى القاهرة والاسكندرية ، وكثير منها منتشر فى مصر : فى الدلتا والصعيد ، وكان الانتاج لتلبية السوق المحلية وحاجات الجيش والاسطول اللذين اسسهما محمد على على نمط حديث .

ولقد استوعبت تلك المصانع والورش الحديثة آلاف العمال ، وهو وضع جديد على المجتمع المصرى وعلى اقتصادياته . ومع ما كان لدى محمد على من عناية بحجم الانتاج ، كانت الرعاية الاجتماعية غير متوفرة . وكان تسلط الخبراء الاجانب واضحا نظرا لقلة خبرة المصرى بادارة مثل تلك المشروعات الصناعية . ومع تقديرنا لدور هؤلاء الخبراء الأجانب الا ان الأجنبى لا يقدم المشورة الكاملة الا قليلا ، فضلا عن سوء قصد بعضهم .

وليس لدينا معلومات وفيرة عن أحوال العمال فى مصر فى عهد محمد على ، ولكن نلاحظ ان كثرتهم وشبابهم جعلهم فى نظر محمد على قوة من قوى مصر الدفاعية حين يحتاج الجيش المقاتل الى ظهير بشرى فى فترات الملمات . فتحدثنا احدى الوثائق الخاصة بعام ١٨٣٩ عن ان محمد على كان مستعدا الآن يسلح عمال الورش للدفاع عن البلاد لمواجهة التجمع الدولى الذى تحالف ضد مصر حينذاك .

ومن الأمور التى اثارت الالم لدى الباحثين فى تطور سياسة التصنيع فى عهد محمد على انها كانت تركز على تزويد الجيش والاسطول باحتياجاتهما ، وان الادارة كانت سيئة ، والخبرة محدودة والانتاج غير جيد ، والنتيجة العامة هى توقف حركة التصنيع فى أواخر عهد محمد على ومن بعده وتدهورها الى حين .

ولقد تضافرت عوامل داخلية وخارجية على فشل سياسة محمد على فى التصنيع . وهناك من يرى ان العامل الخارجى كان العامل الرئيسى فى الوصول الى تلك النتيجة المؤسفة . والواقع ان دور انجلترا كان جوهريا فى هذا الصدد ، حيث عقدت انجلترا مع الدولة العثمانية معاهدة بلطة

ليمان فى ١٨٣٨ ، تلك المعاهدة التى تفتح أبواب ولايات الدولة العثمانية — ومن بينها مصر — امام التجار الانجليز ، فتدفقوا كما تدفق غيرهم من الأوربيين على البلاد بتجارتهم الرخيصة التى لا يصمد امامها الانتاج المصرى وخاصة فى غياب الحماية الجمركية .

ومن المعروف أن من بين قرارات مؤتمر لندن (١٨٤٠) وفرمان ١٨٤١ تخفيض عدد الجيش والاسطول الأمر الذى أدى الى اغلاق العديد من المصانع التى كانت تخدمهما .

ويعلل احد مؤرخى التاريخ الاقتصادى هذه النكسة بقوله :

« واذا كانت المنتجات المصرية قد لقيت منافسة شديدة من البضائع الأجنبية فى السوق المصرية ذاتها ، فانه كان يصعب عليها أيضا منافسة هذه البضائع فى الأسواق الأجنبية ، على أن الصعوبات التى لقيتها صناعاتنا المحلية حينذاك لم تكن خاصة بالتسويق فحسب ، بل انها كانت تمتد الى سوء التقدير ، وتعذر الحصول على المواد الأولية والوقود وقطع الغيار اللازمة ، والى ارتفاع تكاليف الانتاج فى المصانع ، وعدم الاهتمام فيها بأعمال الصيانة ، وسوء ادارتها ، وانخفاض مستوى الكفاية الفنية والخلقية عند كثير من المشتغلين فيها ، واتباعهم الأساليب البيروقراطية فى العمل ، وكذلك سوء حال العمال المشتغلين فيها ، حتى كان السوط يستخدم احيانا فى تشغيلهم ، مع عدم رغبة الفنيين الأوربيين فى تمرينهم ، حتى لا يحلوا محلهم ، كذلك كانت أمور تلك المصانع تتركز عند الوالى نفسه ، فهو الذى كان يقر انشاءها ، ويعين لها مديريها ، ويشرف على سير العمل فيها ، ولا شك انه كان يستعين فى ذلك برأى مستشاريه من الأجانب ، الا ان هؤلاء لم يكونوا دائما من المخلصين أو ذوى الكفاية العالية ، كما لم يكن الوالى رجل صناعة أو اقتصاد ، بل انه لم يكن متفرغا للصناعة ، وانما كان مشغولا بغيرها من أمور الدولة ، ولا شك أن تركيز شئون الصناعة فى شخص الوالى على هذا النحو كان أحد أسباب فشلها ، كما كان سببا فى انها لم تترك فى أرض مصر بذورا صالحة . ولا شك عندنا

ان الأمر ما كان يتم فى هذه الصورة لو كان الشعب قد اشترك ، رغم فقره وجهله ، فى عملية التصنيع هذه على نحو أو آخر » (١) .

وقد ابدى القنصل الانجليزى كامبل ملاحظة هامة حين قال فى هذا الصدد :

« ان الادارة مهما كانت قوتها لا تستطيع ان تحيل شعبا يعيش على الرعى (٢) الى شعب صناعى ، كما أن مجرد استخدام آلات باهظة النفقات معقدة التركيب كاملة الاجزاء لا يكفى مطلقا لخلق صناعة ناجحة » (٣) .

وايا كانت محاسن ومآخذ السياسة الصناعية التى نفذها محمد على ، فانها محاولة للانطلاق من فوق الصفر بقليل ، وغالبا ما تكون البدايات الأولى معرضة لعقبات واخطاء ، ولكن مما لا شك فيه انها محاولة جريئة خلقت صناعة ، وخلقت مفهوما للعمل الحديث والعمال ، ومع أن العمال لم يشكلوا فى عهد محمد على ولا فى معظم سنى القرن التاسع عشر فئة لها دور اجتماعى فان هذه الطائفة ولدت مع النصف الأول من القرن التاسع عشر . وتطورت من بعد لتصبح طائفة لها مكانتها فى المجتمع المصرى فى القرن العشرين .

---

(١) دكتور حسين خلاف : التجديد ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) لم تكن مصر بلدا رعويا .

(٣) المصدر السابق هامش ص ١٨٥ — ١٨٦ .

الفصل الرابع

التحديث فى الجيش والتعليم

تحديث الجيش :

كان بناء القوة المسلحة المناسبة للدفاع عن المنطقة — فى نظر محمد على هدفا رئيسيا له وجزءا من سياسته نحو احداث نقلة حضارية . ولقد اتخذ خطوات واسعة لتوفير التمويل المحلى اللازم لبناء جيش قوى ، ولكنه اتجه فى اول الأمر الى تجنب تجنيد المصريين حتى يوفر الأيدى العاملة المصرية للانتاج وربما لكى لا يعطى فرصة للشعب المصرى لممارسة العسكرية التى قد تضر بمستقبل واحتكار محمد على وابنائه من بعد للحكم وبالثروة .

وكان محمد على بتفكيره هذا امتدادا لمن سبقه من حكام لمصر كثيرين ركزوا على تكوين جيش من غير المصريين . فمنذ اواخر الأسرة العشرين (الفرعونية) كان حكام مصر يتجنبون اشراك المصريين فى السلك العسكرى الا فى حالة الضرورة القصوى .

وكان محمد على تركى التفكير عندما شرع فى تشكيل جيش حديث يحقق اهدافه العامة والخاصة . وكان يريد ان تكون القيادة العامة وكبار ضباطه من الأتراك او المتتركين أو من سلالة المماليك ومن بقايا الالبان فى مصر ومن أتراك يستقدمهم من تركيا الى مصر كبارا أو صغارا . فلقد بعث محمد على يطلب « انتقاء الصبيان من الرها (اورفه) وأدنه ومرعش » على أن يكون ذلك « برضاء والديهم » وارسالهم الى مصر ليتلقوا العلوم فى مدارسها » .

ومن بعد تلك الضربة الحاسمة للمماليك عمل محمد على على تدريب اولادهم ومن بقى منهم على الاعمال العسكرية والادارية الحديثة . والى جانبهم توافدت على مصر هجرات متتالية غير منتظمة من اكراد العراق وسوريا والشوام وهجرات ارمنية والمغاربة الذين كانوا يكونون شريحة هامة من شرائح المجتمع الاسلامى غير المصرى .

ولقد كانت قوة الحكومة فى مصر فى عهد محمد على من العوامل التى شجعت هجرة هذه العناصر الى مصر وهى هجرة إستمرت متصاعدة منذ ذلك العهد .

وكان محمد على يفضل أن يكون جنود الجيش من السودانيين .، ولقد كان السودانيون فى بعض الفترات يشكلون جزءا هاما من القوات العسكرية فى مصر فى العصر الاسلامى وكان من المعروف عن الجندى السودانى الدقة فى اطاعة الأوامر ، والولاء للحاكم فضلا عن المقدرة العسكرية ، وكل هذا كان من الصفات التى يبتغيها محمد على فى جنده وخاصة انه كان صاحب تجربة مريرة مع الالبان سريعى التمرد والغضب الذين يخرجون عن الطاعة لاسباب هامة وغير هامة احيانا والذين عارضوا التدريبات اللازمة لنقلهم الى مستوى العسكرية الحديثة .،

كان محمد على يعتقد أن الجندى السودانى اكثر قابلية لتقبل النظم والاساليب العسكرية الحديثة ، وان الجندى السودانى سيتمتع بخدمات افضل تجعل الجندية بالنسبة له نوعا من الرفاهية ، وفى هذه الحالة يشكل قواته من الجند السودانى ويركز القوة البشرية المصرية فى الانتاج الزراعى وفى خدمة مختلف مشروعات محمد على المدنية الاخرى .،

لقد أخذ محمد على بهذه الفكرة حتى لقد كان من بين الاسباب الرئيسية التى دفعته الى فتح السودان العمل على جمع العدد المناسب من السودانيين لارسالهم الى مصر لذلك الغرض (٥)

بعث محمد على بقواته لفتح السودان ونجحت فى ضرب المقاومة وخلال عمليات الفتح هذه توالت مطالب السلطان العثمانى على محمد على بشأن توجيه قوات من مصر لعدة جبهات ساخنة جدا لا تستطيع جيوش السلطان ان تبعث اليها بالقوات العثمانية المناسبة بسبب الحروب النابوليونية التى كانت مستعرة فى أوربا من روسيا الى قلب أوربا الغربية وبسبب ما كان يموج فى أوربا من تطورات كبرى فى اعقاب سقوط نابوليون . فلقد بعث السلطان العثمانى الى محمد على يطلب منه ارسال قواته لانقاذ العراق من غزوة فارسية كبيرة وصلت الى أبواب بغداد ، ولاخماد قومية ذات طابع صليبى فى كريت واليونان ولمواجهة تمرد والى عثمانى شرس فى البانيا هو تبه دلنلى على باشا .(٦)

قامت القوات المصرية فى السودان بجمع عـدة آلاف من السـودانيين واقام لهم محمد على معسكرا فى جنوب مصر ، ولكن مات العديد منهم بسـبب التدريبات المرهقة ، وبسبب اختلاف المناخ ، الأمر الذى جعـل محمـد على يعيـد النظر ن خطته السابقة بشكل جذرى ، حيث توصل الى نتيجة لامناص منهـا حينذاك وهى تجنيـد ابنـاء مصر ، وشرع فى جمـع الشباب من فلاحيها . وكانت هذه الخطوة نفسـها غير متوقعـه من جانب المصريين ، الأمـر الذى جعلهم يقاومون التجنيـد بطرق عديدة بعضها لا انسانى ، فبعضهم كان يقطع ابهامة أو يشـوه جسـده ، وبعضهم كان يفر من قريته ، وقد كانت الأسرة تعتبر دخول ابنهـا الجندية وكانها فقدته ، فكان الرجال من اسرته يتبعونه ومن خلفهم النسـاء باكيـات نائحـات ينتظرون جميعا الكشف النهائى فان قبل فى العسكرية كان ذلك بمثابة كارثة لـكل الأهل والاصدقاء وان (سـقط) فى الكشف كانت الفرحة والعودة مرفوعى الراس مبتهجين .

وهناك العديد من التفسيرات لهذه الظاهرة من أهمها :

١ ـ أن الشعب المصرى عاش قرونا عديدة وهو بعيـد عن العسكرية فهى أمـر لا يألفه . فقد كان يقوم بالمسئولية العسكرية اخرون ولذلك كان من الصعب اقناع الشباب بدورهم فى هذا المجال الذى قد يبدو بديهيا الآن .

ـ وهناك من يرى ان الـروح القتالية فى الشعب المصرى ضـعيفة ، ولذلك اضعفت قدراته على اسـتيعاب مسـئولياته الدفاعيـة عن وطنـه وشعبه ، فاصيب بنوع من خـور فى المزيمة وأصبح يفضـل ان يحـارب غيرهم معركتهم منتظرين هم نتائجها ، وهناك من يرى أن الشعب المصرى شـعب مسـالم يكره الحـرب والـدم .

٢ ـ كانت عملية جمـع الشـباب من القرى تتم بطريقة (وحشـية) هى أقرب الى (الصيد) من جمع الشـباب فكان رجـال الحكومة يهبطون على القرية ويطوقونها ويقبضـون على شـبابها ويسـوقونهم مقيـدين الى المعسـكرات ، الأمر الذى ينفر الشباب من العسكرية . ثم ان المجنـد كان يقضى فى الجيش مـدة طويلة تصـل الى اكثر من عشر سنوات ، هى زهـرة عمـره ، هذا اذا عـاد ، وهنـاك من قضى مـددا أطـول وذهبت معـه أخبـاره ومن ثم فهو فى نظـر اسرته على هذا النحو قـد (فقدوه) .

ـ كان الشباب فى مصر يتزوج فى سن مبكرة فى حوالى ١٦ الى ١٨ سـنة ،

وغالبا ما ينجب بعد سنة فقط من زواجه وبذلك يغادر اسرته وهو فى مقتبل الزوجية ، يغادرها دون مورد رزق لها حيث كانت الدولة غير مسئولة عن رعاية اسرة المجندين ، ومن ثم فان تجنيد رب أسرة مبتدئة على هذا النحو يعتبر نكبة لأسرته .

٣ — ولقد كان من بين رجال الدين والمتعممين من رأى فى الجندية الحديثة حينذاك ما يزيغ الشباب عن دينهم الحنيف ، فقاوموا اساليب محمد على التحديثية ، ولكن مقاومتهم كانت محدودة وغير ذات اثر واضح . وبصفة عامة واجه محمد على ورجال حكومته مقاومة شديدة من جانب المجتمع للتجنيد الحديث ، ولذلك اصدر محمد على أوامره بانزال العقاب الشديد ، بكل من يشوه جسمه بغرض التخلص من العسكرية ، وقام محمد على — فى نفس الوقت — بحملة توعية بين جمهرة الشعب لشرح ضرورة قيام شباب ورجال مصر بالدفاع عن الوطن وعن الاسلام ، ضاربين المثل بالدول الأوربية المسيحية التى تجند شبابها وهم مقبلون على العسكرية بكل رغبة وايمان ليضحوا بانفسهم فى سبيل شعوبهم واوطانهم . فالجميع الى زوال ، أما الوطن والشعب فباق لكافة الأجيال فى المستقبل القريب والبعيد . بل وضربوا امثلة من المنطلق الدينى ومن غيره من المنطلقات ، بل لقد ذهب البعض الى القول : الم يجند الفرنسيون أقباط مصر ، فكيف يتقاعس مسلموها عن الدخول فى الجندية ؟ .

٤ — ولما دخل الفلاح المصرى سلك الجندية سمع الكثير من عبارات الاستهزاء به تفوه بها الأتراك اذ لم يكن هؤلاء الأتراك يتصورون فلاحا وقد لبس زى الجندى الحديث ، وتعلم اطلاق النيران ، وتدرب على النظم العسكرية ، بل لقد اندهشوا من أن هذا الجندى الفلاح هو الذى أحرز الانتصارات الكبرى فى عهد محمد على . ولقد كان محمد على منصفا حين زجر كل من تهجم على الجندى الفلاح المصرى . الا ان محمد على كان يمنع المصرى من تولى المناصب العليا العسكرية وأختص بها الأتراك حفاظا على عرشه ، فكان ذلك من أسباب الثورة العرابية كما سنرى .

وبصفة عامة كان اعداد القوات المسلحة من اهم الموضوعات التى حظيت باهتمام بالغ من محمد على ، وقد أدى ذلك الى أن أصبحت مصر تمتلك جيشا واسطولا كان اقوى الجيوش والاساطيل فى منطقة الشرق الاوسط ، وكان اساسا بنى عليه خلفاؤه قوات مصر المسلحة .

تحديث التعليم :

كانت الحركة التعليمية فى مصر — قبل محمد على — تعيش على تراث الماضى المتخلف تخلفا شديدا عما تطورت اليه فى أوربا (١) فقد أصبحت العملية التعليمية الحديثة تهدف الى تكوين المواطن القادر على ادارة عجلة الانتاج الفكرى الثقافى وعجلة التطور العلمى الاقتصادى والادارى واستخدام السلاح الحديث دفاعا عن الوطن والانسانية . ومن ثم كانت مصر فى حاجة الى ثورة تعليمية حتى يمكن لمصر ان تلحق بركب الحضارة (٢) ولكن محمد على — وهو المؤمن بالحاجة الى تلك الثورة التعليمية — اقدم عليها من زاوية الحاجات الملحة (٣) ولذلك كانت عملية تحديث التعليم فى عهده تجرى من أعلى الى اسفل ، فكان ينشىء اولا المدارس العالية ثم اهتم بالتعليم على المستويات الادنى .

من اهم المدارس العالية التى أسسها مدرسة الهندسة فى القلعة وأخرى فى بولاق ، ومدرسة الطب ومدرسة الألسن ، واقسام العديد من المدارس التجهيزية (الثانوية) والمكاتب (الابتدائية) والى جانبها الكتاتيب القديمة التقليدية .

واعتمد فى تغذية تلك المدارس العالية على الشباب الذى كانت لديه أسس ثقافية فضلا عن خريجى الأزهر ، وكان التعليم بالمجان بل كان الطالب يحصل على أسباب المعيشة على نفقة الدولة . وكانت العلوم الحديثة هى التى تدرس فى هذه المدارس . ونظرا لعدم توفر المدرسين المتخصصين اتجه محمد على الى اسناد المسئوليات التعليمية الى الأجانب ، وكان هناك من يترجم الدروس الى العربية فضلا عن دفع التلاميذ الى تعلم اللغة الفرنسية وبعض اللغات الأخرى وخاصة التركية (٤) .

وحتى يكون محمد على كوادر مصرية قادرة على تحمل مسئولية العملية التعليمية وتحديثها ، عنى بارسال البعثات التعليمية الى أوربا وبصفة خاصة الى فرنسا (٥)

من العوامل الرئيسية التى أدت الى توجيه البعثات التعليمية المصرية الى فرنسا والتركيز على الاستعانة بالخبرات الفرنسية فى اكثر من مجال أن العديد من مستشارى محمد على كانوا فرنسيين (٦) وكانت مخططات محمد على تلقى تأييدا ودعما من الحكومة الفرنسية ، حتى لقد توترت العلاقات بين انجلترا وفرنسا الى حد الوصول الى حافة الحرب فى عام ١٨٤٠ عندما أصرت انجلترا على ارغام

محمد على على سحب الوجود المصرى من الشام ومن الجزيرة العربية سواء رضيت فرنسا بذلك أو لم ترض (١) .

ومن ناحية اخرى كانت هزيمة فرنسا واستسلام الامبراطور نابوليون فى ١٨١٥ وتسريح أعداد كبيرة من رجال القوات المسلحة الامبراطورية الفرنسية وفرار العديد من هؤلاء الى مصر واخلاصهم بدرجة أكبر من المتوقع فى خدمة أهداف مصر التحديثية وخاصة انه كان لدى الفرنسيين تصور عن ان نجاح مشروعات التحديث على الطريقة الفرنسية فى مصر يخدم فرنسا من جهة ويفوت على خصومهم الانجليز فرصة تحقيق أطماعهم فى مصر ، وهى أطماع تضر بالتطلعات الفرنسية — أدى كل هذا الى الاتجاه نحو فرنسا .

ومن العوامل التى جعلت فرنسا الدولة المفضلة لدى حكومة محمد على للتعرف والافادة من الحضارة الأوربية الحديثة ان الروح الفرنسية — المتأثرة بحضارة حوض البحر المتوسط — أقرب الى الروح الشرقية ، بينما كان الشعب الانجليزى على نوع من جفاف الطبع والاستعلاء يجعله اقل قبولا لدى الشرقى .

وفى عملية بناء الدولة الحديثة كان محمد على فى حاجة ليس فقط الى نقل اساليب الحضارة الحديثة بل كان كذلك فى حاجة الى تكوين (كوادر) مصرية متفهمة لهذه الحضارة الحديثة وقادرة على استيعابها ونقلها والافادة منها بطريقة مقبولة من مختلف مؤسسات وشرائح المجتمع المصرى . ولذلك بعث محمد على العديد من البعثات التعليمية الى فرنسا — ومع كل بعثة واعظ ليعمل على الحفاظ على العقيدة الاسلامية راسخة بين أفراد البعثة فى بلاد المسيحيين .

---

(١) لقد كانت الدول الكبرى ضد قيام مصر بدورها الطبيعى فى تكوين جبهة فى المنطقة ضد الأطماع الاستعمارية ، ولكن الزعامات المحلية فى الشام وفى شبه الجزيرة العربية لم ترتفع الى مستوى الهدف فثارت ضد الوجود المصرى فكان ذلك احسن فرصة انتهزتها الدول الكبرى فى تقويض الجبهة المصرية فى الشام والجزيرة العربية .

ولقد فجع محمد على فى فرنسا التى شجعته فى مشروعاته اذ تخلت عنه فى وقت الشدة حيث كانت سياسة فرنسا تقضى بعدم الاصطدام بانجلترا ، ولذلك وقع تغيير وزارى مكن فرنسا من الانضمام الى الكونسرتو الأوربى ضد محمد على فى ١٨٤٠ .

الادارة :

كان محمد على يعمل على انشاء ادارات حديثة حكومية تكون مسئولة عن تنفيذ عمليات التحديث والاشراف عليها وضبط أمورها الادارية والمالية والبيروقراطية .. ولذلك أنشأ العديد من الدواوين مثل ديوان الداخلية ، ديوان الجهادية ، ديوان المدارس .. وكان على رأس كل ديوان ناظر ، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء النظار من الأتراك والعناصر غير المصرية ثم تمصرت بطبيعة عملها . وكانت هذه الادارات هى التى تطورت فيما بعد الى نظارات (وزارات) .

وبصفة عامة كانت الوظائف العليا من نصيب الأتراك وغير المصريين بينما استطاع المصرى أن يملأ الوظائف الصغيرة ، ولعل ذلك كان من أسباب تفشى داء عدم المسئولية لدى الموظف المصرى واعتبار مال الحكومة مالا لا يخصه .

وأيا كان الموظف تركيا أو مصريا كبيرا أو صغيرا ، فقد كان فى نظر عامة الشعب ممثلا للسلطة ، بل هو صاحبها فى مجاله . وانه لذلك يجب أن يعامل — من هذه الزاوية — بكل احترام وادب ، مع ان مرتب الموظف الصغير كان ضئيلا ، وكان بعضهم يسد حاجته وتطلعاته عن طريق الرشوة واختلاس أموال الدولة بطريقة أو بأخرى . ورغم ذلك المرتب الزهيد الذى كان يحصل عليه فقد كان الموظف الصغير يعيش ميسور الحال بالقياس الى الفقر الشديد الذى كان شائعا بين جمهرة الشعب المصرى . وأحد أسباب هذا الوضع المتميز للموظف الصغير هو حصوله على مرتب محدد (مضمون) .. وكان المرتب نقدا ، والنقدية حينذاك كانت على مكانة عالية المستوى من حيث القيمة الاقتصادية .



الفصل الخامس

طائفة العلماء

منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر

لقد كانت مصر منذ الفتح العربى ومنذ أن اصبحت واحدة من مراكز الثقل فى العالم الاسلامى تفتح أبوابها أمام العلماء وتعطى الفرصة المتسعة أمام ابنائها ليكونوا مدرسة على مستوى عال من الفكر والتجديد . فمن أشهر المؤرخين ابن عبد الحكم صاحب « فتوح مصر » (القرن التاسع الميلادى) وعبد الملك بن هشام صاحب « سيرة ابن هشام » (القرن التاسع الميلادى) وثوبان بن ابراهيم المصرى (ذو النون المصرى) مؤسس المدرسة الصوفية ، وأما الأزهر فقد أصبح مدرسة اسلامية عالمية منذ العصر الأيوبى ، وخاصة بعد تدهور الدولة العباسية وسقوط بغداد فى يد المغول (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) واجتياح الصليبيين للشام .

ومن الجوامع العلمية الصبغة جامع عمرو ومسجد الامام الشافعى والمشهد الحسينى .

وظهرت الى جانب الأزهر مدارس كانت لها شهرة كبيرة منها :

١ ـ مدرسة الغورى ومدرسة (أبو الدهب) التى بناها محمد أبو الدهب (١٧٧٥ م) بجوار الجامع الأزهر .

٢ ـ المدرسة الصالحية نسبة الى الملك الصالح نجم الدين ايوب بالقرب من ضريح الامام الشافعى .

هذا الى جانب الزوايا ذات الاتجاهات الصوفية مثل زاوية الشيخ الدردير فى القاهرة (١٧٨٦ م) وزاوية قرب الجامع الكبير بالمنصورة (١٧٨٤ م) على أن بيوت العلماء كانت مفتوحة لعقد الجلسات العلمية وفتح مكتباتهم أمام تلاميذهم حيث كانت تلك المكتبات تضم أحيانا ثروة علمية نظرية طيبة . وكان

علماء مصر يستقبلون بكل ترحاب علماء المسلمين الذين يفدون اليها ، ومنهم محمد مرتضى الزبيدى من اليمن الذى وفد الى مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

ومما ساعد العلماء على القيام بالبحث والدرس انهم كانوا بصفة عامة يعيشون فى مستوى اقتصادى طيب وفى مستوى اجتماعى عال معترف به سواء بين دوائر الحكومة أو بين أفراد الشعب . حقيقة كان منهم الزهاد والنساك ولكن كانت للغالبية العظمى منهم اما رواتب لقاء ما يقومون به من خدمات تعليمية أو أوقاف يديرونها أو التزام يتولونه .

واذا ما تتبعنا مواقف العلماء من الحكومة المملوكية وجدنا أنهم كانوا فى صف الرعية ضد ظلم الحكومة والمماليك ، وضد الحكومة اذا استشرى الشغب وضربت الفوضى أطنابها ، بل كان لدى المشايخ الجراة لأن يلعنوا الأمراء فى حضرتهم (١) وتزعموا اضرابات هزت مكانة الحكم المملوكى حتى اخذوا من المماليك عهدا بأن يحكموا بالعدل ومن لا يفعل فعلى الرعية أن تعزله .

ويجدر بنا هنا أن نلقى نظرة على طائفة هامة من طوائف المجتمع وهى طائفة « رجال الدين الاسلامى » الذين كانوا يمثلون الواسطة بين الشعب والحكومة ، وفى نفس الوقت كانت لهم مصالح فى الريف حيث كان بعضهم ملتزما لبعض القرى والأراضى لذلك كانوا تارة مدافعين عن مصالح القاعدة الشعبية وأخرى لهم مصالحهم مع النظام القائم .

فمن الأزهر الشريف ، ومن المدارس الاسلامية العديدة ، ومن حلقات الدرس فى مختلف الجوامع الكبرى ، كان يتخرج علماء مصر وشيوخها ، حملة القرآن الكريم والشريعة الاسلامية . كانوا من قلب الشعب المصرى نفسه على مختلف مستوياته الريفية والحضرية . وكانوا يعيشون الحياة المصرية بكافة جوانبها ، وأبواب الحكام مفتوحة لهم ، ومنهم المديرون للأوقاف والمدارس وشيوخ الأروقة ، ومنهم التجار والملتزمون واصحاب العقارات .

واذا كانت هناك فترات عصيبة مرت برجال الدين والمشايخ خلال التاريخ الحديث ، فقد كانت أكثرها دقة تلك التى تعتبر فترة انتقال من عصر المماليك

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٤١٦ .

الى محنة الحملة الفرنسية الى عهد محمد على ، فخلالها وقعت متغيرات محلية ودولية سريعة كانت عبئا أعظم من قدراتهم .

ومع ما أصيبت به مكانة العلماء والمشايخ من هزات عنيفة خلال تلك الفترة العصيبة ، ظلت للعلماء والمشايخ مكانتهم بين الشعب ، ولدى مختلف الشعوب العربية والاسلامية ، محتفظين بتقاليدهم وفكرهم ، وبمدرستهم التي كان لها في التاريخ نفس وباع طويلان .

كان العلماء والمشايخ ومن أطلق عليهم عبد الرحمن الجبرتى صفة المتعممين يكونون طائفة من طوائف المجتمع المصرى ، على راسها شيخ الأزهر ، انتظموا في مراتب تعارفوا عليها ، فكان هناك مشايخ من الطبقة الأولى ، وآخرون من الطبقة الثانية ، يتطلع كل واحد منهم الى الارتقاء من طبقته الى الأخرى . فاذا ما وصلوا الى الطبقة الأولى أصبحوا أكثر تواضعا ، فكانوا يتجنبون القول بأنهم فعلا من هذه الطبقة الرفيعة ، شعورا بقصور العالم عن بلوغ كمال المعرفة .

وليس معنى هذا أنه كانت هناك فوارق حاسمة بين هذه الطبقات ، وانما ابواب كل طبقة كانت مفتوحة لكل مجتهد من العلماء ، بدرسة وعلمه وايمانه ، وببذله الوقت والجهد — باحثا مدققا من أجل تكوين مدرسة له من تلاميذ يأخذون عنه ويتعلقون به .

ولعبد الرحمن الجبرتى الفضل الأكبر لما كتبه في « عجائب الآثار » من كشف للتطورات والاتجاهات التى كانت تموج في أوساط رجال الدين وعلماء الأزهر ، خلال الفترة التى يغطيها كتابه من القرن الثامن عشر الى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

فالجبرتى كان واحدا من هؤلاء الشيوخ ، وهو نفسه من بيت علم ، فكان أعرف ببواطن الأمور التى كانت تحدث في دوائر العلماء وجلساتهم الخاصة ، وفي أروقة الأزهر ومجالسهم . وبذلك كانت أمورهم مكشوفة أمامه . وكان هو يريد الكمال منهم ، ولكن تطورات أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانت أكبر من قدراتهم .

حقيقة ، لم يرسم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة عن العالم أو الشيخ

المثـالى الذى كان يتصـوره هو ، والـذى كان يتمنى وجـوده وشـيوعه بين العلمـاء . ولكن محصـلة كتاباته وتراجمـه عن العلمـاء والشـيوخ من مختلف المسـتويات فى زمانة ، تعطينا صـورة لهذا العـالم المثالى على النحو التالى :

« انسـانا حسـن الأخلاق مقبلا على الافادة والاسـتفادة » (١) معتمـدا على الأصـول « يغوص بذهنـة وقياسـة فيهـا ويطـالع كتبهـا القديمـة التى اهملهـا المتأخـرون » (٢) .

كان يرى كذلك ان العلمـاء يجب ان لا يقتصروا على عـدد معين من علـوم الدين والشريعـة ، وانمـا عليهم أن يسـتعينوا بعلـوم أخرى اهملوها مثـل (الفلك) الذى اهملة علماء زمانه . ولولا عنـاية والده الشـيخ حسـن الجبرتى بهذا العلم ، لبـدا علمـاء عصره فى مسـتوى ضعيف ، لا يتناسـب مع مكانتهم الرفيعة فى داخل البـلاد وخارجهـا . ويروى لنا الجبرتى قصـة طريفـة وقعت فى هذا الخصوص بمجىء باشـا كان يميل للعلوم الرياضـية والفلك واسـتاء لمـا علم أن علمـاء الازهـر لم يعـودوا يدرسـون هذه العلوم بالأزهر حتى دلوه على الشـيخ حسن الجبرتى الذىكان يدرس هذه العلـوم لبعض الطـلاب فى بيتـه فاتصـل به الباشـا وافاد منـة كثيرا ، فكان للشـيخ حسن بذلك فضل انقـاذ سـمعة علماء مصر فى هذا المجـال .

فمن وجهـة نظر الجبرتى فان العـالم الحق لم يخلق لحمل القـرآن الكريم والشريعة الاسـلامية وتدريسـها والدعوة اليهـا ، وانمـا هو مسـئول عن ترجمة هذه النظريات والدراسـات الى عمل ميدانى يفيـد النـاس ويرفـع من شـأنهم ويدفع عنهم شرور الحيـاة وعذاب الآخـرة ، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم ، وانما يخـاف ربه فقط واضعا نصب عينية احقـاق الحق وازهاق الباطل .

« فان العلم اذا لم يقرن بالعمـل ، ويصاحبه الخـوف والوجـل ويجمـل بالتقـوى ، ويزين بالعفـاف ويحلى باتباع الحق والانصاف ... أوقع صاحبه فى الخذلان وصيره مثلة بين الأقران » (٣) .

---

(١) كان الجبرتى يطرب لسماعه ان أحد العلماء أوصى بكتبة لأحد تلاميذه : وكان يرى أن مسئوليات العالم ان يفتح مكتبته لطلاب العلم .

(٢) الجبرتى حوادث ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .

(٣) انظر عجائب الاثار ، حوادث ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م .

ولهذا كان الجبرتى معجبا بالشيخ الذى يعمل ويتكسب بنفسه ، وخاصة اذا كان تكسبه عن حرفة ذات صلة بالعلم والدرس ، كأن يكون متقنا صناعة الجلود أو مشتغلا بتجارة خلال قيامه بواجباته أو بزراعة دون أن يرهق الفلاح .

وكان للعالم الذى لا يقع فريسة لاغراء المال والهدايا مكانة كبيرة لدى عبد الرحمن الجبرتى . ومع أن مبدأ الاهداء كان مقبولا فى ذلك العصر ، فالجبرتى كان يرى — وهو محق — قبول مثل هذه الهدايا فى حدود « الحشمة والعفة » (١) .

لقد ردد أكثر من مرة تقديره للعالم الذى يتجنب موائد الحكام واموالهم ، ولا يدق ابوابهم ، حيث قال فى الشيخ الخالدى الشافعى انه « لم يعهد عليه انه دخل بيتا لأمير قط او أكل من طعام احد قط الا بعض اشياخه المتقدمين » (٢) .

لقد كانت كرامة العلماء والمشايخ عند عبد الرحمن الجبرتى ، مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وكان يسجل مواقف العلماء فى الدفاع عن كرامتهم مبينا كيف انه بلغ بالعلماء فى بعض المواقف أنهم هددوا بالرحيل « الهجرة » عن البلاد اذا لم يستمع الحكام الى نصائحهم ، بل ذهب احد المشايخ وهو الشيخ الصعيدى الى حد أن صرخ فى وجه احد المماليك الذى عارضه فى مسألة دينية قائلا :

« لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » (٣) .

ومن حيث الشهامة ، كان يكبر فى العلماء الدفاع عن اصحاب الحاجات والمستضعفين والنساء « مكسورات الجناح » وخاصة عندما يتعرضن لحكام غلاظ القلوب لا يقيمون لضعفهن وزنا . ولقد كانت للعلماء فعلا مواقف مشرفة فى الدفاع عنهن فى مختلف العصور والعهود . وخص بالذكر الشيخ سليمان الفيومى ، اذ كان صاحب شخصية اجتماعية فذة ، عرف كيف يصادق الأمراء

(١) عجائب الاثار ، حوادث سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .
(٢) انظر حوادث ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م .
(٣) انظر حوادث ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م .

وكبار المسئولين فى الحكم حتى وثقوا فيه فاتصل بحريمهم فكن يغتبطن بدخوله عليهن ويقلن « زارنا الشيخ .. وشاورنا ابانا الشيخ .. فاشار علينا بكذا .. » ، فلما نزلت الحملة الفرنسية مصر ، وخرج النساء من بيوتهن وذهبن اليه افواجا حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء فتصدى لهن .. وتداخل فى الفرنساوية ودافع عنهن واقمن بداره شهورا « فلما مات خرجوا بجنازته فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار وربما كان جمع النساء خلفه كجمع الرجال فى الكثرة » (١) .

وكشف لنا الجبرتى عن مبدأ هام ، كان لدى طائفة العلماء والمشايخ حينذاك هو مبدأ وراثة الاب او الاخ لمكانة العالم ومناصبه ، فاذا حدث ولم يكن من آل بيت العالم المتوفى من درس فى الأزهر او المدارس الاسلامية ، دفع العلماء بواحد من آل بيته الى التعلم والارتفاع الى مستوى العلماء . ومن ذلك انه لما توفى الشيخ احمد الجوهرى فرضوا على اخيه عبد الفتاح ان يخلفه ، مع انه « لم يكن معتنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء ويشارك ويضارب ويكاتب » ولكن كان لابد له من ان يتصدى بالتدريس فى الأزهر حفظا للناموس وبقاء لصورة العلم الموروث . فعند ذلك تزيا بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجه الواسعة واقبل على مطالعة العلم وخالط اهله وصار يطالع ويذاكر واقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسينى فى رمضان ... مع قلة بضاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى الفرماوى فكان يطالع الدرس الذى كان يمليه فى الغد ويتلقى عنه مناقشات الطلبة وثبت على ذلك حتى ثبتت المشيخة وتقررت العالمية » (٢) .

وكان يسوء الجبرتى أن يرى عددا من علماء زمانه قد انحرف عن جادة الوقار وكان العصر حينذاك مليئا بالتقاليد الاسلامية التى كان بعضها أقرب الى الخرافات والخزعبلات والبلاهات ، وخاصة تلك البدع التى استشرت بين بعض رجال الطرق الصوفية ، والذين كانوا يدعون أنهم من أولياء الله الصالحين أو الدراويش . فقد رفض انحرافات بعض المتصوفة من حيث اجماع « المراد » (٣)

---

(١) انظر ترجمة الجبرتى للشيخ سليمان الفيومى .
(٢) انظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .
(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١١٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .

عليه ، وغالبهم من ابنـاء مشـايخ البلاد ، منتقدا فى نفس الوقت استهواء أفراد المجتمع التقليد المشـين .

ومع اقتناعه هو بجدوى (الذكر) ، وانه من الحفلات الدينية التى تفيد النـاس على اعتبار انه ذكر لله ولجميـع صـفاته وصفات رسوله ، كان شـديد الوطأة على الانحرافات التى دخلت حفلات الذكر والموالد ، كتلك التى كان يعقدها اتبـاع الطريقـة العيسـوية الصـوفية المغربيـة الأصل ، بسـبب « تحلقهم بالمسـجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك ... ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسـجد وطواف البـاعة بالمأكولات على النـاس وسـقاة الماء فيصير المسـجد بما اجتمع فيـه من هـذه القـاذورات والعفوش ملتحقـا بالأسـواق الممتهنة » (١) .

وكان لومه اشـد لكبار العلمـاء والمشـايخ بسـبب ذهابهم الى الموالد . ولعلـه كان يرى أن عالمـا مثل « الشـيخ عبد الرحمن الشرقاوى » اذا ما ذهب الى المولد فانه سـيفتح باب التطرف والبدع بين العـامة ، حيث انهم سرعـان ما يقلـدون العلمـاء الكبـار ، ولـكن دون تعقـل ، ويندس بينهم « سـخاف العقول » (٢) .

ولقد ادرك عبد الرحمن الجبرتى كم كانت هذه الموالد وسـيلة خبيثة فى يـد الفرنسيين لالهاء أهـل البـلاد . وكان يرى أن الفرنسيين لم يرحبوا بفض احـد الموالد — المشهورة بالعبث والمجون — الا « ما رأوا فيـه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات » (٣) .

تلك كانت بعض الصور العديدة التى رسمها الجبرتى للعلماء والمشايخ ومـا يحيط بهم فى مجالات العلم والمجتمع ، ومهما ظهـر فى هذه الصـور من شـوائب كانوا عنـده أكرم النـاس ، ولهذا كان يبدأ بترجمة حيـاة العلمـاء عندما يشرع فى سجيل ترجمات من توفى فى كل عام وبعد ان يترجم للعلماء يترجم للامراء ، وكبار التجار وغيرهم من علية القوم .

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م .
(٢) انظر ترجمة حياة الشيخ الشرقاوى فى تراجم عام ١٢٢٧ هـ .
(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١٦١٣ هـ / ١٧٩٩ م .

كان العلمـــاء حينـــذاك يصـــنفون الى طبقـــات . فمن كان فى نظـــره الذى يستحق أن يكون من الطبقة الأولى فى زمانه ؟ .

حقيقة قدم لنـــا العديد من تراجم طائفة المشـــايخ والعلمـــاء . ولكن عرضـــه لتـــاريخ الشـــيخ مرتضى الزبيدى ، يشـــير الى انه فى نظـــره العـــالم المثـــالى فى زمانه . ولقد كان الرجل فعلا من أفذاذ العلماء ، وصاحب موســـوعة خالـــدة لا تزال مصدرا ، هى « تاج العروس » . ولم يكن الزبيدى من مصر ، وانمـــا مـــن اليمن ، جاب البـــلاد العربيـــة وكتب عن رحلاته وجولاته ، وعلم وافـــاد فى اكثر من مكان ، وربط بين العديد من علماء البـــلاد الاسلامية .

حقيقـــة كان مرتضى الزبيـــدى على صـــلات قوية ببيت الجبرتى ، ولكن مكـــانة الرجـــل واشـــتهاره ، لا تجعـــل من هذه الصـــلات ســـببا فى أن يرفـــع عبـــد الرحمن الجبرتى من شـــانه على ذلك النحو الذى كان يفعله بالنسبة لأبيـــه الشيخ حسن الجبرتى .

ولمـــا كان عبد الرحمن الجبرتى حريصـــــا على أن يكون علمـــاء الأزهـــر فى « اعلى المستويات ، ومسموعى الكلمة » فقد قدم تاريخـــا عن الأدوار العـــديدة التى لعبهـــا العلمـــاء والمشـــايخ خـــلال القرنين الثـــامن عشر والتاسع عشر ، ومن خـــلال ما كتبه يمكن أن نحدد تطور زعامة المشـــايخ على النحو التالى .

١ — خـــلال القـــرن الثامن عشر كانوا يكتفون بالدفاع عن حقوق الرعيـــة امام المماليك وبالوساطة بين الزعامات المتقاتلة منهم .

٢ — فى نهـــاية القـــرن الثـــامن عشر وقبيل مجيء الحملة الفرنســـية ، بلغ ظلم المماليك جـــدا لا يطـــاق ، فتزعم العلمـــاء والمشـــايخ « الجمهور » وفرضوا شروطهم سنة ١٧٩٥ .

٣ — بمجيء الحملة الفرنسية واجهـــوا مســـئولية الجهـــاد فى سبيل الله ، وتحرير البـــلاد ، ومســـئولية تمثيـــل الشـــعب امـــام ســـلطات الاســـتعمار .

٤ — وبعد خروج الحملة الفرنســـية « وجـــد العلمـــاء والمشـــايخ انهم هم أصحاب الحق فى اختيـــار من يتولى حكم البلاد ، فاختاروا « محمد على » واليا » وكان ذلك ذروة مـــا بلغتـــه العلمـــاء من زعامة ، ولم يلبث محمـــد على أن وجـــه ضربته القاسية لها .

أ — العلماء وسطاء بين الحكام والرعية :

فى بلد لم يكن فيه بين الحاكم والمحكوم من يناقش ويحاسب السلطات العليا ويدافع عن وجهات نظر الشعب ، كان العلماء يقومون بدور الوساطة الهادئة ، وكان هذا الدور ملائما كل الملاءمة للعلماء فى عصر المماليك حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت اساليب الحكم الاستبدادية المملوكية ، وصراعات المماليك فيما بينهم تنعكس على الشعب على هيئة مطالبات مالية جائرة ، تتعدى ما كان متعارفا عليه من واجبات ضرائبية معقولة على الرعية . وكان الشعب يتحمل الى حد كبير هذه المظالم حتى يجد اصحاب الحرف ان امورهم سائرة الى التوقف ، واعمالهم الى البطالة وكانت القروض الاجبارية التى كان يقترضها المماليك — ولا يردونها — تنزل ابلغ الاضرار بالتجار ، فكانوا يضطرون الى اعلان الاضراب . الا ان تحركهم هذا ما كان ليرغم المماليك على الرجوع عن غيهم ، الا اذا تزعم العلماء والمشايخ والمجاورون الاضراب ، حيث ان ذلك يعنى ان الأمور وصلت الى ذروة التعقيد . فيضطر الحكام الى ان يعيدوا النظر فيما اثار مشاعر الزعماء والجمهور .

وكانت الصورة التى عرضها الجبرتى عن معارضة القرض الاجبارى الذى فرضه اسماعيل بك ، من أدق الصور التى تصور استجابة الزعامة الأزهرية لغضبه الجمهور على تلك المظالم .

فيقول الجبرتى ، ان التجار « اغلقوا وكائل البن بالغورية ودكاكين الميدان » ولكن لما ارادوا « قفل أبواب الجامع » الأزهر ، اعترضهم الشيخ العروسى — شيخ الجامع الأزهر — مفضلا الوساطة الهادئة واصطناع الملاينة — ولكن كان التجار والعامة على غير هذا الرأى ، ولهذا « قاموا فى وجهه » و « صاحوا عليه وسبوه بينهم الى رواق الشام » حتى انقذه « المجاورون » من بين ايديهم ، ليقوم هو من بعد ، بالتفاوض مع اسماعيل بك الذى حاول ان يقنع الشيخ العروسى بأن القرض سيرد لمن يسهم فيه ، منمقا الكلام له . الا ان التجار كانوا قد سئموا هذه الألاعيب اذ اقنعتهم السوابق أن المماليك لا يسمعون فى مثل هذه الأحوال الا الى « فض الجمع » واعادة فتح المحلات ، ثم يعمدون الى ان يأخذوا التجار « واحدا بعد واحد » . وفعلا كان دور المشايخ فى هذه المرحلة على هذا النحو من الملاينة والوساطة .

٢ — العلماء يفرضـــون شروطهم على الحكام :

واذا كانت جهود العلماء قــد توقفت — لحين — الى هــذا الحــد ، الا ان استمرار ظلم المماليك والتلاعب بالقــول ونكث العهود جعــل المشــايخ والعلماء والشعب يصعدون من مقاومتهم للظلم ، وجعلهم يتحولون من الوســاطة الهــادئة الى التحــرك الجماهيرى المحــدد الأهــداف حســب مستوى ذلك العصر - وتجلى ذلك عندما تزعم الشـيخ الشرقاوى « الجمهور » ضــد الضرائب « المســتحدثة » ووجد المماليك ان هــذا الموقف الصلب الذى اتخذه العلماء ، قــد يؤدى الى زيادة اهتزاز حكم المـــاليك الذى كان يعانى من اســتشراء الفتن بين جمــاعاتهم . فبدأ المماليك وكأنهم يستجدون التفاهم مع العلماء ، فقد وقف مبعوث الامير الحــاكم ، محــاولا اقنــاع العلمــاء بالعدول عن الاضراب الشــامل الذى دعوا اليه ، ولكن تشبث هؤلاء بموقفهم ، مما اضطر المماليك الى قبــول « الحجة » (١) التى قدمهــا المشايخ متضمنة الشروط التى يجب أن يحكم المــاليك بمقتضــاها ، وقد اعتبرها البعض انها مشــابهة للماجنا كارتا التى اصــدرها ملك انجلترا فى (١٢١٥) .

حقيقة كان هــذا نصرا كبيرا احــرزه المشــايخ لصــالح « الجمهور » ولكن الجبرتى — الشيخ المؤرخ — لم يترك هذه الحــادثة تمر دون متــابعة نتائجهــا ومــا ادت اليــه ، فوجــد ان المبــاليك لم يلبثوا ان نكثوا العهــد وتجــاهلوا « الحجة » وعــاد كــل شىء الى مــا كان عليــه من قبــل « وزيادة » ١٧٩٥ م / ١٢٠٩ هـ (١) .

٣ — دور الجهــاد ضــد الاستعمار الفرنسى :

وبمجىء الحملة الفرنســية الى مصر ، وتغلبهم السريع على المــاليك الذين كانوا يمثلون قوة الدفاع عن البــلاد ، وجــد المشــايخ والعلماء انفســهم فجــأة مسئولين عن قيادة الشــعب فى كفــاحه . وهم الذين لم يســبق لهم قط أن حملوا السلاح ، ووجدوا كذلك انهم مضطرون الى مداراة السلطة الاستعمارية ، وســبر غورها حتى تنقشع الغمة .

ففى حديثه عن مواقف الشيخ السادات من الفرنسيين ، قال :

« وبالجملة كان بوجوده وتصدره فى تلك الايام النفع العام ســد بعقله ثقوبا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م .

واسعة وفتوقا ، لا سيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع ومما يكدر طباع الفرنساوية من مخاوف الزعية تلافاه بمراهم كلماته ويسكن حدتهم بملاطفاته » (١) .

ومن ثم كان قبول العلماء والمشايخ رئاسة وعضوية (الديوان) الذى انشاه نابليون بونابرت ، محاولة لعدم ترك الأمور كاملة فى يد الفرنسيين ، بحيث يكون هناك من يدافع عن حقوق الشعب ، والحفاظ على شعائر الدين الاسلامى ، وتطبيق الشرع الشريف الذى هم مسئولون عنه وعن بقائه .

والجبرتى حين يتحدث عن تشكيل هذا الديوان ، وقبول المشايخ الالتحاق به ، كان يعرض الأمور دون أى انفعال ، ودون اتهام لهم بانهم انهزاميون ، حيث انه هو نفسه التحق بديوان (منو) فى وقت متاخر . ولكنه فى نفس الوقت كان حريصا على أن يبرىء ساحة المشايخ فى الديوان من اصدار مراسيم تخدم الفرنسيين . فعندما صدر منشور من الديوان قال انهم — اى الفرنسيين — كتبوا عدة أوراق « على لسان المشايخ » (٢) .

ونظرا لقيمة ومكانة الجامع الأزهر ، عرض الجبرتى باسهاب ما فعله به الفرنسيون فى أعقاب ثورة القاهرة الأولى ، وبشكل يثير العاطفة والمشاعر الدينية ، دون أن يستخدم عبارات السب التى كانت شائعة على لسان العلماء والعامة عند وصف الفرنجة . فيقول :

« وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر .. ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول .

وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والودائع والمخبآت بالدواليب ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا عليها وتغوطوا وبالوا وتخطوا وشربوا وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه ومن صادفوه عروه ومن ثيابه اخرجوه » (٢) .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

كما سجل الجبرتى غضبة الشيخ عبد الله الشرقاوى على (الطيلسان) الذى حاول نابليون بونابرت تقليده اياه ووضعه على كتفه تكريما له ، على ذلك النمط المعتاد فى فرنسا . ولكن الشيخ الشرقاوى الذى كان رئيس الديوان « رمى به الى الأرض واستعفى ، وتغير من مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه » فان الشرقاوى ، وقد ارغمته الظروف على أن يرأس ديوانا فى مصر الواقعة تحت الاحتلال الفرنسى لا يقبل أن يضع على كتفه شارة تضيع قدره عند الله والرعية (١) .

ويلاحظ أن الجبرتى حين سجل احداث ثورة القاهرة الأولى ومشاركة وزعامة المشايخ والعلماء لها ، كان يوجه كلماته اللاذعة الى بعضهم . فهل كان ذلك من قبيل تثبيط الهمم ؟ وفى اعتقادنا ان عبد الرحمن الجبرتى كان اكثر ادراكا من غيره للقوة الضاربة الفرنسية ، لا من حيث امكانياتها العسكرية فقط ، بل كذلك من حيث قدراتها الحضارية . وكان الاتجاه العام لدى العديد من المسئولين عن أمور مصر ، هو انتظار جيش السلطان خليفة المسلمين لانقاذ مصر من أعداء الدين والملة . وكان الجبرتى على عكس ذلك . اذا كان يرى انهم لو انتظروا مجىء القوات العثمانية فانها لن تصل الا بعد فوات الأوان ، وبعد أن يستتب الأمر للفرنسيين فى مصر . وكان كذلك يدرك ان التفوق على الفرنسيين ذوى السلاح والاستراتيجية الحديثة لا يمكن أن يتحقق « بالنبابيت » والدعاء وبالحملات الارتجالية وكان يدرك أن قطاعات مهمة من القاهرة ، مثل مصر العتيقة لم تشترك فى ثورة القاهرة الأولى كل هذا جعله يلوم المشايخ والعلماء على تزعمهم هذه الثورة التى كانت نتيجتها متوقعة لدى الجبرتى ، من حيث عدم قدرة الشعب على الاستمرار فيها لمدة طويلة . ومن هذا قول الجبرتى واصفا واحدا من المشايخ الذين قادوا الثورة :

« ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيين على اثارة الفتنة التى اساءته وغيره ، فقتل فيمن قتل بالقلعة » (٢) .. ولم ينظروا فى عاقب الأمور وانهم فى « القبضة » ماسورون .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

فبعد العمليات الأولى الناجحة للثورة ، أعاد الفرنسيون تنظيم أنفسهم وأخذوا يضربون بانتظام أحياء القاهرة ومعاقل الثوار ، فى مواجهة مقاومة غير منظمة . حتى انكسرت حدتها واضطر المشايخ الى أن يركبوا « الى كبير الفرنسيين » ليرفع عنهم النازل ويمنع من الرمى المتراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال (١) .

ولا شك أن الجبرتى لم يضف الحكمة الأخيرة اعتباطا ، فمن وجهة نظره ان التفوق العسكرى لا يحقق كل الأهداف ، ولا يخضع الناس والرقاب ، وانما يمكن أن ينحنى الشعب للعاصفة ، ويواجه بشجاعة هزيمته العسكرية ، ويحاول أن يصل الى اتفاق مع خصمه ، تمهيدا لاعادة رص الصفوف وسد الثغرات ومعرفة الأخطاء ومعاودة الكرة ضد اعداء الدين والملة .

وفى نفس الوقت تعجب الجبرتى : كيف كان هؤلاء العلماء والمشايخ مشلولى الحركة ازاء المأساة الكبرى التى دبرها الفرنسيون للمجاهد الكبير (محمد كريم) — بطل الدفاع عن الاسكندرية ، حين قرر عليه الفرنسيون من الأموال ما يعجزه ، حتى يبرر لهم ذلك اعدامه ، فأخذ المجاهد يستغيث بالعلماء والمشايخ أن (اشترونى يا مسلمين) . ولكن هؤلاء وقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه المحنة حيث :

« ليس بيدهم ما يقدمونه به ، وكل انسان مشغول بنفسه ، ومتوقع هذه المحنة لشىء يصيبه » (١) .

فكان ذلك من الأمور التى هبطت بمكانة العلماء . ففى اعتقادنا أن تردد المشايخ والعلماء بين التيار السلبى والتيار الثورى ضد الفرنسيين ، ومسلكهم فى الديوان وحصولهم على الرواتب ، وتبادلهم الولاء مع قادة جيش الاحتلال ، وفساد أخلاق بعض النساء — وخاصة بنت الشيخ البكرى — لا شك أن كل هذا أساء الى جهود العلماء والمشايخ ، وفرقهم بين معتدل وثورى وانتهازى . فكان أن اهتزت صورتهم ، وانحى عليهم الجبرتى باللائمة

---

(١) المصدر السابق .

بسبب اطماع بعضهم فى زاد الدنيا من يد الفرنسيين بالذات (١) .

حقيقة كانت هذه هى صورتهم حتى قبيل خروج الفرنسيين . أما خلال عمليات اخراجهم منها ابتداء من حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، الى الحملات النهائية التى أجبرتهم على مغادرة البلاد ، فقد تعدلت الصورة قليلا فقد شارك العلماء والمشايخ مشاركة كبرى فى الثورة ، وحتى أولئك الذين كانوا فى الديوان نزلوا الى الميدان . فكان ذلك مثار غضبة شديدة انزلها كليبر بالعلماء والمشايخ ، وكان اشدها ما وقع للشيخ السادات . فكان ذلك ابقاء لهم على زعامتهم ، لتلعب من بعد واحدا من أكبر أدوارها فى مطلع القرن التاسع عشر .

٤ — العلماء أصحاب الحق فى عزل وتولية الوالى :

كشف لنا الجبرتى عن الذروة التى وصلتها قوة العلماء فى مجال الزعامة الشعبية .

فقد استشرت الفوضى بسبب تصارع العثمانيين والمماليك على الانفراد بالحكم ، متجاهلين وجهة نظر الشعب فيهم ، ومتغاضين عن ضياع أرزاق الناس بين عسكر نهابين غدارين ، فالشعب كان فى نظر الوالى العثمانى مجرد فلاحين يجب عليهم أن يمتثلوا الأوامر السلطان ونائبه فى مصر ، حتى رغم ما كان ينزله بالشعب من ضروب العسف والارهاق الزائد عن الحد ، وحتى لقد طرد العسكر الأهالى من بيوتهم واستولوا عليها عنوة وعدوانا ، نقرر علماء ومشايخ مصر — بعد تردد — أن يقوموا بالدور القيادى المسئولين عنه . وأعلنوا أن :

« شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم .. وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية وقالوا انه لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » .

وقاموا قومة رجل واحد ، وتسلحوا وأرغموا هذا الوالى العثمانى على

---

(١) ومن ذلك أن الجنرال كليبر بعد أن اخمد ثورة القاهرة الثانية ، دعا اليه العلماء والمشايخ فبكروا بالذهاب (ولبسوا أفخر الثياب) .. وطمع كل واحد فى « المناصب » المصدر السابق ، حوادث ١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م .

الرضوخ لهم وفرضوا رأيهم معلنين على لسان السيد عمر مكرم أنه من قديم الزمان لهم حقهم فى عزل الوالى الظالم ، بل السلطان نفسه اذا خرج عن حكم الشرع (١) .

هذا العمل الكبير الذى قام به العلماء والمشايخ فى عزل والى مصر العثمانى سنة ١٨٠٥ ، وتولية محمد على ، كان فى نظر عبد الرحمن الجبرتى عملا يتسم بقصر النظر وعدم التبصر . وكان هذا يرجع الى ما كانت عليه نظرة الجبرتى الى شخصية (محمد على) على اعتبار انه لا يختلف عن غيره من الطامعين فى حكم مصر ، ولا شك أن محمد على كان ذكيا عندما تولى الحكم من يد زعماء الشعب الحقيقيين حينذاك ، واستطاع هؤلاء أن يقدموا له خدمات كبيرة كان أهمها ذلك الموقف الكبير الذى وقفوه عندما جاءت الحملة الانجليزية على مصر بقيادة الجنرال فريزر ١٨٠٧ ولكن هل كان هذا يقنع محمد على بانه من الأجدى أن يكون الحكم شركة بينه وبين العلماء ويرتفع مبستوى الحكم والادارة بشكل يشارك فيه الشعب برجاله .

لقد كان محمد على باشا حاكما من الطراز التركى الذى يركز السلطات فى يده ويرفض أن يشاركه أحد السلطان ، مما جعل عبد الرحمن الجبرتى يحمل عليهم بشدة مثاليتهم تخليهم من وقت لآخر عن وقار العالم وما ينبغى له من مكانة وتقدير .

وكانت مكانة العلماء والمشايخ ، رغم تلك الذروة التى بلغوها بعزل الوالى التركى وتولية محمد على — قد أصابها الكثير من التفكك والتباغض ، والتكالب على المناصب والأرزاق ، وعرف محمد على ذلك فيهم فوضع خطته للانفراد بالسلطة ووصف الجبرتى كيف تحقق لمحمد على هذا حين فرض الأموال على الأرض التى كانت بأيديهم اسوة بسائر الأراضى المصرية ، كما قام بتفريق كلمتهم والايقاع بينهم . ثم وجه ضربة شديدة الى أقوى الزعامات المعارضة بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط والتاويح بمناصبه وأوقافه الى بعض العلماء المتهالكين على السلطان ، ووصفهم الجبرتى أبلغ وصف حين قال عنهم :

وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم .. الا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م .

بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان . واجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلقة والكرابيج .. واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم .. وصارت لهم .. تحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب.. مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ، ومخاصماتهم القديمة مع بعضهم ... وانقلب الوضع فيهم بضده .. مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء والتطلع فى الأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء .. والتعريض بالطلب واظهار الاحتجاج لكثرة العيال .. وارتكابهم الأمور المخلفة بالمروءة ... كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة ، واعطاء الحوافز والنقوط بمناداة الخلبوص .. فى السامر وهو يقول .. بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى وهو يخاطب رئيسة المغانى يا ستى حضرة شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا كذا من النصفيات الذهب .. نتيجة التفاخر والكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات الواجب عليهم النهى عنها كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة ... فى كل مجتمع .. الى غير ذلك (١) .

تلك كانت حالة بعض العلماء والمشايخ كما صورها الجبرتى عندما « أخذ الباشا يدبر فى تفريق شملهم » حيث أنهم كانوا قد « تعاهدوا .. وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » لمنع الباشا من متابعة ضرباته الاقتصادية لمداخيل العلماء . وعقدوا الاجتماعات والجلسات لتحديد خطوات العمل ، ولكن « انفتح بينهم باب النفاق » واستمر القال والقيل ، وكل حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره ، وكانت فرصة كبيرة أمام « محمد على » كى يقرب اليه عددا من كبار العلماء من أمثال (الشيخ المهدى) الذى كان يخشى أن يتفوق عليه السيد عمر مكرم الذى كان يخوف محمد على « بقيام الجمهور ضده » ، وانتهز هذه الفرصة ليؤكد لمحمد على بأن عمر مكرم — الذى كان شديد المعارضة لمحمد على « لاستبداده ... اذا خلا عنا فلا يسوى شىء » بينما اتهم عمر مكرم العلماء قائلا لهم : « أنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .

تصدونه بكلمة وانا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذا ووجه عليهم اللوم فى نقضهم العهد والأيمان . وهكذا عرف محمد على كيف يعزل عمر مكرم — اقوى شخصية فى ذلك الوقت ، واصر على نفيه ، ليذهب من بعد ذلك الشيخ المهدى عند الباشا طالبا « وظائف السيد عمر .. فى نظير اجتهاده فى خيانته » .

ولكن يلصق ما حدث للسيد عمر مكرم بالمشايخ والعلماء ، حثهم « محمد على » على تنسيق عرضحال فى حق السيد عمر ، ومن وقع العرضحال تقرب من الوالى ومن اصحاب المناصب ، أما الشيخ احمد الطحاوى فقد تشبث بأن ما ورد فى ذلك العرضحال ليس الا « كلام لا أصل له ». فما كان من المشايخ والمتصدرين الا أن عزلوه من « افتاء الحنفية » واحضروا الشيخ حسين البشرى وركبوا وطلعوا به القلعة .. بعد أن مهدوا القضية .. وخلعوا عليه .. ايضا خلعهم » .

ويرى الجبرتى ان ما حاق بالسيد عمر مكرم انماهو نفسه مسئول عنه فالذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالما (١) سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا (٢) .

وبعد تلك الحادثة ، التى سحبت من المشايخ والعلماء قدرتهم على التحرك ضد الوالى القوى الشكيمة ، دبر لهم محمد على خطة تسحب ما كان بيدهم من حق اختيار شيخ الأزهر . فقد عرض عليهم للتداول فيه . وكان المنصب مغريا يتنازعه المشايخ منذ وقت طويل . فاختلفت الآراء ، فالبعض اختار الشيخ المهدى والبعض ذكر الشيخ محمد الشنوانى « ولكن لم يكن » له درس بالأزهر وكان شديد التواضع راغبا عن المناصب فاختار المشايخ الشيخ المهدى « ففرح الرجل وركب .. الى بيته فى كوكبة ، وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين وشربوا الشربات واقبلت عليه الناس للتهنئة » أما محمد على باشا فقد استبعد المهدى ، حتى يسحب منه هذه الخلفية الكبيرة المؤيدة له ، وحتى يثبت للجميع أن اليد العليا فى اسناد هذا المنصب الدينى الكبير للباشا وحده .

---

(١) يقصد محمد على .

(٢) أنظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م .

مخلع على الشيخ محمد الشنوانى .. وجعله شيخا على الأزهر « وأرسلوا اليه الطباخين والفراشيين والأغنام والأرز .. وازدحمت الناس عليه ، وأتوا أفواجا اليه .. للتفرج على الشيخ الجديد وكأنه لم يكن طول دهره بينهم » (١) .

على تلك الصورة أصبحت طائفة المشايخ والعلماء ، من حيث العجز عن القيام بدورها القيادى ، وأصبحوا أداة فى يد محمد على للتخلص من خصومه .

وقد تألم احد المؤرخين المصريين من ذلك الأسلوب الذى اتبعه محمد على فى التخلص من الزعامة الشعبية ، وفى التحكم فى مشايخ وعلماء عهده فيقول :

« أكان محمد على على حق فيما ارتأى من ابعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والاستئثار به وحده . أكان ذلك ضروريا لكى يستطيع المضى فى خططه الاصلاحية ؟ .

ويبدو أنه بالغ فى التحوط حين سلك هذا السبيل ، ان كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه . ولو لم يبادر الى الاستعانة بهم فى جيوشه لما استطاع أن ينتصر .. نعم ، كان المصريون بعيدين عن أن يفهموا غاياته ومراميه ، وكانت عامتهم مستعدة للسخط عليه اذا اجبرها على بعض ما تكره من وجوه التحضر ، ولكن لا نزاع فى أن نفرا منهم كان قديرا على مجاراته ومتابعته بعد صبر قليل . وأن بعض أهلها كانوا اذ ذاك فى حالة معنوية من مجاراته وفهم مراميه اذا تفاهم معهم عليها .. وليس هناك أمة تهذبت . وارتفعت من غير معلم ، وليست هناك أمة تسمو وتعلو من انصراف حكامها عنها وتخذيلهم اياها » (١) .

ومن وجهة نظرنا أن دراسة نقدية لتلك الأزمة التى وقعت بين محمد

---

(١) أنظر ترجمة حياة الشيخ عبد الشرقاوى ، حوادث ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م .
(٢) د . حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، مطبعة حجازى ، الطبعة الثانية ، مارس ١٩٣٨ ، ص ١٤٤ ــ ١٤٥ .

على والزعامة الشعبية لتحتاج الى ان ناخذ فى الاعتبار اكثر من جانب آخر وعدم الاقتصار على امكانية قيام تعاون بين الطرفين أو من امكانية اقامة نوع من التنسيق بين القيادات المختلفة .

فمن المعروف فى الشرق حينذاك ان الحكم كان حكم اسرات ، وان الزعامات كانت حين تبتنى لنفسها ملكا كانت تهيىء فى نفس الوقت الظروف لاسرة حاكمة او لفئة حاكمة تحتكر الحكم والادارة والعسكرية ، ولا تعطى لاية قوة اخرى امكانية التسلط او فرض نوع من المشورة عليها . ولقد كان الأمر كذلك فى مصر ، فطوال العهد الفرعونى كان الحكم فى اسرات ، والبطالمة اسرة ومعظم العهد الاسلامى كان عهد اسرات حاكمة اما فى معظم عهود الفتح او الاحتلال فيحكم مصر ولاة ، وعندما تتهيأ الفرصة للتخلص من الحكم المركزى تظهر اسرة حاكمة . ومن ثم فان محمد على — وقد اتجه نحو اقامة حكم له فى البلاد — كان يؤسس اسرة حاكمة فى نفس الوقت . ومفهوم الأسرة الحاكمة هو ان تضع كافة أدوات الحكم والادارة والعسكرية والفكر تحت توجيهها . اما وقد بلغ الأمر بالمشايخ والأعيان ان قادوا حركة طرد الوالى العثمانى (خورشيد) ، وتولية وال جديد بشروطهم (محمد على) ، وقيادة حركة المقاومة العسكرية ضد الغزاة الأجانب (حملة فريزر) فانهم اصبحوا قوة يخشى على مستقبل محمد على واسرته من تحرك تقوده هذه الزعامة الشعبية .

على انه يمكن القول :

١ — ان طائفة المشايخ والعلماء ما هى الا جزء من المجتمع بخيره وشره ، وكانت تمت الى النظام القديم الذى كان محمد على يسعى الى تقويضه او التحكم فيه .

٢ — ان التطورات كانت تسير بسرعة اكثر من قدرة المشايخ — بصفة عامة — على ملاحقتها ومع ذلك بقيت طائفة العلماء ، وبقى معها نظامها التقليدى ولكن فقدت مكانتها الأولى بين شرائح المثقفين بنمو التعليم الحديث الذى ادخله محمد على فى البلاد .

قد ادت عمليات التحديث التى بدأت فى عهد محمد على ونمت فى عهد اسماعيل الى صعود دور (الافندية) وتراجع دور المشايخ فى تطور مصر الحديثة والمعاصرة .

الفصل السادس

عناصر المجتمع المصرى الحرفية والمذهبية

- الأتراك والشراكسة .
- أهل النوبة .
- القبائل العربية .
- الرقيق .
- الجاليات الأجنبية .

الأتراك

نظرا لما كان للأتراك العثمانيين من دور له مكانته فى التوجيه السياسى والاقتصادى لمصر ، وفى المجتمع المصرى فيجدر أن نلقى ضوءا عليهم خلال الفترة التى حكموا بها مصر حتى قضى على دورهم فى البلاد كسلطة .

وهناك مقولة مشهورة عن الأتراك بصفة عامة أنهم كانوا ينظرون الى المصريين الفلاحين نظرة استعلاء ، وأنهم كانوا أصحاب صلابة وقسوة وغلظة ، وصاحب ذلك أنهم كانوا لا يقبلون التغير وبالتالى يمكن وصفهم على الأقل بأنهم محافظون — ورجعيون ، وهى صفات أدت بهم الى نوع من الاستهتار بالغير وعدم قدرة على تقييم صحيح لمن هم أكثر منهم تقدما وأن هم أقل منهم حضارة ، ومثل هذا التكوين يؤدى الى سلوك غير سوى لا يقبل التوجيه السليم . وعند الخطأ يسعى الى تحميل المسئولية لغيره ، ويدفعهم هذا التكوين الى اتباع مسالك غير اخلاقية فى الوصول الى أهدافهم ، ومن ذلك أنهم كانوا لا يتورعون عن قبول الرشوة وتقديمها كلما تبينوا لأنفسهم مصلحة ، وأنهم كانوا يحتقرون الأوربى رغم أن الأوربيين كانوا متقدمين عليهم حضاريا .

الا أن تمسك التركى الشديد بالدين الاسلامى ولو ظاهريا جعل له فى المجتمع المصرى مكانة عالية وخاصة أن أنباء الكفاح التركى العثمانى ضد القوى المسيحية كان يتردد باستمرار فى أسماع الناس فى مختلف ولايات الدولة العثمانية الأمر الذى كان يقنع الناس بأن مسائل الأتراك

تمحوها تضحياتهم فى سبيل الاسلام ، ولقد كان هذا المفهوم سائدا حتى خلال فترات الهزائم المتتالية التى لاحقت الأتراك العثمانيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وكان من عوامل الاقتناع المصرى بالحكم التركى ان الأتراك كانوا على نفس مذهب اهل مصر « مذهب السنة » ولذلك كان المصريون لا يرون فيهم اى شكل من اشكال الغرباء ، وانما منطلق العلاقة ان المسلمين اخوة بغض النظر عن كونهم اعاجم .

اهل النوبة

ويشكل النوبيون فى مصر جماعة متضامنة لها صفاتها وتحتفظ بلهجتها المحلية الى جانب العربية العامية ، وهم بصفة عامة يتميزون بالأمانة والنزاهة والطيبة الطبيعية اى بالسليقة .

ونظرا لفقر منطقة النوبة ، فقد كانت الهجرة النوبية الى داخل مصر كثيرة ومتلاحقة ، وهم كثيرا ما يتركون اسرهم فى مواطنهم ليعودوا اليها بعد ان يجمعوا مبلغا من المال او يستدعون اسرهم واقاربهم للعمل فى مختلف الفرص المتاحة .

ومن المشكلات الاجتماعية التى قامت فى جنوب مصر ، وجود نوع من التميز العصبى بين ما هو (عربى) الأصل وما هو (نوبى) الأصل ومن الملاحظ ان التزاوج بين الفئتين (العرب والنوبيين) لا يقع الا نادرا . ولكن خلال النصف الأخير من القرن العشرين حدث تحول جوهرى فى العلاقات الاجتماعية بسبب تصاعد اعداد المتعلمين فى الطرفين مما — يقضى آجلا على مثل هذه الحالات الاجتماعية المرضية .

القبائل العربية

كانت القبائل العربية تموج فى الصحراء الغربية والصحراء الشرقية وكانت تشكل اقوى قوة ضارية وغير مملوكية ، بينما كان الشعب المصرى — فلاحين ، وحضرا — لا يملك قوة عسكرية يدفع بها عن نفسه شر العدوان .

وانه لمن المحوازين المطلوبة ان يكون البدو الرحل الذين لا يتمتعون

بمستوى حضارى يضارع الفلاح أو سكان المدن ان يكون البدوى أقدر على مواجهة قوى الطغيان الحكومية .

فلقد كان فى استطاعة القبائل العربية أن تتصدى للقوات الحكومية واذا ما شعرت بأن الهزيمة ستحل بالمقاتلين العرب ، فرت القبيلة بعيدا متعمقة فى الصحراء فلا تستطيع القوات المملوكية ادراكها فتمتعت هذه القبائل بنوع من الحرية ، ولكنه نوع من حرية التخلف ، فهى حرية لا تدفع بالقبائل الى أى تطور تقدمى ، وتعطى للبدوى مفهوما مزيفا للحرية والاباء والشمم .

ومن ناحية اخرى كانت هذه الحرية والأصالة العربية ذات وقع كبير فى نفوس الشعوب الاسلامية نظرا لأن الله خص العربى بنشر الدين الاسلامى اذ أنزل الله قرآنه الكريم على النبى العربى . ولذلك كان التشبه والتقرب من شيخ العرب من تقاليد العصر . وكان الانتماء الى أصل عربى من أمور الرفعة الاجتماعية .

ولكن هذه القبائل العربية مارست طغيانا مدمرا على الأراضى الزراعية فى الدلتا اذ فرضت سطوتها على الفلاحين وعاملتهم معاملة قاسية حيث ان الفلاحة والفلاح كان من الأعمال الدنيئة التى لا يرضى بدوى عربى ان يقوم بها وانما كان البدوى العربى يفرض نفسه بالقوة على الفلاحين مبتزا أموال المجاهدين بعرقهم .

ان مجرد وجود تشكيلات قبلية عشائرية فى العصر الحديث هو ظاهرة من ظواهر التخلف ، ومن ثم فان ترتيبها يأتى فى ذيل المستويات الحضارية سواء من حيث الوضع الاجتماعى أو الفكر السياسى أو المستوى الثقافى والاقتصادى .

ومع ذلك ، فقد كانت القبائل العربية اداة توفرت بسرعة لدى الحكومة المملوكية لمواجهة الحملة الفرنسية التى فاجأت مصر سنة ١٧٩٨ فانه من المعروف ان تعبئة قوات بسرعة من المجتمع الريفى من الأمور العسيرة بينما تعبئة قوات سريعة من القبائل امر ميسور . ولكن النتائج المرجوة من ذلك فى مواجهة قوات حديثة لا تقع ، وما يستطيعه البدو هو الكر والفر ومضايقة قوات الاحتلال لفترة تطول أو تقصر ولكن لا تستطيع

أن تحرر البلاد من المعتدى . ومع هذا ، فان للقبائل دورا له قيمته اذ كانت القوات القبلية تقوم بمتابعة القتال ضد المعتدى .

فلقد افادت حكومة المماليك من القوات العربية القبلية فى قتال الغزاة الفرنسيين من مصر واستخدموا القبائل العربية فى استباحة اجزاء واسعة من الدلتا وتمادت تلك القبائل فى السلب والنهب (١٨٠٤) .

ولكن المشكلة الرئيسية للوجود القبلى انه لا يقبل سلطة مركزية تفرض عليه ، ويرفض السياسة الواحدة للدولة ، فهم عنصر تفكك واضطراب فى المجتمع ، وبالتالى عنصر من عناصر التخلف والتعطيل للمشروعات العامة .

ولقد ادرك محمد على هذه الحقيقة تمام الادراك وهو يبنى مصر الحديثة ، ولذلك عمل على توجيه الضربات ضد القبائل المشاغبة ، وعمل على علاج المشكلة القبلية فى مصر علاجا جذريا بأن دفع القبائل الى (التوطين) ليصبحوا منتجين وليكونوا فى متناول يده . ولقد نجح محمد على الى حد كبير جدا فى خطته فى توطين البدو ، وتوقفت تعدياتهم على الأرياف وعلى طرق المواصلات .

وعندما عبأ محمد على قواته لحملته على الشام ، وعندما اصبحت التمردات الداخلية فى الشام ضد الادارة المصرية هناك متصاعدة الخطورة، استعان محمد على بالعشائر العربية لتعمل الى جانب قواته النظامية . ولقد استخدم محمد على هذه القوات العشائرية فى حملاته فى الجزيرة العربية وفى السودان كذلك .

ولكن هذه التشكيلات العشائرية عندما عملت مع قوة محمد على الضاربة لم تأخذ بأساليب القتال الحديثة ، وانما ظلت محتفظة بطابعها واسلوبها التقليدى فى القتال .

ولقد كانت هذه العشائر مفيدة فى العمليات الحربية فى الشام وفى شبه الجزيرة العربية نظرا لأن القوات النظامية الحديثة تواجه صعوبات فى ضرب القبائل الثائرة ، انما اذا اشتركت القوات العشائرية مع بعض القوات النظامية ضد القبائل المتمردة فان ذلك يشكل صعوبات خطيرة امام تحركات القبائل الثائرة .

وكانت هذه القبائل العربية مفيدة أيضا للتكتيك المصرى فى مواجهة قوات عشائرية كبيرة تقذف بها العثمانيون من العراق فى المعركة ضد القوات المصرية فى المنطقة الواقعة بين العراق والشام .

ومن ناحية ثالثة ، كانت هذه القبائل مفيدة لمحمد على فى معركته ضد الدولة العثمانية لأن جيشه النظامى كان مسئولا عن رقعة واسعة من الأرض تمتد من الفرات وجبال طوروس حتى جنوب الجزيرة العربية وجنوب وادى النيل ومن ثم كان فى حاجة الى كل قوة ضاربة مستعدة لدعم القوات النظامية المصرية .

ومن المعروف عن البدو العرب أنهم أصحاب شهامة ومروءة ونجدة وأنهم لا يقترفون خيانة وان كلمتهم محترمة ولا يسطون على الجار ولكنهم فى نفس الوقت لا يتورعون عن القيام بعمليات السطو الجماعية ونهب القوافل واغتصاب النساء من أهل المدن ان حانت الفرصة لهم وخاصة اذا كانت القافلة أو الجماعة غير اسلامية .

الى جانب ذلك فلدى البدو العرب مفهوم للأمانة يصل الى حد الائتمان على مسروقات أو على أسرار ضد الدولة أو القيام بعمليات غير مشروعة .

الأقباط

وصف كرومر المصريين الأقباط بأنهم لا يختلفون عن المصريين المسلمين الا من حيث طقوس العبادة . فالصبر هو صفة أصيلة فى القبطى ، والمرأة القبطية تعامل نفس معاملة المرأة المسلمة من حيث التقاليد الاجتماعية ومن حيث مكانتها ازاء الرجل ، والخرافات شائعة بين الأقباط ، وكذلك هم شديدو الكراهية للمذاهب المسيحية الأخرى فلا يتقبلونها الا بصعوبة بالغة بشكل فردى وليس جماعيا .

والواقع ان الكنائس الأوروبية الغربية هى الأخرى تنظر الى المصرى القبطى نظرة استعلاء وترى أن الكنيسة القبطية متخلفة وتحتاج الى يد أوربية لانقاذ ايمانها والأخذ بيدها وهو تصور غير مقبول بين جمهرة الأقباط فى مصر .

وبطريرك الأقباط يتولى منصبه بالانتخاب وبصدور براءة من حاكم

البلاد . وتستخدم اللغة القبطية فى الطقوس الدينية فقط بينما اللغة العربية هى لغتهم العادية اليومية .

وقد اشتهر اقباط مصر بالمهارة فى الأعمال الديوانية والمالية وهى مهارة لا تزال تؤثر فى الاقباط فى مصر حتى الآن .

الى جانب ذلك ، فهم يعملون فى التجارة ، وفى بعض الحرف التى تخصصوا فيها مثل (الحصر) وتقطير ماء الورد وعمل المنسوجات الكتانية .

لقد كان موقف اقباط مصر من الحملة الفرنسية فى بداية الأمر موقف المتخوف اذ لم يستجيبوا للتوافق الدينى بينهم وبين الفرنسيين ولكن ذلك الموقف لم يقدره عامة الشعب تمام التقدير الأمر الذى ادى الى تعرض الاقباط لبعض التعديات وهى تعديات وقعت كذلك لكثرة من البيوت والأسرات الاسلامية .

وكان من أبرز من تعاون مع الفرنسيين المعلم يعقوب الذى اشتهر بالجنرال يعقوب ، ولقد ذهب البعض الى اعتباره من رجال الحركة الاستقلالية المصرية ولكنه من وجهة نظرنا كان قد تخطى حاجز الوطنية الى دائرة التبعية للفرنسيين من اجل اهداف مسيحية ، ومع أننا لا نستطيع ان نحكم بدقة على اهدافه الا انه ليس الوحيد من زعامات عصره الذين انضموا الى هذا الجانب او ذلك من الدول الكبرى الأوربية .

فان الألفى بك فعل تقريبا ما يشبه ما فعله المعلم يعقوب . فلقد خرج الألفى بك من مصر مع الحملة الانجليزية بسنة ١٨٠٣ م ليعود مع حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ وفشل كل منهما فى تحقيق اهدافه ولكن التعاون بين المعلم يعقوب والأجانب يثير من الريب لدى القاعدة العريضة من الشعب اكثر بكثير جدا مما يثيره التعاون بين زعيم مسلم مثل الألفى بك واحدى الدول الكبرى الأوربية .

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر خشى الأقباط على أنفسهم وعملوا على جذب انتباه الانجليز اليهم ، ولا شك ان العديد من الأقباط تعرض لتعديات السلطات المملوكية وغير المملوكية خلال الفترة الواقعة بين خروج الحملة الفرنسية من مصر وتولية محمد على الحكم ، ولقد سلك

محمــد على مــع الأقبــاط الاثرياء نوعــا من الاستبدادية للحصــول على الأموال منهم فى أوائل عهــده بالحكم ، ولكن بعــد ذلك اتبع محمــد على اسلوبا حديثــا فى التعامل مع الأقبــاط ليس فقط من حيث حمايتهم من اية تعديات تقــع عليهم ولكن من حيث تقــديم الدولة لخدمات تعينهم على القيــام بالطقوس الدينية حتى لقــد ضجر الأهالى مما أصــاب الأقبــاط من زهو لم يكن معتــادا فى المجتمع المصرى فيما سبــبق ذلك من عهود .

فمن ابرز مــا يتميــز بــه عصر بنــاء الدولة الحديثــة فى مصر تلك الحــرية الدينيــة الواســعة التى تمتع بهــا الأقبــاط وخاصــة من حيث بنــاء الكنائس وتســهيل أمور الحج المســيحى القبطى الى القدس .

ولقد فتحت أبواب المناصــب العليــا أمــام اقبــاط مصر فى عهــد محمــد على ، فقد وصــل باسيليوس الى رئاســة المحاســبة فى عهد محمــد عــلى ، وحصــل منه على رتبة البكوية وهى رتبة لم يسـبق لقبطى ان حصــل عليهــا .

على ان التســابق الى المناصــب العليــا كان من العــوامل التى ادت الى صراع بين جبهتين قبطيتين كل منهمــا تحــدت الأخــرى عــلى تولى منصب من المناصب ، ومن ذلك ان أزمة عميقــة دارت بين المعلم جرجس والمعلم غالى واخذ محمــد على جانب المعلم غــالى ونفى الأول فما كان منــه الا ان أوقف أملاكه على الكنيســة . ويبدو ان هذه الأزمة بين جرجس وغــالى هى التى أدت فى نهــاية الأمر الى أن يلقى مصرعه فى ظروف غامضة .

حقيقــة كانت الجــزية تدفع ولكن ذلك كان فى مقــابل مســئوليات عسكرية لا يتحملونها وهى مسئولية القتــال من اجل مصر . ومع ذلك فقد تحدثت الوثائق عن ان الحــرية الدينيــة من اهم مبــادىء محمد على .

وكان الاقباط لا يطالبون بالانخراط فى سـلك الجنــدية من جانب الحكومة ، وكان الاقبــاط من ناحيتهم — مثل بقية عــامة الشــعب — غير مرتاحين للعمــل العســكرى الحديث او العمل العسكرى بصفة عامة .

الرقيـــــق

أما الرقيـق فكانوا مظهريا فى أسـفل قائمة الشرائح الاجتماعية ومع انه من المعروف أن الاسلام يحض على عتق الرقيق الا أن الممارسة كانت تسير نحو اطلاق الحـق فى الاسـترقاق . ومع ذلك فان مكانة الرقيـق فى المجتمـع الاسـلامى كانت أحسن بكثير جـدا من حالتـه فى أى بلد أوربى .

وكانت تجـارة النخاسـة رائجـة ولم تصبح مشـكلة الا عنـدما استنفدت أوربا حاجتهـا الى الاسـترقاق فهبت ضد هذه التجـارة اللا انسـانية فى الوقت الذى اسـتمر فيه مجتمع المسـلمين يقرها .

ولذلك ما ان جـاء القـرن التاسـع عشر حتى كانت الدول الكبرى الأوربية تلبس رداء الدفـاع عن الرقيق والضغط على الحـكومات الاسـلامية للتخلى من هذه التجـارة ، وهو أسـلوب حصلت من ورائه بريطانيا على توسـع استعمارى واسـع تحت سـتار العمل على منع النخاسـة .

كانت الغالبيـة العظمى من الرقيـق يعملون فى المنـازل وعـدد كبـير من الرجـال منهم كان خصـيا وكان يتولى مسـئولية رعـاية الحريم ، وكان هو نفسه يزهو بهذه المهمـة ، فضـلا عن أن منطلقـه فى ذلك هو منطلـق دينى ، فلقـد كان العبيـد — بصفة عامة — من المتمسـكين بالمبادىء الاسـلامية على قـدر ما كانوا يحصـلونه من علـوم الدين .

أما الجوارى فكن ملك يمين صاحبها ، وكان يبنى بها ، وأولاده منها شرعيون، وكثرة من الجوارى كن حبشـيات ، وكانت بعض الاغانى الفلـكلورية حتى وقت قريب تتحدث عن زفاف العروس وفى ركابها الجارية .

ولقـد أدرك محمد عـلى لا انسـانية النخاسـة ولذلك اصدر أوامـره بأن يحـد المسـئولون من الاسـترقاق . بـل لقـد تزعمت مصر فى عهـد الخـديو اسـماعيل مسـئولية مكافحة هذه التجارة اللا انسـانية فأرسـلت العـديد من الحمـلات العسـكرية الى السـودان والى أقصى جنوبه متكبدة خسـائر فادحة فى الأرواح والأموال . ولـكن غمطت أوربا حـق مصر فى هـذا الميدان ، فى نفس الوقت الذى لم يقـدر فيـه السـودانيون من تجـار الرقيق هذا الدور الانسانى،

فكان هؤلاء التجار من العوامل التى اشعلت الثورة المهدية فى السودان ضد الادارة المصرية .

الجاليـــات الأجنبيـــة

خلال العهد العثمانى كان توارد الأجانب على مصر محدودا ، وكانت الجاليات الأجنبية قليلة ، واغلبيتها من التجار فى المدن . ولقد بلغ الأمر بالحكومة الانجليزية أنها أغلقت قنصليتها فى مصر لعدم جدواها وذلك قبل هبوط الحملة الفرنسية ارض مصر ، أما الجالية الفرنسية فكانت تعانى من ضغط المماليك عليها حتى كان أحد دوافع فرنسا لارسال الحملة الفرنسية لتوجيه ضربة تأديبية للمماليك .

وبتولى محمد على ، ومع بداية عهد الانفتاح على الدول الأوربية المتقدمة ، وتصاعد الدور المصرى السياسى والاقتصادى تكاثر وصول الأجانب الى مصر وتوالى فتح القنصليات الأجنبية أو تنشيط ما كان قائما منها ، ومع ذلك فقد كانت أعداد الأجانب فى مصر محدودة خلال عهد محمد على ، ولكن شوكة القناصل — وخاصة قنصلى انجلترا وفرنسا — كانت تتصاعد .

ولقد ثبت من دراسة نشاط القناصل انهم كانوا لا يعتمدون على مرتباتهم فقط بل كانوا يشاركون فى الأعمال التجارية وجنوا من وراء ذلك ثروات كبيرة .

وخلال عهد محمد على تزايدت اعداد البيوت التجارية الأجنبية ، ولكن هذا التزايد سار بخطوات أسرع بكثير جدا فى عهد الخديوى اسماعيل . بل لقد ظهرت فى عهده مدن ذات طابع أوربى شكلا وسكانا مثل بورسعيد .

ولا شك ان اهتمام محمد على برفع مستوى التصنيع فى مصر هو الذى فتح ابواب مصر فى عهده ومن بعده أمام اعداد كبيرة نسبيا من العمال والفنيين الأوربيين وقد تزايدت معدلات هجرة أمثال العمال والفنيين الى مصر فى عهد الخديو اسماعيل ومن بعده .

وخلال ذلك كانت تتوافد على مصر أعداد من الانتهازيين اللا أخلاقيين من العمال الأوربيين ، انضم الى زمرتهم من لا يجد عملا مناسبا ، واغلبية من هؤلاء كان ينخرط فى أعمال لا أخلاقية وغير شرعية ، حتى قد اضطرت الحكومة

المصرية الى طرد واعادة أعداد ليســت بالقليلة منهم الى أوطانهم تجنيبــا للبلاد من شرورهــم ٠.

وخـــلال الفترة التى ســبقت الحملة الفرنســية على مصر كانت هنـــاك مشروعات أوربيــة متعددة اســتهدفت استغلال موقع مصر وامكانياتها حتى انه قبيل مجىء الحملة الفرنســية على مصر كانت فرنســا عندما تعقــد معاهدة مع المماليك تسرع انجلترا الى عقد معــاهدة معهــم حتى لا تنفرد فرنســا بالنشـــاط فى مصر ٠

ولا يكاد محمد على يفتح مصر على حضارة العــالم الأوربى ، حتى تصاعدت تطلعــات الدول والبيوت التجــارية والأفراد الى مصر على اعتبار أنهــا مجــال بكر للاســـتثمار ٠

ولقد كان محمد على واعيــا تماما لخطورة فتح أبواب مصر امــام الاستثمار الأجنبى ، وكان حذرا تماما وأدى ذلك الى أن تكون المشروعات الاستثمارية الأوربية فى مصر محــــدودة ، ولــكن فى نفس الوقت كان يدرك ان مصر فى حــاجة الى المشروعات الأجنبية وان الأجانب كانوا مســـتعدين لتقــديم الخبرة وراس المــال للاســـتثمار ، ولذلك ظهر العديد من المشروعات الاستثمارية وخاصة فى المجــال الزراعى ولكن تحت عين محمد على ورجاله ٠.

لقــد وجــد محمد على نفســه مضطرا وهو يبنى مصر الحديثة انه فى حاجة ماســـة الى الخبــرة الأجنبيــة فى مختلف جوانب الحيــاة الانتاجيــة والفــكرية والعســكرية ، ولذلك اســـتخدم العديد من الخبراء منهم من ترك بصمات هامة فى تحديث مصر من أمثال الكولونيل ســيف (سليمان باشــا الفرنساوى) وكلوت بك وهامون ولينــــان وغيرهم من مختلف الجنســيات ٠

٠ وكان موقف الأتراك وعلماء الدين من هؤلاء الخبراء مليئا بالحذر والمخاوف ٠ فقــد كان الأتراك ، ينظرون بعين الحقــد الى هؤلاء الذين شــغلوا المناصب القيــادية العليــا وحصلوا على رواتب وامتيازات كانوا يتمنون أن تقتصر عليهم ٠.

أما علمــاء الأزهــر فقد كانوا أكثر العنــاصر تقــديرا لخطورة الاســتعانة بالأجانب وبرؤوس الأموال الأجنبيــة ٠ فقد كانوا ينظرون اليهم من زاوية ســـوء الظن اذ كانوا يعتقــدون أنهم حتى ولو قدموا لمصر أدوات الحضارة فذلك بهدف

ضرب مصر قاعدة الاسـلام . وكان من هؤلاء من يرى خطورة اسناد الوظائف القيادة الى الأجانب وخاصة أن هؤلاء الأجانب لا يقومون بتكوين صف ثان لهم من المصريين .

حقيقة كان بعضهم يدرك قيمة الأخذ بالحضارة الغربية ويدعو الى ذلك ولكن بشرط ان يحافظ المصرى على شخصيته ودينه .

وكانت هناك شواهد عديدة على الانسجام بين العمال المصريين والقيادات الأجنبية ، ولقد وقعت منازعات بين الطرفين وهناك من يرى أن السبب الرئيسى وراء هذه المنازعات اختلاف مفهوم العمل لدى الأجنبى عنه لدى العامل المصرى .فالعامل المصرى لم يتعود الدقة فى العمل ، والخبير الأجنبى من جانب آخر يجد صعوبة فى تبليغ رسالته الى العامل المصرى ، فضلا عن مشاعر الألم الدفينة لدى المصرى الذى وجد نفسه تحت امرة أجنبى .

وبتوالى الهجرات الفردية الى مصر فى عهد محمد على ظهرت جاليات تمثل معظم الدول الرئيسية فى أوربا : انجليز وفرنسيون وايطاليون ويونانيون واسبان وروس فضلا عن يهود وأرمن . ولكن بصفة عامة كانت أكبر الجاليات الأجنبية فى مصر فى عهد محمد على هى الجاليات اليونانية والفرنسية . وكان محمد على أكثر ميلا نحو الفرنسيين ، ولذلك تكاثروا فى مصر فى عهده ، بينما كانت اليونان منطقة طرد بشرى وعلى دراية مسبقة بأحوال مصر . وعلى مستواهم كان الايطاليون (١) الى حد كبير .

كانت اليونان حتى ١٨٢٣ — ١٨٢٧ تحت السيطرة العثمانية ، ومن ثم كانوا رعايا عثمانيين بسلادهم تعانى فقرا واضحا ، ولذلك عملوا فى أوجه النشاط البحرى وهاجروا الى بلاد الليفانت ، وعندما نزلوا فى مصر كانوا لا يقتصرون على العمل فى المدن وانما كانوا منتشرين فى المدن الصغيرة والقرى وكانوا مشهورين بالاعمال التجارية الصغيرة .

---

(١) لم تكن هناك ايطاليا الموحدة حينذاك وانما تمت الوحدة الايطالية فى سيتينات وسبعينيات القرن التاسع عشر .

اما الارمن فقد عرفوا بالنشاط التجارى كذلك ولكن كانت لهم مميزات خاصة وهى معرفة أكثر من لغة الأمر الذى أهلهم لوظائف الاتصال مع الأجانب فضلا عن أعمال السكرتارية والترجمة وهى أمور كانت تعوز الحكومة المصرية الناشئة .

أما الفرنسيون فقد كانت حكومة محمد على ترحب بهم أكثر من ترحيبها بالانجليز ، وذلك بسبب ميل محمد على الى الفرنسيين بشرا وحضارة ، ويبدو ان هناك نوعا من الانسجام النفسى بين الفكر الشرقى والفكر الفرنسى والذى يتميز عن الفكر الانجليزى من حيث التأثر بحضارة البحر المتوسط .

ولقد كانت ظروف فرنسا فى أعقاب هزيمة نابليون قد جعلتها منطقة طرد وخاصة للعناصر العسكرية التى سرحت من الجيش أو خشيت على نفسها من نقمة البوربون الذين عادوا الى العرش على جثث رجال نابليون (١٨١٤ — ١٨١٥) .

اما السوريون المسيحيون فكانوا على اتصال مستمر بأحوال مصر ، وعلى نشاط ملحوظ فى المجالات التجارية ، ونظرا لأنهم كانوا رعية عثمانية كانت حركتهم الى مصر أكثر سهولة فضلا عن قرب المسافة .

ومع تصاعد اعداد الجاليات الأجنبية فى مصر تصاعدت المخاوف الشعبية منهم فضلا عن عوامل الضيق من هذا النشاط الأجنبى وخاصة بين العامة . وكثيرا ما كانت تقع اعتداءات هوجاء على الأجانب يقوم بها العامة أثناء الفتن . ولكن حسب ما ورد فى كتاب المؤرخ المصرى المعروف عبد الرحمن الجبرتى ، كان يتعرض لهذه التعديات الأجانب والمصريون على حد سواء .

لقد كان هناك عدم ثقة لدى المصرى ازاء الأجنبى ، وكانت بعض الأزمات تنسب الى مكرهم و (افاعيلهم) وبصفة عامة كان هناك شعور عام بان الثقل الحضارى الغربى على مصر يهدد مستقبلها .

ولقد ضاق محمد على فى أكثر من مرة من دخول الأجانب الى مصر

دون تصاريح الأمر الذى يعرض البلاد لمجيء واقامة من لا يفيدها ومن يستطيع أن يثير المتاعب والشغب دون ان تدرى عنه الادارة شيئا . ولذلك عنيت حكومة محمد على بأن لا يدخل مصر من الأجانب الا من كان يحمل تصريحا بذلك .

بصفة عامة كان اليهود فى مصر — مثلما كانوا فى معظم البلاد الأوربية — يعيشون حياة صعبة ليس فقط بسبب ما عرف عنهم من تقتير شديد على أنفسهم ولكن كذلك بسبب ما شاع فى العصور الدينية من نظرة تحقير لهم هم ساهموا فى تعميقها (*)

ولقد كان من أسباب تلك النظرات المريبة الى اليهود فى مصر أنهم كانوا يتعاملون (بالربا) وهو محرم فى الدين الاسلامى . ولقد مهر اليهود فى بعض أنواع الحرف ، وخاصة صياغة الذهب ولكن نجاحهم الأكبر كان فى ميادين التجارة والصيرفة .

الفصل السابع

رؤية فى التركيب الاجتماعى

(النصف الأول من القرن التاسع عشر)

من العسير على اى باحث ان يحدد تعداد مصر بدقة خلال معظم فترات القرن التاسع عشر . وان كان فى الفترة الأخيرة منه أمكن الحصول على تقديرات يمكن الاعتماد عليها ، ولكن مع تحفظات كثيرة . والمؤكد ان تعداد مصر كان فى تزايد منذ مطلع القرن التاسع عشر واستمر ذلك التزايد سمة من سمات المجتمع المصرى حتى أصبح فى النصف الثانى من القرن العشرين ظاهرة من أخطر الظواهر التى تهدد اقتصاديات الدولة والدخل القومى والدخل الفردى باشد الاخطار .

يقدر تعداد مصر فى أيام الحملة الفرنسية على مصر بحوالى ٢ر٥ مليون نسمة ، وفى نهاية عهد محمد على ارتفع الى الضعف تقريبا ٤ر٥ مليون نسمة وذلك خلال نصف قرن تقريبا (النصف الأول من القرن التاسع عشر) . ولا شك ان هذا النمو فى عدد سكان مصر فى عهد محمد على يرجع الى ما حظيت به مصر خلال ذلك العهد من نقلة فى الرعاية الصحية للسكان .

حقيقة لم يحدث توسع يذكر فى الخدمات الصحية فى القرى ، ولكن هذه الخدمات الصحية فى المدن وخاصة فى العاصمة كانت واضحة ومن ذلك الجهود التى بذلت للقضاء على مصادر الأمراض مثل البرك ، حتى لو كانت بركة الازبكية ، التى كانت تعتبر واحدة من متنزهات القاهريين . وبعد ردمها أنشئت مكانها حديقة غناء . ولا شك ان ردم البرك وازالة تلال القمامة حد من انتشار الاوبئة والأمراض فى العاصمة .

فانه لأمر ذو مغزى أنه رغم ما حدث فى عهد محمد على من أوبئة — وان كانت شراستها أقل عن ذى قبل — وما ترتب عن الحروب وعن السخرة من خسائر ظلت أعداد مصر فى النمو والتزايد . ومعنى ذلك أن الاجراءات الصحية

وسريان المفاهيم الوقائية كان من اهم العوامل التى ساعدت على اعطاء دفعة الى معدلات النمو السكانى .

وهناك عوامل — شبه دائمة — كانت تؤدى الى نمو تعداد سكان مصر من اهمها :

١ — الاعتقاد لدى الأسرات انه يجب أن يكون لهـا (عزوة) فكلما كثر عدد الذكور فى الأسرة كانت تمتز بنفسها ، وأكثر اطمئنانا على أموالها وعلى مواجهة الخصوم والشدائد .

٢ — هناك مقولة سائدة عن أن المرأة المصرية ولود كثيرة الانجاب .

٣ — على أن التبكير بالزواج — سواء للشاب أو الفتاة — يعتبر من التقاليد الاجتماعية السائدة فى مصر .

٤ — وهناك قول بأن تعدد الزوجات ، من العوامل التى تعمل على زيادة نسبة المواليد .

٥ — وظهر عامل جديد فى القرن التاسع عشر ، هو أن محصول القطن — الذى اصبح يزرع فى مساحات واسعة — يحتاج الى اعداد كبيرة من الأيدى العاملة — وخاصة من الصبية والفتيات الصغيرات . وهذا المجال من العمل كان يدر دخلا على رب الأسرة الفقيرة ، ولذلك كان يرى فى زيادة عدد الأطفال استثمارا مناسبا له .

واذا حاولنا تصنيف المجتمع المصرى الى طبقات أو الى فئات أو طوائف اصطدمنا بمناهج عديدة متخصصة فى هذه التصنيفات من زوايا أيديولوجية . ومن وجهة نظرى لا يجدر الأخذ بالمناهج الأيديولوجية فى عملية التصنيف هذه ، نظرا لأنها مناهج أيديولوجية غربية أفرزها الفكر الاجتماعى الأوروبى . وحيث أن المجتمع المصرى جزء من المجتمع الشرقى فلا يجدر — من وجهة نظرى — أن نطبق المفاهيم والأيديولوجيات الأجنبية على المجتمع المصرى فتطبيقها سيؤدى الى نتائج تبدو — من الناحية النظرية — سليمة ولكن لا تعطى نتائج حقيقية تمكن من القيام بعمليات تخطيطية لتنظيم المجتمع واقتصادياته وعلاقاته الاجتماعية .

فبادىء ذى بدء — من وجهة نظرى — لا يصلح التقسيم الى طبقات فى المجتمع المصرى ، وهذا التقسيم الى طبقات من منطق التطورات الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية فى أوربا من عصر الاقطاع — الذى كان فيه الفرد الأوربى مجرد قن لدى سيده الاقطاعى — الى عصر الملكيات المستبدة ذات الحق الالهى فى الحكم ، الى عهد الثورات البرجوازية الراسمالية والملكيات المقيدة والنظم الاشتراكية والشمولية القائمة على النظرية الماركسية .

هذه التطورات لم تحدث فى مصر ، والمجتمع المصرى لم يتعرض لتلك التطورات . حقيقة كان فى مصر اقطاع ، ولكن هذا لم يكن يعنى مطلقا أن المصرى أصبح قنا . فقد ظل الفلاح حرا . وذلك لأن الفكر الدينى الاسلامى لا يستعبد حرا . ومفهوم القنية والعبودية والعبيد كان يطبق على ما يشترى من رقيق أبيض أو أسود فى الغالب الأعم .

واذا وضعنا فى اعتبارنا ذلك الاتجاه الفكرى الذى يفرق بين أساليب تصنيف المجتمع المصرى وأساليب تصنيف المجتمع الأوربى عبر العصور ، فاننا نستطيع ان نوزع المجتمع المصرى الى فئات ، وليس الى طبقات . وذلك لأن الطبقية فى أوربا تعنى :

١ — اغلاق كل طبقة على نفسها بحيث لا تسمح للطبقة الأخرى بالنفاذ اليها .

٢ — وبالتالى فان المجتمع الأوربى كان مهيا — الى حد ما — لما قال به ماركس من صراع طبقات . وحتى هذه النظرية الخاصة بالصراع الطبقى ثبت أنها مهزوزة حيث أن ماركس كان يتوقع ثورة البروليتاريا فى الدول الصناعية المتقدمة ضد البرجوازية والرأسمالية ولكن الذى حدث أن الدول الصناعية المتقدمة لم تتعرض لهذه الثورة بينما تعرضت لها روسيا التى كانت فى طور أقرب الى الاقطاع منه الى أى شىء آخر .

وحيث ان المجتمع المصرى — بمفاهيمه الدينية الاسلامية وبتقاليده الاجتماعية — لا يمنع من انتقال الفرد من مستوى اجتماعى الى آخر ، وانه لا توجد طبقة محرمة على أى فرد من افراد المجتمع ، فاننا لن نستخدم تعبير طبقة ، وانما سنستخدم تعبيرات (الشريحة — الطائفة — الفئة) .

ولكن كيف نصنف (المماليك) و (افراد الأسرة العلوية الحاكمة) وهم كانوا يمثلون تركيبا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا اغلق على نفسه ، مانعا من يريد الدخول اليه ليحتفظ بكيانه وتركيبه .

فالمماليك من وجهة نظر أوليجاركيه حاكمة مستبدة احتكرت السيف والحكم والتسلط الاقتصادى . ولكنها لا ترقى الى مستوى (الطبقة) ، ونهاية المماليك فى مصر ونهاية الطبقة الارستقراطية الحاكمة فى أوربا تقدم لنا الدليل على وجهة الاختلاف بين مفهوم (الطبقة) الغربى ومفهوم الأوليجاركية التى تمثل طائفة ذات طابع معين خاص بها .

فالثورات التى شنتها البرجوازية والبروليتاريا على الرأسمالية وجهت ضربة قاصمة للطبقة الأرستقراطية ، فسلبتها ما كانت تحتكره وما كانت تتمتع به من امتيازات ، ووهنت الطبقة الارستقراطية من بعد فى المجتمع ، بمعنى ان المجتمع امتصها بطريقة او بأخرى .

اما المماليك ، فقد أخذوا اخذ عزيز مقتدر ، واجتثوا اجتثاثا من المجتمع المصرى بالقتل والتشريد (مذبحة القلعة وما تبعها) . ولم تقم لهم من بعد قائمة .

اما الأسرة الخديوية التى أسسها محمد على والتى حلت فى الحكم محل المماليك . فانه يمكن وصف مؤسسها بانه اقرب ما يكون الى مفهوم الحاكم المستبد العادل الذى وضع أساسا لحكم ملكى وراثى يعتمد على ما يمكن وصفه بالصفوة الحاكمة من الاتراك والشراكسة وذوى المقدرة من المسلمين وغير المسلمين من المصريين وغير المصريين .

ان انتقال الحكم من الأوليجاركية الملوكية المستبدة بالشعب الى يد محمد على ومن بعده الى ورثته ، هو انتقال منطقى من حكم (القلة) المتنافسة الى حكم الفرد الذى احتفظ بسلطات المماليك مجتمعة . وبذلك بدأ حكم (الملك المستبد) . وأى نظام ملكى أو شبه ملكى غالبا ما يستند الى طائفة تدعمه يثق فيها فى مجالات الادارة والقيادة ، ويعتمد على جيش وطنى . وهذا ما حدث فى عهد محمد على . فاتخذت مصر شكل الدولة القومية — دون أن تعلن ذلك — وظل ارتباطها الوثيق بمفهوم (الولاية) التابعة للسلطان العثمانى سارى المفعول .

أما من كان يثق فيهم محمد على وخلفاؤه فكانوا من شريحة ذات تميز عرقى واضح ويمكن ان نطلق عليهم الأتراك والشراكسة والمتتركين .

فالاسرة الحاكمة (اسرة محمد على) يمكن أن نصفها بانها الصفوة الحاكمة العليا صانعة القرار السياسى ، والاتراك الباشوات والبكوات الذين يشكلون جهاز الادارة والقيادة العليا — هم من وجهة نظرنا — يشكلون (الصفوة الحاكمة منفذة القرار) . فالغالبية العظمى من هذه (الصفوة الحاكمة المنفذة للقرار السياسى) شغلوا مناصب الادارة العليا والمديرين والقيادات العسكرية والوظائف الرئيسية .

هذه الصفوة الحاكمة بشريحتيها ذات صفات تميزها ، ومن أهم هذه الصفات :

١ — الاشتراك فى العرقية التركية او الشركسية .

٢ — استخدام اللغة التركية والميل الى استخدام لغة اجنبية وخاصة الفرنسية .

٣ — الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية فى السلوك الاجتماعى .

٤ — الشعور بانهم اقدر على توجيه امور البلاد حتى لو لم يكونوا قد اعدوا لذلك .

٥ — احتقار المصريين (اولاد العرب) .

هذه الصفوة الحاكمة كانت تتمتع بالثروة على هيئة حيازة مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية الأمر الذى وضع فى ايديهم رءوس اموال سائلة كبيرة .

ويلاحظ ان هذه الصفوة الحاكمة استخدمت اموالها السائلة فى مختلف جوانب الحضارة الحديثة ولكن فى مجالات استهلاكية ، اذ لم تقتحم هذه الراسمالية ميدان اقامة المؤسسات الانتاجية او الصناعية فقد كانت تفضل استثمار اموالها فى شراء الاراضى الزراعية والعقارات المبنية .

بل انهم حين استثمروا اموالهم فى شراء المزيد من الأراضى الزراعية لم يعمدوا الى استخدام اساليب الانتاج الزراعى الحديث حينذاك ، وانما ارتكنوا الى تلك الأساليب القديمة .

ومن ثم كانت هذه الصفوة ذات دخل وفير وراسمال ضخم اضاع

فرصــة ذهبيــة لتطوير اســاليب الانتــاج فى مصر ، فكانت بذلك عاملا رئيســيا من عوامل اســتمرار التخلف الاقتصــادى فى مصر رغم مظهــر الطفرة الذى بدا عليــه الاقتصــاد المصرى فى عهــد محمــد على .

خلال عهــد محمــد على اعطيت الفرصــة — وعلى نطــاق اوســع بكثير جدا عن ذى قبل — لنمو كبير فى شريحة فى المجتمع ، ويطلق البعض عليهــا الطبقة الوسطى او الطبقــة البرجوازية ، ولكننــا نفضــل ان نطلق عليها تعبير الفئــات الوسطى فى المجتمع المصرى نظرا لأنها كانت من العــديد من الفئــات دون ان تأخذ بظاهرة التضــامن والتآزر الأمر الذى افقدها القدرة على الظهور بمظهر الطبقة .

هذه الفئات الوســطى كانت تتألف من التجــار الكبار والمتوسطين والعلماء ورجال الدين فى المستويات العاليــة واعيــان الريف من كبــار المــلاك والموظفين ذوى المناصــب الراقية الذين يتولون مسئوليات كبيرة فى مختلف الادارات الحكومية، مثــل القضــاة ومديرى المــدارس والادارات . ومن بين هؤلاء خريجو المــدارس الحديثة ومن عــاد من بعثات محمــد على الى الدول الأجنبية المتقدمة ، والضباط من المستوى التالى لمســتوى القيادات العليــا .

وهــؤلاء كانــوا يرون فى الصــفوة الحــاكمة مثــلا اعلى وكانت لــدى بعضهم تطلعــات للوصــول الى الصــفوة الحــاكمة المنفذة للقــرار السياسى . ولكن قلة قليلة جــدا هى التى توصــلت الى ذلك وعلى رأســـهم رفاعة رافــع الطهطــاوى والمحروقى التــاجر المصرى الذى كان دعامة من دعائم الســياســة الاقتصــادية ايام محمــد على .

تميــزت هذه الطــوائف بالاقبــال على تربيــة ابنــائهم تربيــة حديثــة فى المــدارس والبعثــات التى نظمتهــا الــدولة . وكانت بالتــالى تقتبس من أدوات الحضــارة الغربية ، وكذلك من مظاهر السلوك الراقى التركى .

وهى كذلك معنية عناية كبيرة بحيازة الأراضى الزراعيــة ، والظهور بمظهــر الارتباط بالصفوة العليــا بصورة ما من الصور .

ويرى أحــد البــاحثين الالمــان أن المثقفين والذين عــادوا من البعثــات التعليمية والذين تخرجوا من المدارس العاليــة الحديثــة — وهم احدى الفئــات الوسطى — كانوا بمثابة خبراء لدى صــانعى القرار الســياسى (الصفوة) .

ان هذه الفئات الوسـطى من المثقفين اصبحت ذات مكانة فى المجتمع المصرى ، بل يمكن القول ان هؤلاء بنوا طائفة جديدة فى المجتمع هى (الافندية) الذين تفوقوا على طائفة العلماء والمشايخ . واستمرت هذه الظاهرة ونمت حتى الآن .

ورغم تراجع طائفة العلماء والمشايخ فقد ظلت ـ ولا تزال مكانتهم قوية بفضل علمهم الدينى ومكانة الأزهر الشريف ، وحاجة الحاكم من وقت لآخر الى مساندتهم الفكرية والسياسية . كذلك كان الأعيان يعنون عناية خاصة بعلاقتهم بالعلماء والمشايخ لما لهم من مكانة خاصة فى نفوس الناس ولدورهم القيادى الدينى .

اما الفلاحون والحرفيون والصناع والعمال والاجراء فهم الذين يشكلون القاعدة الشعبية العريضة المنتجة ذات المستويات الهابطة والدخول المحدودة للغاية . ولكن مع فوارق فيما بينهم .

الفلاحون حدث لهم نوع من التطور من حيث الانتقال من مستوى (الفاعل) فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى الأرض لحساب الدولة الى مستوى شبه المالك الى المالك فى النصف الثانى من ذلك القرن . علما بان ملكية معظم الأرض ـ بصفة عامة ـ كانت من نصيب الطوائف الأعلى اكثر من ان تكون من نصيبه . وظل الفلاح هو الذى تقع عليه اعباء الانتاج وتزويد الخزانة بالأموال لتغطية تكاليف الادارة والمشروعات فضلا عن اسراف الصفوة الحاكمة .

وكانت ثقافة الفلاح موروثة ومحدودة ، وكذلك كانت ثقافة المهنى ، والفلاح من الناحية النظرية يستطيع الارتفاع من مستواه ، ولكن قنوات الارتفاع هذه كانت محدودة للغاية ، واقصى ما يستطيعه هو أن يكون مالكا لقطعة ارض تجعله يعيش حياة افضل من الحضيض الذى كان يعيشه الفلاح الأجير او المستأجر لأرض .

واذا كانت هناك مؤسسة تحافظ على كيان الفلاح فهى الأسرة الكبيرة لما كان يجرى فى داخلها من عرف عريق وهو التكافل الاجتماعى والتعاون التلقائى فيما بين افراد الأسرة . الا أن هناك من يرى أن هذا الشكل

من الأسرة الكبيرة كان من عوامل ضـياع الفرد فى المجموع وما يترتب عن ذلك من اغلاق مجـالات الابتكار والتطوير .

وادت الاجـراءات القانونية فى عهـد سـعيد باشـا الى فتح باب الملكيـة امام مختلف مستويات الشـعب وكانت اللائحة السعيدية لعـام ١٨٥٥ هى العامل الأسـاسى لتثبيت حق الملكيـة . ولكنهـا خدمت القـادرين اكثر من خدمتها لغير القادرين ماليا ، الأمر الذى فتح الباب واسعا لظهور الملكيات الواسعة .

واذا مـا قارنا بين التطور الذى حـدث للقرية بالتطـور فى المدينـة نجـد ان الثانيـة حظيت بالرعاية وبالمشروعات وبالتحضر ، فالقرية لم تتغير ملامحهـا تغيرا واضـحا بينما توالت عمليـات التحديث والاستثمارات فى المدينـة وخاصة فى العاصمة . وكانت القرية ــ ولا تزال ــ تقدم مسـتلزمات الحيـاة للمدينـة ، وكانت رخيصـة بـل كان أهل المدينـة يملكون الأراضى فى القرى ، ولم يكن اهـل القرى على مستوى التعامل مـع اهـل المدينـة . وهذه الفوارق لا تزال تعـانى منهـا حتى وقت قريب .

المجتمـع المصرى ومجتمع الجزيرة العربية :

تعتبر حركة الموحـدين (الحـركة الوهابيـة) واحدة من أكبر الحـركات الاصـلاحية التى هزت المجتمع العربى والاسـلامى خلال القرنين التاسـع عشر والعشرين . وكانت هذه الحـركة قد ظهرت على يد محمـد بن عبد الوهـاب فى نجد فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر .

كان محمد بن عبد الوهـاب مراقبـا ناقدا لمجتمع نجـد ، وتبين له ان ذلك المجتمع قد ابتعـد فى مفاهيمه وممارسـاته الاسـلامية عن جادة الايمان الصحيح. ومن ذلك ما اسـتشرى فيـه من بدع كاسـتجداء الشـفاء من أنواع من الشـجر واضفاء كرامات لبعض أوليـاء الله الصـالحين والتغاضى عن بعض الواجبـات الدينيـة الرئيسـية .

بل يمكن القول ان مجتمع نجد حينـذاك كان قد عاد الى مفـاهيم الجاهلية ، وخاصـة من حيث الصراعات المريرة بين القبـائل ، والمنافسـات الدمـوية بين الأسرات الحاكمة العـديدة هنـاك . ــ

وقد سـعى محمد بن عبد الوهاب الى اصلاح حال الناس والحكام داعيا

الى جمع القلوب حول كلمة التوحيد ، متخذا من مبادىء المذهب الحنبلى اساسا لدعوته . ولقد كسب حوله عددا من المعتقدين بدعوته ولكن تصدت له قوى اجتماعية وسياسية شديدة البأس ، فلم يستطع أن يحدث تغيرا يذكر ، حتى استطاع أن يكسب الى جانب دعوته آل سعود حكام (الدرعية) .

استطاع محمد بن عبد الوهاب بتحالفه مع آل سعود أن يضم قوة القلم واللسان الى حد السيف الرادع . ونجح هذا التحالف فى توحيد معظم الجزيرة العربية تحت سيطرة آل سعود باستثناء اليمن ومعظم عمان والجنوب العربى بل امتدت السيطرة السعودية الى غرب نهر الفرات واطراف سوريا الجنوبية ، على أن سيطرة آل سعود على مكة المكرمة والمدينة المنورة فى السنوات الثلاث الأولى من القرن التاسع عشر كان له دوى فى مختلف اجزاء العالم الاسلامى .

وانتشرت الحركة الوهابية انتشارا محدودا فى البلاد الاسلامية ، ونلاحظ انها كانت تلقى قبولا بين مثقفى ذلك الوقت خارج الجزيرة العربية ، دون أن يكون لها انتشار واسع فى القاعدة الشعبية ، واستطاعت أن تهز الفكر الدينى فى بعض الدوائر مثلما حدث فى مصر اذ لقيت صدى فى نفوس بعض العلماء ولكن دون أن تنتشر ، وكان من بين المتعاطفين معها المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى ، بينما كان محمد على قد عزم على تلبية أوامر السلطان لضرب هذه الحركة الوهابية ، فضلا عن ذلك كان يؤدى الى تحقيق أهداف سياسية واستراتيجية كان يسعى اليها محمد على .

فعندما أتت الى مصر انباء استيلاء آل سعود على مكة المكرمة والمدينة المنورة وما صاحب ذلك من منع المحمل والحجاج من مصر والشام تسرع الرأى العام الاسلامى واتهم آل سعود بمنع الحجاج وبارتكاب امور عديدة لم يرتكبوها ، بينما كان الجبرتى متزنا فى أحكامه اذ قال عن دخول القوات الوهابية لمكة المكرمة :

« ودخلها الوهابيون ، ولم يحدثوا بها حدثا ... غير منع المنكرات وشرب التنباك فى الأسواق وهدم القباب ... ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم » (١) .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ١٥ جمادى الآخرة ١٣٢٠ هـ / ١٩ اكتوبر ١٨٠٥ م .

وأما عن منع الحج فقد كان الجبرتى دقيقا حين أوضح أن آل سعود لم يمنعوه وانما منعوا المحمل وذلك لأن المحمل كان يصاحبه الطبل والزمر الخ وتقاليد لا تمت الى مبادىء الحج . بل اشاد الجبرتى بتسهيل آل سعود الحج للذين وفدوا الى الأراضى الحجازية بهدف الحج ولا يقومون بأى شكل من اشكال البدع .

كذلك نفى الجبرتى عن آل سعود تهمة نهب النذور التى كانت محفوظة بحجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

وعن « كنز المال بحجرته » فهو من باب « مخالفة أوامره » ومن باب « حرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين » وان الذين يقدمون على وضع النذور الثمينة فى الحجرة النبوية فهم لدى الجبرتى من « سخاف العقول » .

وأكد الجبرتى ان الاختلاس امتد الى تلك النذور ، ومع انه لم يصرح بحق آل سعود فى الاستيلاء على تلك النذور والأموال الا انه كان — فى اعتقادنا — لا يرى فى ذلك خروجا عن أى مبدأ من مبادىء الاسلام .

واذا وضعنا فى الاعتبار ان المجتمع المصرى — بل وحتى دوائر العلماء — كانت ترى فى مسألة النذور والمحمل مسألة مرتبطة بالاسلام وتقاليده المقدسة ، فيمكن القول ان الجبرتى تمكن من ادراك مخاطر التقاليد على الفكر الاسلامى ، وتصدى له ، وهو فى ذلك لم يقف فقط ضد قوى التقاليد الضخمة حينذاك ، بل وقف كذلك ضد الفكر السياسى الذى كانت تعتقده الحكومة فى مصر حينذاك .

فقد شرع محمد على فى ارسال حملة ضد الحركة الوهابية ، ولم يجد الجبرتى سوى قلمه ليسجل به معارضته لتلك الحملة ولمحمد على فسجل لنا اكثر من ظاهرة اجتماعية حينذاك . فقد وصف الجبرتى الجنود الذين جمعهم محمد على بأنهم على خلق سيىء ، وقال عن طائفة من الجند كانت تعرف باسم (الدلاة) انه :

« يوجد فيهم من هو على طريقة حميدة ... وقليل هم ويقوضون

الناس وكأنهم بينهم وبين أهل البلدة عداوة قديمة » (١) ويقول ان هؤلاء الجندين كانوا :

« نقمة حلت بأهل الاقليم من كل ناحية » (٢) وقال كذلك عن الجند المتوجه الى الجزيرة العربية .

« اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء والبغايا ... يلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه ... كأنما سقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب » (٣) .

بل ذهب الجبرتى الى القول بأن :

« اكثر عساكرنا على غير الملة ؛ وفيهم من لا يتدين ، ولا ينتحل مذهبا » ومعهم « صناديق المسكرات ولا يسمع فى عرضينا (٤) اذان ولا تقام به فريضة » (٥) .

والواقع ان عبد الرحمن الجبرتى انتقد بشدة المجتمع المصرى بسبب تقاليد قالوا عنها انها اسلامية ، وهى ليست من الاسلام فى شىء وبخاصة المفاسد التى كانت تصاحب الموالد والذكر .

أما محمد على فكان يرى أن الحركة الوهابية لا تهدد مكانة السلطان العثمانى فقط بل تهدد كذلك مكانته . فمنع الحج والمحمل لا يحرم السلطان من شرف التلقب بلقب حامى حمى الحرمين الشريفين فقط ، بل يهبط بمكانة محمد على لأنه هو المسئول — كحاكم لمصر — عن تمكين الشعب من تأدية شعائر ومناسك الحج . فان لم يستطع أن يحمى الحجاج فى ذهابهم وعودتهم ، وان لم يهيىء الظروف لتأدية فريضة الحج فانه بذلك يبدو ضعيفا غير جدير بالحكم .

فاذا أضفنا الى ذلك أسبابا سياسية عديدة — من بينها الحصول

---

(١) الجبرتى ، ٤ رمضان ١٢٣٠/١٨١٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الجبرتى ، عجائب الآثار ، أول رمضان ٢٦/١٢٢٩ اغسطس ١٨١٤ ، أول رمضان ١٢٣٠ / اغسطس ١٨١٥ .
(٤) المعسكر .
(٥) الجبرتى : عجائب الآثار ، ١٠ محرم ١٢٢٧ / ٢٥ يناير ١٨١٢ .

على مكانة عالية فى الدولة العثمانية — فاننا نستطيع القول ان وجهة نظر قلة من المثقفين كانت على مستوى عال من القدرة على رؤية الأمور بعين المصلح الاجتماعى .

أؤكد هنا انها كانت فعلا قلة قليلة من المثقفين حينذاك هى التى كانت تأخذ بوجهة نظر عبد الرحمن الجبرتى ، أما الغالبية العظمى من دوائر المثقفين حينذاك فقد كانت ترى ان محمد على على حق عندما اراد أن يوجه ضربته العسكرية الى الحركة الوهابية .

ارسل محمد على قواته الى الجزيرة العربية . ولم يكن بين جنود هذه الحملة قوة مصرية ، وانما ارسل فرقة من الأرناووط والألبان ، ومعها بعض القبائل العربية المصرية . وبعد معارك مريرة استطاعت هذه القوات خلال سبع سنوات من القتال ان تهزم القوات الوهابية وأن تستولى على « الدرعية » عاصمة آل سعود وأن تبلغ قوات ابراهيم باشا — ابن محمد على وقائد قواته — مشارف الخليج العربى (١٨١٨) ثم لم تلبث أن انسحبت معظم تلك القوات وتركزت فى الحجاز .

ولنا عدة ملاحظات على مسيرة هذه الحملة ، وعلى رؤية اهل الجزيرة العربية لها :

١ — تناول عدد كبير جدا من الباحثين والمؤرخين حملة محمد على على الجزيرة العربية ، والغالبية العظمى من هؤلاء الباحثين استخدموا مصطلح « الجيش المصرى » للتعبير عن قوات تلك الحملة . والواقع ان الشىء الوحيد الذى يربط هذه الحملة بمصر هو انها خرجت منها . ولم يشارك فيها الشعب المصرى .

٢ — أما رؤية آل سعود واهل الجزيرة العربية لتلك الحملة فكانت اكثر واقعية ، حيث استخدموا مصطلح « الحملة التركية » و « الحكم التركى » على اعتبار ان القيادة والجند كانوا من اصول تركية ولم يلحظوا وجودا مصريا فى قوات الحملة .

٣ — ان ما فعله أولئك « الجند التركى » فى الجزيرة العربية لا يزيد عما فعلوه بالشعب المصرى من نهب وقتل ومفاسد .

٤ — ذهب بعض الباحثين السعوديين الى وصف حملة محمد على على شبه الجزيرة العربية بأنها « حملة صليبية » ، وهذا في الواقع أخطر أسلوب في استخدام مصطلحات في غير مكانها وبشكل يعمق تنافر الشعوب العربية فيما بينها فمهما كانت حملة محمد على مليئة بالمفسدين فان وصفها بانها صليبية يعتبر تطرفا خطيرا في الأحكام وذلك نظرا لأنه ما من شعب عربى الا ورفع السلاح ضد شعب عربى آخر ، فهل نسترسل في استخدام هذه المصطلحات ذات الدلالات المحددة ، ونخرجها من مفهومها المتعارف علية الى مفهوم آخر لا يمت اليها بصلة (١) .

وهناك من المؤرخين من نظر نظرة ألم لما وقع بين محمد على وآل سعود من صراع دموى دون اية محاولة لكى يتفهم كل من الطرفين الآخر تفاهما يؤدى الى التكاتف بدلا من التصارع ، فيقول :

« كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية . وكان خير الاسلام لو تعاونا وتصالحا ، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون احداهما حتف الأخرى ، فكأنما خنق الاسلام نفسه بيده » .

انها لقضية تثير الأشجان والحسرة ، لما ينتاب العالم الاسلامى من صراع بين أطراف متعددة ولما يقع حاليا من اقتتال ابناء العرب في أكثر من موقع ، بينما المتربصون بهم يتبعون في كل مكان تقريبا وينتظرون الفرصة السانحة للتسلط على هذا وذاك من الأطراف المتنازعة العربية والاسلامية .

اتفقت حملة محمد على على الجزيرة العربية مع حملته على السودان من حيث أن أهم الدوافع لأى منهما كانت اجتماعية . فقد كانت الأيديولوجية الوهابية مناقضة للايديولوجية العثمانية ، كما أن المقدرة العسكرية للسودان — من وجهة نظر محمد على في أول الأمر — كانت اعلى مستوى من مقدرة المصرى ، وكان المصرى — في نظر محمد على — يجب أن يتركز في الفلاحة وأعمال السخرة التى تتطلبها مشروعاته .

بعث محمد على بقواته (التركية) الى السودان ، وفتحه بعد معارك محدودة ، وطفق رجاله يجمعون السودانيين لتشكيل الجيش الجديد الذى

---

(١) د. سليمان الغنام : قراءة جديدة .

كان يزمع محمد على تكوينه . ولكن التجربة أثبتت فشـلها الذريع ، واضطر محمد على الى اعادة النظر فى طبيعـة تكوين الجيش واتجـه الى تجنيـد المصريين فى الجيش والأسـطول . وكانت أول حمـلة شـارك فيهـا « الجيش المصرى » حملة ضـد الثورة اليونانية .

وكان هذا الجيش هو جيش مصر الحديث . وابدى الجنـدى المصرى ليس فقط شـجاعة جـديرة بالتقـدير ، وانما كذلك مقـدرة على السـلوك الاجتماعى والانضـباط — فهنـاك فى اليونان كانت سـمعة أية قـوات عثمانية سيئة ، حتى لقـد كانت توصف بالبربرية أما الجنـدى المصرى فاثبت انه تحـول بسرعة الى مسـتوى العصر الحديث .

وكانت صورة المجند المصرى الحضارى اكثر وضوحا خلال القتـال الذى دار بين الجيش المصرى والعثمانى فى الشـام (١٨٣١ — ١٨٣٩) . ولكن رؤية معظم طوائف المجتمـع الشـامى لمصر ولجيشـها فى أول الأمر كانت ترحيبية بمقـدم المصريين وطرد النظام العثمانى الفاسـد . وبعد قليـل توالت ثورات الطـوائف على الوجود المصرى فى الشـام . ومعنى هذا انـه لم يكن لدى تلك الطـوائف الشـامية قدرة على ادراك قيمة تكوين نوع من الوحـدة مع مصر فى ذلك الوقت .

وهذا يرجع الى أن تلك الطوائف قد اصـبحت تتمتـع بنوع من الكيـان الاجتمـاعى والسياسى تسـعى الى الحفـاظ عليه ازاء العثمانيين فافلتت فرصة ثمينة قدمتهـا مصر الى المشرق العربى لتكوين جبهة تسـتطيع ان تقف على قدميها فى مواجهـة قوى الاسـتعمار المتنامية . ولكن على من تقع المسـئولية فى هـذا الشـأن .

الواقع أن كافة الأطراف لم تكن قادرة على فهم وتقدير الأهداف لدى الطرف الآخـر ، ولـم يكن فى اسـتطاعة الشـعوب العربيـة والطـوائف والزعـامات أن ترتفع الى سـمو الفكر المصرى الوحدوى حينـذاك . ورغم مـا اعتور بعض الأساليب المصرية من عـدم الانسـجام — مثل تطبيق نظـام الاحتكـار على اهـل الشـام الذين يضـعون التجـارة فى المرتبـة الأولى من أوجـه نشـاطهم

الاقتصادى — فان مثل تلك الأخطاء الاقتصادية لا ترتفع الى مستوى اخطاء الثورة ضد المحاولة المصرية لتحقيق نوع من الوحدة .

* * *

لقد ادركت مصر قبل غيرها من بلدان ومجتمعات الشرق الاسلامى — بل مجتمعات آسيا وأفريقية — أن بناء الدولة الحديثة هو مفتاح الحفاظ على كيانها وكيان شعوب المنطقة . وكان أن وقعت النقلة الحضارية فى عهد محمد على .

وكانت النقلة أكثر وضوحا فى الجوانب الرئيسية الاجتماعية التالية :

١ — اختفاء تركيب اجتماعى كان مسيطرا على الحكم والادارة منذ مئات السنين ، ونعنى به نظام المماليك .

٢ — ظهور اسرة حاكمة ذات ثراء وأملاك اتسعت عبر العقود حتى امتلكت نسبة عالية من أجود أراضى مصر الزراعية .

٣ — نمو الملكيات الواسعة .

٤ — لم يتغير حال الفلاح تغيرا جوهريا فى عهد محمد على ولكن فتح الباب المؤدى الى تملكه أرضا .

٥ — أدت المنشآت الصناعية الحديثة الى ظهور فئات العمال الفنيين .

٦ — ادى فتح المدارس الحديثة الى بداية ظهور فئات المثقفين وادت البعثات الى الخارج الى ظهور ما يمكن أن نسمية (الانتلجنسيا) . وحلت هذه الانتلجنسيا (الافندية) محل رجال الازهر والشيوخ فى قيادة الحركة العسكرية والعلمية الحديثة فتراجع بذلك دور المشايخ أمام الأفندية .

٧ — كان نمو التحديث سريعا فى القوات المسلحة ، كذلك سيكون لهم دور فى التغير الاجتماعى سواء فى شريحة القيادة أو فى القاعدة . وكانت القيادة ذات طابع تركى شركسى ، ولكن تهيأت الظروف لصعود (أولاد العرب

المصريين) من بعـد للارتقاء الأمر الذى سـيؤثر على مجريات التطورات السياسية والاجتماعية فيما بعد .

٨ — قلت الاوبئة والفيضانات وأخـذ تعـداد مصر السـكانى فى الارتفـاع المطـرد .

٩ — نمت المـدن وتحسـنت احوالها وان ظلت القـرية على حالها . وهدأت تحركات البدو .

١٠ — بدأ تيـار تـدفق الأوربيين والشـوام والأتـراك على مصر لمـا كان يتوفر فيها من مجـالات عمل .

وسـتكون لكـافة تلك التطورات اثرها الجـوهرى فى توجيـه تاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

الباب السادس

مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

حتى ثورة ١٩١٩

الفصل الأول : مصر الدولة القائد .

الفصل الثانى : مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

الفصل الثالث : الثــورة العرابيـــة .

الفصل الرابع : ثورة ١٩١٩ ونتائجهـــا .

الفصل الأول

مصر الدولة القائد

١ – مصر وشبه الجزيرة العربية .

٢ – مصر والسودان .

٣ – حرب المورة .

٤ – مصر وضم الشام .

كان محمد على منذ ان تولى مسئولية حكم مصر يدرك منذ البداية ان مصر اصبحت مطمع الدول الكبرى الأوربية . وان مصير مصر ومصير المنطقة المجاورة لها : (وادى النيل والمشرق العربى) اصبح متوقفا على اعادة بناء قوة مصر والمنطقة بشكل يدفع عنها عادية الطامعين .

ومن هذا المنطلق نشطت مصر سياسيا فى اكثر من اتجاه عبر نصف قرن من الزمان حكمها فيه محمد على .

وكانت عمليات التوسع المصرى فى اتجاه السودان ، وشبه الجزيرة العربية ، واليونان (المورة) ، والشام تغطى الفترة من ١٨١١ حتى ١٨٤٠ . ومن أبرز مميزات هذه الفترة ان مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث قد انتقلت من الدفاع عن النفس الى السيطرة على اجزاء شاسعة من البلاد العربية . ولا يشاركها فى هذه الميزة سوى سلطنة عمان التى انطلقت نحو شرق افريقية ففرضت سيطرتها على زنجبار هناك .

وتعتبر قدرة مصر على القيام بمهام كبرى فى اكثر من جهة فى البلاد العربية دليلا واضحا على أن مصر – حتى ولو كانت تحت السيطرة – تلعب دورا رئيسيا من منطلق امكاناتها القيادية الراسخة فيها عبر القرون وبسبب قدراتها البشرية والاقتصادية والاجتماعية . ونظرا لما تضمنته سياسة مصر الخارجية من ظواهر وعلاقات ورؤية اجتماعية يجدر بنا ان نلقى نظرة متأنية على تلك السياسة الخارجية المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر اى عهد محمد على .

(١)
مصر وشبه الجزيرة العربية

شبه الجزيرة العربية الذى توحد على يد المسلمين فى القرن الأول الهجرى لم يلبث ان اصيب بتفكك شديد عبر العصور التالية ، حتى اذا ما جاء العصر الحديث كان موزعا بين مناطق ذات حكم اسرى بعضها كان مستقلا والبعض الآخر تحت حكم غير مباشر للدولة العثمانية أو ان الدولة العثمانية تدعى تبعيته لها .

وكان قلب الجزيرة العربية يموج بمجموعات كبيرة من التركيبات العشائرية المتقاتلة ، حتى استطاعت الحركة الوهابية ان توحدها بقيادة آل سعود وان ينشئوا الدولة السعودية الأولى . واخذت هذه الدولة العقائدية تعمل على نشر دعوتها فى الدول العربية المجاورة لها فكان ان اصطدمت بالدولة اليمنية التى يحكمها الأئمة الزيدية ، وبدولة عمان التى كانت تحت حكم السلاطين البوسعيد وباشراف مكة الذين كانوا يحكمون الحجاز فى اطار التبعية للدولة العثمانية .

وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر انطلقت هجرات عربية من قلب الجزيرة العربية ، عرفت باسم (هجرة العتب) واتجهت صوب شرق الجزيرة وادت الى تأسيس اسرات حاكمة على النحو التالى :

— آل الصباح فى الكويت .
— آل ثانى فى قطر .
— آل خليفة فى البحرين .

وقد عملت الدولة السعودية الأولى على السيطرة على هذه البلاد ولكن ظلت هذه الأسرات الحاكمة — رغم عنف التيار السعودى — تحتفظ بكيانها .

وفى المنطقة المعروفة الآن بدولة الامارات العربية ظهرت عدة تركيبات قبلية عربية ذات نشاط بحرى اقتصادى عسكرى كان له شان كبير خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فقد اشتهرت تلك القبائل — وكذلك معظم العشائر المطلة على الخليج — بصيد اللؤلؤ وبان لديها قوة بحرية استطاعت ان تفرض سيادتها على الخليج لفترات عديدة ، وعرف عنها رفضها للوجود البحرى الأجنبى

فى مياه الخليج فكانت سفن تلك القبائل تنقض على السفن الأجنبية وتأسرها او تصادر ما تحمله من بضائع ، كانت هذه العمليات من وجهة النظر الاسلامية توصف بأنها جهاد ، ولكن من وجهة نظر الدول الأوربية كان ذلك قرصنة .

وكانت معظم شعوب الجزيرة العربية عقائدية بمعنى انها اسلامية وتعتنق مذهبا او دعوة او نظرية اسلامية ، فأهل عمان يفضلون الاباضية ، واهل اليمن يفضلون الزيدية ، وقلب الجزيرة العربية يفضل الحنبلية . والجميع على المذهب السنى باستثناء جيوب شيعية محدودة فى شرق الجزيرة العربية ، وبصفة خاصة فى الاحساء .

والطابع العام للتركيب الاجتماعى فى البلاد العربية هو التركيب العشائرى على العكس من مصر التى انتهى فيها هذا النوع من المجتمعات الا فى هوامشها حيث تعيش بعض القبائل العربية . وهذا يفسر لنا الدور القيادى الذى لعبته مصر طوال القرنين التاسع عشر والعشرين وجعل الدور القائد فى المنطقة العربية لها . وحيث ان التطورات الاجتماعية لا يمكن تقييمها الا اذا كانت التطورات السياسية واضحة فى ذهن الباحث .

انتشرت الحركة الوهابية فى قلب الجزيرة العربية وضمت اليها الحجاز والأحساء ومن بعد ذلك اخذت تضغط ايديولوجيا وعسكريا على عمان واليمن والعراق والشام الأمر الذى ادى الى تغيير كبير فى التوازن الدولى فى منطقة الشرق الأوسط حيث ان استمرار التوسع السعودى كان يعنى توحيد الجزيرة العربية تحت حكم آل سعود ، ومن بعد ذلك ، ضم العراق والشام وما وراءها ، فضلا عن ان وجود الأراضى الاسلامية المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) يعنى سلب ما كان يفتخر به السلطان العثمانى .

كان محمد على ينظر الى مسألة الوهابيين من زاوية سياسية فى المقام الاول ومن زاوية دينية فى المقام الثانى . كان محمد على يرى ان الحركة الوهابية تهدد مكانة السلطان العثمانى بصفته الخليفة الاسلامى المسئول عن حماية الحرمين الشريفين وادارة أمورهما ، وانها تهدد كذلك مكانة والى مصر نفسه حيث يتردد فى طول البلاد وعرضها انه فى ايامه رد الحجاج المصريون عن تأدية فريضة الحج ، وبذلك يظهر الوالى وكأنه عاجز عن حماية مصالح رعيته فى أعز ما يتعلق به المصريون (الحج) .

ان الوالى مسئول — فى نظر الشعب — عن حماية الحجاج فى ذهابهم وعودتهم ، فان فشل فى ذلك يكون قد بدا ضعيفا غير جدير بحكم مصر . ولذلك كان على محمد على — من هذه الزاوية — ان يوجه ضربة شديدة للحركة الوهابية تبعدها أولا عن الاراضى الحجازية المقدسة .

واذا ما قام الوالى (محمد على) بحملته ضد الوهابيين وبعث بها الى ارض الجزيرة العربية ونجح فى القضاء على الحركة الوهابية هناك فانه بذلك يكون قد قدم خدمة جليلة للسلطان وللدولة العثمانية ، ولا شك سيؤدى ذلك الى تثبيت السلطان له فى ولاية مصر وربما تلبية مطالب أخرى كان قد تقدم بها محمد على من قبل وهى ولاية الشام . وفعلا ارسل محمد على قواته — وكانت من غير المصريين — الى الحجاز .

ودارت فى الأراضى الحجازية معارك ضارية بين حملة محمد على والقوات الوهابية ، ولكن تفوقت قوات محمد على بسبب ما كان لديها من عدد محدود جدا من المدفعية والاسلحة النارية .

واستولت قوات محمد على على الحجاز وأطراف اليمن الشمالية ، ونجد ووصلت حتى الأحساء المطلة على الخليج (١٨١٨) . ثم لم تلبث ان انسحبت قوات الحملة من الأحساء ونجد وعادت الى الحجاز محتفظة بوحدات صغيرة فيما هو شرقى الحجاز حتى مياه الخليج .

ولنا عدة ملاحظات على تطور تلك الحملة ، وعلى رؤية أهل الجزيرة العربية لها :

١ — تناول عدد كبير جدا من المؤرخين والباحثين حملة محمد على على الجزيرة العربية . والغالبية العظمى من هؤلاء الباحثين استخدموا مصطلح « الجيش المصرى » أو « الحملة المصرية » . الواقع ان الشىء الوحيد الذى كان يربط هذه الحملة بمصر هو انها خرجت منها والحقيقة انه لم يشارك مصرى فى هذه الحملة حيث انها كانت تتكون من الجنود الارناؤوط والالبان الى جانب رجال بعض القبائل العربية فى مصر .

٢ — كانت رؤية آل سعود وأهل الجزيرة العربية من منطلق اكثر واقعية ، حيث نعتوها بالحملة التركية ووضعوا الحكم الذى نفذه محمد على

فى البلاد بانه « حكم تركى » على اعتبار ان القيادة والجند كانوا من اصول تركية .

٣ — ان ما فعله هؤلاء الجند من الارناؤوط ومن الالبان بالشعب المصرى لا يقل عما فعلوه فى الجزيرة من عدوان ومفاسد ونهب . ولكن من ناحية اخرى فان تلك القوات التى ارسلت من مصر ضد الحركة الوهابية لم يشترك فيها مصرى حضرى أو ريفى ، وانما قلة من (العربان) ومعظم الحملة من اولئك الارناءوط والالبان . ولقد اقترفوا فعلا من الآثام ما يمكن ان يشكك فى سلامة اسلامهم .

وقد تأكدت هذه الحقيقة المرة بعد عدة سنوات عندما قاد خورشيد باشا حملة ثانية فى ١٨٣٨ — ١٨٣٩ لاستعادة السيطرة على نجد ثم الأحساء . فقد اكتشف خورشيد ان الاهالى كانوا يفرون من وجه القوات التى كانت تزحف تحت قيادته بسبب ما اقترفته الحملة السابقة من اعمال مشينة . فعمل خورشيد على تهدئة روع الاهالى وكسب ثقتهم من جديد .

٤ — ذهب بعض الباحثين السعوديين — سليمان الغنام الى وصف حملة محمد على على الجزيرة بأوصاف مليئة بالتطرف الفكرى . ومنها وصف سليمان الغنام للحملة بانها « حملة صليبية » وهذه سقطة فى استخدام المصطلحات المقننة فى غير مواضعها . وهى سقطة تسهم فى تعميق الهوة بين الشعوب العربية بدلا من العمل على التقريب فيما بينها .

فمن الامور المتواترة فى التاريخ ان يرفع شعب عربى سيفة ضد شعب آخر ، ولكن ان نصف حملة أو قتالا من هذا النوع بانه حملة صليبية فهو تطرف ، ويؤدى الى تمييع المعانى الحقيقية للمصطلحات التاريخية .

وفى هذه الحالة كيف نسمى القتال الذى دار بين قوات عبد العزيز بن سعود — وكان من بينها الكابتن شكسبير — وقوات امير حائل فى ١٩٠٤ (١) .

---

(١) انظر كتاب سليمان الغنام بعنوان « قراءة جديدة » وهو الذى وصف حملة محمد على بأنها صليبية .

وأما المؤرخ المصرى حسين مؤنس فهو ينظر الى القضية من زاوية عاقلة عقلانية ، وذلك حين قال :

كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية وكان خير الاسلام لو تعاونا (١) ، وتصالحا . ولكن صرف السياسة قضت ان تكون احداهما حتف الأخرى . فكأنما خنق الاسلام نفسه بيده » .

٥ — لقد ادى الصدام بين مصر والدولة السعودية الأولى الى اعطاء فرصة واسعة للتطلعات الاستعمارية الانجليزية فى منطقة الخليج العربى . فلا السعودية ولا القوى العربية المطلة على الخليج استطاعت أن ترد الحملة البريطانية البحرية على موانى الساحل الغربى فى ١٨٠٩ قبل وصول حملة محمد على الى الحجاز ولا قدرت الحكومة المصرية الوجود الانجليزى فى الخليج وانما سحبت قواتها بسرعة بعد قليل من وصولها الى الأحساء فى ١٨١٨ تاركة المنطقة للمخططات البريطانية .

اننا لسنا هنا بصدد القاء اللوم على هذا الجانب أو ذاك ، ولكن بصدد رؤية موضوعية لتطورات ونتاج صراع ايديولوجى له مدلولات اجتماعية بين مجتمعين عربيين اسلاميين .

(٢)
مصر والسودان
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

كان الصدام الايديولوجى من العوامل الرئيسية التى ادت الى صراع بين الدولة السعودية الأولى ومصر محمد على ، هذا فضلا عن العوامل السياسية العديدة المعروفة بينما كان من أسباب فتح السودان على يد الحملة التى بعث بها محمد على أسباب متعلقة برؤية محمد على لقدرات المواطن المصرى ، وبرؤية محمد على لفلسفة الانتاج المناسبة لمصر . ولذلك يجدر بنا أن نلقى نظرة على ظروف التوسع المصرى — فى عهد محمد على — فى السودان .

---

(١) أى لو تعاون الوهابيون مع محمد على .

أن علاقة مصر بالسودان عريقة وأقوى من أية علاقة مع دولة مجاورة أخرى ، وذلك بفضل النيل الذى أضفى على الدولتين نوعا من الوحدة الجغرافية (وادى النيل) وعمقتها العلاقات المتبادلة والمتجانسة فى كثير من المظاهر البشرية والاقتصادية .

ولقد مر بنا كم من مرة كانت القوة العسكرية السودانية تلعب دورا هاما فى البلاد ، وقد كان الاسلام من العوامل التى فتحت الأبواب أمام السودانيين للهجرة الى مصر ، ولقد كانت مصر حتى الآن امتدادا للوطن السودانى .

وقد تجمعت عدة عوامل دفعت محمد على الى العمل على السيطرة على السودان وفيما يلى أهم هذه العوامل :

(١) كان هناك من أهل السودان وزعمائه من سعوا الى مصر يسالونه نقل الادارة القوية الحازمة الى السودان . وكانت أحوال السودان سيئة فى مطلع القرن التاسع عشر تكاد الحضارة العربية الاسلامية القديمة أن تحافظ على شكله الانسانى .

٢ — كان السودان موزعا الى مشيخات قبلية عربية متنافرة متقاتلة متدهورة كان من أهمها (سنار) التى أصيبت بداء التفكك مثلها فى ذلك مثل (دارفور) فى أقصى غرب السودان ، رغم أنها كانت تكافح من أجل الحفاظ على نوع من التماسك .

وأما المنطقة الممتدة من جنوب مصر والنوبة حتى أواسط النيل الأبيض ، وحتى النيل الأزرق فكانت تموج فيها قبائل عربية سودانية تعيش حياة متخلفة فضلا عما كان بين تلك القبائل من اقتتال يكاد يكون متواصلا . وفيما وراء ذلك جنوبا كانت تنتشر قبائل زنجية وثنية حتى منطقة البحيرات ، وحتى حدود الحبشة . وكان محمد على ينظر الى هذه التركيبات البشرية نظرة جديدة ، اذ رأى فيها عمقا بشريا لمصر يمكن أن يزودها بالقوة البشرية المقاتلة التى تحتاجها البلاد فى حالة تجنب حكومة محمد على تجنيد شباب مصر فى الجيش . ولقد كان محمد على يخطط فعلا للابقاء على المصرى فى حقله للزراعة أو فى السخرة فى شق القنوات والترع وغير ذلك من الاصلاحات الاقتصادية . كان محمد على يرى أن جمع الشباب من جنود السودان وتدريبهم عسكريا كفيل بأن يمكنه من انشاء جيش حديث لا يعرف من سيد له

سوى محمد على ومصر وطنا له . ولقد شجع « محمد على » على ذلك ما اشتهر به السودانى من سرعة ودقة فى تنفيذ الأوامر والتعلم والوفاء والولاء .

كان هناك العديد من الاسباب الأخرى التى أدت الى فتح السودان وعلى راسها تشكيل المماليك — الذين فروا من مصر الى السودان — خطرا على أمن حدود مصر الجنوبية هذا فضلا عما تردد من وجود مناجم ذهب وفيرة فى السودان .

وعلى اى حال ، بعث محمد على بقواته من البان وارناءوط وغيرهم لفتح السودان وتم له السيطرة على معظم البلاد بعد معارك عديدة . واخذ محمد على يبعث برسائله بالتعجيل فى جمع الشباب من جنوب السودان وارساله الى مصر . وفعلا توالت قوافل الشباب من السودان على مصر ، وارسلوا الى مراكز التدريب . ولكن سرعان ما اكتشف محمد على ورجاله أنها محاولة فاشلة لتكوين جيش لمصر من هؤلاء السودانيين .

ولم يمض وقت طويل حتى تخلى محمد على عن هذه التجربة ، وانتقل الى السبيل القويم الطبيعى وهو تجنيد الشباب المصرى . وفعلا نجحت التجربة — رغم المقاومة والمتاعب — وتشكل جيش مصرى حديث ، فكان أول جيش يشكل على النظام الحديث فى الشرق الأوسط .

ولكن محمد على ، وهو يشكل هذا الجيش ، اتخذ حذره من هذا الجيش الوطنى ، فقصر القيادات العليا على الاتراك والعناصر غير المصرية ، ومنع ترقية اى ضابط مصرى الا الى رتبة اليوزباشى فقط لان محمد على كان يعتقد — وقد اثبتت التطورات صحة معتقده — انه اذا ما تولى مصرى القيادة العسكرية العليا فلن يتوان عن طرد اسرة محمد على من الحكم .

ولقد كان حدس محمد على صائبا ، حيث ان احمد عرابى كان أول مصرى يرقى الى رتبة اميرالاى . وهو الزعيم المصرى الذى قاد ثورة ١٨٨١ ضد الاستبداد الخديوى وضد التسلط الأجنبى ، وضد تمييز الضابط التركى أو الشركسى عن صنوه المصرى .

لقد اثبت الجيش المصرى مقدرة عالية الكفاءة فى معارك حرب المورة (اليونان) ، وخلال حروب الشام فى الفترة الواقعة بين ١٨٣١ ، ١٨٤٠ ،

وظهـر الجيش المصرى بمظهـر حضـارى وقتالى عالى المسـتوى . ومنـذ ذلك التاريخ والجيش المصرى يلعب داخل المجتمع المصرى دورا حضاريا نظرا لمـا كان عليه الجيش من فرص أكبر فى تلقى وممارسة الأسـاليب الحضـارية الحديثة عن المواطنين المدنيين وذلك خلال فترة حكم محمد على بصفة خاصة .

(٣)

حـرب المـورة

لمصر مكانة خاصة فى المنطقة ، وبالنسـبة للعـالم ، وليس قولنـا هـذا من قبيل الشـوفينية الوطنية ولكن من قبيـل احقـاق الحـق ، واعطـاء كل شـعب ولكل دولة فى المنطقة المكانة التى كونتهـا لنفسـها فعلا وليس التى يكونها لها ذوو الحناجر العالية والعبارات المفخمة .

فمصر هى أول من تلقى الضربة الأولى (الحملة الفرنسـية) ، وهى أول من انطلـق نحـو التحـديث (بنـاء مصر الحديثة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) وهى أول من خاضت حروبا فى أوربا ، طبعا باسـتثناء الدولة العثمانيـة ، وهى أول من تحالفت ضدها الدول الكبرى الأوربية بل تحالفت ضدها الدول الكبرى مرتين فى قـرن واحـد وثالثة فى منتصف القرن العشرين .

فقد تحالفت الدول الكبرى الأوربية ضد مصر ١٨٤٠ ، وفى ١٨٨١ ، وفى ١٩٥٦ ولم يكن لأية دولة عربيـة أو اسـلامية مثل هذه المواقف الدولية لأن دور الدول الأخرى فى المنطقة ومكانتهـا كانت أقل من مكانة مصر .

ثـم ان مصر تحملت فى مطلـع القـرن التاسـع عشر مسـئولية الدفـاع عن المشرق العربى ، فضـلا عن الدولة العثمانية ، ولم يكن لأى شـعب فى المنطقة من العراق شرقا حتى المغرب غربا شرف تحمل مسـئولية من هذه المسئوليات .

فعندما هـددت ايران (فارس) العـراق ، وشـنت حملة عسـكرية ضـد العـراق فى ١٨٢٠ تقدمت القوات الفارسـية فى مواجهة مقاومة ضعيفة داخـل العراق واسـتطاعت أن تصل حتى بغداد وبدأت فى حصـارها . وهنا اسـتنجد السـلطان العثمانى محمود الثانى بمصر طالبـا ارسـال قواتهـا لانقـاذ العراق من الفرس . وجاء هذا الطلب فى وقت لم تكن فيه مصر قد بدأت مشروعها لتحديث ادارتهما وقواتهـا المسـلحة ، الأمر الذى جعـل محمـد على يتخلص من هذه

المسئولية حتى يستعد استعدادا مناسبا ، ولما استكمل محمد على بناء الجيش والأسطول أو كاد ، لبى نداء السلطان العثمانى لتوجيه ضربة ضد الثوار اليونانيين الذين كانوا يعملون على فرض ارادتهم على الدولة العثمانية لبناء دولتهم القومية ولكن بطريقة صليبية .

استخدم محمد على جيشه وأسطوله المكونين حديثا أول ما استخدمهما فيما عرف بثورة المورة (اليونان) . وقد كانت تحت السيطرة العثمانية منذ اربعة قرون . فقد تحركت المشاعر القومية اليونانية وتصاعدت بدعم من الدول الكبرى المعادية للدولة العثمانية ، وقامت ثورة عنيفة فى اليونان وخسر العثمانيون اكثر من معركة فاتجهوا الى الاستعانة بمصر فلبى محمد على الدعوة ، وكان قد أنجز حينذاك اعداد جيش من المصريين مجهز بالأساليب والمعدات الحديثة .

وهناك عدة أسباب دفعت محمد على الى تلبية نداء السلطان العثمانى لاخضاع ثورة المورة ، وعلى رأس هذه الأسباب :

١ — ان الثورة اليونانية تهدد الدولة العثمانية وأى تهديد لها هو فى نفس الوقت تهديد للعالم الاسلامى ، وتدهور الدولة العثمانية يعنى تدهورا عاما بين المسلمين لا يمكن أن يعرف مداه . ومن ثم فان مصر ، وهى ولاية عثمانية ، مسئولة عن تلبية دعوة السلطان للمشاركة فى الدفاع عن الدولة العثمانية .

٢ — كان محمد على يعتقد أن الدولة العثمانية تعانى من مرض الشيخوخة ، ولقد كانت فعلا الدول الأوربية تتحدث عن « الرجل المريض » أى الدولة العثمانية المتداعية ، وكان يرى أن من مسئولياته ان يواجه التطور بالتركيز على انقاذ مصر والشام وما يمكن انقاذه من البلاد العربية . وكان معتقدا تماما ان الأساليب التى تقنع أوربا بالتخلى عن مشروعاتها الاستعمارية ضد هذه المنطقة تعتمد على :

(أ) النمو الحضارى الحديث .

(ب) القوة العسكرية القادرة على صد العدوان .

(جـ) وضع إمكانيات المنطقة كلها البشرية والاقتصادية فى خدمة هذا المشروع الدفاعى .

٣ — كان محمد على يريد أن يفرض نفسه على أوربا وعلى السلطان ، ويحصل على حكم كيان مستقل معترف به (مصر) ويضمن سلامة المنطقة من

اى عدوان ، ومن هنا كان مستعدا للتفاهم مع كافة القوى : روسيا وفرنسا وبريطانيا ، ولكنها — على ما هو معروف عبر التاريخ — كانت قوى كبرى متنافسة الى حد التناحر الدموى المرير الطويل ، ولا تتورع عن تسوية ما بينها من مشكلات على حساب الآخرين . وخاصة على حساب الدولة العثمانية اذا كان الصراع متعلقا أو يتصل بشكل ما بهذه الدولة ومثل هذا الاجراء التعسفى كان يلقى ترحيبا من الشعوب الأوربية ».

وارسل محمد على الجيش والأسطول المصرى الى اليونان ، وخاض معارك كبيرة ضد الثوار اليونانيين الذين كانت تدعمهم معظم الدول الكبرى الأوربية ، وخاصة روسيا وفرنسا وانجلترا ».

وكان موقف الجيش المصرى من المقاتلين اليونانيين موقفا كريما ، موقف المقاتل ، بعكس الحال الذى كان عليه بين الأتراك واليونانيين ، وكان خلال محادثاته مع الأوربيين فى صدد الثورة اليونانية لا يبدى عداوة لليونانيين بقدر ما كان يبديه من قلق شديد من جانب الدول الكبرى الأوربية ».

وخلال العمليات الحربية فى اليونان ظهر الجيش المصرى بمظهر حضارى لم يكن يتوقعه الأصدقاء ولا الأعداء . فلم تحدث الاعتداءات التقليدية على الأعراض أو على الممتلكات . تلك الاعتداءات التى كانت تقدم عليها القوات العثمانية وغيرها من القوات فى منطقة الشرق الأوسط . بل كان من يقدم من المقاتلين المصريين على أى عمل من هذه الأعمال المشينة يحاكم وأحيانا يعدم ».

وعلى اى حال تضافرت الدول الكبرى ضد مصر فى اليونان ، وبعثت الدول الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا) بأساطيلها الى المياه اليونانية ، وتحرشت بالأسطول المصرى وانقضت عليه دون سابق انذار فاغرقت معظمه فى موقعة نوارين البحرية (١٨٢٧) الأمر الذى اقنع محمد على أن لا جدوى من استمرار وجود قواته فى اليونان ، فقرر سحب قواته منها فغضب عليه السلطان العثمانى .

لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تتحالف فيها الدول الكبرى ضد دولة عربية أو اسلامية ، وسيتكرر هذا فى أكثر من مرة ، حيث وقفت معظم الدول الكبرى ضد مصر فى ١٨٣٩ — ١٨٤٠ ، ثم خلال الثورة العرابية (١٨٨١ — ١٨٨٢) ثم خلال ثورة ١٩١٩ وكذلك عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر .

وهذا ما لم يحدث لأية دولة عربيــة أخرى الأمر الذى يؤكد مدى ما تعنية نهضــة مصرية فى اعين الدول الكبرى الطامعة فى مصر وفى المنطقة .

(٤)

مصـــــر وضـم الشـــــام

بعد أزمة الحرب اليونانية اتجه محمد على بقوة نحو تثبيت حكمة والحفــاظ على كيان مصر ومنع اتخــاذ المنــاطق المجــاورة لها قواعــد للوثوب عليهــا . وكانت الدولة العثمانيــة تتربص به وتسـعى الى اسـتعادة سـيطرتها المباشرة على مصر وعلى ما أصبح تحت يدها ما أمكنها ذلك .

وهنا نتســاءل : أيهما كان أبعد نظــرا عنـد تحقيـق أمن وســلامة مصر والمنطقة المحيطة بهــا وبحوض البحر المتوســط وخاصــة الجــزء الشرقى منه ، اهى مصر الفتية أم الدولة العثمانية المتداعية .

لقد كانت مصر — حينذاك — هى الاقـــدر على الدفـــاع عن المنطقـــة وعلى تطويرهـــا بما يرفعهـــا الى المكانة اللائقة بهـــا فى ذلك الوقت ، ولكن الســلطان العثمانى كان يرى أن العصر حينــذاك هو عصر الدول الكبرى ، وان دولة كبرى فى الشرق هى الاقدر على مواجهة أطمـــاع الدول الكبرى الأوربيـــة . وقد تشــبث كل من الســلطان ومحمد على برايه فوقعت الدولتان فى هوة الخلاف والمواجهـــة العســكرية .

كان محمد على منذ ان تولى حكم مصر يقدر القيمة الكبرى للشــام بالنســبة لمصر ومصر بالنســبة للشـــام . وكثير من المؤلفات تتناول موضوع العلاقات بين مصر والشــام من زوايا مختلفة ، بعضـــها جيولوتيكى ، والبعض الآخــر قومى وحدوى ، عام أو اقليمى ، وبعضها اســتراتيجى عســكرى ، ... الخ من الزوايا الأمر الذى يدل على ان موضـــوع العلاقات بين مصر والشـــام من الموضـــوعات المعقدة فعلا عبر التاريخ ، وليس خلال التاريخ الحديث والمعاصر فقط .

اننا لا نســتبعد اى عامل من تلك العــوامل التى تجعل لمصر كلمة فى مصير الشــام ، وذلك الأن الشـــام عبر العصـــور كان منطقة مفككة موزعة بين العـــديد من العصبيات المحلية المتنافرة ، ومعرضة لأطماع العديد من القوى المجـــاورة أو البعيـــدة الأمر الذى يضع مصر فى موقف حرج ويعرض أمنهـــا وســـلامتها لأخطاء

شـديدة تهـدد كيانها . وهذا يفسر لنـا لماذا كانت منطقة الشـام تحت سيطرة مصر كلما قامت فى مصر حكومة قوية بصيرة بمصالحها وبمصالح الشـام نفسـه أو على الأقل كانت هناك كلمة مسـموعة مصرية فى الشـام .

لقد جاءت من البوابة الشـمالية الشـامية أعاصير عاتية هبت على مصر ، وكان ضـعف الشـام سـببا فى أن تنطلق القوى الطـامعة الى الشـام ومنهـا الى مصر .

والهكسوس والأشـوريون والفرس والاغريق والرومان ، هبطوا مصر مـن بوابتهـا الشمالية الشـامية واحتلوا البلاد .

وجاء العرب من الشـام كذلك (فلسـطين) وهدد الصليبيون مصر طـوال وجودهم فى الشـام واندفع المغول حتى ردوا فى عـين جالوت ، وهبط العثمانيون الى مصر عبر الشـام ، وحاول الأتراك مرة أخرى السـيطرة على مصر فى أوائل الحرب العالميـة الأولى .

ونظـرا لأن مصر كانت واقعـة تحت الاحتـلال البريطـانى تفتحت أبواب فلسـطين للهجرات الهيـودية ، حتى حصـل اليهـود على تصريح بلفور ، ونجح اليهود فى توسـيع رقعة مسـتعمراتهم والبلاد العربية الأخرى غير قادرة على أن تفعـل شـيئا مجديا حتى قامت اسرائيل فى ١٩٤٨ واذا بمصر تتعرض لعدوان اسرائيلى فى ١٩٥٦ ثم فى ١٩٦٧ .

ومعنى هذا كله أن بوابة مصر الشـمالية الشـامية من أخطـر البوابات التى تهـدد أمن وسـلامة مصر . وانه فى غيـاب الدور المصرى لا تسـتطيع الدول الأخرى الاسـلامية (مثل الدولة العثمانية) أو العربية مثل الدول المحيطة بالشام أو القائمة فيه ، انه فى غيـاب الدور المصرى لا تسـتطيع هذه الدول ان تقـوم بدور ايجـابى .

نريد أن نقول من وراء كل هـذا ان سياسـة مصر نحـو الشـام تمليهـا دواعى الأمن والوجود ليس لمصر ولكن للمنطقة .

ونلاحظ من ناحية أخرى انه كلما ظهرت فى مصر شـخصية بارزة ، أو قامت فى مصر حـركة قـوية ترددت اصـداؤها فى الشـام وتطلعت أعين زعمـائه الى الارتبـاط بهـا .

ولقد وحدت بين مصر والشام الآم محنة الحملة الفرنسية فى مطلع القرن التاسع عشر : فلقد كان الشام ملجأ الوطنيين الذين فروا من مصر أمام سيف الاستعمار النابوليونى . وهناك عاش الزعيم المصرى « عمر مكرم » فترة من النفى حتى عاد الى مصر ، وخنجر سليمان الحلبى انقذ مصر من كليبر ، ذلك القائد الفرنسى الذى كان بوسعه أن يطيل أمد الوجود الاستعمارى الفرنسى فى مصر ».

وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر كان الشام مسرحا لصراعات متواصلة بين حكامة العديدين : صراع متواصل بين حكام دمشق وحكام صيدا (وعكا) وآل شهاب وغيرهم .

فوضى عارمة ضربت اطنابها فى الشام من اقصى شماله من حلب الى اقصى جنوبه عند ولاية عكا . واشتد ساعد محمد على خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر . وتطلع الى الشام ، وتطلعت زعامات الشام اليه ،

وهناك عدة أسباب رئيسية اقنعت ودفعت محمد على الى السيطرة على الشام بعد حروب المورة . فقد كانت حرب المورة ونتائجها بداية القطيعة بين محمد على والسلطان ، فلقد بذل محمد على الكثير من الأموال ، وفقد أسطوله والعديد من كتائبه المدربة التى كلفته مبالغ باهظة . بل لقد طالبه السلطان بأن يبعث بقوات مصر لقتال الجيش الروسى الذى كان يتقدم فى البلاد العثمانية . ولكن محمد على الذى وجد الدولة العثمانية غير مستعدة لتعويضه عن خسائره الباهظة آثر أن يقبع فى دولته وأن لا يمد يد المساعدة للدولة العثمانية ضد روسيا ».

كان محمد على قد رضى بأن يبعث حملته الى المورة فى مقابل اسناد حكم الشام اليه . ولكن بعد حرب المورة رفضت الدولة العثمانية منحه باشوية الشام فقرر محمد على ان يحقق هدفه بنفسه دون انتظار لموافقة من السلطان لن تصدر الا تحت الضغط القوى .

ومن الناحية الاقتصادية كان التكامل بين مصر والشام اقتصاديا كفيلا بأن يرفع مستويات القطرين الى درجة عالية فضلا عن حماية المنطقة كلها من تدفق التجارة الأجنبية على البلاد ». هذا فضلا عما كان يتوقعه محمد على من استغلال مناجم وأخشاب الشام ».

ومن الناحية الاستراتيجية كان الشـام مع مصر يمثلان قـوة رادعة للغزاة من الناحية العثمانية أو الناحية الأوربية .

فى نفس تلك الفترة تطلع حكـام الشـام الى مصر الغنية لحـل مشـكلاتهم فقد كان لمحمـد على دور كبير فى عـودة عبد الله باشـا الى حكمة لولاية عكـا (صـيدا) ، وكذلك بالنسـبة لبشـير الشـهابى الثانى حـاكم جبـل لبنـان . بـل لقد كان بشـير الشـهابى يحث محمـد على على ضـم الشـام ويقـدم له الاغراءات ، ويحدثه عن فرسـان ومقاتلى جبـل لبنـان الذين سـيجعلون الأمور ممهدة للقوات المصرية عندما تتقدم فى الشـام .

زحفت القوات المصرية على الشـام ، واسـتولت على المناطق الجنوبيـة لفلسـطين ثم حاصرت عكـا ، وكان لعكا شـهرة كبيرة عندما نجحت فى مقـاومة حصـار الفرنسيين لها بقيادة نابوليون بونابرت ، وكانت عكـا سببا فى أن يتخلى عن كافة مشروعاته فى الشـام .

ولكن اسـتطاعت القوات المصرية أن تنزل الهزائم بالقوات العثمانية ، وأن تسـتولى على عكا ، وأن تنطلق زاحفـة حتى أصبحت ، ليس فقط الشـام فى قبضـة المصريين ، وانما معظم تركيـا نفسها (١٨٣١ — ١٨٣٣) .

ولابراز ثقل مصر فى مطلع القـرن التاسـع عشر يجدر بنـا أن نلقى ضـوءا على أثر التوسـع المصرى فى الشـام على العراق الذى كان هو الآخر تحت الحكم العثمـانى المبـاشر .

فقد عبـأ العثمانيون قواتهم فى العـراق ، ولكنهم كانوا فى حاجة الى تعبئـة قوات عراقية ، ولذلك اسـتخدموا الزعامات الدينية الاسـلامية العراقيـة ضـد مصر . ومن ذلك قيـام العـالم الاسلامى الكبير بحملة دعاية واسعة النطاق ضـد مصر سـواء فى العراق أو شـبه الجزيرة العربيـة . وكان جوهر دعايته هو أن محمـد على أوقـع الفرقة بين المسلمين ، وأن كـل البـلاد الاسـلامية يجب أن تظل خاضـعة للسـلطان العثمانى حفاظا على وحـدة المسلمين الممثلة فى الدولة العثمانية ، ولكن لم يحدث تحرك من العراق ضـد مصر ، بمعنى أنه لم تكن هنـاك اسـتجابة للدعاية العثمانية . وعلى العكس وقعت تحركات قوية فى العراق تؤيد مصر ضـد الدولة العثمانية .

فقد هيأت الانتصارات المصرية فى الشام بغداد للقيام بالثورة ضد الحكم العثمانى المكروه هناك . وقد اشتعلت فعلا الثورة فى بغداد فى ١٨٣٢ ولكن اخمدتها القوات العثمانية بقسوة .

وفى الشمال ، فى امارة كردية قوية قامت حركة مؤيدة لمصر تزعمها ميركور أمير راوندوز وكذلك فى الموصل ، انقض عليها يحيى الجليلى واستولى عليها معلنا ولاءه لمصر .

وهكذا كانت فى العراق حركة كبيرة تؤيد مصر ، ولكن لا تدعمها دعما مباشرا . واستطاعت القوات العثمانية أن تقضى على هذه الحركات ، وأن تسيطر على العراق وتجعله قاعدة لضرب الوجود المصرى فى الشام .

ومن مظاهر استخدام العراق قاعدة لضرب الوجود المصرى فى الشام تعاون العثمانيين مع الانجليز فى انزال قوة بحرية بريطانية فى نهر الفرات وفعلا سمحت السلطات العثمانية لسفن بريطانية مسلحة بالمرابطة فى نهر الفرات لمنع اى اتصال بين العراقيين والمصريين .

أما فى الشام ، فقد تمكنت السلطات العثمانية وعملاء بريطانيا من اثارة العصبيات المحلية هناك ضد الادارة المصرية . فقيد قام الدروز — بثورة متطاولة دموية ضد الحكم المصرى وثارت عناصر محلية أخرى . واستعدت الدولة العثمانية عسكريا لخوض معركة أخرى ضد مصر على أمل هزيمتها واستعادة سيطرتها على الشام وعلى مصر ان أمكن .

حاولت السلطات المصرية قدر استطاعتها ان تخمد الثورات فى الشام ، ولكن دون جدوى . وخلال ذلك كانت الدولة العثمانية قد حشدت قواتها على الضفة الشرقية للفرات ثم عبرته الى الضفة الغربية وفرضت على المصريين القتال ، فدارت معركة نزيب (١٨٣٩) . وفيها فقدت الدولة العثمانية جيشها ، كما استسلم اسطولها للاسكندرية . وهنا تدخلت الدول الكبرى ضد مصر .

عقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن اثمر نوعا من التحالف الدولى ضد مصر اذ ضم فى أول الأمر الى جانب انجلترا كلا من روسيا والنمسا وبروسيا ، ثم انضمت اليه بعد ذلك فرنسا .

وتضافرت الثورات الدرزية والمارونية مع المؤامرات فى الشام مع التحالف الدولى على خروج مصر من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

من كل هذا يتبين لنا أن مصر ظهرت بمظهر لا يضارعها فيه أى شعب أو دولة شرقية أخرى ، أو بمعنى آخر كان ثقل مصر فى المنطقة أقوى من أية دولة أخرى .

الفصل الثانى

تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

كان محمد على واعيا الى حد كبير جدا الى مخاطر الأطماع الاستعمارية الأوربية ، وكم من مشروع عرض عليه ولكن تجنبه حفاظا على مصر واستقلالها . ففكرة شق قناة تربط بين البحرين عرضت عليه ، وعرض عليه مد خطوط سريعة للمواصلات بين السويس والاسكندرية ، ولكنه تجنب الموافقة على مثل هذه المشروعات الكبيرة الأوربية .

كذلك وجه محمد على انظار المسئولين فى حكومته الى أن يعملوا على منع تدفق البضائع الاجنبية على مصر والشام منعا من تسرب العملة الذهبية والفضية الى خارج البلاد الامر الذى يعرضها لأزمات اقتصادية شديدة .

وطبق محمد على نظام الاحتكار ، بمعنى ان الدولة هى المتحكمة فى عمليات التجارة الداخلية والخارجية ، ومن ثم كان من المستحيل على اية قوة اقتصادية ان تشق طريقها الى داخل البلاد أو تتحكم فى سياستها التجارية الخارجية . الأمر الذى جعل بريطانيا ــ ذات المصلحة الواسعة فى فتح اسواق جديدة لها لتصريف بضائعها والتعامل مع مجالات اقتصادية بكر ــ تعمل على القضاء بطريقة أو بأخرى على نظام الاحتكار ولذلك عقدت مع الباب العالى العثمانى معاهدة فى ١٨٣٨ عرفت باسم معاهدة بالطة ليمان .

كانت هذه المعاهدة تعطى لبريطانيا حق الاتصال المباشر بين رعايا بريطانيا وأفراد الشعب فى الدولة العثمانية ــ وكانت مصر جزءا من هذه الدول ــ والتعامل معهم تجاريا الأمر الذى يقضى تماما على نظام الاحتكار .

حقيقة قاوم محمد على فى حياته تطبيق معاهدة بالطة ليمان على مصر ، ولكن اضطرت حكومة مصر من بعده ان تذعن وأن تفتح مصر أبوابها أمام التجار الانجليز وغير الانجليز من الاوربيين .

واخذت البيوت التجارية ترسل مندوبيها الى مصر ، واصبحت قبلة العديد من المغامرين التجاريين ، وبمرور الوقت ، وبمجيء الخديو اسماعيل الى الحكم (١٨٦٣) وايمانه بتحويل مصر الى دولة حديثة على الطريقة الاوربية ، تفتحت ابواب مصر امام الأجانب فى معظم النواحى الاقتصادية العسكرية والفكرية والسياسية .

وقد وجد الاجانب فى الشوام المقيمين فى مصر او الذين وفدوا عليها اداة مناسبة لتحقيق نشاط ابتزازى اقتصادى لمصر ، فقد افاد الأجانب من خبرة الشوام فى التعامل مع الشعب المصرى وفى التصدير والاستيراد وحصل الطرفان من وراء ذلك على مكاسب باهظة .

ومما ساعد الاجانب على استغلال الشعب المصرى ان الأسرة الحاكمة فى مصر كانت مقتنعة بقيمة فتح البلاد امام الدول الأوربية ، وكانت هذه الأسرة تحكم حكما مطلقا يدعمها وينفذ سياستها « صفوة » مقربة . وهذا يتطلب منا القاء نظرة على الصفوة الحاكمة .

كان محمد على معنيا بأن تصبح أسرته ذات قوة اقتصادية ، ولذلك وزع على افرادها « الشفالك » وكان كل شفلك يحتوى على الوف الأفدنة من اجود اراضى مصر .

اما وقد وضعت تحت افراد الاسرة الحاكمة مثل هذه المصادر الاقتصادية ، فانهم استطاعوا من بعد توسيع نطاقها والاضافة اليها .

وبنمو الدولة كان (البلاط العلوى) ينمو ويتسع ويزداد عدد افراده ويحصل هؤلاء على هبات واراضى ويشترون المزيد من الأراضى .

ولقد اسرف بعض الحكام من اسرة محمد على فى شراء الأراضى ، ونعنى بذلك الخديو اسماعيل الذى اشترى من اموال البلاد اراضى شاسعة لنفسه ، حتى لقد بلغت مساحة الأراضى المملوكة للأسرة الحاكمة حوالى ٢٠ ٪ من مساحة الأرض المزروعة فى مصر .

وكان من سياسة حكومة محمد على وخلفائه منح كبار رجال الدولة فى

مختلف الجوانب قطعا من الاراضى الأمر الذى جعل القاعدة فى مصر هى الملكية الواسعة . وهؤلاء الذين هم اصحاب الملكيات الواسعة كانوا يشكلون فى نفس الوقت الشطر الاكبر من الصفوة الحاكمة .

وكانت هذه الصفوة الحاكمة تضم اصحاب الوظائف العليا فى الدواوين ، وفى المديريات والقيادات العسكرية .

والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الصفوة كانت من أصول تركية أو شركسية ومن الاكراد وغير ذلك من العناصر غير المصرية ، وقلة قليلة جدا هى التى كانت من أصول مصرية مثل على مبارك .

ويقول المؤرخ الالمانى شولش فى هذا الصدد :

« كان الوصول الى مراكز السلطة يتحدد بالأصل العرقى والروابط الشخصية والعلاقات مع الأسرة الحاكمة . اما المصريون ، فكانوا يمثلون استثناء ، وكان نشاطهم مقصورا على فرع واحد من فروع الادارة ، وهو ذلك الذى يرى الخديو ان لديهم مهارة خاصة فيه » (١) .

ولقد ذهب البروفسور شولش الى القول بأن المثقفين المصريين كانوا « يلعبون دور الخبراء والفنيين فى الادارة ، بينما كانت المناصب الخاصة بصنع القرار بيد الاتراك والشراكسة » (٢) .

والواقع أن هذا كان تطورا طبيعيا من حيث ان محمد على حين بدأ بناء مصر الحديثة اعتمد على العناصر القريبة منه ، وكانت عناصر تركية وشركسية وارسل البعثات وفتح المدارس ، وما كان للمصرى ان — ينتقل الى مستوى أعلى الا بعد فترة طويلة حتى اذا ما تعلمت طائفة من المصريين فى المدارس وحصلت على الأجازة وعملت فى الحكومة بدأ يظهر ما يمكن أن نسميه (طائفة الأفندية) وهى التى كانت تلى (طائفة الأعيان) . والأفندية هم الذين تحملوا مسئولية بناء الادارة والجيش والثقافة على أسس حديثة ، ولكن من زاوية القدرة على التنفيذ وليس من منطلق الحكم أو التوجيه .

---

(١) د . الكسندر شولش ، مصر للمصريين . ازمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ — ١٨٨٢ تعريب د . رءوف عباس حامد ، ، الناشر دار الثقافة العربية — القاهرة . بدون تاريخ ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

ولقد كانت أمام المصريين فرص لتولى القيادات العليا فى وقت مبكر عما حدث .

فقد فتح سعيد باشا باب الترقى أمام الضباط المصريين ، واسند الى العديد من المصريين مناصب ادارية عالية ، ولكن لم يستمر المصريون فى مناصبهم تلك الا لفترة محدودة . فقد آثرت العائلات المصرية أن تدفع البدلية ليعفى ابناؤها من الخدمة العسكرية ، الأمر الذى أعطى للعناصر غير المصرية وخاصة التركية والشركسية فرصا أوسع لتولى المراكز القيادية فى الجيش .

وزاد من ضعف الدور القيادى المصرى فى الجيش ان الخديو اسماعيل عمل على تحديث الجيش باستقدام الخبراء العسكريين الأوربيين واسناد المناصب القيادية لهم . فكثر هؤلاء بشكل واضح ، وكانوا من مختلف الجنسيات انجليز وفرنسيين وسويسريين وأمريكيين وغيرهم . حتى أن الحملة التى ارسلت الى جنوب السودان لمنع تجارة الرقيق اسندت الى مبشر انجليزى هو صموئيل بيكر .

اما المصريون فقد كانوا يتولون مناصب من الدرجة العالية فى المجال الدينى مثل مشيخة الأزهر ومناصب اخرى دينية ، كما كان كبار رجال الطرق الصوفية من المصريين . وكان كبار رجال الدين والطرق الصوفية من كبار الملاك ايضا ، فضلا عن توليتهم نظارة الأوقاف .

وبصفة عامة ملأ المصريون الوظائف والأعمال غير القيادية كموظفين فى الدواوين والادارات والمدارس وضباط صغار فى الجيش ، فضلا عن توليهم مناصب العمدية ومشيخة البلد فى القرى ، والأعمال التجارية .

ومن تحت كل هؤلاء كانت القاعدة العامة من الفلاحين واصحاب الحرف البسيطة فى المدينة .

والفلاحون كانوا يعيشون نفس الأساليب والمستوى الذى كانوا عليه من قبل ، والغالبية العظمى تعمل لدى المالك فى مستوى اجتماعى مقبول ولكن مستوى اقتصادى منحط فالأسرة متضامنة الأب والأم والأولاد فى العمل من أجل لقمة العيش بكل جد ولكن بعائد ضعيف جدا ، وبمستوى ثقافى منهار لا

يحفظه من الزوال الا الايمان بالله واليوم الآخر وما يتطلب ذلك من صلاة يومية وحفظ لبعض آيات القرآن الكريم وسماعه فى المناسبات وسماع لبعض القصص والاناشيد فى الموالد والأفراح . ويدعون الله صباح مساء أن يخفف عنهم اعمال السخرة التى تزايدت فى عهد اسماعيل .

فقد كانت اعمال السخرة تتزايد زيادة طردية مع عمليات بناء الدولة الحديثة والتوسع فى المشروعات الاقتصادية ، وخاصة فى نظام الرى ومشروعات حفر الترع وصيانة الجسور وفوق هذا وذاك حفر قناة السويس . هذا فضلا عن تجنيد عشرات الالوف فى الجيش ومن كان يجند لا يعود الا نادرا والا بعد سنوات طويلة وخاصة اذا ما كان ضمن حملة الى القرم ، أو الى المكسيك أو الى جنوب السودان أو الى قتال الحبشة .

وكانت هذه الحملات التى خرجت من مصر فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر .

حقيقة تعرض الفلاح المصرى فى أيام محمد على لأعباء ضخمة فى مختلف المجالات ، ولكن فى نفس الوقت بدأ يحصل على مكاسب اقتصادية واجتماعية هامة . واستقر كل فلاح فى قطعة أرض صغيرة يفلحها وينتج منها للحكومة الأكثر ولنفسه وما يسد رمقه ، منتفعا بالأرض دون أن يكون له (ملكية رقبة) . وحددت الضريبة على الأرض . وكانت مساحتها للأسرة الواحدة صغيرة لا تتجاوز الأفدنة الخمسة فى الأغلب الأعم ومجرد الاستقرار فى قطعة أرض دون ملتزم كان كفيلا بأن يمهد الطريق امامه لكى يصبح مالكا بربما ما قرب او بعد .

وكانت القرى فى حاجة الى من يشرف على أمورها وكان المشايخ هم اقرب الناس الى هذه المهمة ، ولذلك اعطاهم محمد على تشجيعا على مهمتهم هذه ارضا عرفت باسم (مسموح المشايخ) مقابل ما يقومون به من خدمات للفلاح والحكومة ، كما منح لوجهاء البلد ارضا عرفت باسم (مسموح المصاطب) مقابل ما يقدمونه من خدمات اجتماعية . وكانت هذه الاراضى بحق الانتفاع وليس بحق الرقبة ، ولكن الاستقرار فيها ممهد للملكية الفردية .

ومنح محمد على كبار رجال الدولة الابعديات ، وقد حصل عليها ايضا شيوخ القبائل البدوية وقلة قليلة جدا من الأجانب ، واعطى اصحاب

الابعديات حق البيع والرهن والتنازل وبالتالى حق التصرف وان ظلت ملكية منفعة لا رقبة الا ان ذلك كان اقرب الى ملكية الرقبة من المنفعة فقط .

اما الشفالك التى كانت بيد اسرة محمد على فقد تمتع اصحابها بملكية الرقبة اذ كانت لهم حقوق التصرف فيها وان لم يقنن ذلك صراحة ، فلم ينص على انها ملكية رقبة .

وبدات مسيرة حق الملكية تتخذ شكلا قانونيا ابتداء من لائحة صدرت فى ١٨٤٧ اذ اعطت الفلاح حق الرهن والتنازل ، ثم صدرت لائحة اخرى فى ١٨٥٨ اعطته حق توريثها للابن الارشد بشرط ان تكون الاسرة كلها فى معيشة واحدة وحصل على حق رهن الارض . واصبحت فى يده بعد ذلك (حجة) بارضه تثبت حيازته لها رسميا . وطبقت هذه اللوائح على اراضى الفلاحين وغيرهم ممن كان فى حيازتهم ارض واسعة او محدودة . فلما جاءت الازمة المالية ورات الحكومة ان تحصل على اموال فرضت لائحة المقابلة فى ١٨٧١ التى تقضى بأن يدفع المنتفع من الارض الضرائب لعدة سنوات مسبقا لتصبح الارض ملكية خالصة له . ندفع اكثر المنتفعين ، فاصبحت امور الملكية اكثر استقرارا حتى صدر قانون تثبيت ملكية حائز الارض فى ١٨٩١ وفى ١٨٩٤ .

لقد ادت تلك التطورات الى النتائج الرئيسية التالية :

١ ـ اصبحت حركة بيع وشراء الارض نشطة فارتفع سعرها .

٢ ـ اقبال الشرائح المتوسطة من اهل المدينة على شراء الاراضى الزراعية مثل التجار والموظفين .

٣ ـ توسيع الاعيان من حيازاتهم بالشراء فتصاعدت اعداد كبار الملاك . واتسعت بذلك شريحة الملاك المتوسطين .

٤ ـ انطلاق المرابين فرادى وجماعات على هيئة شركات لتقديم القروض الى الملاك بضمان اراضيهم ومن عجز عن السداد فقد ارضه لصالحهم ، كان اغلب المرابين من الشوام واليونانيين والاقباط واليهود .

٥ ـ اصبحت الفرصة سانحة للمشايخ والعمد لتوسيع ملكيات على حساب الفلاحين بالشراء وبالضغط . كما وضعوا ايديهم على مساحات كبيرة من الاراضى المملوكة للدولة .

٦ ـ حازت الأسرة الحاكمة مساحات شاسعة جدا من الأراضي حتى أصبح ربع أراضى مصر الزراعية ملكا لهم .

٧ ـ ظلت اعداد كبيرة جدا من الفلاحين لا أرض لها وتعمل بالأجرة (تراحيل) الأمر الذي كان يشكل سبة فى جبين المجتمع لما كانوا عليه من فاقة شديدة اذ كان الفلاح يغادر أرضه للعمل فى منطقة بعيدة يسوقه (مقاول التراحيل) ولا يقدم له اية خدمات وانما يعيش على (الجبنة الحادقة والعيش الناشف وماء آسن) .

الفصل الثالث

الثورة العرابيــــــــــــة

ان الأوضـــاع الاجتماعية فى النصف الأول من القـــرن التاســـع عشر فضلا من التطورات السياســـية والاقتصادية هى التى افرزت نظام حـكم اسـتبدادى يأخـذ بنظرية التطور والتحديث .

بدأ هذا النظام بالحكم المطلق الكامل فى أيـام محمـد على ، ثم انشىء المجلس المخصـوص الذى كان بمثابة مجلس اسـتشـارى عـال للباشـا . ولما انشـأ اسـماعيل مجلس شـورى للنواب كان أول مجلس تمثيلى لمصر ، وكان مواليـا للوالى (اسـماعيل) ولا يحاسـب الخديوى ورجاله ومع أنه نص على انتخـابه النواب الا أن عملية الانتخاب كانت صورية .

وكانت الأغلبية العظمى من النواب من أصـول تركية وشركسـية . ولم يأخـذ هـذا المجلس مكانته الا بعد وقوع الأزمة المالية الكبرى أواخـر عهـد اسـماعيل وعندما اسـتخدمه اسـماعيل فى مقاومة الوزارة الأوربية .

وقد دفع اسـماعيل باشـا ثمن ذلك باهظـا اذ اعتبرته الدول الأوربيـة الكبرى عامل عرقلة للخطط المؤدية الى تسـديد مصر لديونهـا ، ونجحـوا فى عزل اسـماعيل فى ١٨٧٩ . فكانت هذه التطورات كلهـا من العوامل التى مهدت للثورة العرابيـة .

لقد تهاونت الادارة العليـا ــ وعلى رأسـها الخديو اسـماعيل ــ فى حق مصر ، من حيث توريطهـا فى أزمة ماليـة حادة ذات طابع عالمى فتح البلاد أمام التدخل الأجنبى التسلطى .

حقيقـة كانت القروض تنفق على مشروعات عظيمة من بينهـا شـق قناة السـويس ، وعلى مشروعات ذات طابع تحديثى مثل الأوبرا ، ولكن لم تكن لدى اسـماعيل ورجـال الحـكومة رؤية اقتصـادية لمسـتقبل مصر فى ظل الديون . فالحكومة الواعية هى التى تجنب البـلاد ويلات الطامعين والعصر حينـذاك كان عصر الرأسـمالية المسـتغلة . فقد كانت فى أوربا رؤوس أموال مكدسـة تبحث

عن مجـالات للاسـتثمار . ففتح اسـماعيل لهـا أبواب مصر وبسر مجـالات الاستثمار ، ولكن دون تحديد لقدرات مصر على التسديد .

ورأس المال شرس حين يتمكن ، وجبـان حين يشـعر بالخطر ، وفى مصر تمكن منهـا فى أيام اسـماعيل ، حيث كان وراء رأس المـال دول طامعـة فى مصر ففرضت هـذه الدول على مصر نوعا من ألوصـاية عليها وذلك عندما قامت (لجنة تحقيق) أجنبية بدراسـة أحوال البلاد الاقتصـادية على ضوء الأزمة المالية وعدم قدرة مصر على الوفاء بمسـئولياتها نحو الدائنين ، واهتزت الثقة بالحكومة عندما اصـدرت هـذه اللجنـة قراراتهـا التى نعتبرها بـداية دخـول مصر فى دائـرة النـكبة .

فقد وضـعت هذه اللجنـة خطـة لاصـلاح اقتصـاديات البلاد ، وخطـة سياسية لاصلاح الادارة الداخلية تعتمـد أساسـا على تقليص سـلطة الخديو فى ادارة أمور البـلاد ، وفرضت على الخـديو وزارة برئاسـة نوبار (الأرمنى) ودخـل فى عضـويتها وزيران أحـدهما انجليـزى (ولسـون) والثانى فرنسى (دى بلنيير) ، وطالبت ايطاليـا بأن يكون لهـا هى الأخـرى وزير ايطـالى فى الوزارة ، ولكن دون جدوى .

ان هذا الشـكل من توزيع الحقائب الوزارية يكشـف بوضوح أن مسـتقبل مصر بدأ ينتقـل من يـد حكام مصر الى يد الأجانب ذوى الأطمـاع المبـاشرة فى بلادنا .

كان افلاس مصر المـالى ، وعدم قدرة اسـماعيل على مواجهـة الأزمة حتى لقـد أصبح مشـلول الفـكر منهـار الكـيان ، كان كل هذا سـببا فى أن يقبـل اسـماعيل توصيات (لجنة التحقيق) ، ووافق على أن يتنـازل عن حوالى ٤٠٠ ألف فدان من املاكه واملاك أسرته . وهذا القبول وتنفيـذه فعـلا ان دل عـلى شىء فيـدل على أن الخـديو اسـماعيل أصبح شخصية لا وزن لها ، معترفا بأثم الفسـاد والفوضى واسـقاط الدولة فى هوة الخضوع للأجانب . حتى لقد أسند رئاسـة مجلس النظـار (مجلس الوزراء) الى نوبار باشـا (الأرمنى) . وقام الرجـل بتشـكيل وزارته على الطريقة التى يرتضيها (الدائنون) والدول الكبرى وخاصة تلك الطامعة فى البلاد اذ أدخل فى الوزارة وزيرين أجنبيين .

وكان إسـناد رئاسـة الوزارة الى نوبار تحـديا سـافرا لرجلـين كانا

يتصارعان على اليد العليا فى البلاد ، فقد كان شريف باشا يسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه على الطريقة المصرية بينما كان نوبار يسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه على الطريقة الأوربية .

واذا كان هناك مجال للمقارنة بين الرجلين فان موقف كل منهما من مستقبل مصر يكشف عن تلك الحقيقة التى سبق أن أرسيتها :

فخلال مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذى انعقد لاعادة رسم خريطة الدولة العثمانية والبلقان بتسوية الخلافات بين الدول الكبرى على حساب الدولة العثمانية كان نوبار يستجدى بسمارك للاستيلاء على مصر ، ويلح عليه لكى تتولى المانيا انقاذ مصر من كبوتها حتى ولو كان ذلك بسيطرة المانية على بلادنا .

أما شريف باشا فكان سياسيا محترفا ، يرى أن الادارة العليا الخديوية غير جديرة بأن تحكم البلاد ، وحيث انها مسئولة عن تدهور امور البلاد وتعريضها للخراب فعلى الخديو أن يكون فقط مجرد رمز ملكى وأن يترك الحكم الفعلى لوزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

كان اسماعيل يدرك انه يواجه قوى كبيرة ، ولكنه لم يكن ليقبل أن يزاح عن مكانته بهذه السهولة التى بدا عليها ، وشرع فى استخدام أوراقه الأخيرة . نعم أنه هو الذى وافق على اسناد رئاسة الوزارة الى نوبار والى ان يكون فى الوزارة وزيران أجنبيان ، فقد عمل على عرقلة أعمال هذه الوزارة حتى أصبح ذلك من الأمور الشائعة ، وخشيت الحكومة البريطانية من ان ينجح الخديو اسماعيل فى استعادة سلطانه والتحكم فى مقدرات البلاد ولذلك وجهت اليه الحكومة البريطانية خطابا هو فى حقيقة الأمر (انذار) له بالكف من عرقلة أعمال هذه الوزارة .

ومن يراجع نص الرسالة التى بعث بها اللورد سالسبرى — رئيس الوزارة البريطانية — يكتشف بسهولة كيف أصبحت مصر مسيرة فعلا من لندن ، وأن الخديو أصبح يتلقى أوامر لندن لتنفيذها .

فقد ورد فى هذه الرسالة أن حكومة لندن مستاءة كل الاستياء من العقبات التى يضعها اسماعيل أمام وزارة نوبار ذات الوزيرين الأجنبيين ، وان

استمرار اسماعيل فى ذلك يعنى أن يسير نحو الهاوية ، فعلية أن يكف على اية اجراءات يفهم منها أنه يناهض تلك الوزارة .

أراد اسماعيل أن يدخل فى حوار مع حكومة بريطانيا ليقنعها بأنه لا يستحق هذه المعاملة الجائرة . وهذا يعنى أن اسماعيل اصبح يتكلم من منطلق التابع للمتبوع . وكان يحاول بالحوار أن يستعيد بعض كرامته المهدرة ، وأن يستعمل فى ذلك اسلوبا قد تفهمه بريطانيا ، بمعنى الضرب على وتر الديمقراطية . فبريطانيا دولة ديمقراطية ، وتحترم الشعوب والسلوك الديمقراطى ، وظن اسماعيل أنه لو ضرب على وتر حق مجلس النواب – ممثل الشعب — فى فرض الضريبة لربما كسب الحكومة البريطانية ، بل وكسب الشعب ، كذلك نظرا لمعارضة معظم اعضاء مجلس النواب لأنهم هم أنفسهم ضد فرض ضرائب جديدة . فضلا عن أن المرابين كانوا قد استنفدوا كل امكانيات الأعيان والفلاحين على حد سواء .

ولقد كان موقف الوزارة النوبارية سيئا فعلا نظرا لأنها كانت فرضت نوعا من السخرة على شباب البلاد الأمر الذى أثار البلبلة والضيق وخاصة أن البلاد لم تكن قد أفاقت بعد من نكبتين اقتصاديتين متتاليتين : ففى ١٨٧٧ وقع جفاف تلاه فيضان مدمر فى ١٨٧٨ وانتشرت المجاعة والفقر . فمن أين يدفع الفلاحون والأعيان الضرائب الجديدة التى فرضتها « الوزارة الأوربية » . بل وصلت الى العاصمة وفود من الأقاليم للاحتجاج على الضرائب الجديدة كما تحرك عدد من النواب المصريين ضد الوزارة الأوربية .

لقد كانت الحركة التى قام بها اسماعيل بارعة ونعنى بذلك التجاءه الى مجلس شورى النواب للدفاع عن مصالح البلاد بشكل يعطى المجلس شكلا من أشكال البرلمان الحديث حينذاك . وفى نفس الوقت كان يدبر — على أغلب الآراء — ما عرف باسم (حركة الضباط) فى ١٨٧٩/٢/١٨ . فقد كان الموظفون والضباط يعانون من تأخير دفع مرتباتهم ، وأدى ذلك الى تحرك مجموعة من الضباط وأهانوا نوبار باشا وريفرز ويلسون ، وكادت الأمور أن تتحرج لولا أن جاء الخديو الى مسرح الأحداث وأمكن السيطرة على الموقف . وهناك اتجاه عام أن كل هذا كان بتخطيط وتدبير الخديو ليثبت أنه لا يزال صاحب قوة ونفوذ فى البلاد .

وأدت تلك الحادثة الى استقالة نوبار والى أن يعقد قرض جديد من

بيت روتشيلد لدفع رواتب الضباط . ولكن أكدت التطورات التالية ان اسماعيل لم يسترد سلطاته بل انه فقد المزيد منه بعد تلك الحادثة بل وان اسماعيل فقد قدرته ليس فقط على المفاوضة بل ربما على فهم ما يجرى حوله ، أو ربما اسقط فى يده فقبل امورا هى سبة فى جبين البلاد .

فقد أصر اسماعيل على ابعاد نوبار عن الحكومة ، واصر ولسون على أن يظل رئيسا للوزارة ، وتدخلت حكومتا لندن وباريس حتى انتهى الأمر الى :

١ — استقالة نوبار وتكليف الأمير توفيق اسماعيل بتشكيل الوزارة .

٢ — لا يحق للخديو اسماعيل حضور مجلس الوزراء .

٣ — الابقاء على الوزيرين الأجنبيين (الانجليزى والفرنسى) .

٤ — حق الوزيرين الأجنبيين فى وقف أى قرار وزارى لا يرتضيانه .

ان نظرة سريعة الى هذه التسوية تؤكد أن :

١ — اسماعيل فقد سلطاته .

٢ — الرقابة الأجنبية أصبحت اكثر قوة بل اصبحت تحكم مصر .

وأغلب الظن أن اسماعيل قد وجد انه لا حول له ولا قوة فقبل تلك الشروط القاسية ، وفرح لأنه تخلص من نوبار ، وما كان التخلص من نوبار ليوازى تلك الخسائر الفادحة التى نزلت بمصر بسبب تلك الوزارة الأوربية . والنتيجة العامة لتلك التطورات هى أن اسماعيل خرج من (حركة الضباط) مزهوا ولكن مسلوب السلطة مهيأ لعزله عن الحكم .

ولكن اسماعيل لجأ الى الاعيان والى مجلس النواب لعرقلة اعمال الوزارة الأوربية ، ونجح فى اسقاط الوزارة وتكليف شريف باشا بتشكيلها (ابريل ١٨٧٩) .

وبذلك يكون الخديو قد وضع نفسه فى مواجهة حاسمة مع الدول الأوربية نظرا لأن شريف وان كان ضد الحكم المطلق الا انه كان ضد التدخل الأجنبى . ولذلك اتجه شريف الى اعداد دستور وتهيئة البلاد لحياة ديمقراطية فما كان من بريطانيا وفرنسا الا أن قررتا عزل اسماعيل ، ووقف الاجراءات التى سار فيها شريف . وفعلا عزل اسماعيل وتولى ابنه توفيق الخديوية .

أسند توفيق الى شريف باشا تشكيل الوزارة ، ولكن الظروف الجديدة لم تعد ملائمة لشريف ليقوم بدور ما ، ولذلك لم يلبث أن استقال ، وخلفه رياض باشا .

وخلال ذلك كانت الحركة الوطنية قد أخذت فى التصاعد على يد الانتلجينسيا المصرية . بحيث ادى عزل اسماعيل الى أن تصبح والشعب فى مواجهة الدول الكبرى الطامعة فى البلاد وضد الحكم المطلق .

لقد كان العديد من الزعامات المصرية تشعر بالأسى لأن الدول الاوروبية الكبرى الطامعة فى مصر هى التى أرغمت السلطان العثمانى على اصدار قرار عزل اسماعيل ، وهو القرار الذى قبله صاغرا وغادر البلاد ، لقد كان كثرة من الوطنيين المصريين مستائين من هذا التطور الذى اثبت بكل قوة أن أمور مصر تدار فى لندن وباريس والأستانة وأن زعماء مصر ، وشعبها لا رأى لهم حتى فى مثل هذا الأمر الخطير .

لقد كان عدد من اصحاب الفكر الثورى يتمنى أن يكون عزل هذا (الطاغية) على يد حركة وطنية مصرية ، وكان من بين هؤلاء احمد عرابى الذى تألم كل الألم بسبب عزل اسماعيل بيد اجنبية وليس بأيدى المصريين اصحاب القضية الحقيقية .

انه لمن الجدير بالمقارنة بين ما حدث فى ١٨٧٩ من عزل لاسماعيل بيد الدول الكبرى الاستعمارية الطامعة فى مصر ، وبين ما حدث فى ١٩٤٢ حين اقدمت بريطانيا على حصار سراى عابدين بالدبابات لارغامه على التنازل عن العرش أو اتخاذ سياسة تضع مصر فى خدمة عجلة الحرب البريطانية بغض النظر عن مصالح مصر ورأى الشعب . فلقد احتج بعض السياسيين والعسكريين على أقدام بريطانيا على ذلك العمل فى ١٩٤٢ ، ومن بين هؤلاء الساسة والضباط من شارك فى أسقاط الملك فى ١٩٥٢ .

كانت الحركة الوطنية قد نشطت فى أواخر عهد اسماعيل . فقد كانت فى مصر صحافة نشطة متعددة الاتجاهات ، وهبط مصر من كان بمثابة رجل العصر فى الشرق (جمال الدين الافغانى) رجل يرتدى الملابس الدينية ويتكلم عن الدستور والبرلمان والتمثيل والحكم المطلق الخطر على مستقبل البلاد — رجل يحمل القرآن الكريم ولا يتورع عن الالتحاق بالماسونيه لعله يستخدمها من اجل تحرير

الـ ـق من الطغاة المحليين ومن الاستعماريين الأوربيين وبدأت تظهر اسـماء لهـا دوى فيما بعد ، بعضها فى القريب العاجل وبعضـها فى ضـمير الوطن لحين تأتى الظـروف المناسـبة .

ظهرت اسـماء (محمـد عبده) ، (سـعد زغلول) ، (عبـد الله النديم) ، الهلباوى) وكان هؤلاء من المصريين الخلص ، من ريف مصر . تربوا فيه ، وتعلموا فى مدارس مصر ، واكتسبوا اتيكيت الترك والغرب ولكن احتفظوا بمفهومهم للمصرية ... في نفس كـل من ولـد وعاش فى وادى النيـل . ومنهم من ظل متعلقـا بالاسـالة اكثر من تعلقـه بالجديد الأوربى مثل النديم الذى اتجه نحو دعم الحركة الاسـلامية الى جانب دعم الحركة التحريرية الوطنية المصرية .

وظهر الى جانب هؤلاء (شـوام) على مقدرة كبيرة فى أن تكون اصـواتهم ... صـحافتهم المتاججة . ومن هؤلاء ديب اسـحق وسـليم نقـاش . وهمـا ... عن أراء الأفغانى (١٨٧٧) ، وامثالهم كثيرون فى مصر من شـوام جاءوا ... ليعيشـوا فيها وينغمسـوا فى صـالوناتها الاجتماعية ويركبوا تياراتهـا ... ، بل ويركبوا التيـار العالمى ، ومن ذلك ظهورهم بمظهر المكافحين من ... الديمقراطية ضـد الاتوقراطية وضـد الاسـتبداد على نحو مـا فعلوا مـع ... سعد أن خلف شريف باشا .

وظهرت التيارات العديدة ، وتشـكلت الجمعيـات الداعيـة الى الاصـلاح ... او الاصلاح الاجتماعى ، وتصـاعدت الشـعارات التى تتحدث عن الشعب ... حقوقه المهضومة ، وتجمعت عناصر عالية الثقافة على دربة سـياسية وتكوين ... فوق البرجوازية وليس دونها ، تجمعت فى حلوان وشكلت مـا عرف باسم ... حلوان) أو (الحزب الوطنى) (١) ووجدت فى نفسـها الهيئة التى يمكن أن ... البلاد من رياض والشراكسة والأطماع الأجنبية .

... مهيأت البـلاد لحركة تنتظر الزعامة التى تقودها . وهى حركة قوامهـا ... (أولاد العـرب) وذوو الأصـول التركيـة ولكنهم مصريون فى فكرهم

---

(١) من ابرز اعضاء جماعة حلوان او الحـزب الوطنى : شريف باشـا ، جون ... سـحفى السويسرى) ، محمـد عبـده ، سعد زغلول ، محمـد سلطان ، ... ، عبد الله النديم ، ابراهيم الهلباوى . وجميعهم سيلعبون أدوارا بارزة فى ... الحركة الوطنية .

وتطلعاتهم ، فى مواجهة استبداد الخديو ، والضياع الاقتصادى ، واهمال حقوق الشعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واذلال البلاد بالرقابة الأوربية ووضع البلاد تحت رحمة الأجانب ، لقد تهيأت البلاد لثورة .

* * *

تعتبر الثورة العربية — رغم قصر عمرها (١٨٨١ — ١٨٨٢) — نقطة تحول رئيسية فى تاريخ مصر الحديث ، وذات صدى كبير فى تاريخها المعاصر .

وهى بلا جدال ثورة من اجل التحرر من الطغيان — فى عصر الليبرالية — ومن الاستعمار فى عصر القومية وحق الشعب فى أن يحكم نفسه بعيدا عن تسلط فرد أو قوة اجنبية . ولقد سارت مصر فى الاتجاه السليم نظريا ، ولكن عمليا وقعت فى أخطاء شديدة ، وفى نفس الوقت كانت الدول الكبرى مستعدة لتسوية خلافاتها على حساب الدول والشعوب غير الأوربية أو الشعوب الصغيرة أو الضعيفة .

وليس فى استطاعة اى باحث ان يحدد بداية معينة لثورة من الثورات وانما يستطيع ان يقدم الجذور التاريخية لها حتى يصل الى نقطة انطلاقها كثورة ، ومن ثم سنعمل أولا على أن نتتبع الجذور التاريخية لهذه الثورة والعوامل التى ادت اليها وتطوراتها ونتائجها .

لقد أدركت مصر منذ وقت مبكر نسبيا ان بناء دولة جديثة هو مفتاح حريتها وتقدمها ، ولقد أحرزت مصر قصب السبق فى هذا المضمار خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولقد بذل محمد على وعدد من رواد النهضة الحضارية جهدا لا يمكن الا أن نقدره كل التقدير . فمحمد على فى مصاف بناة الدول . وليس معنى هذا ان نتجاوز عما وقع من اخطاء خلال مسيرته فى تحضير وتحديث مصر .

لقد كان محمد على طموحا ، وكان يسعى الى بناء دولة لنفسه والأسرته . وهذا شأن ذلك العصر ، وظاهرة كانت حينذاك مقبولة من مختلف الأوساط السياسية المحلية أو غير المحلية . فقد كان نظام الحكم السائد حينذاك هو الحكم (الملكى) باشكاله المتعددة :

* الملكية المستبدة المستنيرة الوراثية مثل (بروسيا) وكانت تحكمها أسرة الهوهنزلون .

* الملكية المستبدة الوراثية (أسرة رومانوف الحاكمة فى روسيا) .

* الامبراطورية المستبدة المستنيرة (نابوليون) .

* الملكية الامبريالية المستنيرة الدستورية البرلمانية (انجلترا) .

وكان فى الشرق ملكيـات أخرى ذات طابع مختلف — الى حد كبير جـدا — عن تلك الملكيات الأوربية .

فقد كانت الدولة العثمانية تدعى انهـا دولة الخلافة الاسـلامية ، وأن على الرعية ان يطيعوا خليفة المسلمين السـلطان العثمانى محمود الثانى (١) حينذاك .

ولا تعترف لا بالنظم الدستورية ولا حتى بالملكية المقيدة . وهنـاك فى ايران ملكيـة مذهبية شيعية فاجارية فارسية ، تتمتع بمقومات الدولة القومية وتمارسـها دون اعلان رسمى لها . كمـا كان فى البلاد العربية العديد من الأسرات الحاكمة :

١ — الاسرة الشهابية فى (لبنـان) .

٢ — أسرة الائمة الزيديين فى اليمن .

٣ — اسرة البوسعيد فى مسقط وعمان .

٤ — اسرة بابان فى السليمانية فى العراق .

٥ — أسرة الإشراف فى الحجاز .

٦ — أسرة آل سعود فى نجد .

٧ — الاسرة القرة منلية فى طرابلس الغرب .

ومن ثم كانت ظاهرة الاسرة المالكة ظاهرة عامة ، كان ذلك من العوامل التى عمقت فكرة اقامة أسرة حاكمـة فى مصر ، ولم تكن مصر قـد عهـدت نظـاما اسريا

---

(١) حكم سلطانا عثمانيا من ١٨٠٨ حتى ١٨٣٩ .

حاكما منذ سقوطها فى يد العثمانيين فى ١٥١٧ الا اذا اعتبرنا المماليك فى مصر اسرة من الأسرات الحاكمة .

لقد وضع محمد على نصب عينية اقامة دولة يحكمها هو فى حياته ويتولاها من بعده ابناؤه واحفاده . لقد كان وجود الأسرة العلوية فى الحكم محورا أساسيا من محاور سياسته الداخلية والخارجية .

وتطبيقا لهذه الخطة :

* وزع الأراضى الواسعة (الجفالك) على أفراد اسرته وفى مناطق زراعية عالية الجودة والانتاج .

وكان محمد على لا يقبل ان يشاركه فى حكم البلاد اى مصرى ، ولقد استبعد كبار المشايخ والأعيان من امكانية مشاركته فى الحكم ، ومع انهم هم الذين سعوا الى تعيينه واليا على البلاد . واسند محمد على المناصب العليا والادارية الى من هم من جنس او سلالة الاتراك او الشراكسة ، وبصفة عامة ابعد المصريين عن المراكز ذات الشأن وترك لهم المناصب الدنيا العسكرية والمدنية .

ومعنى هذا ان محمد على وضع مستقبل مصر فى يد اسرته وحوارييها ، وعلى اعتبار انها هى الأسرة الاقدر على حكم البلاد ، استبعد المصريين من تولى المناصب القيادية وفق خطة موضوعة .

ولكن حدث ان تبنى ابراهيم باشا بن محمد على قضية حق المصرى فى ان يترقى الى رتب اعلى . ويرجع ذلك الى تجارب ابراهيم باشا خلال الحروب التى خاضتها القوات المصرية ضد القوات العثمانية (١٨٣١ — ١٨٣٩) .

أدرك ابراهيم باشا مدى هذا الغبن الذى نزل بكل مصرى قاتل قتال الابطال تحت قيادته خلال الحروب التى دارت بين مصر والدولة العثمانية بين عامى ١٨٣١ ، ١٨٣٩ . ولقد تبين لابراهيم باشا ان الضباط والجند المصريين هم الذين خاضوا وكسبوا المعركة تلو المعركة ، أما الضباط الأتراك والشراكسة فقد كانوا غالبا أقرب الى الفرار منهم الى الصمود ، وكثرة منهم كانت سببا فى اضطراب الصفوف بينما كان المصريون يملأون الصفوف وينقضون حتى يتشتت الجيش العثمانى ، ويكسب المصريون نصرا مؤزرا .

وقد تجلى كل هذا بوضوح خلال معركة نزيب التى دارت بين الجيش المصرى والعثمانى فى ١٨٣٩ . تلك المعركة التى اندحر فيها الجيش العثمانى اندحارا حتى لقد دب اليأس فى القادة العثمانيين مما كان من قائد اسطول البحرى العثمانى الا ان سلم اسطوله الى القيادة المصرية فى الاسكندرية .

وشعر ابراهيم باشا بنوع من الخجل لأنه كان قد تلقى اوامر ابيه من قبل بان لا يقدم ابدا على ترقية اى مصرى (فلاح) الى رتبة أعلى من رتبة اليوزباشى . ولقد فكر فى كيفية التوفيق بين هذه التعليمات وبين حقيقة ما براه بعينيه من احقية المصرى فى الترقى الى أعلى المناصب ؟ فقرر ان يكتب لأبيه فى هذا الشأن .

لقد كان ابراهيم باشا صادقا مع نفسه تماما حين كتب الى ابيه طالبا فتح باب الترقى أمام المصرى للرتب العليا والقيادية ، وما ان تلقى محمد على خطاب ابنه حتى رد عليه بما ادهش ابراهيم ولكن فى نفس الوقت بما اقنعه بعدم التخلى عن وجهة نظر أبيه .

فقد قال محمد على فى رسالته الى ابنه :

ومن المعلوم يا ولدى اننى تجنبت حتى الآن ترقية العرب الى الرتب العليا ، وظللت محجما عنها مدة طويلة مقدرا النتائج التى ستترتب عليها بعد مائة سنة .

لقد كان محمد على يدرك بثاقب بصيرته وقدرته على تكوين رؤية مستقبلية ان المصرى لن يتوانى عن الثورة على حكم اسرة محمد على اذا ما تولى المصرى المراكز القيادية . ولقد كان محقا فى توقعه ولكن بعد أربعين عاما فقط وليس بعد مائة عام .

لقد كان محمد على ينظر الى المصريين نظرته الى من هم فى خدمته فقط وفى خدمة أسرته وخدمة مخططاته لتحضير وتحديث البلاد . وكان محمد على على يقين من أن المصرى اذا ما خرج عن هذا الاطار المرسوم له واذا ما تولى المناصب القيادية ان يتورع عن الثورة على اسرة محمد على ويطردها من حكم البلاد . ومعنى هذا أن الازمة بين المصرى (العربى) والاسرة العلوية بدات مع نشاة مصر الحديثة على يد وعهد محمد على .

وابلغ تصـــوير لهذه المتناقضات ونتائجها ورد فيما كتبـــة أحمـــد عرابى زعيم الثورة ، فقد قال :

« صـــغار الضـــباط ... يترقون ... بعضهم الى رتبـــة الأمير آلاى ... وبعضـــهم الى رتبـــة الفريق ... لا بعلم علموه من دونى ، ولا بفهم خارق للعادة ، ولا بشجاعة ابرزها فى ميادين القتال . ولكن لكونهم من ممـــاليك أو أبنـــاء مماليك العائلة الخديوية ، فاصطفاهم الخديوى بالرتب ، وحباهم بالأموال الكثيرة ، والحلى الثمينة من دم المصريين وعرق جبينهم ! » .

وكان فى مصر عـــدد من أرباب القلم ، ممن راقبوا عن كثب كم كانت مصـــالح البلاد مهدرة من أجـــل الخديو اسماعيل ، ومن اجـــل ســـوء تقديراته الاقتصادية التى اوقعت البلاد تحت رحمة الدائنين .

وفى عبارة موجزة بلور احـــد رجال القانون التضـــاوب الذى نجم عن اخضاع مصر للأجانب :

« كانت الدول الأوربية ... تعلن ان الحكومة المصرية تتمتع بحرية كاملة فى ادارة شئونها ، وتفرض فى الوقت نفسه على الخديو انظمـــة وقوانين لا تتلاءم مع اوضـــاع بلاده وتتنافى وروح الحـــرية التى تنـــادى بهـــا ... ان معظم الأوربيين كانوا سببا فى خراب مصر ، وانهم افرطوا فى سوء تصرفهم حتى عاش الشـــعب المصرى الوادع المسالم فى مركب الحقد عليهم » (*)

وشعرت الأنتلجنسيا المصرية ان الوقت قـــد حان لتخليص البـــلاد من الحكم الاستبدادى ، واصدار دستور للبلاد ، دستور يحقق مشـــاركة الشـــعب فى توجيه أموره ، ويعطى الشعب امكانية التصدى للتدخل الأجنبى استنادا الى جيش وطنى يدفع عن البلاد عادية الاســـتعمار الذى كان يدق بعنف أبوابها من ذوى الأصـــول التركيـــة المتمصرة الذين ظلوا متمسكين بحق حصولهم على المراتب العسكرية العليا وان رفعهم الى المناصب الادارية الكبيرة انمـــا هو منة منهم وليس تفضـــلا من هذا الوطن عليهم . لقد عاش هؤلاء بمعزل عن الشـــعب . ومنعوا الضـــباط المصريين من ابنـــاء الفلاحين — من ان يصـــلوا الى أعلى من رتبـــة اليوزباشى . بينما كانت باقى الرتب حتى « فريق » متاحة لكـــل من هو ليس من ابناء فلاحى مصر ، ولكـــل أجنبى عن البلاد .

كان أحمـــد عرابى على صـــلة بسراى الخـــديوى اســـماعيل . وكان قـــد

الشترك فى حرب الحبشة ، تلك الحرب التى بدا واضحا فيها ان الحكومة عرضت أرواح الألوف من الجند المصرى دون مبرر اذ القت بهم فى بيئات معقدة التضاريس صعبة المواصلات ، وبين شعب معاد ، دون أن توفر له امكانيات النصر . وفوق هذا وذاك ، كانت قيادة الجيش المصرى خلال حملة الحبشة أجنبية مكنت الأحباش من قتل اعداد كبيرة من الجنود المصريين . فعاد أحمد عرابى من حرب الحبشة الى مصر ناقما على حكومتها (١٨٧٥) . ولكنه وجد مصر فى حالة اشد خطورة . وجدها تئن من الضربات القاسيات التى يوجهها رجال الحكومة الى الشعب لابتزاز ما يمكن ابتزازه لصالح الخديوى والشراكسة ، والدائنين الأجانب . وملأت الثورة صدره . ودخل فى الحزب الوطنى الذى تالف على يد جمال الدين الافغانى وضم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول واحمد شريف باشا وغيرهم من الغيورين على مستقبل البلاد .

ومن الخطوات التى كان احمد عرابى - ورفاقه فى الحزب الوطنى - يفكرون فى اتخاذها انقاذا للبلاد من استبداد الخديدى اسماعيل ان يقوموا بحركة تؤدى الى خلعه . ومع ان خلع اسماعيل باشا لم يلبث ان تم بعد ذلك بوقت قصير الا ان احمد عرابى - وان كان يرى ضرورة خلعه - ادرك ان خلعه بيد غير يد المصريين تنطوى على مخاطرة كبيرة (١) .

لقد كانت الاذهان مهياة للثورة سواء لدى المثقفين الذين ادركوا عن قرب خطورة استمرار توفيق فى الحكم الاستبدادى بالتعاون مع المراقبة الثنائية البريطانية الفرنسية على البلاد ، وسواء لدى الفلاحين الذين ارهقتهم الضرائب. حتى كبار الملاك انفسهم - وكانوا من المتعصبين للأسرة الخديوية - تعرضوا للكثير من المظالم المالية على يد حكومة رياض باشا . ولذلك كانوا مستعدين للمساهمة فى حركة تقوم ضد الحكم الخديوى بشرط ان تعود عليهم بارباح مالية وتحقق أغراضهم الخاصة .

---

(١) قال أحمد عرابى فى هذا الصدد : التى عزل اسماعيل بعد ذلك عبئا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو اننا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان افضل . اذ أننا كنا نستطيع أن نتخلص من اسرة محمد على كلها ... وكنا نستطيع ان نعلن اقامة جمهورية .

على أن تهيؤ الظروف للثورة لا يؤدى اليها الا عندما تقع حادثة معينة تحرك أكبر قوة قادرة على التحرك والعمل واستقطاب القوى الأخرى المستعدة للمشاركة فى الثورة . وحدث هذا فعلا عندما بلغت تحديات عثمان رفقى باشا - وزير الحربية الشركسى - للضباط المصريين درجة لا تحتمل وتحيزه الشديد لجانب الضباط الشراكسة . وادى هذا الى ظهور تكتل من الضباط المصريين ضد عثمان رفقى ، ولم يلبث هذا التكتل أن اختار أحمد عرابى زعيما له . وهكذا بدأ يظهر أحمد عرابى على مسرح الأحداث ، واصبح قادرا على التاثير فيها لأنه يستند الى قوة يستطيع استخدامها اذا لزم الأمر .

وشرع أحمد عرابى يدق أبواب رئيس الوزراء - رياض باشا - وأبواب وزير الحربية - عثمان رفقى - فى هدوء وبساطة لعلهما يعدلان من نظام ترقية الضباط (الفلاحين) ولكن دون جدوى . بل زاد عثمان رفقى فى اضطهاد الضباط المصريين واهانتهم . فلم يعد هناك بد من ان يطلب الضباط (الفلاحون) من رئيس الوزراء أن يبعد وزير الحربية عثمان رفقى عن الوزارة ، وأن يسندها الى وزير وطنى . فما كان من الخديو ومن رئيس الوزراء رياض باشا الا أن قبضوا على احمد عرابى واثنين من الضباط معه تمهيدا لمحاكمتهم ، وهنا تحركت بسرعة كتائب من الجيش المصرى بقيادة ضباط وطنيين وافرجت بالقوة عن احمد عرابى ورفيقيه . وبدت نذر تطورات خطيرة فى البلاد اذ أصبح الخديوى وجها لوجه امام الجيش لأول مرة . وادرك ان العاصفة قد تهب ، ففضل أن ينحنى لها حتى تمر ، فعزل عثمان رفقى ، واسند وزارة الحربية الى محمود سامى البارودى .

لقد بدأت الثورة ، واصبح من المستبعد جدا ان تقف عند حدود هذا التغيير الوزارى . اذ انتشرت فى البلاد أنباء تلك الحركة ، وتطلع الناس الى أن التغيير يجب ان يسير فى مختلف الأجهزة ، وليس فى منصب وزير الحربية فقط . والتف الشعب وزعماؤه حول أحمد عرابى ، على اعتبار أنه اصبح الزعيم القادر على فرض ارادة الشعب على الخديوى وعلى اعوانه من الأجانب . وبدأت التيارات الوطنية تصب فى اتجاه واحد هو ضرورة اصدار دستور للبلاد يعطى الشعب حقه فى أن يدير أموره بنفسه ، ويتصدى للتدخل الأجنبى ولسياسة تفضيل مصالح الأجانب على مصالح الوطن .

ادىّ ذلكَ الى أن يقررَ الزعمـاء الوطنيون ، المـدنيون منهم والعسـكريون القيـام بمظاهرة شـعبية سـلمية تزحف الى سراى عابدين مطالبـة بحقـوق الشـعب . وتحدد ميعـاد المظاهرة فى ٩ سـبتمبر ١٨٨١ ، وسـارت فى نظـام متكامل . وواجه احمـد عرابى — ومن خلفـه كتائب الجيش وجموع الشـعب — الخديوى ومن حوله كبار مستشـاريه من الانجليز . وتقدم أحمد عرابى بمطالبه :

— مجلس نيابى منتخب تكون الوزارة مسـئولة أمامه .

٢ — تقـوية الجيش واصـلاح قوانينه .

٣ — عـزل وزارة رياض باشـا المسـتبدة المـكروهة من الشـعب ومـن الجيش .

ورفض الخديوى هذه الطلبات على اعتبـار ان لا حـق للزعماء العسكريين او المدنيين فى مثل هذه الامور التى هى — فى نظـره — من شـأنه هو على انـه ورث مصر عن آبائه واجداده .

بل لقـد تمادى الخديوى ووجه نقمته على عـرابى قائلا له : « وما انتم الا عبيـد احسـاناتنا » .

فرد عليه أحمد عرابى بكلمته المأثورة : لقد خلقنـا الله احرارا ولم يخلقنـا تراثا وعقـارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سـوف لانورث ولا نسـتعبد بعـد اليـوم » .

لقد اتضحت معالم الثورة :

١ — ثورة شعب يريد ان يحكم نفسه بنفسه وان تنتقل اليه السـلطات حتى ولو كان ذلك فى أحلك الظروف ، وخديوى يتمسك بحق الارث .

٢ — ثورة شعب ضد أقلية شركسية متعاونة مع الأجانب الذين لا يتورعون عن بيع البلاد للأجنبى (١) .

وكان لابد من ان ينحنى الخديوى مرة اخرى للعاصفة فالجيش والشعب من وراء عرابى ، وسقطت وزارة رياض واسـندت رئاسة الوزارة الى احمـد شريف

---

(١) كان نوبار باشا رئيس الوزارة المصرى الارمنى يحث بسمارك والانجليز على أن الثمرة قد اينعت وأن مصر يمكن شراؤها ببضعة الوف من الجنيهات .

باشا (١٤ سبتمبر ١٨٨١) . وحفاظا على الديمقراطية ، وتمكينا لشريف باشا من العمل فى جو هادىء بعيدا عن ضغوط صادرة عن رجالات الثورة ، اتفق على ان ينقل احمد عرابى واعوانه الى مراكز عسكرية بعيدة عن القاهرة . وتم ذلك فعلا الأمر الذى يؤكد ان أحمد عرابى لم يكن من النوع الذى يسعى الى السلطة والثورة من اجل الحكم ، وانما كان يضع مصالح وآمال مصر امام أى هدف آخر .

شرع احمد شريف باشا فى اعداد لائحة اساسية (الدستور) على اساس أن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب ، ودعا مجلس النواب فى ديسمبر ١٨٨١ ، وتلا الخديوى خطاب العرش أمامه ، وأعلن المجلس من جانبه التزامه بتنفيذ الاتفاقيات أو بمعنى آخر لم يتعرض مجلس النواب للديون ،ولم يشر الى أنه سيجحد منها ، بل على العكس كان هناك اتجاه عام يحث على ايجاد وسيلة لدفعها وتخليص البلاد منها . ولكن الى جانب هذا اصر النواب — والحق معهم — على مناقشة الميزانية واقرارها .

وحيث أن الديون كانت وسيلة من وسائل التدخل الأجنبى الانجليزى والفرنسى ، وحيث ان اتجاه مجلس النواب كان الى دفع هذه الديون ، بوسيلة او باخرى ، والى وضع رقابة وطنية برلمانية على ميزانية البلاد ، فكل هذا يعنى أن النفوذ الأجنبى فى داخل البلاد سينهار عن قريب وهو أمر لا يمكن أن تقبله العقلية الاستعمارية الانجليزية الفرنسية حينذاك، فقد كانت النية مبيتة على فرض احتلال أجنبى على مصر ، وبالذات احتلال بريطانى بموافقة الحكومة الفرنسية . كانت هذه الاتجاهات الاستعمارية قد بدأت تتضح فى اعقاب مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

ومن الظروف التى كانت اقوى من ان تتحكم فيها قوى الثورة فى مصر ان الفترة كانت فترة تسابق استعمارى محموم قبيل عقد مؤتمر برلين (١٨٧٨) وخلاله ، وبعده .

فلقد كانت سياسة بريطانيا التقليدية هى الدفاع عن كيان الدولة العثمانية، على اعتبار أن ذلك يخدم المصالح البريطانية من حيث الجوانب التالية :

١ — ان الدولة العثمانية القوية هى بمثابة صخرة تسد الطريق أمام انطلاقة روسية الى العراق عبر ارمينيا ، أو الى البحر المتوسط عبر مضايق

الدردنيل . وبالتالى تصبح خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب عبر الشرق الأدنى بعيدة عن متناول الجيوش الروسية أو أساطيل روسيا . بل تصبح مصر وسوريا مهددة تهديدا مباشرا بالقوى الروسية ان اصبحت المضايق تحت سيطرة روسية أو أضحت الدولة العثمانية تحت حماية روسيا .

وكم من مرة عرضت مصر على انجلترا فى مقابل اعطاء روسيا الآستانة (القسطنطينية) . ولكن الحكومة البريطانية كانت ترى فى ذلك خطورة كبرى على مستقبل خطوطها العالمية عبر الشرق الأدنى وبالتالى فلتظل آمال بريطانيا فى احتلال فعلى لمصر معلقة حتى يمكن تحقيقها فى فرصة لا تعطى روسيا الحق فى أن تحصل فى مقابل ذلك على الدردنيل والبسفور . ولا تعطى كذلك فرنسا فرصة لمشاركة الانجليز فى السيطرة على مصر وهو أمر كان يتمسك به الفرنسيون اذا أراد الانجليز التدخل فى أمور مصر .

٢ — كانت يد بريطانيا هى القوة العليا فى منطقة الشرق الأدنى خلال الثلث الأول والثانى من القرن التاسع عشر . فقد منعت روسيا من تنفيذ معاهدتها السرية مع الدولة العثمانية المعروفة باسم معاهدة خنكار سكله سى (١٨٣٣) ، وكانت معاهدة دفاعية هجومية تعطى للجيوش الروسية فرصة واسعة للتحرك فى الدولة العثمانية ، كما أنها منعت مصر من ان تجنى ثمار انتصاراتها المتتالية على الجيوش العثمانية (١٨٣١ — ١٨٣٩) ، ونجحت فى أن تفوقع مصر وفى أن تحصل بريطانيا من وراء ذلك على اليد الطولى فى توجيه السياسات العليا للمنطقة .

٣ — عندما فكرت روسيا فى تنفيذ سياسة أوربية ترمى الى اقتسام ممتلكات الرجل المريض (الدولة العثمانية) فى ١٨٥٣ شنت كل من بريطانيا وفرنسا حربا كبرى ضد روسيا بالتحالف مع الدولة العثمانية فيما عرف باسم (حرب القرم ١٨٥٤ — ٥٦) ، وكانت تؤكد حينذاك انهما تحافظ على كيان الدولة العثمانية .

٤ — وفى ١٨٦٠ — ١٨٦١ خلال حوادث الستين فى لبنان ، كانت فرنسا تريد أن تبعث بجيشها هناك وأن تستغل هذا الصراع الطائفى لكى تثبت اقدامها فى البلاد ، ولكن بريطانيا اصرت على أن تحدد بدقة نوع المهمة التى ستقوم بها القوات الفرنسية فى لبنان ، والمدة التى ستقضيها تلك القوات هناك ولكن فى اعقاب هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا فى حرب ١٨٧٧ وارغامها على توقيع

معاهدة سان استفانو المذلة اتجهت بريطانيا بقوة الى سياسة اقتسام الدولة العثمانية بطريقة تجعل لها اليد العليا فى الشرق الأوسط .

وعندما فرضت روسيا المنتصرة شروطها على الدولة العثمانية المهيضة الجناح فى معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٧) أرسلت بريطانيا باسطولها الى الدردنيل مهددة باستخدام القوة ان لم تعدل هذه المعاهدة التى تعطى روسيا امكانيات واضحة للوصول الى اعالى العراق ومنه الى الخليج العربى الى الهند أمام الجيوش الروسية ، كما كان توسيع نطاق دولة بلغاريا بمقتضى معاهدة سان ستيفانو قد خلق - من وجهة نظر بريطانيا أيضا - دولة كبيرة فى البلقان تحت السيطرة الروسية تمكنها من العمل بحرية فى البحر المتوسط .

وهنا برزت فكرة اقتسام الدولة العثمانية فى مختلف الدوائر السياسية البريطانية ، والفرنسية ، والالمانية ، والايطالية ، والنمساوية ، فضلا عن الدوائر الروسية . وكل هذه الدوائر كانت توافق - باستثناء فرنسا - على أن تكون مصر لبريطانيا . وبالتالى كانت المشكلة مركزة فى كيفية اقناع فرنسا بالتخلى عن مصر . وزادت هذه المشكلة تعقيدا عندما عقدت بريطانيا معاهدتها السرية مع الدولة العثمانية التى تقضى بأن تحصل الأولى على قبرص فى مقابل حماية الدولة العثمانية من العدوان الروسى المتربص بها والذى أصبح خطرا ماثلا (بعد احتلال روسيا لقارص) لا على الدولة العثمانية فقط وانما على الطريق الى الخليج العربى الذى تهتم بريطانيا به كل الاهتمام .

وكان لدى بسمارك ولدى الحكومة البريطانية حل على حساب بلد شرقى عربى آخر هو تونس ، اذ صرح سولزبرى للمسئولين الفرنسيين ان بريطانيا ترى فى تونس امتدادا للأراضى الفرنسية . فهدأت ثائرة الفرنسيين ، واتجهوا بسرعة الى تونس بينما اصبح على بريطانيا ان تضع يدها على مصر .

اذا كانت مختلف الاتصالات والتهديدات والتسويفات التى اصطدمت بها حكومة مصر بعد ثورة احمد عرابى (فى خريف ١٨٨١) كانت كلها تستهدف انفراد بريطانيا باحتلال مصر . وحيث أن ثورة عرابى بدأت تتجه بسرعة الى قيام حكم دستورى شعبى فقد عملت بريطانيا على القضاء على هذه الاتجاهات الدستورية فى وقت مبكر .

ونظرا لقيمة الاتجاهات الدستورية لدى الثورة العرابية فتجدر الاشارة الى اهداف هذه الاتجاهات مع تحليل للدستور الذى وضعه المشرعون المصريون حينذاك . فهذا الدستور هو أول دستور دعا الى إقامة نظام نيابى برلماني فى مصر ، يستند الى اتجاهات شعبية ، وله - أى البرلمان - السلطات التشريعية وله كذلك حق الرقابة على السلطة التنفيذية ، والنائب المنتخب عن احدى الدوائر الانتخابية ليس نائبا فقط عن دائرته ، وانما هو وكيل عن عموم اهالى الشعب ، والوزارة مسئولة أمام هذا البرلمان ، وليس الخديوى ، الذى كان يجمع فى يده كافة السلطات من قبل . واذا كانت الوزارة قد حصلت بمقتضى هذا الدستور على حق حل مجلس النواب الا ان الدستور اكد ضرورة اجراء انتخابات وعودة تشكيل البرلمان خلال ثلاثة أشهر . وفى نفس الوقت حدد الدستور مدة مجلس النواب بخمس سنوات تجرى بعدها انتخابات لمجلس جديد .

هذا الدستور أزعج بريطانيا وفرنسا ، ولذلك قررتا التحرك بالقوة ضد هذا الدستور ، وضد حركة الشعب التحررية .

بدا ذلك واضحا عندما أصدرت بريطانيا وفرنسا المذكرة المشتركة فى ٧ يناير (كانون ثانى) ١٨٨٢ التى جاء فيها أن الدولتين تعملان على الابقاء على النفوذ الخديوى وتشير اشارة ضمنية الى انهما تدافعان عن المراقبة الثنائية الأوروبية وأنهما غير راضيتين عن دعوة مجلس النواب الى الانعقاد . ومعنى هذا كله سلب الشعب المصرى حقوقه الشرعية ، وفى نفس الوقت توجيه ضربة مبكرة الى ثورة احمد عرابى . فان هى قبلت هذه المذكرة فانها تكون قد خانت أهدافها التى قامت من أجلها ، وان لم تقبلها فعليها أن تعد البلاد لحرب ضد هاتين الدولتين الكبيرتين وليس هذا فقط بل واللتين لهما فى داخل البلاد قوى خطيرة على راسها الخديوى والرأسمالية غير الوطنية وكذلك الرأسمالية الوطنية التى خشيت على مصالحها من الحركة الشعبية .

وبدأت الأمور الداخلية تتعقد ، فبينما تمسك مجلس النواب بحقه فى مناقشة واقرار ميزانية البلاد ، كانت المؤامرات تحاك ضد الزعامات الوطنية بتوجيهات خفية من الخديوى - الذى قبل المذكرة المشتركة - ومن اعوان الدولتين الانجليزية والفرنسية فى مصر . ولم يلبث أن دار جدل حول امكانيات النصر أو الهزيمة اذا تدخلت هاتان الدولتان (فرنسا وبريطانيا) عسكريا ، ونجح رجال الخديوى فى تحريض كبار الملاك -

وكانوا هم ممثلى الشعب فى مجلس النواب — على التعاون معه ضد الثورة ولم تلبث ان انتهزت الدولتان هذه الفرصة وبعثتا بمذكرة مشتركة ثانية فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ تطالبان فيها باستقالة وزارة محمود سامى البارودى ونفى أحمد عرابى . وبالتالى أصبحت المواجهة العسكرية مفروضة على المصريين دون أن يعمدوا هم اليها .

ودبرت العناصر الأوربية المنتشرة فى الاسكندرية — بالتعاون مع بعض اعوان الخديوى — مذبحة المصريين والاجانب الذين كانوا على جانب كبير من التسليح ، وكان الغرض من وراء ذلك هو اثبات ان حكومة الثورة عاجزة عن المحافظة على الأمن وعلى أرواح الاجانب . وتعلل قائد الأسطول الانجليزى بأن هناك عمليات تحصين لطابية الاسكندرية ليفرض الاستسلام على المصريين او الحرب . فكان طبيعيا ان تدافع الاسكندرية عن نفسها ضد هذا العدوان . ودمر الأسطول الانجليزى الاسكندرية فى ١١ — ٧ — ١٨٨٢ واحتلها وبدأت الحرب بين اكبر امبراطورية فى العالم حينذاك ومصر التى تخلى عنها الجميع حينذاك والتى لا تملك من السلاح الا أقله .

ولكن الادهى من ذلك ان الجيش المصرى اصبح مرغما على ان يحارب فى جبهتين فجأة ، وذلك بسبب موقف التغرير الذى وقفه فرديناند ديلسبس — مدير شركة قناة السويس — وبسبب موقف الخيانة الذى وقفه الخديوى نفسه من مسألة اقتحام الأسطول البريطانى القناة .

فما ان وقعت الحرب حتى اقتحم الأسطول البريطانى قناة السويس وأنزل جيشا كبيرا على الضفة الغربية لها (١) فى الوقت الذى كان فيه جيش آخر انجليزى فى جبهة الاسكندرية . وكانت النتيجة هى هزيمة الجيش المصرى فى موقعة التل الكبير ودخل الجيش الانجليزى القاهرة وبدأ الاحتلال البريطانى لمصر منذ خريف ١٨٨٢ .

والى جانب التفوق العسكرى الضخم للانجليز ، هناك عوامل اخرى ادت الى هذه الهزيمة أهمها ان الجبهة الداخلية لم تكن قد أعدت بعد

---

(١) علق ولزلى على عدم ردم القناة بقوله : لو ان عرابى سد القناة ... لكنا للآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر .

لحرب كبيرة ، وهناك لوم شديد من جانب المؤرخين لأحمد عرابى لأنه لم يمن بالجبهة الداخلية من حيث القضاء على الخديوى واذنابه واعداد الشعب للحرب . ولكن الحقيقة هى ان الثورة بدات فى سبتمبر ١٨٨١ والحرب فرضت على البلاد بعد اقل من تسعة اشهر ، وما كان فى استطاعة احمد عرابى واعوانه من رجال الثورة ان يحدثوا نقلة كبرى سواء فى داخل البلاد او فى اعادة بناء الجيش المصرى .

ثم ان الانجليز كانوا منذ البداية يؤكدون انهم ما جاءوا الا ليعيدوا السلطة الشرعية الى صاحبها (الخديو) وتخليص البلاد من زعماء (العصيان العسكرى) وانهم بعد هذا سيجلون عن البلاد . وكانوا يقسمون بشرف بريطانيا وبتعهداتها الدولية بأن تجلو عن البلاد حتى لقد صدر الكثير من الوعود والتعهدات البريطانية دون ان ينفذ وعد واحد . ولننظر فى بعضها الذى صدر قبل الاحتلال وبعض هذه التعهدات التى صدرت بعد الاحتلال .

ففى مجلس العموم البريطانى ، وفى ٢٤ يوليو ١٨٨٢ وفى أعقاب ضرب الاسكندرية — صرح المستر جلادستون — رئيس الوزارة البريطانية — بانه : « ليس لبريطانيا العظمى مطامع فى مصر ، ولم ترسل الجنود لها الا لاعادة الأمن فيها ، ولكى ترجع للخديوى سلطته التى فقدها ، وهى تنوى بكل تأكيد ان تعرض على الوفاق الأوربى تسوية المسالة المصرية تسوية نهائية » .

وأكد قائد الأسطول البريطانى الذى دمر الاسكندرية بمدافعه هذا المعنى فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ فى رسالة بعث بها الى الخديوى توفيق قال فيها :

« ان حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى مطلقا فتح مصر .. ان غرضنا الوحيد ان نحمى سموكم والمصريين من العصاة » .

وفى مجلس العموم أيضا ، اكد جلادستون فى ١٢ آب (اغسطس) ١٨٨٢ انه اذا كان هناك شيء لا تقدم عليه فهو ذاك الاحتلال ، لأن فيه مناقضة تامة للمبادىء التى أعلنتها حكومة الملكة ، وللوعود التى وعدتها لأوربا ولسياسة أوربا نفسها » .

واقسم جلادستون غير مرة بشرف بريطانيا انها لن تستمر فى احتلال مصر ، اقسم بذلك فى مجلس العموم فى ٩ اغسطس ١٨٨٢ قائلا :

« ان الحكومة البريطانية لم تفكر فى ضم مصر لان هذا العمل يمس شرف انجلترا » .

بل لقد حدد بعد ذلك تاريخ الجلاء عن مصر وان وضع له بعض الشروط حين تعهد بألا يطيل احتلال مصر « الى ما بعد أول يناير ١٨٨٨ اذا كانت الدول يومئذ تصرح ان حالة البلاد تسمح برحيلنا بدون تعكير الأمن فى مصر ولا جرم أننا اذا كنا ننوى عرقلة عمل الدول بمقاومتنا عندما يحين وقت تنفيذ ما تعهدنا به : فلن يصبح لبلادنا شرف يتكلم به أحد » (١) .

ومع هذه التعهدات الحازمة الجازمة استمر الاحتلال من ١٨٨٢ حتى ١٩٥٤ .

عمل الاستعمار البريطانى على القضاء على القوى الوطنية المستعدة للتحرك وعلى رأسها الجيش فسرحته ، وأعادت تشكيله تحت قيادة بريطانية جعلته فى خدمة الاستعمار البريطانى سواء فى مصر أو السودان . ولم يكتف الانجليز بالقضاء على الجيش الوطنى وانما عطلوا كذلك كل الحريات السياسية والصحفية فيما عدا ما يتعلق بأعوان الاحتلال . فكانت صحيفة المقطم (صوت الاحتلال) لصاحبها فارس نمر ، بينما أوقفت الصحف الوطنية الأخرى .

وعندما حاول أحمد شريف باشا رئيس الوزارة المصرية الحفاظ على وحدة مصر والسودان ، وكانت فى السودان ثورة المهدى المعادية للاستعمار البريطانى فى مصر وخارج مصر ، أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها بان تخلى القوات المصرية السودان ، وان أى رئيس وزراء مصرى لا يقبل نصائح الحكومة البريطانية وسياستها عليه أن يغادر كرسى الوزارة . فغادرها أحمد شريف باشا قائلا كلمته المأثورة :

« اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » .

وكان ذلك مقدمة لاخراج الجيش المصرى من السودان الأمر الذى مهد لوقوع السودان هو الآخر فى يد الانجليز .

---

(١) ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ، ص ١٩ .

وهكذا سيترتب عن الاحتلال الانجليزى لمصر قضايا هامة :

١ — قضية الاحتلال البريطانى وتركيز الشعب المصرى على التحرر منه .

٢ — قضية التحكم البريطانى فى قناة السويس ووضعها فى خدمة الاستعمار البريطانى .

٣ — قضية وحدة وادى النيل وسعى الانجليز الى الانفراد بالسودان دون مصر .

فمنذ ان فتحت قوات محمد على السودان ١٨٣٠ —١٨٣٣ (١) ظل وادى النيل وحدة سياسية متكاملة . وازدهرت أموره وظهرت فيه المدن الكبيرة التى يفخر بها وعلى راسها الخرطوم . ولكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تعرض السودان — لمثل ما تعرضت له مصر — من موظفين اجانب (٢) اسندت اليهم المناصب العليا فيه ، وأتراك وشراكسة أساءوا ادارة البلاد ، الأمر الذى اثار روح الثورة بين المواطنين ، وقامت ثورة بزعامة محمد احمد المهدى ، الذى اشتهر باسم « مهدى السودان » واتخذ من جزيرة (ابا) مركزا له .

وهناك اتجاه عام فى المؤلفات يشير الى الثورة المهدية التى قامت فى وقت مقارب جدا من نشوب الثورة العرابية كانت موجهة ضد مصر ، والحقيقة انها كانت لنفس الأسباب تقريبا التى قامت من أجلها ثورة أحمد عرابى . بل بعد ان سقط عرابى فى يد الانجليز (١٨٨٢) كانت مشاعر المصريين الاحرار متعلقة بنجاح ثورة المهدى لعلها تعطى لمصر دفعة قوية تمكنها من ان تعود الى الكفاح ضد الاستعمار البريطانى . كان هذا واضحا فى عدة مقالات شديدة اللهجة والحماسة كتبها الشيخ محمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » .

ونجلى هذا ايضا فى أول حملة بعثتها سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر الى السودان فى ١٨٥٤ ، وهى التى عرفت باسم حملة هكس باشا . اذ ان الجنود المصريين لم يحاربوا قوات المهدى ، بل انضمت القوات التى بقيت بعد المعركة الى جيش المهدى .

---

(١) فى اعقاب تسوية الأزمة بين السلطان العثمانى ومحمد على باشا فى ١٨٤٠، — ١٨٤١ صدر فرمان بتقليد محمد على حكم السودان بغير ارث .

(٢) من أمثال صمويل بيكر وغوردون .

وعندما تابع المهدى انتصاره ، وحاصر الخرطوم ،وكان بها غوردون باشا المكلف بسحب الجيش المصرى من السودان ، كان واضحا ان قلب المهدى كان مع مصر المحتلة ، فلقد سر كل السرور عندما علم بانتصار رجاله وبفتحهم مدينة الخرطوم (١٨٨٥) ، ولكنه أسف كل الاسف عندما علم ان غوردون باشا لقى مصرعه خلال ذلك ، فقد كان المهدى يريد غوردون حيا حتى يستبدل به احمد عرابى ».

وتكاتفت القوى الاستعمارية ضد ثورة المهدى ، وخاصة أيام خليفته محمد التعايشى (١٨٨٥ — ١٨٩٦) . فقد كانت الحملات الانجليزية تضغط على السودان من الشمال فى الوقت الذى كان فيه الايطاليون يضغطون عليه من الشرق وكانت الحبشة تضغط على السودان من جنوب ، كما كانت هناك حملة فرنسية تستعد لغزو السودان من شرق وغرب . واشتهرت الحملة الفرنسية الآتية الى السودان من الغرب باسم حملة مارشان ». هذا كله الى جانب استعدادات بلجيكية للتوسع من الكونغو صوب بحر الغزال . وبيدا كان هنياك سباقا عالميا على اقتسام السودان .

وكان طبيعيا ان يتركز التنافس المحموم بين بريطانيا وفرنسا ، حيث ان ايطاليا لم تثبت أمام الاحباش فى الشرق ، وحيث ان ملكية بلجيكا كانت تدرك ان مستقبل نجاحها فى التجربة الاستعمارية فى الكونغو يتوقف الى حد كبير على رضاء الحكومة البريطانية . وكانت أنباء تقدم حملة مارشان Marchand تثير الدوائر الانجليزية فى مختلف ارجاء العالم سواء فى أوربا أو فى مصر وافريقيا ، وحتى فى الهند على اعتبار ان هذه الجهود الفرنسية وراءها ما وراءها من محاولات فرنسية مستميتة لبناء امبراطورية فرنسية على قدم المساواة مع الامبراطورية البريطانية فضلا عن ان كثيرا من الدول والبلدان المهيضة الجناح أمام بريطانيا كانت تنظر ما سيسفر عنه هذا الصدام الانجليزى الفرنسى فى جنوب السودان .

فتسابق كل من مارشان وكتشنر فى الوصول الى جنوب السودان والتقى الرجلان فى فاشودة . وهناك اخذ كتشنر دور المدافع عن المصالح المصرية . على اعتبار أن فاشودة جزء من السودان تابعة لمصر . والملاحظ هنا ان كتشنر عندما استولى على الخرطوم رفع عليها العلمين المصرى والبريطانى ، اما فى مواجهة الفرنسيين فى فاشودة فقد رفع العلم المصرى فقط ».

واتهم مارشان بالعدوان على ارض تابعة لمصر . وطلب منه كتشنر أن ينسحب حتى لا يقع ما يعرض الدولتين الفرنسية والبريطانية لاشتباك فى حرب . وآثرت فرنسا ان تتخلى عن فاشودة لأن ظروفها العسكرية والسياسية لم تكن تمكنها من الحصول على نصر اكيد ، بل ان مؤشرات الخسارة كانت اكثر وضوحا .

فلم يكن لدى فرنسا الاسطول الذى يحمى سواحلها نفسها . ويعمل فيما وراء البحار . هذا فضلا عن ان آلمانيا — المنتصرة فى حرب السبعين — كانت ترغم فرنسا على الاحتفاظ بجيش كبير على الحدود الالمانية — الفرنسية .

ثم ان الجبهة الداخلية الفرنسية التى كانت تمزقها بعض القضايا وعلى راسها قضية (دريفوس) المشهورة ، ما كان ليتصور ان تدخل فى حرب طاحنة ضد بريطانيا من اجل فاشودة بينما هى لا تستطيع ذلك من اجل الالزاس واللورين . فضلا عن ان الحكمة السياسية كانت تتطلب كسب بريطانيا الى جانب فرنسا ضد المانيا . اذ لم تكن بريطانيا قد كشفت أوراقها بعد فى لعبة المحالفات الثنائية التى كانت دائرة بين دول القارة الاوربية .

وتجمعت العوامل السياسية والعسكرية فى جانب انسحاب الفرنسيين من فاشودة وتم ذلك ، واصبحت بريطانيا هى الدولة الأوربية الوحيدة فى السودان . ولم يكن فى استطاعة حكومة مصر ان تفعل شيئا له قيمته اذ كانت هى نفسها تحت الاحتلال البريطانى . وفى هذه الظروف وضعت الدوائر الانجليزية نصوص اتفاقيتى السودان ١٨٩٩ اللتين تنظمان حكم السودان ، ذلك الحكم الذى عرف باسم (الحكم الثنائى) ، وان كان — فى جوهره — تسلطا بريطانيا وهذا يتضح من نصوص اتفاقيتى السودان .

فقد نصتا على :

١ — ان افتتاح السودان كان بمجهودات بريطانية مصرية مالية وعسكرية .

٢ — ان حق الفتح يعطى للحكومة البريطانية حق الاشتراك فى حكم السودان .

٣ — رفع العلمين المصرى والانجليزى معا فى السودان ، باستثناء سواكن فقط .

٤ ـ الحاق وادى حلفا بالســودان .

٥ ـ الرئاسة العسكرية والمدنية لحاكم عام يعين بناء على طلب من حكومة بريطانيا ولا يفصل الا بعد موافقة كل من خديوى مصر وحكومة بريطانيا .

٦ ـ تطبق الأحكام العرفية فى السودان .

٧ ـ اعفاء صادرات مصر الى السودان من الضرائب الجمركية .

حقيقة لم ينص فى هاتين الاتفاقيتين على أن يكون الحاكم للسودان بريطانى الجنسية . ولكن أصرت بريطانيا ، وظلت مصرة باستمرار ، على أن يكون الحاكم العام انجليزيا . وبسبب التفوق البريطانى فى كل من مصر والسودان أصبحت سلطات الحاكم العام مطلقة فى البلاد . ومن ثم أصبحت لدى الانجليز فرصة ذهبية متسعة للغاية لفرض كل ما يرونه فى السودان سياسيا أو اقتصاديا ، والقضاء ـ ان امكن ـ على كل ما يمكن ان يؤدى الى استمرار وحدة وادى النيل .

وهكذا اصبحت مصر والسودان تحت الاحتلال البريطانى وبدا واضحا ان الانجليز لن يغادروا البلاد الا بكفاح مرير طويل . وبدات الجهود الوطنية بشكل فعال على يد مصطفى كامل الذى يرجع اليه الفضل الكبير فى تعبئة الشعب واعداده لمكافحة الاحتلال سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

لم تهدأ المقاومة المصرية ضد الاحتلال البريطانى وانما كانت شعلتها فى اول الأمر ضعيفة ، رفعها ، بقدر ما كان لديه من قوة محمد عبده . الذى اسس مع استاذه جمال الدين الافغانى ـ الفيلسوف التحررى الكبير ـ مجلة العروة الوثقى ، ليقاتل الانجليز الاستعماريين على صفحاتها .

كان محمد عبده يدعو الى قيام حركة اسلامية عامة ضد الوجود الانجليزى فى مصر ، وكان يؤكد انه :

« اذا حصل التساهل فى أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة !» وان ترك الانجليز فى مصر سيغرى المستعمرين بالتوسع فى بلاد جديدة اسلامية (١) .

---

(١) تاريخ الامام محمد عبده : ج ١ : ص ٣٥٩ .

لقد كانت هذه الآمال وتلك الأهداف السامية لا تجد أرضا صلبة قادرة على الوقوف عليها والتحرك منها ، ولعل محمد عبده نفسه أدرك هذه الحقيقة خلال سنوات نفيه في بيروت واوربا في الثمانيات من القرن التاسع عشر ، ادرك أن تحرير مصر من الاستعمار لن يكون الا باصلاح امورها الدينية والتعليمية ، واعداد جيل قادر على أن يقف على قدم المساواة حضاريا أمام الاستعمار الأوربى . فكانت فلسفته الاصلاحية هذه جوهر مجهوداته بعد عودته الى مصر . فأصبح نشاطه قاصرا على اهل مصر ، ولم يتجه الى تلك الآمال الواسعة النطاق التى كان يدعو اليها والتى كانت تهدف الى تجميع قوى المسلمين العسكرية ضد الاستعمار الأوربى ولهذا تحول محمد عبده الى مصلح مصرى اسلامى ولم يكن له دور فى تطلعات مصر نحو عرب المشرق أو المغرب الا فى حدود ضيقة تقليدية . بل نلاحظ أنه وقف موقفا شديدا ضد الفكر الثورى الذى احياه مصطفى كامل .

ان فلسفة محمد عبده الاصلاحية ، ومحاولات مصطفى كامل الوطنية لبعث الحركة الوطنية صورتان من صور كفاح مصر من أجل التحرر ، ولقد ظهرت فى مصر عدة حركات تحررية ، ولكن للأسف لم تلتق هذه القوى عند محصلة واحدة ولم تستطع تلك الحركات ان تجتمع تحت هدف واحد محدد تعمل كلها من اجله .

كانت الحركة التحريرية تعمل على أن تحيى فى المصريين اصرارهم على التحرر من الاستعمار ، وعلى أن تعيد الثقة الى نفوس الشعب وتحريك كوامن الكفاح فيه ، وتبلورت هذه الحركة فى الحزب الوطنى . وكانت طبيعة تكوينه وعمله واهدافه مصرية ، وكان مجال عمله الميدانى الرئيسى فى مصر بالذات . ومع هذا كان لهذه الحركة طابعان :

(أ) طابع مصرى .

(ب) طابع اسلامى .

ولقد أشرنا الى الطابع المصرى والى ان ظروف مصر هى التى ادت الى ظهوره ، اما الطابع الاسلامى فهو وليد الماضى البعيد . ولكن زاد هذا الطابع قوة على يد مصطفى كامل والحزب الوطنى .. فلقد كان مصطفى كامل يستخدم فكرة الخلافة الاسلامية كوسيلة من وسائل تحرير مصر من الاستعمار الانجليزى .

وهنـاك من اشتط وهـاجم مصطفى كامل بأنه كان يضـحى بمصر من أجل الدولة العثمانية ، وانه يريد أن يضعها تحت حكم السلطان عبد الحميـد الثـانى المستبد الفاسد (١) .

والحـق أن مصـطفى كامل حين طـالب بعودة مصر الى حظيرة الخـلافة العثمـانية كان يقصـد تخليص مصر من الاستعمـار الانجليزى مراعيـا فى الوقت نفسه الا تفقد مصر الامتيازات التى سبق ان حصلت عليها من السلطان العثمانى منذ ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، والا تفقد مصر تطورها التقدمى الذى عرفت به طوال القرن التاسع عشر .

ثانيا : الحركة التحررية بزعامة لطفى السيد (٢) :

وهى تقوم على اسس تختلف عن اسس الحزب الوطنى وان هدفت فى نفس الوقت الى اقالة البلاد المصرية من عثرتها . فقد دعا لطفى السيد الى (القوميـة المصرية) ، ولهذا كانت هذه الحركة التحررية مقصورة على مصر وترتكز على كيان مصر المنفصل عن بقية أجزاء الوطن العربى والاسلامى .

ثالثا : الحركة التحررية العربية (٣) .

كان دعـاة هذه الحركة من الزعمـاء العرب الذين حاولوا توجيـه حكومة

---

(١) عن السـلطان عبد الحميد انظر : الماوتلن : عبد الحميـد ظل الله على الأرض . تعريب راسم رشـدى القـاهرة ١٩٢٢ ، رامسـاور : تركيا الفتـاة . ترجمة صالح العلى بيروت ١٩٥٩ .

V. Berard : La Revolition Turque, Paris. 1909.

G. Roy : Abdul Hamid le Sultan Rouge Paris 1936.

E. Pears : Life of Abdul Hamid II. London 1917.

Zeine Zeine : Arab Turkish Reiations and thc Emergence of Arab Nation-ailsm Khayat 1958.

(٢) كانت صحيفة « الجريدة » الناطقة بلسان هذه الحركة .

(٣) انظر عن الحركة العربية فى ١ — أحمد عزت الاعظمى القضـية العربية ٦ اجزاء بغداد — ب اسـعد داغر : ثورة العرب . القـاهرة ١٩١٦ ج — أمين سـعيد الثورة العربية الكبرى — القاهرة د — جورج أنطونيوس يقظـة العرب — بيروت هـ — عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . القاهرة ١٩٣١ . أم القرى . القاهرة ١٣١٦ هـ و — محمد جميل بيهم : فلسـفة التـاريخ العثمانى ، قوافل العروبة ومواكبها بيروت ١٩٥٠ د — توفيق برو : العرب والترك . القاهرة ١٩٦٠ .

السلطان عبد الحميد الثانى الى اصلاح امور الدولة العثمانية بأساوب العصر واهدافه . وقدادرك معظم هؤلاء الزعماء أن الحكم الاستبدادى الحميدى يهدد البلاد بالضياع ، وان احتكار الاتراك للحكم وللمناصب العليا امر لا يمكن أن يرتضيه العرب شركاء الاتراك فى هذه الدولة .

وكانت هذه الحركة العربية تحتوى على جناحين :

(أ) جناح اسلامى عربى يمثله عبد الرحمن الكواكبى ورشيد رضا صاحب جريدة المنار .

(ب) جناح عربى اسلامى يمثله عبد الحميد الزهراوى وغيره من دعاة التحرر العربى .

والى جانب هذين الجناحين كان هناك قوميون عرب معظمهم من مسيحيى لبنان أو من العلمانيين العرب وحزب اللامركزية العربى .

كانت هذه الاجنحة موجودة فى مصر ، واتخذت منها مقرا مؤقتا لها ، وذلك لان السلطان عبد الحميد الثانى كان يطارد معارضيه بقسوة ، فلا يجد هؤلاء أمامهم سوى الفرار الى بلاد لا تقع تحت حكمه مباشرة ، وكانت مصر اكثر البقاع امنا للمناهضين للسلطان عبد الحميد الثانى ، حيث أن سلطات الاحتلال الانجليزى كانت تترك لهم حرية البقاء فى مصر والعمل ضد السلطان العثمانى حيث أن هذا كان على هوى الانجليز ومن مصلحتهم .

ومما لا شك فيه أن الانجليز هم الذين كانوا يحاولون تقديم مساعداتهم الى الزعماء العرب ، وان هؤلاء الزعماء العرب كانوا يتجنبون التعاون معهم باستثناء بعض الدعاة وخاصة اللبنانيين منهم الذين كانوا يطالبون بتدخل كل من انجلترا وفرنسا الى جانب الحركة التحررية العربية ونذكر منهم نجيب عروزى . الا ان اتخاذ الزعماء العرب من مصر ملجأ لهم — وهى الواقعة تحت الاحتلال الانجليزى ومطالبة بعض الزعماء العرب اللبنانيين بتدخل فرنسا وانجلترا لصالح الحركة العربية جعل من اليسير على السلطات العثمانية أن تتهم هذه الحركة العربية التحررية بانها صنيعة الانجليز أعداء الاسلام والمسلمين . فكان هذا من الأسباب التى جعلت هذه الحركة التحررية العربية منفصلة عن الحركة التحررية التى

يتزعمهـا مصـطفى كامل فى مصر ، وكان طبيعيـا أن تكون منفصـلة عن الحركة التحررية التى يتزعمها لطفى السيد ذو الاتجاهات المصرية المحددة .

وكما كانت هناك تيارات قوية فى البلاد العربية ضد استبداد عبد الحميد الثانى كانت هناك حركات كبرى ضده بين كبار ضباط الجيش العثمـانى نفسـه ، وبين التقدميين الأتراك فى انقـاذ الدولة العثمـانية من الاسـتعمار الأوربى . وكانت جمعية الاتحاد والترقى (١) هى أبرز هذه القوى العاملة ضـد عبد الحميد الثـانى ونجحت فى تدبير انقلاب كبير ضده فى ١٩٠٨ ، ثم أقصته عن العرش فى ١٩٠٩ ، وتسلم رجال جمعية الاتحاد والترقى مقاليد الحكم منذ ذلك التاريخ وسيطروا على مقدرات البلاد حتى الحرب العالمية الأولى .

لقد ابتهجت البلاد العربية لنجاح انقلاب جمعية الاتحاد والترقى فأعلن محمد فريد ـ رئيس الحزب الوطـنى (٢) ـ انه يمد يده الى رجـال جمعيـة الاتحـاد والترقى ، وكان يرجو أن تمد حكومة الاتحاديين لمصر يد المعونة ليساعدوها على التخلص من الاسـتعمار الانجليزى . وفى العـراق عمت الفرحة البـلاد لأن عهـد الكابوس الحميدى قد انقضى وجاء العهد الدستورى على يد الاتحاديين حيث صدر الدستور فعلا فى ١٩٠٨ ، ذلك الدستور الذى رأى فيه الزعماء العـرب الوسيلة التى ستؤدى الى اشتراك الشعب فى ادارة امـوره وفى رفع قدرات الأهـالى الى الدرجة التى يستطيعون بها مقاومة الاستغلال الأوربى للبلاد . ولقد كان العـراق يعانى حينذاك من احتكار شركة لينش الانجليزية التجارة فى انهار العراق .

ولكن سرعان ما تبددت تلك الآمال حيث وجد الزعماء العرب أن الاتحاديين يمثلون لونا جديدا من الاستبداد والتسلط هو أشد خطورة على مستقبل العرب من اسـتبداد السـلطان عبد الحميد الثانى . فقـد كان عدد كبير من رجـال جمعيـة الاتحاد والترقى من دعاة تتريك الدولة العثمانية بقضها وقضيضها ، وتحويل مـن ليس تركيا الى أن يصبح تركيا ، فأصبح على العربى أن يتخلى عن لغته وقوميته وأن يصبح تركيـا .

---

(١) انظر عنها فى رامسارو : تركيا الفتاة ، ترجمـة احمد صـالح العلى ، بيروت ١٩٥٩ ، الفصل السادس من كتاب يقظة العرب ، رفيق العظم : مجموعة آثار رفيق العظم . الجـامعة العثمانية والعصـبية التركية نشر عثمـان العظم ـ القاهرة ١٣٤٤ هـ ، توفيق برو : العرب والترك : الفصل الثانى .

(٢)تولى رئاسة الحزب الوطنى بعد وفاة : مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ .

وعلى مستوى الولايات العربية ، كانت الامتيازات العظمى تعطى للأتراك دون العرب ، وعندما أجريت الانتخابات ، كانت أغلبية الناجحين من الأتراك ، واقلية قليلة من العرب لا تتناسب مع ضخامة عدد العرب فى الدولة العثمانية . بل لقد انتخب نواب ترك عن مناطق عربية ، كما أن جمعية الاتحاد والترقى تدخلت فى الانتخابات من وراء ستار لتضمن نجاح رجالها فى الانتخابات وأن للأتراك أغلبية عددية فى مجلس المبعوثان (النواب) التركى .

وكان طبيعيا أن تكون اتجاهات الحكومة الاتحادية واتجاهات هذا البرلمان التركى نحو خدمة المصالح التركية على حساب المصالح العربية . وتجلى هذا فى موقف خطير وقفه المسئولون من مشكلة الاحتلال الانجليزى لمصر .

فلقد سافر محمد فريد على راس وفد مصرى الى الاستانة للمشاركة فى احتفالات ذكرى اصدار الدستور ، وقوبل الوفد المصرى هناك بحفاوة بالغة جعلته يعتقد ان مجهودات الحكومة العثمانية من أجل تخليص مصر من الانجليز فى عهد الاتحاديين ستكون اكبر وأكثر فاعلية من مجهودات السلطان عبدالحميد الثانى ، ولكن بعد عودة الوفد المصرى اخذ موقفا لاتحاديين يتغير ، بل ويأخذ شكلا يضر بالقضية المصرية ، فقد نفى الصدر الأعظم حسين حلمى باشا كل علاقة تربط رجال تركيا الفتاة بالحزب الوطنى المصرى ، بل لقد أعلن أنالباب العالى راض عن الحكم القائم حينذاك فى مصر ، أو بمعنى آخر أن الباب العالى كان يوافق على بقاء الاحتلال الانجليزى فى مصر ، ثم صدرت تصريحات أخرى من احد الزعماء الأتراك وهو سليمان نظيف باشا — الذى عين واليا على البصرة — طعن فيها فى الحزب الوطنى المصرى (١) .

وهكذا كان موقف الأتراك العثمانيين من القضية المصرية يدل على تخاذل شديد . وكان هذا التخاذل شاملا لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالرعايا العرب فى هذه الدولة . ولكن الحركة التحررية العربية الموجهة ضد سياسة الأتراك العثمانية التعسفية كانت هى الأخرى لا تقدر الحركة التحررية المصرية حق قدرها ، وفصلت الحركة التحررية العربية نفسها — وساعد الغرب الاستعمارى فى ذلك — عن الحركة التحررية المصرية ، ومن ذلك أن الزعماء العرب حين دعوا

---

(١) توفيق برو : العرب والترك ص : ١٩٠ — ٢٠١ .

الى عقد مؤتمر فى باريس لتحديد موقفهم من الحكم التركى فى ١٩١٣ لم يدخلوا المصريين فى حسابهم ، بل كان عبد الحميد الزهراوى الزعيم العربى ورئيس المؤتمر العربى فى باريس داعيا الى ابعاد القضية المصرية عن هذا المؤتمر الأمر الذى يؤكد لنا ان حزب اللامركزية العربى فى مصر يكاد يكون منعزلا انعزالا كبيرا عن تيار الحركة التحررية فى وادى النيل ، ويتجلى هذا أيضا من موقف عبد الحميد الزهراوى نفسه من شاب مصرى جاء الى المؤتمر العربى هو « سيد أفندى كامل » الذى سأل عبد الحميد الزهراوى عما اذا كان المصرى يحق فى ان يشترك فى مناقشات للمؤتمر اجابه بقوله :

« نحن نحترم اخواننا المصريين ونحترم آراءهم وبهذه المناسبة اعتذر لانى لم اجد فرصة قبل الآن لتحية الأمة المصرية والآن نحيى اخواننا المصريين ونبدى احترامنا لآرائهم ، ونعرف ان مصر عربية عثمانية ولكن بما ان لها ادارة خاصة لا ينفذ فيها راى العثمانيين وكذلك لبلاد العثمانيين ادارة لا ينفذ فيها راى المصريين ، لذلك ارجو ان يكون هذا عذر لبقاء مناقشة الشئون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لآرائهم حق التاثير على احوالهم » (١) .

الا ان فكرة التحرر ذاتها كانت قادرة على أن تخلق الظروف التى تجمع بين هذه الحركات التحررية وكان كفاح عزيز المصرى من اجل حرية العرب ورعاية الدولة العثمانية عاملا رئيسيا فى خلق ظروف ادت الى تقارب كبير بين الحركتين التحرريتين فى كل من مصر والعديد من البلاد العربية الأخرى .

ان دراسة جهاد عزيز على المصرى هو فى الحقيقة دراسة للرجل الذى خلق الترابط الحركى بين وطنيى مصر ووطنيى العراق . فقد تربى عزيز المصرى فى مصر ، وعاش فترة صباه تحت حكم كرومر ، وكانت كلمات مصطفى كامل الوطنية تهز مشاعره ، واراد ان يكمل تعليمه فى فرنسا تشبها بمصطفى كامل ليعود من هناك باسمى انواع التعليم والوطنية مثل مصطفى كامل . ولكن كان هذا فى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التى عقدت فيها فرنسا الوفاق الودى مع انجلترا .

---

(١) توفيق برو : العرب والترك : ص٥٢٠ .

فاطلقت هذه يد فرنسا فى مراكش واطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر . ومعنى هذا ان فرنسا كشفت عن وجهها الاستعمارى بكل وضوح وضحت بمصر من اجل اطماعها . فقرر عزيز المصرى أن يذهب الى استامبول .وهناك اكمل دراسته العليا وتخرج ضابطا فى الجيش التركى واشترك فى انقلاب ١٩٠٨ ضد عبد الحميد الثانى .وكذلك فى القضاء على الانقلاب الذى دبره عبد الحميد الثانى ضد الحكومة الجديدة وصدر الدستور ١٩٠٩ . وقد فشل انقلاب عبد الحميد الثانى وفقد عرشه بينما استتر رجال تركيا الفتاة فى الحكم ولكنهم اتبعوا سياسة عنصرية تركية ولهذا قرر عزيز المصرى ان يأخذ جانب العرب ضد سياسة التتريك واشترك فى الجمعية القحطانية السرية التى الفها سليم الجزائرى فى ١٩١١ ثم شكل هو جمعية من ضباط الجيش وهى جمعية لم تكن مقصورة على العرب ولكن الذى حدث هو أن من انتمى الى تلك الجمعية كانوا من العرب . وعرفت هذه الجمعية باسم جمعية العهد . وكان عدد من الضباط العراقيين اعضاء فى هذه الجمعية . وكانت الحكومة التركية قد أخذت تخشى من نشاط عزيز المصرى منذ ان اكتسب شعبيته باستبساله فى الحرب ضد ايطاليا فى طرابلس . فدبرت له الحكومة التركية تهمة وقبضت عليه وحكمت عليه بالاعدام . فما كان من زعماء العراق والعرب الوطنيين الا أن قاموا بنشاط ضخم من أجل اطلاق سراحه كذلك فى مصر قامت المظاهرات الكبرى ضد الحكومة العثمانية وكان لهذا التكاتف الشعبى العراقى المصرى أثره فى ارغام الحكومة التركية على اطلاق سراحه فعاد الى مصر (١٩١٤) (١) .

وبعد وقت قصير وقعت الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا الحرب

---

(١) عن اعتقال عزيز المصرى وصداه فى العراق ومصر انظر :

سليمان فيضى : فى غمرة النضال . بغداد ١٩٥٢ : ص ١٤٩ — ١٥٣ . توفيق برو : العرب والترك :القاهرة ١٩٦٠ : ص ٥٦٢ — ٥٦٥ . ويحاول الأتراك اثبات أن الأزمة التى وقعت بين عزيز المصرى من جهة ووزير الحربية (انور بك) من جهة أخرى ترجع الى أسباب شخصية انظر :

جمال باشا :مذكرات جمال باشا : تعريب على احمد شكرى القاهرة ١٩٢٣ ص ٦٥ — ١٠٣ .

ضد دول الحلفاء (روسيا وانجلترا وفرنسا) واعلن الخليفة العثمانى الجهاد المقدس . وكانت انجلترا فى حاجة ماسة لثورة عربية ضد السلطان لتكسر حدة الدعوة الى الجهاد المقدس ولتفتح على الأتراك جبهة جديدة فاتصل المسئولون الانجليز بعزيز المصرى يحثونه على التعاون معهم ضد الاتراك فاشترط عزيز عليهم أن يعلنوا صراحةانهم لن ينزلوا قواتهم فى البلادالعربية وانهم لا يضمرون استعمار البلاد العربية . واكد لهم انه مستعد لطرد الاتراك من العراق لو نقلوه الى البصرة على ظهر سفينة بريطانية واعطوه كميات من السلاح على الا ينزلوا هم الى أرض العراق أى جندى انجليزى (١) . وكان عزيز على بعيد النظر حين قال لهم انه اذا وجد نفسه فى هذه الحالة فى حاجة الى معونة أجنبية لتحرير العراق والشام من الترك فانه سيطلب معونة فرنسية بالنسبة للعراق ومعونة انجليزية بالنسبة للشام ، لأن عزيز على كان يعرف تمام المعرفة أن الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا الانجليز يثبتون فى الشام ، ولا الانجليز يتركون العراق للفرنسيين (٢) . وبحثوا عن شخصية أخرى تقوم بالثورة على الأتراك . وكان حسين بن على — شريف مكة — على استعداد للثورة عليهم ففاتحوه فى الأمر بواسطة هنرى مكماهون ، ودارت المراسلات المعروفة بين مكماهون والشريف حسين والتى وافق فى نهايتها الشريف على اعلان الثورة على الأتراك دون ان يحصل من الانجليز على التزام واضح باحترام استقلال البلاد العربية .

ولما علم عزيز على المصرى بذلك أخطر اعضاء حزب العهد بعدم التورط بارتباطات مع الانجليز الا اذا قدموا تعهدات واضحة باستقلال البلاد العربية وحذرهم من النيات الانجليزية الاستعمارية ومع هذا نجد عزيز المصرى — بعد ذلك — يشترك فى الثورة العربية فما هو السبب ؟ حقيقة قبل عزيز المصرى ان يتولى قيادة جيش الثورة العربية ولكنه كان مقتنعا بانها ستؤدى الى ان يستعمر الانجليز البلاد العربية حيث انهم لم

---

(١) M. Khadduri : Aziz Ali Misri and the Arab Nationalist Movement (' St Antony's Papers Mo 17 Middle Eastern Affairs. No. 4 Edited by A. Hourani, London, 1965, pp. 152 – 155.

(٢) Ibid

يعطوا العرب ضمانات كافية بالاستقلال . وكانت وجهة نظر عزيز المصرى هى أنه اذا أراد العرب القتال فليقاتلوا الى جانب الأتراك ضد الانجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد العربية فعلا . وهنا يتفق عزيز المصرى مع الزعيم العراقى المعروف طالب النقيب من حيث أن كلا منهما رفض التعاون مع الانجليز فقد طالب النقيب :

« ان الذى لا يرضى بحكم الأتراك ، اخوانه فى الدين ، أحرى به أن يلبى حكم الانجليز » (١) .

ولهذا عندما تولى عزيز المصرى قيادة الجيش العربى فى الحجاز عزم على احداث انقلاب ضد الشريف حسين بن على ليتسلم الحكومة منه ابتعاون مع الأتراك ضد الانجليز . ولكن فشلت المحاولة حيث اكتشف الانجليز أمره وعاد عزيز المصرى الى القاهرة (٢) وسارت الأمور ضد مصلحة العرب فقد استولى الانجليز على العراق واصبح مثل مصر تحت الحكم الانجليزى وهذا ما كان يخشاه كل من طالب النقيب وعزيز المصرى .

وهنا نتساءل : من كان على حق ؟ أولئك الذين راهنوا على انتصار الاتراك الذين هزموا فى الحرب العالمية الأولى وادى ذلك الى مزيد من الاستعمار البريطانى والفرنسى فى البلاد العربية أم أولئك الذين تعاونوا مع الانجليز على امل الحصول مى الاستقلال ؟

---

(١) سليمان فيضى : فى غمرة النضال ص ١٩٢ .

(٢) M. Khadduri; op cit pp 154 * 255.

الفصل الثالث

ثورة ١٩١٩

كانت الحكومة البريطانية ترى أن ظروف الحرب من أكثرها مناسبة لضم مصر نهائيا الى الممتلكات البريطانية . ولذا اعدت مذكرة سرية بواسطة المسئولين الانجليز لعرضها على حلفاء بريطانيا للحصول على موافقتهم على الضم فى ١٩ نوفمبر ١٩١٤ .

ولكن لماذا تلجأ بريطانيا الى الضم بينما هى فى الحقيقة مسيطرة سيطرة فعلية عليها ؟ السبب فى هذا يرجع الى أن بريطانيا كانت تعمل على ان تحول مصر الى مجرد مستعمرة ليس لأى دولة أخرى حق التمثيل فيها ، أو اى حق فيها ، فتستثمرها استثمارها للمستعمرات الأخرى البريطانية فى افريقية وآسيا . ولكن حال دون ذلك عوامل جوهرية اهمها :

١ — ان لمصر حضارة وقوة ثقافية كبرى مؤثرة كان من العسير على بريطانيا التغاضى عنها حتى ولو بدا أن ضمها كان ممكنا من الناحية العسكرية .

٢ — ان روسيا — حليفة بريطانيا — طالبت شيئا خطيرا فى مقابل موافقتها على ضم مصر للممتلكات البريطانية فقد طلبت الحصول على مضايق الدردنيل والبسفور .

٣ — أما فرنسا فقد أبدت معارضتها .

فكان ان طوت بريطانيا صفحة هذا المشروع . ولكنه يكشف لنا كم كانت تبيت بريطانيا لمصر من مصير قاتم . واكتفت الحكومة البريطانية بأن اعلنت الحماية على مصر فى ١٩١٤/١٢/١٨ فى انتظار فرصة أخرى ملائمة لاعلان ضم مصر الى ممتلكاتها .

ويبدو ان الزعامات الحاكمة كانت قد احست حينذاك ان هناك شيئا خطيرا يبيته الانجليز لمصر ، ولذلك ظهر مشروع — على يد رئيس وزراء مصر حسين رشدى — باعلان مصر ملكية مستقلة مرتبطة ببريطانيا . ولكن الانجليز دبروا المشروع وهو فى المهد (١٩١٥ — ١٩١٧) . ولقد كانت هناك فعلا مشروعات أخرى تهدد مستقبل مصر واهمها :

١ — فرض النظم القضائية البريطانية على مصر وجعل اللغة الانجليزية لغة رسمية فى المحاكم مع أن أقلية جدا من الشعب كانت تعرفها .

٢ — وضع قوانين تنزل مصر الى مستوى المستعمرات .

وكانت الزعامات المصرية قد شعرت بتلك المشروعات فانزعجت وعملت على التحرك ضدها . وبدأ سعد زغلول هذه التحركات مستندا الى منصبه كوكيل منتخب للجمعية التشريعية المصرية . ولكن لم يمكنه الانجليز من أن يشكل جبهة وطنية للعمل ضد تلك المشاريع وخاصة أن ظروف الحرب والأحكام العرفية كانت لا تزال قائمة . ولكن كان السلطان فؤاد (فؤاد الأول) يخشى هو أيضا على عرشه من تلك المخططات فعمل على الاتصال بالرئيس الأمريكى ولسون — من وراء ظهر الانجليز — مطالبا بتطبيق حق تقرير المصير على مصر ، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهدنة نوفمبر ١٩١٨ .

وبدأت تظهر قيادات معادية للوجود الانجليزى فى مصر وهى :

١ — قيادات معتدلة جدا ، تتمثل فى الأسرة الحاكمة (فؤاد الأول والأمراء) وكانوا يعملون على الحفاظ على العرش لهم .

٢ — قيادات وطنية ، بزعامة سعد زغلول . كانت فى نظر الانجليز قيادات متطرفة .

كما ان الجماعات المصرية فى خارج مصر ، فى فرنسا ، وفى سويسرا، بدأت تتحرك هى الأخرى مطالبة بعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح . ومن هذا يتبين لنا أن كافة الاتجاهات الوطنية كانت تدعو الى عرض القضية على مؤتمر الصلح . وكان الانجليز يودون لو اقتصر ذلك على الحزب المعتدل . ولكن هذا الحزب المعتدل نفسه أدرك أن الانجليز لن يعطوه شيئا من الاستقلال الا اذا استند الى قوة شعبية ، وحيث ان سعد زغلول كانت له حصيلة شعبية مناسبة فقد اتجه الجناح المعتدل الى اشراك سعد زغلول معه فى السفر الى مؤتمر الصلح فى باريس بطريقة ما حتى لو كره الانجليز ذلك . ومن ناحية أخرى أسرع الجناح الوطنى الى التحرك والى مقابلة ونجت (المندوب السامى البريطانى) .

كان المجتمعون فى (١٩١٨/١١/١٣) بالمندوب السامى البريطانى ثلاثة هم :

١ — سعد زغلول .

٢ — عبد العزيز فهمى .

٣ — على شعراوى .

اكد الأول (لو نجت) ان هناك رايا عاما فى مصر وراء المطالبة بالاستقلال واكد له الثانى أن مصر « تريد الاستقلال . وصداقة بريطانيا صداقة الحر للحر ، لا العبد للحر » . وعزمت السلطات البريطانية على وضع العقبات فى وجه هذه الزعامات ومنعها من السفر الى خارج مصر . ولذلك عمل الزعماء المصريون على الاتصال بالقناصل الأجانب فى مصر لكشف حقيقة اهداف الحركة التحررية المصرية وتعسف بريطانيا ازاءها . واعلن سعد زغلول بطلان الحماية البريطانية على مصر (فبراير ١٩١٩) فاتجهت السلطات البريطانية الى العنف .

وقبل أن نخوض فى أسباب وتطورات ونتائج ثورة ١٩١٩ يجدر بنا ان نضع بعض الحقائق التاريخية أمامنا :

١ — لقد خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الأولى أكبر دولة فى العالم . وفى الشرق الأوسط بالذات كانت هى صاحبة اليد العليا فى توجيه أموره . ومن ثم كانت الحركات الثورية التحررية العربية الناشئة تجابه القوة الاستعمارية الكبرى وهى فى أوج قوتها . ومن ثم كانت بريطانيا تسعى الى أن تظل الحماية مفروضة على مصر دون تغيير ما ، وخاصة بعد انتصارها الضخم على المانيا .

٢ — ان بريطانيا كانت تدرك أن هناك حركة وطنية فى مصر ، وانها كانت تعرف شخصيات هذه الحركة ، ومن كان عنيفا ضدها سبق لها أن أبعدته أو قضت عليه ، ومن كان متفاهما معها تركته يتحدث عن الاصلاح فى حدود ضيقة ولهذا كانت تعتقد أن الزعامة الوطنية تحت سيطرة سلطات الاحتلال البريطانى .

٣ — ان السلطات الانجليزية ضربت على البلاد عزلة سياسية قاسية . ولكن نمو الصحافة فى مصر خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، اعطى لها امكانيات كشف الأمور أمام الجماهير المثقفة . وخاصة ما تناقلته الانباء عن مبادىء رئيس الولايات المتحدة الأربعة عشر التى من بينها حق تقرير المصير .

وحيث أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت حليفة بريطانيا . فقد اعتقدت الزعامات المصرية أن هذا المبدأ يمكن أن يطبق على مصر ويمكن أن ترضى به بريطانيا . وخاصة اذا أبدى الزعماء المصريون لبريطانيا حسن نيتهم وقبولهم نوعا من الامتياز لبريطانيا فى مصر فى مقابل الاعتراف البريطانى بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٤ ـ خلال سنوات الحرب انقطعت الواردات الأوروبية الى مصر . وتزايدت حاجات الجيوش الانجليزية فى مصر الى كثير من المواد الغذائية فنشأت بعض الصناعات التى يمكن أن تحل محل الصناعات الأوروبية . فكان ذلك سببا فى ازدهار الصناعة المحلية الوطنية التى كانت بيد الأجانب فنمت بعض رؤوس الأموال الوطنية .

٥ ـ ان الحكم الانجليزى فى مصر عنى بالانتاج الزراعى ، وخاصة القطن ، لتموين مصانع لانكشير به فكان ان نمت طبقة كبار الملاك ، وكذلك نمت الرأسمالية الوطنية الزراعية .

٦ ـ منذ مائة سنة كانت مصر تتطور بسرعة فى تجديد الادارات الحكومية ، وانشاء أجهزة ادارية فى القاهرة ، وفى المديريات (المحافظات) ، فنشأ نظام حكومى بيرقراطى استطاع أن يسيطر على عمل الحكومات . وكانت كل وزارة (نظارة) يتولاها وزير مصرى ، ولكن له مستشار انجليزى يملى عليه أسلوب العمل . ومع هذا كانت هذه الادارات والوزارات بمثابة مدارس تعلم فيها ابناء الشعب المصرى كثيرا من ايجابيات العمل الثورى ، كما أن كثيرين من الموظفين استكانوا الى سلبيات البيروقراطية التى يسيطر عليها المحتل الانجليزى .

٧ ـ ان الحركة التعليمية فى مصر كانت تواجه عقبات شديدة تضعها امامها سلطات الاحتلال التى كانت ضد سياسة التعليم الشعبى حتى لقد تقلصت عدد المدارس الثانوية من ٢٠ عند بداية الاحتلال الى أربعة فقط فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وأما المدارس الأولية فكانت لا تستوعب الا ١٠ ٪ من الأطفال ولا يستطيع هؤلاء ان يحصلوا على مستوى أعلى من التعليم فسرعان ما يفقدون ما تعلموه .

٨ ـ كانت هناك مدارس عالية : استطاعت أن تفتح أمام بعض أفراد الشعب آفاق الفكر التحررى ، مثل مدرسة الحقوق . ومدرسة الصنايع . ومدرسة المهندسخانة . بعيدا عن المدارس التبشيرية التى كانت تعد الفتيان

والفتيات اعدادا يجعلهم غير منسجمين مع البيئة المصرية التى يعيشون فيها ، وبعيدا عن المدارس الأجنبية التى تخلق من تلامذتها مفكرين على مستويات عالية ، ولكن على اساس أوربى لا يستطيع أن يفهم متطلبات وطنه .

اقدم المندوب السامى البريطانى (ونجت Wingate) على عمل كان يعتقد انه سينهى هذه المشكلة بسرعة ، وهو اعتقال ونفى سعد زغلول ورفاقه . وكان سعد زغلول نفسه يعتقد أن الأمور لن تتطور بقوة من وراء ذلك . وعلى غير ما كان يتوقعه كل من ونجت وسعد زغلول هب الشعب المصرى كله فى ثورة عارمة (مارس ١٩١٩) لدى سماعه بانباء نفى سعد زغلول .

لقد وجد سعد زغلول ان الشعب كله فى ثورة ، فلاحون وعمال ورجال دين من مختلف الطوائف ،ومثقفون ، وراسمالية زراعية واقطاعية ، وموظفون ، ونساء وفتيات نزلن الى المظاهرات ضد الاحتلال . هذه هى قوى الثورة التى هبت قبل ان يطلب منها زعيم أن تثور ، ومن هنا كانت قيمة ثورة ١٩١٩ . ويجب علينا ان نحلل هذه الثورة على مختلف اتجاهاتها وكياناتها وتكويناتها .

هناك اتجاه جديد فى تحليل هذه القوى الى راسمالية وبرجوازية ومثقفين وطلبة ، وعمال ، وفلاحين . او بمعنى آخر تصنيف هو خليط بين القوى الاقتصادية ، والفئات الحرفية والانتلجنسيا .

وهناك من يحلل هذه القوى على اساس مدى المشاركة والقدرة على القيام بالعمل الثورى الظاهرى فيضع الزعامات المصرية السياسية والدينية فى قمة هذه القوى ، وانه لولا هذه الزعامات لما استطاعت الثورة أن تبدأ أو تستمر أو تصل الى نتائج ما .

وفريق ثالث يضع القوى الكادحة على اساس أنها هى قوة الثورة الحقيقية التى بدأت خيانتها الراسمالية والبرجوازية ومنعت التطور الاشتراكى الذى يمكن أن يستمر ويتطور لو لم تقف الراسمالية والبرجوازية فى وجه تطور الثورة التحررية من الاستعمار الى ثورة اجتماعية .

تلك الاتجاهات فى تحليل الثورة بأقلام وطنية مصرية تغلب عليها ميول الكاتب أو المؤرخ الى حد كبير . وأما المؤرخون الأجانب فلننظر ماذا قالوا عن الاتجاهات التحررية لدى الشعب .

كانت مصر فى نظر الانجليز قد أصبحت مجرد مستعمرة ، بعد ذلك الانتصار الكبير فى الحرب العالمية الأولى . وشرع كبار رجال القانون الانجليز يدرسون القوانين الجديدة التى يجب أن تطبق فى مصر ، وصبغ مصر بالصبغة الانجليزية ، ورفع (شأن !) العامية للقضاء على اللغة العربية الفصحى ، ورفع (شأن !) الفرعونية ، التى غادرتها مصر منذ اكثر من الف عام ، وملأوا الوظائف بالموظفين الانجليز ، وجعلوا الوظائف الكتابية الصغرى فى يد المصريين ، وهو اسلوب نجح فى استعمار الانجليز للهند ، وفرضوا على مصر اقتصاديات ارتبطت ماليا وتجاريا بالصناعات الانجليزية والبيوت التجارية البريطانية فى بريطانيا والمستعمرات . ومن وراء كل هذا كانت نظرة الانجليز الى قوى الشعب فى مصر على النحو التالى :

١ — راسمالية مرتبطة بالمصالح الانجليزية ومستعدة للتعاون مع سلطات الاحتلال لو حدث تحرك وطنى فى البلاد ضد الوجود الانجليزى فيها .

٢ — كبار ملاك زراعيين تقوم دخولهم على اساس تصدير القطن الى المصانع البريطانية ، فتكون دخولهم بمئات الالوف من الجنيهات اذا تعاونوا مع الانجليز ، ويتعرضون لمستقبل مالى مزعزع اذا قامت ثورة تحررية .

٣ — فلاحون يتصاعد دخلهم (عدة قروش) كلما ارتفعت أثمان القطن . وبسبب قدراتهم التعليمية البسيطة كانوا يرون فى كبار الملاك قوة لها مكانتها المحترمة فى نفوسهم على اساسين :

(أ) انهم اصحاب الأرض التى يعيشون عليها ويخدمون فيها .

(ب) انهم قوة قادرة على ضرب أية تحركات ضدهم .

ولكن اخذت هذه المفاهيم تتزعزع عندما (انتشر) التعليم الى حد ما على يد الهيئات الوطنية المصرية مثل الحزب الوطنى الذى كان يفتح المدارس المجانية لتعليم ابناء الشعب فبدات آفاق الفلاحين فى التطور ، وخاصة بظهور زعامات وطنية تؤمن بالفلاح وتكشف عن الظلم الفظيع الذى يعانيه فى صمت . وكان على راس هذه الحركة مصطفى كامل ومحمد فريد .

بدات لدى الفلاحين اتجاهات قوية نحو المستقبل الأفضل ، مستقبل لابنائهم يختلف عما عاشوه هم . مستقبل فيه تعليم ، وفيه اعمال ، وفيه

وظائف راقية لأبناء الشعب وليس للانجليز ، ومجالات للتقدم ليس لأبناء (الباشوات والبكوات والأعيان) ولكن للجميع .

كانت الصحف الوطنية قد نبهت الفلاحين الى كثير من جوانب الحياة المتطورة ، وجوانب عديدة من فكرة المساواة . وكانت قوة هذه التطلعات راجعة الى كراهية بغيضة للاحتلال الانجليزى ، وايمان حقيقى بأن المكاسب الضخمة التى يحصل عليها الانجليز هى التى تجعلهم متشبثين (ببر مصر) . وأن هؤلاء الباشوات والاعيان يسيرون فى ركاب الانجليز ، فلم يقف هؤلاء مثلا وقفة كتلك التى وقفها مصطفى كامل - نصير الفلاح - ضد كرومر بسبب حادثة دنشواى (١٩٠٦) التى شنق فيها الانجليز من الفلاحين عددا ليس بالقليل ، وحبسوا وجلدوا ، لا لشىء الا لأن كرومر اراد ان يثبت للمصريين وللحزب الوطنى أن مصر قد صار امرها كله للانجليز وأن لا حول ولا قوة لها بعد ان عقدت بريطانيا مع فرنسا الوفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ان قيمة حادثة دنشواى ، ودفاع مصطفى كامل عن الفلاح ، وعن القانون ، وعن الحقوق ، جعل فلاحى مصر لا يتعلقون بكبار الملاك الا على مضض وتحت ضغط الحاجة الى ما يسد الرمق ، فكانت هذه القوة الشعبية مستعدة للعمل ضد الوجود الانجليزى عندما تسنح لها القيادة والفرصة . فمع ان الفلاحين كانوا يمثلون حوالى ٧٠٪ من شعب مصر ، الا أنه لم تكن هناك روابط تربطهم بعضهم ببعض . لم يكن الفلاحون قوة واحدة ، وانما كانوا قاعدة شعبية مفككة متناثرة ، بلا زعامة . ولكنها كانت قوة اصيلة حضارية ، قادرة على فهم متطلبات الزمن عندما توضع امامها ، واعية الى خطورة الوجود الانجليزى فى مصر ، وشاعرة فى نفس الوقت بعجزها عن التحرك .

ومن ثم كانت المعضلة التى تواجه التحرك الفلاحى فى مصر هو عدم وجود الزعيم الذى يستطيع ان يجعل كل الانظار متعلقة به ، ويجعل الأيدى ممدودة اليه . هذا الزعيم يجب أن تتوفر فيه الامكانيات التالية :

١ - قوة ذات تأثير اسلامى عربى مصرى ضد الوجود الاستعمارى .

٢ - قوة تقدمية تنظر الى مصالح الفلاحين والى حقهم فى حياة افضل .

وتاريخ الفلاحين . كقوة تحررية ، مهضوم فى كتب التاريخ . نظرا لطغيان الزعامات على تاريخ البلاد . ولو القينا نظرة سريعة الى فلاحى مصر لوضع تاريخ تحررى له لوجدنا فيه اصالة تختلف عن تلك الصورة البغيضة

التى يرسمها مؤلفو الغرب عنه . فهو فى نظر مؤرخى الغرب - وللأسف أيضا فى نظر بعض كتاب الشرق العربى ومؤرخيه - مستكين للذل ، وطغيان الحكام ، ولا يستطيع أن يحرر نفسه من قيود الخضوع التى يرسف تحتها منذ أيام الفراعنة ! ويتباهى بعض المؤرخين بما فى بلادهم من عصبيات عشائرية متمردة ثائرة على الحكومات .

ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن البيئة الزراعية والعمل الزراعى ، والانتاج الزراعى هو مرتبة متقدمة جدا من مراتب الحضارة ، لا تزال التشكيلات العشائرية بعيدة عنها كل البعد ، ولا تزال الجهود الحكومية المضنية تبذل من أجل تحويل تلك العشائر الى قوى مستقرة فلاحية منتجة ، حضارية . ان التشكيل العشائرى ، العصبى ، والطائفى أقرب الى البدائية منه الى متطلبات العصر .

ففى تاريخ مصر القديم ، كانت حضارتها تقوم على اكتاف الفلاح ، وفى التاريخ الاسلامى ، كان ثراء مصر ، وثراء حكامها يرجع الى قدرات أرضها فى زيادة الانتاج . وعاش الفلاح فى مستويات من التقدم (النسبى) كما كان يعيش غيره فى مختلف أرجاء العالم . حتى جاء العصر الحديث ، بالاستعمار ابتداء بالحملة الفرنسية . لقد قضت الحملة الفرنسية على الوجود المملوكى فى القاهرة ، وفى الدلتا ، ولكن الشعب المصرى فى الأرياف رفض تلك الهزيمة التى منيت بها العسكرية المملوكية ، وشنت على الوجود الفرنسى فى مصر حربا لا هوادة فيها من قرية لأخرى حتى أقنعت نابليون بونابرت أنه يعيش هو وجيشه فى أرض معادية . وكان يعتقد أنه لو ضرب المماليك ضربة قاضية لن يرفع مصرى واحد يده فى وجه الاستعمار الفرنسى .

وهناك مئات من الالوف من الفلاحين الذين عملوا فى شق قناة السويس ، وكانوا يسخرون تسخيرا فى هذا العمل ، وكان الواحد منهم يحصل ٢,٥ قرش فقط ، ان لم يكن مسخرا . ومات منهم الآلاف خلال عمليات الحفر تاركين فى صدر ذويهم ذكريات مؤلمة تنتظر من يوقظها .

وخلال الثورة العرابية ، وقف الفلاحون بما لديهم من مخزون قليل من الغلال والأموال وراء احمد عرابى ، ووراء جيشه الذى تولى قتال الانجليز . وبعد الهزيمة العسكرية قضى الانجليز على أية مؤسسة عسكرية تستطيع أن تقدم شيئا من الطعام أو الدواء حتى ولو مكانا ليموت فيه المصاب من جند

مصر ، فى هذه الأزمة الساحقة كانت بيوت الفلاحين ، وامكانياتهم البسيطة ملاذ هؤلاء الجند . لقد كانت ذكريات غير بعيدة عن ١٩١٩ .

لقد كان هناك جيل متقدم فى السن شاهد هذا وآلمه ، ولكن غرس فى ابنائه روح العودة الى النضال ، وهناك جيل جديد تربى على تلك الآلام وتطلع الى مستقبل افضل . فقرر أن يتحرك عندما تحين الفرصة .

وكان طبيعيا أن يكون هناك من هذا الجيل ، ومن ذلك دعاة هزيمة . وانهزامية ، وان الانجليز لا يمكن أن يخرجوا من مصر . وان الفلاح لا حول له ولا قوة ، وانه ليس بالامكان تغيير أموره فى وجه الاستعمار ، وفى وجه كبار الملاك والباشوات والأعيان . وانه اذا أريد تعديل لاحوال البلاد فليكن هذا عن طريق ذوى المكانة العليا ، وليس عن طريق الفلاح نفسه لأنه لا يستطيع التفاهم مع (الذوات) . هذه الاتجاهات كانت خطيرة ، ومثبطة للهمم ، وتوطدها الراسمالية والملاك الكبار فضلا عن سلطات الاحتلال البريطانى . وكان من الممكن أن يستمر ذلك فترة من الزمن تطول أو تقصر . ولكن لابد انها من أن تنتهى وتصل الى طريق مسدود يرى فيه الفلاح انه تعاون مع كبار الملاك الى اقصى طاقته . واعطاهم وحرم نفسه ، ومكن الانجليز من فترات من الهدوء نعلهم يبرون بوعودهم فيتركون البلاد لأهلها ، ويغير كبار الملاك من سياستهم ازاء الفلاح وابنائه . وفعلا خلال الحرب العالمية الأولى ، كانت قوى التحرك فى الفلاح المصرى قد نمت ، لا بسبب نمو الفكر والثقافة فى القرى فقط . بل كذلك بسبب الأزمات الشديدة الاقتصادية التى عاناها الفلاح المصرى خلال الحرب العالمية الأولى .

فخلال الحرب العالمية الأولى جمعت السلطات البريطانية الفلاحين بالقوة للعمل فى الجيش البريطانى . بل لقد وصلت بعض هذه الفرق من المصريين حتى فرنسا . ومات منهم الألوف .

وخلال تلك الحرب كذلك (اشترى !) الانجليز من الفلاحين فى مصر انتاجهم بأبخس الأثمان : أليس الانجليز يدافعون عن مصر ضد الأتراك والألمان ؟!!

هذا هو فلاح مصر ، الذى سنجده هو والطلبة القوة الثورية الحقيقية فى ١٩١٩ وكانت الزعامة التى تولت هذه الثورة لا تعتقد انه على هذه المقدرة الكبيرة فى التحرك ، بل لقد فوجىء الإنجليز بهذا التحرك لأنهم كانوا يضحكون ملء

الأنواه كلما سمعوا زعيما وطنيا مثل سعد زغلول . وقبله مصطفى كامل يتحدث عن الفلاح ، وانه هو شعب مصر الحقيقى الذى يجب أن تتم كل الأمور باسمه سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية .

القوة الثانية التى نراها عصبا رئيسيا للثورة المصرية عبارة عن تحالف عاطفى بين الطلبة والعمال ضد العدو المشترك (الاحتلال البريطانى) .

والقوة العددية للعمال فى مصر كانت قليلة ، كذلك كان الحال بالنسبة الطلاب ولكن سيكون لهم دور كبير فى تطور الثورة المصرية .

فالمجتمع المصرى زراعى فلاحى فى أساسه ، والتصنيع كان محدودا جدا ، بل ان الحرفيين كانوا فى تدهور سريع تحت الاحتلال البريطانى . لقد توقفت الكثير من الحرف الصناعية اليدوية بسبب تدفق المنتجات الأوربية الرخيصة ، وكان من مصلحة سلطات الاحتلال أن تزيد من فتح ابواب مصر امام التجارة البريطانية بصفة خاصة . وكانت النتائج السريعة التى تحققت فى مصر هى رخص فى الأسواق ، وتوفر السلع ، فاقبل الكثيرون عليها ، بل عدها بعض الكتاب (نعمة) من نعم الاحتلال البريطانى على مصر . ولم ينظروا الى المستقبل البعيد ، وهو ان مصر ظلت متخلفة صناعيا فى عصر يتطور صناعيا ، وما كان هذا الا خدمة للأهداف الاستعمارية البريطانية . لقد وضعت سلطات الاحتلال البريطانى مصالح بريطانيا قبل مصر وعمالها . ولم تكن تعنى بتطور مصر على مستوى العصر .

ولكن قوى العصر وتطوره أقوى من تحديات وتخطيطات الاستعمار اذ لابد أن تتسرب الحركة الصناعية بطريقة أو بأخرى الى البلد المحتل ، فقد بدأت تظهر بعض الصناعات الاستهلاكية : صناعة السجائر ، صناعة السكر ، صناعة حلج القطن . كما أن هناك مشروعات تستوعب الالوف من العمال كان على الاستعمار ان ينفذها خدمة لمصالحه أولا ، واعنى بذلك مد خطوط السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة الى جوف الصعيد لنقل الانتاج المصرى من القطن ، وغيره من انواع الانتاج المحلى فضلا عن الضرورات العسكرية ، والأرباح الباهظة التى تكسبها شركة سكك حديد فى قطر كبير كمصر .

هذه هى المؤسسات التى تجمعت فيها اعداد كبيرة من العمال . ولم تكن هناك قوة مدافعة عن حقوقهم الا الزعامة الوطنية المناهضة للاحتلال ومن هنا ارتبطت الحركة العمالية بالحركة الوطنية ، رغم سوء أحوال العمال الشديد ، ورغم مقاومة سلطات الاحتلال كافة الجهود التى بذلت لانشاء نقابات عمالية . ومع هذا نجحت زعامات الحزب الوطنى فى انشاء « نقابة عمال الصنائع اليدوية » . ونظرا لانه كان من الخطر على مستقبل هذه النقابة ان تعمل علانية فى مجال الدفاع عن حقوق العمال ، لجأت الى العمل السرى ، حتى لا تتعرض لضربة قاضية على يد سلطات الاحتلال البريطانى ، وعلى يد كبار الراسمالية المستعدة باستمرار للتعاون مع القوى الاستعمارية ضد الحركات العمالية التحررية . ومع هذا استطاعت الحركة العمالية أن تفرض نفسها على مسرح الوطن قبل ١٩١٩ . ففى ١٩١٠ قام اضراب كبير عمالى ، على يد عمال شركة سكك حديد مصر ، ايذانا بمشاركات جديدة فى الحركات التحررية عندما تحين الفرصة . ولعل تركيز عمال السكك الحديدية فى القاهرة كان من العوامل الجوهرية التى جعلت منهم قوة متلاحمة العمل الجماعى من اجل مستقبلهم ومن اجل مستقبل البلاد ، وجعلهم قوة من العسير القضاء عليها .

أما بالنسبة لعمال محالج القطن فقد كانوا مبعثرين فى مختلف مدن مصر الكبرى ، والصغرى . ولم يكن هناك ما يجمع بينهم سوى الفقر المدقع دون أن تكون هناك اية روابط بين عمال محلج وآخر . ولذلك كانوا قوة غير مرئية ، وانما طاقة مستعدة للمشاركة فى العمل الوطنى اذا ما وجدت فرصتها .

كما هو واضح من هذا العرض ، كانت هناك حوافز للتحرك الوطنى وتطلعات الى مستقبل افضل ، ولكن دون ان تكون لدى هذه القوى العمالية ايديولوجيات اشتراكية محددة واضحة المعالم . كانت الايديولوجيات الاشتراكية لدى مثقفين من خارج البيئات العمالية ، بيئات تشعر بقيمة الاشتراكية لهؤلاء العمال ، ولكنها لم تكن خارجة من بين صفوف العمال انفسهم . ومن هؤلاء سلامة موسى الذى كان يدعو الى اشتراكية فابية طيبة فى اتجاهها ولكن من العسير أن تطبق فى بيئات مصر . وكان سلامة موسى يشكل الجناح اليسارى المعتدل فى مصر ، أما الجناح اليسارى المتطرف فكان يمثله الحزب الشيوعى .

وبادىء ذى بدء ، تجدر الاشارة الى ان دعاة الاشتراكية الفابية ، ودعاة الاشتراكية الشيوعية ، كانوا أقلية محدودة تحتوى فكرا أكثر مما كانت تحتويه من قوى عاملة متحدة ذات قواعد شعبية عامة متسعة بين صفوف العمال انفسهم . أما القاعدة العمالية العريضة . فكانت ذات اتجاهات واضحة :

١ — التحرر السياسى والعسكرى لمصر من الاحتلال على اعتبار انه المسئول الأول عن منع مصر من التقدم ومن افادة اهلها من خيراتها . وأن اى تقدم على يد الانجليز فانما هو لخدمة لمصالح الأجنبية ، وليس من أجل مصر . ولهذا كانت هذه القاعدة العمالية مستعدة للالتفاف حول الزعيم الوطنى الذى يعلن حربه ضد الاستعمار .

٢ — ان العمال كانوا ينظرون الى طلبة المدارس نظرة تقدير واحترام ونظرة بعيدة الى آفاق جديدة . كان العمال ينظرون الى الطلبة — عن حق — انهم امل مصر . وانهم هم القوة الحقيقية التى يجب أن تتعاون معها الحركة العمالية من اجل تحرير مصر .

وهناك عدة عوامل جعلت الحركة العمالية ترتبط برباط وثيق مع الحركات التحررية الطلابية :

١ — كانت المدينة هى مركز تجمعات الطلاب والعمال ، فكان هذا التقارب المكانى عاملا رئيسيا فى اكتشاف كل من الآخر قدراته الثورية التحررية .

٢ — ان العمال فى المدن كان كثير منهم قد خرج من الطبقة الفقيرة ، أو هاجر من الريف ، والتلاميذ كانوا من أبناء الطبقة المتوسطة أو الفقيرة التى تكدح من اجل مستقبل افضل لابنائها . ولذلك كان التقارب (الطبقى) كفيلا بأن يتحول الى تلاحم اذا اتحدت الأهداف . وكان هدف التحرر من المستعمر الانجليزى كفيلا بأن يوحد هذا الالتحام .

٣ — شعرت الجماعات العمالية خلال الحرب العالمية الأولى بوطأة ارتفاع الأسعار . فالموظفون زيدت مرتباتهم ، وكبار التجار أفادوا من الحرب بالمتاجرة مع الجيوش البريطانية ، أما صغار التجار فلا تضرروا نوعا . وكبار

الملاك كان لديهم ما يمكنهم من مواجهة أزمة الحرب . بينما اكتوى العمال بنيران الغلاء دون ما يشير الى تعويضات مناسبة ».

أما الطلبة »، فكانوا قوة كبيرة ، وايسوا فقط امل العمال والفلاحين في تحدى قوى الاستعمار ، وانما امل الموظفين ، والتجار ، والسيدات ، والعامة فى انقاذ مصر من الانجليز . والطالب فى ذلك الوقت كان مختلفا عن طالب اليوم . كان كبير السن ، كانت له مكانة اجتماعية مرموقة ، وكان معدودا من أركان الأسرة ودعامتها الرئيسية بعد رب الأسرة . وكان متفتحا على أهداف كبرى يتحدث عنها فى مدرسته ، وبيته ، وناديه . وكان يقرأ كثيرا عن زعماء مصر القريبين من أمثال مصطفى كامل . الم يكن مصطفى كامل طالبا عندما بدأ جهاده من اجل تحرير مصر ؟ اليست مدرسة الحقوق هى التى بدأت الحركات التحررية ؟ اليس زعماء مصر من خريجى المدارس العليا ؟ ان مصر كانت متقدمة فى التعليم ، ورغم قلة عدد الطلبة الا انهم كانوا قوة فكرية ، قادرة على التحرك ،وخلق زعامات ميدانية ، تنفذ اتجاهات الزعامات الوطنية السياسية . وكانت قوة عامرة بالوطنية ، لا ترى اية غضاضة من أن يقف العامل جنبا الى جنب مع الطالب فى الصراع من اجل مصر . لقد استشهد مئات من الطلبة على اكتاف من كان يحملهم من العمال ومئات من العمال استشهدوا بين أيدى طلبة كانوا يحاولون بما لديهم من معلومات طبية بسيطة انقاذ المحتضرين منهم .

هناك قوة شعبية أخرى بدأت تظهر فى ميدان العمل التحررى . وهى « موظفو الحكومة » وموظفو المديريات فى الأقاليم . ولقد سبقت الاشارة الى ان كبار موظفى الدولة كانوا من الانجليز . ومن كان يرتفع الى تلك الوظائف العليا من غير الانجليز كانوا من الشركس أو الأتراك أو أبناء الاعيان . وكان هؤلاء منذ الثورة العرابية مستعدين للتعاون الى حد كبير مع السلطات البريطانية فى مصر حفاظا على مكانتهم ، وحتى لا تتكرر ثورة عرابية اخرى . وكان هؤلاء دعامة من دعائم الوجود الانجليزى فى مصر ، وكانوا فى نفس الوقت قوة يعتمد عليها السلطان (السلطان فؤاد) الذى جاء به الانجليز الى العرش وهو لا يعرف من العربية الا قليلها ». ولا يعرف من أبناء الشعب الا تلك الفئات الشركسية التركية التى تحتاج اليه للاستمرار فى تسلطاتها ، والذى يحتاج هو اليها لأنها تدافع عن الوجود التركى الشركسى فى مصر ضد نمو فى امكانيات الشعب المصرى فى ان

يحكم نفسه بنفسه . ولكن مما لا جدال فيه ان السلطان فؤاد كان ذكيا ويدرك ان المصريين اخذوا يزحفون على الوظائف الكبرى ، وبدأت تظهر فيهم كفاءات جديدة قادرة على ازاحة العناصر التركية والانجليزية عن المناصب العليا ، كما كان يدرك ان السلطات البريطانية نفسها لن تتورع عن التخلى عن الأتراك والشراكسة والتعاون مع الزعامات المصرية الناشئة اذا ما وجدت مصلحتها فى هذا الاتجاه .

لهذا عمل السلطان فؤاد على تقريب الزعماء المصريين منهم ، ودمجهم فى المجتمع الشركسى دمجا ، اما عن طريق زيجات سياسية ، او عن طريق ادخالهم فى دوامة المجتمعات التركية الأجنبية ، وصالونات الذوات وسيدات المجتمع (الراقى) الأمر الذى يؤدى الى انفصال هذه الزعامات بعد وقت — عن أصولها المصرية المكافحة . بل لقد ثبت أن بعض العناصر المصرية التى اندمجت فى المجتمع التركى — الشركسى كانت أشد قسوة على المصريين من أولئك الأتراك والشركس ، وكانت أشد خيانة للقضية التحررية المصرية .

ومهما كانت قدرات السراى ، والانجليز ، فى استيعاب الزعامات الناشئة المصرية ، الا أنه لابد أن يصلوا يوما ما أمام أعداد كبيرة من المصريين لا يمكن استيعابها أو فصلها عن قواعدها الشعبية التى خرجت منها . فتصبح هذه مترددة بين ذلك المجتمع (الراقى) ، وبين المجتمع المصرى الحقيقى المتطلع الى التحرر والتقدم .

ومن بين هؤلاء ستخرج الزعامات الجديدة الوطنية . وستكون لها ميزاتها ، وستكون لها مثالبها كذلك . فهذه الزعامات تدرك حقيقة ما كان يدور فى قصر الدوبارة (مقر المندوب السامى) من مؤامرات استعمارية ، وذلك نظرا للمستويات الثقافية التى وصلت اليها ، ورحلاتها التعليمية الى خارج مصر ، والى فرنسا بالذات ، ونظرا لامكانياتها على الاطلاع على تطورات الأمور خارج البلاد . فاصبحت أمور (قصر الدوبارة) مفهومة الى حد كبير لديهم . وبدأوا يتعلمون اساليب الدبلوماسية فى الأخذ والعطاء مع الإنجليز ، وأخذوا يحذرون فى نفس الوقت اساليب الانجليز فى احداث تفرقة كبرى بين صفوف الوطنيين .

وهذه الزعامات مسموعة الكلمة لدى عدد كبير من (ذوات) مصر وعدد كبير من كبار الملاك ، وكانت كذلك محترمة لدى الفئات الكادحة (الفلاحون والعمال والطلبة) . وكانت محترمة جدا لدى الموظفين الذين كانوا يبحثون عن زعامة تتولى تحرير مصر ، ويعتقدون أن مثل هذه الزعامة لا يمكن أن تظهر الا من بين موظفى الدولة الذين خبروا مخططات الانجليز . ولقد كان العديد من زعماء الثورة فى مصر من أمثال سعد زغلول على هذا النحو .

واذا كان ارتفاع المصريين الى المناصب العليا بأعداد قليلة ، فان وجود عدد كبير من الموظفين المصريين فى مختلف أجهزة الحكومة أصبح يكون قوة لها مكانتها فى الحركة الوطنية . فلقد كرهت هذه الفئة من الموظفين اغلاق الوظائف العليا أمامها ، ولكن زاد حنقها على الوجود الانجليزى عندما شرعت الحكومة البريطانية فى ملء بعض الوظائف المتوسطة بموظفين انجليز ، وبالتالى أصبح من الواضح أن الانجليز يريدون أن يصبغوا الادارات والأجهزة المصرية بالصبغة الانجليزية بحيث تغلق تلك الوظائف المتوسطة فى وجههم ، وأدرك الموظفون أن مستقبلهم أصبح فى خطر ، ومن ناحية أخرى هم فئة مثقفة ذات تطلعات بالنسبة لنفسها . وبالنسبة لمستقبل أبنائها ، وحيث أن سياسة صبغ الادارات بالصبغة الانجليزية تهدد مستقبل هؤلاء الأبناء اتجهت هذه الفئة الى بث روح الثورة بين مختلف طبقات الشعب .

ولكن يجب أن نحدد هنا قدرات هذه الطائفة من الموظفين ازاء ثورة شعبية كبيرة ؟ أن تلك الطائفة على جانب كبير من الفكر الثورى ، والمنطق الثورى . وقادرة على تحريك النفوس ، وقادرة على شل أجهزة الدولة حتى لا تتيح للانجليز فرصة السيطرة عليها . ولكنها لم تكن بقادرة على الاستمرار فى الثورة مدة طويلة وان كانت قادرة على الاثارة . وذلك لأن هؤلاء الموظفين يعتمدون اولا وأخيرا على مرتباتهم الشهرية البسيطة . وانقطاعها عنهم يعنى ببساطة موتهم جوعا ، ولذلك كانت امكانياتهم فى الاثارة اقوى من قدراتهم على الثورة . ولكن هذا لا يقلل من قدراتهم ودورهم ، وانما هى الظروف التى تفرض نفسها على الأوضاع .

ويمثل الموظفون جزءا من القاعدة المثقفة فى مصر . فهناك المحامون ، واصحاب الأعمال الحرة ، والصحافة بمن يعمل فيها ، وكانت الصحافة نشطة قوية رغم أنها كانت تحت عين الرقيب الدقيقة .

وكانت هذه الطبقة المثقفة حديثة التكوين ، تعيش الحضارة الأوروبية الجديدة والحضارة الشرقية التقليدية ، وبالتالى عندها قدرة على المقارنة وتبول التجارب والتغييرات والتجديدات فى البناء السياسى والاجتماعى فى البلاد ، ونظرا لاطلاعها على جوانب عديدة من تاريخ التحرر الأوروبى والأمريكى واليابانى ، فقد كانت ترى فى حضارة مصر القديمة والاسلامية والحديثة خلفية عريقة فى الاصالة الحضارية قادرة على ان ترفع مصر الى مستويات الدول الحرة وان ذلك لا يمكن أن يتم الا عن طريق اخراج الانجليز بثورة تحررية كتلك الثورات العالمية التحررية .

وهذه الطبقة المثقفة هى التى أعدت الفكر والمجتمع لتغييرات ثورية من أهمها نمو فكرة (تمصير) الاقتصاد ، وتحرر التعليم من قيود الماضى ، والعناية بنصف القوة البشرية (المراة) فكان ان تحررت المراة من قيود التزمت ، فكان ذلك اعدادا لها للمشاركة فى ثورة ١٩١٩ .

بعد هذه الفئات : (الفلاحون — العمال — الطلبة — المثقفون) ننتقل الى فئات أخرى ذات صفات قيادية غير ميدانية ، تضع من الاهداف ما هو متأثر بمصالحهم تارة ، وتارة أخرى يسيرون مع تيار التحرر الشعبى حتى لا يتهموا بالتخلى عنه ، وتارة ثالثة يعارضون هذا التيار على اعتبار أنه بدأ يفلت من أيديهم . فلا زعامة للثورة الا زعامتهم . ولا هدف من ورائها الا ما يضعونه هم .وهى الزعامات الرأسمالية الوطنية .

هذه الرأسمالية الوطنية كانت زراعية فى غالبيتها العظمى وهى التى كانت تشغل معظم مقاعد الجمعية التشريعية ، وهى الهيئة الوحيدة التى كانت تمثل الشعب المصرى تحت الاحتلال البريطانى ، وكانت تحت توجيه الانجليز بطبيعة الحال . ولكنها رغم هذا كانت مدرسة تدرب فيها سياسيو مصر على العمل السياسى .

ونمت قوة الرأسمالية المصرية خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى وخلالها ، وذلك بسبب انقطاع ورود البضائع الأوربية الى مصر واعتماد الجيش الانجليزى على ما يمكن انتاجه من مصر سواء فى ميدان الصناعة أو فى ميدان الزراعة . وبالتالى ادركت الرأسمالية التجارية كم أنها

تستطيع ان تحصل على أرباح اكبر لو تفتحت امامها هى الأسواق الخارجية التى كانت تحتكر التعامل معها البيوتات المالية الأجنبية ، وخاصة الانجليزية .

اما كبار الملاك الزراعيين فقد أصيبوا بخسائر شديدة بسبب عدم تصدير القطن خلال سنوات الحرب التى كانت فى نظرهم حربا ابتدعها الانجليز ضد الألمان الذين كانوا فى نظر الراسمالية المصرية قوة أوربية جديدة قادرة على كسر شوكة الانجليز .

وهناك قوة ليست ثورية . ولكنها ترى فى نفسها أنها احق القوى بالعمل السياسى من اجل اجلاء الانجليز عن مصر واعنى بذلك الحكومة القائمة حينذاك والمتمثلة فى السلطان فؤاد الاول وفى وزارة رشدى باشا . ولكنها قوى تريد الوصول الى تفاهم مع سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بالتهديد بأن البلاد قد تثور فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه القوة ضد وقوع الثورة . كذلك كانت هذه القوة الحكومية ترى فى كبار الملاك والراسمالية المصرية قوة لاستخدامها ضد الانجليز ولكن دون ان تتحول الأمور الى ثورة ضد الانجليز أو ثورة شعبية تدعو الى تحرير الطبقة الكادحة من ظلم الانجليز ، وظلم كبار الملاك ، وكبار الراسماليين على السواء .

وما ان سمعت كل تلك القوى الوطنية ، على اختلاف درجاتها فى الثورية والوطنية ، بأن الانجليز رفضوا السماح لسعد زغلول بالسفر الى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح حتى هب الشعب كله فى ثورة واحدة ضد الاحتلال (٨ مارس ١٩١٩) . ووقف شعب مصر ، بلا جيش يستند اليه ، وبسلاح قديم جدا ، وقليل جدا ، وبلا زعامة واضحة محددة بعد نفى سعد زغلول ورفاقه ، وقف شعب مصر ثائرا ضد اكبر واقوى دولة فى العالم خرجت منذ وقت قصير جدا منتصرة فى أعظم حرب عالمية حينذاك . وهذه هى قيمة ثورة ١٩١٩ الكبرى ، فقد وضعت مفهوما للثورة أنها لا تهتم بقوة العدو بقدر ما تهتم بالتحرك الثورى تمهيدا لخطوات اخرى اذا ما توفرت الظروف .

ففى المدن ، وفى القاهرة بالذات ، كانت جموع الطلبة ، والعمال ، والمثقفين ، ورجال الأزهر ، طلبته وعلمائه ، ورجال الدين المسيحى قد جندوا أنفسهم للمشاركة فى الثورة ، وكان الخطباء من شيوخ الأزهر يلهبون الشعب بخطبهم فى الكنائس ، وكان القساوسة يحمسون أفراد الشعب بخطبهم فى المساجد ، والطلبة والعمال والفتيات وقود الثورة فى مختلف الأحياء .

كان الفلاحون هم القوة الميدانية الكبرى ، التى لم تجعل الثورة متصورة على المدن ، وانما جعلتها ثورة شعبية عامة من أقصى شمال دلتا مصر ، حتى أقصى جنوب صعيد مصر . وقامت هذه الجماهير بقطع خطوط المواصلات بين المدن بعضها وبعض معرقلة بذلك حركة القوات البريطانية ، وعازلة بعضها . لقد كانت زعامات ثورة الفلاحين زعامات ظهرت فجأة ، يدفعها العمل ضد المحتل الانجليزى دون أن يكون وراء ذلك تخطيط وتنظيم ثورى ، ومن ثم كانت الأعمال الثورية التى قام بها الفلاحون فى أول الأمر فعالة ، ولكن عندما أصبح على الفلاحين أن ينتقلوا من مرحلة العمل الثورى الفورى ، الى العمل الثورى المستمر المخطط الذى يحفظ للفلاحين قدراتهم على متابعة ثورتهم ، بدأت الأمور تضطرب . ولكن هناك عامل أشد خطورة لعب دورا هاما فى وضع حد لثورة الفلاحين .

لقد رحب كبار الملاك والرأسمالية المصرية بثورة الفلاحين ، وبثورة العمال والطلبة فى المدن ، وباضراب الموظفين ، وبتوقف الحياة كلها واتخاذ القوى الوطنية جانب الثورة . ولكن كانت القوى الرأسمالية تريد من الثوار أن يثوروا فقط ، ثم يتركوا الأمر فى يد الراسمالية لتدبره مع الانجليز على مائدة المفاوضات . أما أن تستمر الثورة فهذا ما كانت لا تريده تلك الرأسمالية . ولكن حدث تطور أدى الى ازعاج الراسمالية ازعاجا أشد من استمرار الثورة وظهور قيادات وطنية عديدة ليست تحت سيطرة كبار الملاك وانما تحت توجيه المثقفين . هذا التطور هو أن جماعات من الفلاحين أدركت أن الثورة يجب ألا تتركز فى اتجاه العمل السياسى للتحرر من الاحتلال ، وانما عليها أن تسعى وراء تحول اجتماعى يرفع مستوى الفلاح الى المكانة اللائقة به على أساس انه هو المضحى الأول والقوة الكبرى التى تدفع بدمائها ثمن الثورة .

فقد حدث أن نادى بعض الفلاحين بأن توزع أراضى كبار الملاك على الفلاحين وأن تتجه الثورة الى الاتجاه الاجتماعى . وكان هذا أخشى ما تخشاه الرأسمالية المصرية وكبار الملاك . فسعت هذه القوى الى وقف تطور الثورة عند هذا الحد قبل أن تمس مصالحهم مباشرة . وبالتالى يكون الفلاحون قد فقدوا القيادات التى يمكن أن تستمر فى توجيه ثورتهم وتحولت تلك القيادات الرأسمالية الى العمل ضد الثورة بالتعاون مع القوى الأخرى التى أزعجها نمو وتطور الثورة ، ونعنى بذلك السلطان فؤاد الأول . والأقلية الشركسية والتركية ، والوزارة ، والذوات ، وفوق هذا وذاك : سلطات الاحتلال البريطانى .

وادركت سلطات الاحتلال البريطانى أن فرصة ذهبية قد سنحت لها لضرب أكبر قوة من قوى الثورة (الفلاحون) . فأخذت أبواق السلطات البريطانية تردد أن الفلاحين قد تحولوا الى الشيوعية ، وأنهم أعلنوا حكومة (سوفييتية) فى زفتا ، وجمهورية فى المنيا . وحيث أن الفكر الشيوعى حينذاك كان يعنى الالحاد والخروج عن نطاق التفكير السليم ، فان تلك الدعايات كانت مخططة بشكل يؤدى الى تفكيك الحركة الوطنية . بينما الحقيقة الثابتة حينذاك ، وبعد ذاك ، هى أن فلاحى مصر لم يكونوا قد سمعوا بالشيوعية ولا بكلمة (سوفييت) ، وان (الحزب) الشيوعى المصرى كان يتكون من حوالى عشرين شخصا فقط غالبيتهم العظمى من الأجانب الايطاليين واليونانيين الذين جاءوا بالفكر الشيوعى من مساقط رؤوسهم فى أوربا ، ولم يستطيعوا نشر هذا الفكر بين الفلاحين أو حتى بين العمال بسبب طبيعة تفكير الفلاح والعامل المصرى حينذاك .

ولكن كان تضخيم أبواق الانجليز فى مصر للخطر (الشيوعى) من العوامل التى جعلت الراسمالية المصرية تتخلى بسرعة عن الثورة .

ومع هذا فلربما كان فى استطاعة الفلاحين أن يتابعوا الثورة لفترة أطول وبمقاومة أشد عنادا لو لم تبدأ الثورة فى نفس الوقت الذى كان فيه للانجليز بمصر أكبر جيش فى المنطقة كان قد تكدس بها خلال فترة القتال ضد الاتراك على ضفتى القنال وخلال الزحف الانجليزى عبر فلسطين الى أقصى شمال الشام . ثم عادت وتركزت قوات كبيرة انجليزية فى مصر ولذلك كان هذا التفوق العسكرى الضخم من العوامل التى ارغمت الفلاحين على التوقف عن القتال .

وتخبطت فى أول الأمر السلطات البريطانية فى فهم أسباب هذه الثورة الكبرى ، وفوجئت بها ، ولم تكن تعتقد ابدا أن « أصحاب الجلاليب الزرق » يستطيعون أن يقوموا بكل تلك المجهودات فجأة ، ودون قيادات تتولى توجيههم . حتى لقد بدا هذا التخطيط واضحا فى الوثائق والتقارير البريطانية التى كانت تبعث من مصر الى الحكومة البريطانية . فقد كان الانجليز يقولون «أنها تارة موجهة ضد السلطان فؤاد ، وتارة أخرى يقولون انها موجهة ضد البريطانيين ، وثالثة انها موجهة ضد الأجانب ، ورابعة انها ذات اتجاهات بولشفية » . ولا ندرى ان كان هذا التصور فى فهم حقيقة أسباب وأهداف الثورة

راجعا الى عدم قدرة في ادراك هذه الحقيقة بسبب خطورة المفاجأة أو انه كان محاولة مقصودة من جانب سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر .

ولنحاول أن نحلل كل ادعاء من تلك الادعاءات لنحدد ما يمكن أن يحقق الانجليز من ورائه من أهداف تفيدهم فى القضاء على الثورة والابقاء على سيطرتهم العليا على البلاد .

فالقول بأن الثوار المصريين مجرد متمردين على السلطان (الشرعى) للبلاد ، يجعلها حركة محلية ، ضد الحكومة ، وتعيد الى الأذهان ما سبق ان حدث خلال ثورة عرابى من تدخل بريطانى باسم حماية (الحاكم الشرعى) من المتمردين . وهذا الأسلوب من العمل كان مقبولا فى الدوائر السياسية الأوربية على اعتبار انها (دبلوماسية العصر) . وبذلك تكسب بريطانيا وتوف حكومات الدول الأخرى بجانبها ، وبجانب السلطان دفاعا عن (الحقوق الشرعية) .

ومن ناحية أخرى كان السلطان نفسه هو والأقلية الشركسية التركية وكبار الملاك والرأسمالية ، قد ازعجها هذا التصاعد الشعبى السريع ، وان الثورة فعلا لم تعد ثورتهم التى كانوا يريدون أن يلعبوا بها على طاولة المفاوضات .

ولهذا كان ادعاء السلطات البريطانية ان هذه الثورة ضد السلطان من الأمور التى تريح صدور الاقليات التى تخلت عن الثورة عندما أخذت طريقها الحقيقى نحو الثورة الشاملة .

ولكن سرعان ما تبين أن الثورة لا تعنى لا بالسلطان ، ولا بالاقليات التركية ، أو الأجنبية أو الرأسمالية ، قدر عنايتها بالعمل على اخراج الانجليز من مصر . وبدأت هذه الحقيقة بسرعة تتفوق على الدعايات البريطانية ، حتى أصبحت أمرا واقعا فى مختلف الدوائر السياسية الدولية . واضطر الانجليز اضطرارا الى ان يعترفوا فى قرارة انفسهم بأنها (ثورة وطنية) ، وان ظلوا فى نفس الوقت يعملون على تقويض المظهر الوطنى لها بكافة الوسائل .

الادعاء الثانى بأنها ثورة ذات اتجاهات بلشفية كان الغرض منه اثارة

الدوائر السياسية الأوروبية ضدها ، فقد كانت روسيا البلشفية حديثة الظهور (١٩١٧) ، وكان هناك عداء شديد لها فى كافة دول أوربا ، وخاصة فى فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت الزعامات المصرية الوطنية لا تزال تعتقد أنه يمكن الافادة من الفرنسيين والمنافسات الفرنسية البريطانية فى المنطقة فى ارغام الانجليز على الخروج من البلاد ، كما كان هؤلاء الزعماء يعتقدون أن الرئيس الأمريكى ويلسون يشد ازر الشعوب المطالبة بحق تقرير مصيرها استنادا الى مبادئه الأربعة عشر المعروفة . ومن ثم فان (تشويه) صورة الثورة المصرية لدى الدوائر الفرنسية والأمريكية على هذا النحو يجعل هذه الدوائر أقل تحمسا ان لم تقف الىجانب الانجليز ضد الثورة .

ولا شك فى أن هذه القوة التى بدت عليها الثورة منذ البداية كانت هى العامل الجوهرى — حتى بعد اخمادها بالقوة المسلحة — فى أن يغير الانجليز من اسلوبهم فى علاج الموقف بطريقة أخرى فيها بعض (التراجعات التآمرية) من جانبهم قد اضطروا اليها اضطرارا . ولكن هناك عامل آخر يهمل شأنه كثير من المؤرخين وهو أثر هذه الثورة المصرية فى دفع القوى الثورية الأخرى العربية الى التحرك . وفى هذا تحدثنا وثيقة بريطانية من الجنرال اللنبى الى ايرل كيرزن Curzon وزير خارجية بريطانيا فى ابريل ١٩١٩ ، ولأهميتها فى كشف هذا الجانب وبعض الجوانب الأخرى سنورد فقرات بنصها :

« ان الحركة الوطنية التى كانت فى بادىء الأمر حركة سياسية بحتة ، بدأت الأن تتخذ طابعا دينيا ، وجامع الأزهر هو مركز الاضطرابات الدينية ، حيث تلقى فيه الخطب المثيرة والنارية ليل نهار . وبالنظر الى الطبيعة المقدسة للجامع الأزهر والمعترف بها فى كافة أنحاء العالم الاسلامى فانه من غير الممكن كبح جماح من يرتادونه بالقوة .

وهناك من الشواهد ما يشير الى أن الحركة بدأت تؤثر فى سورية وفلسطين ، والخطر خطر حقيقى وجاد جدا ... وما لم تقدم حكومة صاحب الجلالة بعض التنازلات فان الحالة ستعود الى ما كانت عليه من سوء ... واذا رفع الحظر المفروض على سفر (سعد زغلول ورفاقه الى مؤتمر الصلح) ... فانى أود أن أؤكد الأهمية العظمى للحصول على بيان عاجل باعتراف الدول الكبرى بحمايتنا » .

هذه هى بداية التراجع التآمرى :

ـ فالحركة حركة قومية تحررية ثورية أرادوا ان يقصروها على الفكر الدينى فقط حتى ينسبوها الى التعصب ، وحتى يثيروا فى داخل البلاد صراعا طائفيا .

ـ ان فرنسا كانت تريد السيطرة على سورية ولبنان ، وبالتالى فان نجاح ثورة مصر يعنى نجاح ثورة الشام من بعدها ولهذا كانت السلطات الفرنسية موافقة على استخدام الانجليز كافة امكانياتهم للقضاء على الثورة ومع هذا تسربت انباؤها الى البلاد العربية فثارت ولكن بعد مرور بعض الوقت .

ـ التنازلات التى يتحدث عنها اللنبى ، تنازلات مظهرية للغاية (رفع الحظر المفروض على زعماء مصر) . وفى نفس الوقت أكد على العمل البريطانى على ابقاء الحماية على البلاد رغم الشعب وثورته .

وهناك احكام عديدة صدرت على هذه الثورة . وسنبدأ بعرض وجهة نظر متأخرة فى ١٩٥٣ ابداها ثورى من طراز جديد هو جمال عبد الناصر ، فقد قال فى كتابه مانصه :

« الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات » .

« ان هناك ثلاثة اسباب واضحة ادت الى فشل هذه الثورة ولابد من تقييمها فى هذه المرحلة تقييما امينا ومنصفا » .

١ ـ « ان القيادات الثورية اغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على ان تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الاراضى اساسا للاحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة ... » وهذا هو الذى ادى الى اخراج الفلاحين والعمال من الثورة فى وقت مبكر .

٢ ـ « ان القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ انه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية » .

٣ – لعب الموقف الدولى دورا خطيرا فى منع الثورة المصرية من الوصول الى اهدافها . ولقد مر بنا كم بذلت الحكومة البريطانية من جهود من اجل الحصول على الاعتراف بحمايتها على مصر من الدول الكبرى ، الأمر الذى أغلق الباب أمام الكثير من الجهود المصرية للضغط على بريطانيا .لقد كانت القوى الاستعمارية فى ذروتها ، وكانت اكبر حكومة بدت على جانب من العدالة وهى حكومة الرئيس ويلسون مستعدة للتنحى عن دورها المعتدل وتغليب المصالح الذاتية على المبادىء العالمية الحرة ، فما انحصلت على نصيبها من بترول الموصل ، حتى اغلقت الباب فى وجه الحركات التحررية فى الوطن العربى .

وهذا التفسير لنتائج ثورة ١٩١٩ يتمشى مع ما سبق أن اشرنا اليه عند تحليل قوى الثورة وزعامتها . وكيف ان القيادات خشيت من تطور الثورة الى مفاهيم اجتماعية ، وكيف ان الدول الكبرى خانت قضية التحرر .

ولكن هناك مكاسب حققتها الثورة :

١ – كان اولا لابد من ثورة ، سواء على مفهوم طبقى ، او على مفهوم سياسى ، ضد الاحتلال البريطانى لمصر ، وقدمت ثورة ١٩١٩ هذه الثورة لتكون مثالا تحتذيه شعوب العرب الأخرى المناضلة ضد الاستعمار . وتحدثنا كتابات من شاركوا فى ثورة العراق ١٩٢٠ أن ثورة ١٩٢٠ نشبت بسرعة بتشجيع قوى من ثورة مصر ١٩١٩ .

٢ – اتضح للانجليز انهم ما عادوا يقيمون على أرض خاضعة وانما اصبحت ارض مصر حتى بعد اخماد الثورة بالقوة ، ارضا معادية خطرة على الوجود الانجليزى ، وبالتالى اصبح عليه أن يتخذ طريقا من طريقين :

(أ) اما أن يفرض الانجليز وجودهم بكل قوة وقسوة وان يقضوا على اية بادرة تحرك ثورى فى البلاد .

(ب) او أن يتنازل عن بعض امتيازاته الاستعمارية ليوقع الزعامات المصرية فى حيرة بين الحصول على الاستقلال دفعة واحدة ، والحصول عليه بالتدريج .

ولا شك ان الانجليز ادركوا بسرعة ومنذ البداية انه من العسير كل العسر القضاء على الروح الثورية فى مصر بالسلاح باستمرار . بل قدروا أن

استخدام الضغط العسكرى باستمرار سيسرع من نمو الحركات الثورية مجددا . ورات سلطات الاحتلال ان الطريق الثانى أكثر ملاءمة وخاصة انها وجدت فى السلطان فؤاد ، وفى الذوات وفى الراسمالية وكبار الملاك اعوانا لها فى الاحتفاظ باكبر قدر من الامتيازات ، بل وفى احداث تغييرات مظهرية فى حقيقة أوضاع الاحتلال البريطانى فى مصر الا قليلا .

وفى سبيل ذلك تحركت الدبلوماسية الانجليزية فى عدة اتجاهات سندرسها بالتفصيل فيما بعد ، وهى :

١ — الافراج عن سعد زغلول ورفاقه وتغيير فى القيادات البريطانية وارسال لجنة تحقيق (ملنر) ، واثارة المنازعات بين الزعامات .

٢ — محاكمات قاسية لزعماء الثوار ، والعودة لنفى سعد زغلول ورفاقه .

٣ — الحصول على تاييد الدول الكبرى لسياسة بريطانيا الارهابية فى مصر .

٤ — التراجع المظهرى فى حالة تعذر الوصول الى حل لمشكلة الاضرابات (تصريح فبراير ١٩٢٢) .

فى علاج الحكومة البريطانية للقضية المصرية ، عملت على تغيير فى القيادات البريطانية ، حتى تظهر بمظهر الراغب فى الوصول الى تفاهم ، وحتى تعطى للمصريين صورة من صور الانتصار ، ولكنه انتصار مظهرى . فقد أبعدوا السير ريجلاند وينجت Wingate عن منصب المندوب السامى فى مصر وجاءوا مكانه بالجنرال اللنبى فى خضم اشاعة كبرى ، انه هو القائد المنتصر الذى فتح الشام باسره خلال الحرب العالمية الأولى . وانه لن يقبل السلاح لغة فى التفاهم ، وانه قوى لن يتورع عن استخدام كافة الجيوش (لاعادة فتح مصر) ، والجزء الثانى من حرب الدعاية كان يتحدث عن اللنبى على اعتبار انه الرجل الذى يقدر مطالب مصر حق قدرها ، ويفهم رغبات الشعب ، ويريد الوصول الى حل يرضى المصريين .

وفى نفس الوقت ، استخدم (اللنبى) قواته بقسوة ، فى سياسة ارهاب شاملة ضد مختلف طبقات الشعب . فقبض على المئات ، ثم الالوف وبدأت المحاكمات وصدرت أحكام السجن المؤبد ، والاعدام بكثرة فى كثير

من اجـزاء البـلاد . وعملت سـلطات الاحتـلال على ضرب القرى بقسـوة ، ممـا أرغـم الثـوار على توقيف حـركتهم العـامة للتحول الى نـوع من حـرب العصابات تولاها المثقفون فى المـدن ، واضرابات تتوالى فى المـدارس والأزهر . وبدا للانجليز انه أمكن السيطرة على الموقف . ولكن قـوة الثـورة ظلت كامنة ، وامكانيات تجددها واضـحة ، ومن ثم كان لابد كما ذكر النبى من تنازلات بريطانية، وهى التى نطلق عليها (التراجع التآمرى) .

وكان أهم تحـرك انجليزى ضـد الثـورة خارج البـلاد هو منـع القـوى الدولية من مشاركة المصريين آمالهم ، ولذلك عملوا على الحصـول على موافقـة الدول الكبرى على الحماية البريطانية على مصر :.

فالمانيا المهزومة ،، ارغمت ارغاما على الاعتراف بالحمـاية البريطانيـة على مصر ضمن وثيقة معاهدة فرسـاى .

واذا كانت المانيـا مغلوبة على أمرها ، فان موقف الولايات المتحدة الأمريكية من فرض الحماية فرضـا بقوة السـلاح على مصر يختلف اختلافا شديدا .

فالمعروف ان مبدأ « حق تقرير المصير » كان اهـم مبـدأ نادى بـه الرئيس ويلسـون ، ونال من أجله تقدير الجميـع ، وتعلقت به البـلاد المهضـومة الحق لعلها تنـال استقلالها . وروج عملاء وتناصل الولايات المتحدة فى مختلف اجـزاء الشرق العربى ان الولايات المتحدة ذات أهداف سامية راقية لا أهداف اسـتعمارية لها ، بل اهداف حضـارية سـامية ترمى الى تحرير كافة البـلاد من الاسـتعمار والمسـتعمرين .

ولكن كان هـذا كله جـزءا من مناورات دبلوماسـية العصر ، التى تعطى مبادىء سـاميات وتسلب حقوقا للشـعوب والجماعات . فقـد كانت للولايات المتحـدة الأمريكية مصـالح بترولـيـة فى العـراق ، فلمـا لوحت لهـا الحـكومة البريطـانية بأن هذه المسـالة يمكن أن تسـوى بمـا يلبى رغبـات الولايات المتحدة الأمريكية بدأت الحكومة الأمريكية تعيـد النظـر فيما يجب ان تكون عليها سـياسـتها الخارجية . وتخلت عن الأهـداف السـامية ، من أجـل المكاسـب الامبريالية . وبعثت حـكومة الولايات المتحـدة صـاحبة « حق تقـرير المصير للشـعوب » الى الحكومة البريطانية ردا على الحاحاتها باعلانهـا تاييـد الحمـاية البريطانية جاء فيه :

« اتشرف باخبـــاركم ان حكومتى قــد كلفتنى أن ابلغكم ان الرئيس ويلسون يعترف بالحمـــاية البريطانية التى اعلنتها حكومة صـــاحب الجلالة الملك على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ » .

أما فرنســا ، ذات التطلعات الاستعمارية بعيدة المدى فى الشرق العربى فكانت ضــد الثــوار والثــورة فى مصر ، وهنــاك فى باريس ســمع الزعمـــاء المصريون من الحكومة الفرنســـية ردها الواضــح أنه من العبث الحصــول على شىء منها من اجــل القضية التحررية المصرية . بــل ان الحكومة (الديمقراطية) الفرنســية استخدمت أساليب دكتاتورية ضــد الشــعب الفرنسى حتى لا يعرف حقيقة ثورة مصر ، وهذا واضــح فى الرسائل المتبادلة بين المسئولين فى وزارتى الخارجية الفرنسية والبريطانية ومنها ما جاء فيها بالنص :

Earl Curzon to General Sir Allenby

Foreign Office, May 10, 1919.

No. 606

Telegraphic

My Telegram No. 558.

French Foreign Minister has informed Lord Derby that Censorship has been instructed to stop publication in French press of information regarding Egyptian situation suspected to be from Nationalist sources or savouring of propagenda dangerous to French and British interests in Asia Minor and No th Africa.

ان الحكومة الفرنســـية (الديمقراطية) فى ســبيل تحقيق أهدافها الاستعمارية لا تتورع عن اســتخدام اشــد الأســاليب الدكتاتورية الرجعية ضــد الصــحافة الفرنسية لمنعها من نشر أية أنبــاء عن الحركة الوطنية فى مصر . كما هو واضــح من تلك البرقيــة . ان التحالف الاســـتعمارى الفرنسى — البريطــانى أقوى من المبــادىء التحررية التى ينادى بهـــا فلاسفة وساسة الدول الأوروبيــة العظمى المتحدة بالحــرية والمســاواة والاخــاء ، وحق الشــعب فى أن يختــار حكومته البرلمانية ، ذلك الحق الذى يردده الانجليز كمثل أعلى على التقدم البريطانى والحرية البريطانية .. فالحرية لدى الأوروبى حريته هو ، أما الوضع بالنسبة للشرقى فهــو وضــع آخــر . لا حرية له . وانمـــا هى فى خــدمة الديمقراطية البريطــانية أو الفرنســـية .

أما ايطاليا أكبر الدول الصغرى ، وأصغر الدول الكبرى ، فكانت هى الأخرى تريد أن تلعب بورقة الثورة المصرية لتحصل على مكاسب من بريطانيا ، فحثت سرا الجالية الايطالية على تأييد الثوار المصريين . مما أثار ثائرة الانجليز . ولما كان من العسير على السلطات البريطانية ان تتخذ اجراءات عنيفة ضد رعايا حليفتها ، عمدت الحكومة البريطانية الى أسلوب المساومة وتبادل المنافع الذى كانت تريده الحكومة الايطالية . وعلى هذا الأساس سويت (المسألة) على مائدة المفاوضات والوعود . ففى الوثائق البريطانية فى هذا الشأن ما يثبت هذا الأسلوب من المساومات السياسية على حساب الشعوب المكافحة من اجل الاستقلال والحرية .

فقد جاء فى برقية مطولة بعث بها كيرزون (وزير خارجية بريطانيا) الى سفيره فى ايطاليا فى ١٤ اكتوبر ١٩١٩ :

« من المهم جدا الا يتأخر اعتراف ايطاليا بالحماية على مصر أكثر من ذلك ، ان حكومة صاحب الجلالة تعرف ان الحكومة الايطالية قد استنكرت موقف أولئك الايطاليين فى مصر الذين أيدوا الحركة الوطنية وانتوا لذلك تعجب لأن الحكومة الايطالية لم تتخذ الأجراء الواضح بالاعتراف بالحماية وبذلك تظهر عدم موافقتها على الحركة ... ان بريطانيا العظمى وفرنسا قد وعدتا فى المعاهدة بتعويض مناسب لايطاليا فى أفريقيا فى حالة توسيع الدولتين نطاق ممتلكاتهما فى تلك القارة لذلك فان هاردنج يود ان يوضح للسفير ان ايطاليا ملتزمة بتنفيذ وعدها بالاعتراف بحمايتنا على مصر بقدر التزامنا بتنفيذ وعدنا باعطاء جوبون وقسمايو وهى منطقة مساحتها ٣٠ الف ميل مربع — وانه اذا أصرت الحكومة الايطالية على هذا التأخير غير المعقول فى الاعتراف بحمايتنا على مصر ، فلا يمكن لها أن تنتظر منا ان نكون فى عجلة من أمرنا فى تسليمها مثل هذه الشريحة الكبيرة من الممتلكات البريطانية فى أفريقية » .

هذه صورة من أساليب الحكومات (الديمقراطية) فى تسوية خلافاتها على حساب الشعوب المكافحة من أجل الاستقلال .

وأدت هذه المؤامرات الى أن تصبح الدوائر السياسية الأوروبية والأمريكية مغلقة فى وجه الزعامات المصرية ، بعد أن اطلق سراحها ، وسافرت الى الخارج للمطالبة بحقوق البلاد .

ثم عمدت الحكومة البريطانية بعد ذلك الى ارسال لجنة للتحقيق فى أسباب الثورة . والتفاوض مع الزعماء المصريين . وهذا التفاوض لابد أن يصبح من مصلحة السلطات الانجليزية المحتلة للأسباب التالية :

١ — ان الدول نفضت يدها عن الحركة التحررية المصرية ، وبالتالى اصبحت المسألة محصورة بين الثوار المصريين والقوة العسكرية البريطانية .

٢ — ان الجبهة الداخلية كانت قد انقسمت على نفسها بسبب مخاوف كبار الملاك ، والذوات ، من ان تتحول الثورة الى ثورة اجتماعية .

٣ — ان اللجنة ستقضى وقتا ليس بالقصير فى الأخذ والرد مع الزعامات المصرية فتتيح لبريطانيا فرصة العثور على ثغرات لضرب الحركة الوطنية المصرية .

٤ — ان اللجنة ستنتهى الى اعداد تقرير . ويقول المارشال ويفل مترجم حياة اللنبى فى كتابه : Wavell : Allenby in Egypt ما نصه :

« ان لجان التحقيق تنتهى بتقرير جيد جم الفوائد ممتع القارىء ... وقد توفق اللجنة فى الوصول الى حل للمشكلة ..... » .

وقد لا توفق ، ومن هنا يكون ضياع الوقت بالنسبة للحركة الثورية وفترة استعداد بريطانى للوثوب على قوى الثورة من جهة أخرى .

عرفت اللجنة التى بعثت بها الحكومة البريطانية الى مصر باسم رئيسها ملنر Milner ولننظر فى مؤهلات الرجل ومكانته .

هو لورد انجليزى ، ووزير للمستعمرات ، ودرس تاريخ مصر دراسة مستفيضة ، وله كتاب هو من المراجع الرئيسية التى يعتمد عليها المؤرخون فى كتابة تاريخ مصر واسمه ... ... England in Egypt وللأسف ان الكثيرين يأخذون عنه ويقتبسون منه ، وكأن ما فيه حقائق مسلمة بينما هى مجرد وجهة نظر بريطانية فى تاريخ مصر تغاضت عن كثير من الحقائق من أجل توطيد السيطرة البريطانية فى مصر .

أما مساعدوه فكانوا جميعا من ابناء المدرسة الاستعمارية البريطانية سواء اكانوا مدنيين أم عسكريين . فكان طبيعيا ان يقاطعهما الشعب وفعلا

لم تجد من تتحدث معه . فبدأت تنفذ سياسة التراجع التآمرى . فاعلن ملنر دهشة « اللجنة من الاعتقاد السائد بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من حقوقها التى كانت لها حتى الآن . وانه لا أساس على الاطلاق لهذا الاعتقاد فان اللجنة اوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى لأجل التوفيق بين امانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة التى لبريطانيا العظمى فى مصر مع المحافظة على الحقوق الشرعية التى لجميع الأجانب القاطنين فى البلاد ... وما يمكن الأمة المصرية من صرف كل جهودها الى ترقية شئون البلاد فى ظل حكم ذاتى Self Governing Institutions

علينا ان نحلل هذا البيان وتحديد الأهداف الجديدة للسياسة البريطانية :

١ — نلاحظ على هذا البيان انه أغفل الأشارة الى الحماية البريطانية على مصر . وهذا أمر يحدث لأول مرة . وخاصة ان الحكومة البريطانية بذلت من الجهود الكثيرة المضنية من اجل الحصول على موافقة الدول الأوروبية على حمايتها على مصر . لقد بدأت سياسة التراجع . تحت وطأة المقاومة السلبية (المقاطعة) .

٢ — وضع البيان اسس الوصول الى اتفاق بين الطرفين البريطانى والمصرى وهى :

(أ) امانى الأمة المصرية .

(ب) مصالح بريطانيا .

(جـ) حقوق الأجانب .

وبطبيعة الحال ، هذه هى وجهة النظر البريطانية الى هذه الاسس .

ادى هذا البيان الى وقوع اضطراب فى صفوف الزعامات المصرية ، حيث أعتبر قسم منها أن هذا البيان يكفى للدخول فى مفاوضات مع الانجليز ، وتزعم هذا الجناح (عدلى يكن) زعيم فئة (الذوات) ، اما اللجنة المركزية لحزب الوفد فقد أصرت على ان يعلن الانجليز ان المفاوضات يجب أن تؤدى الى (الاستقلال التام) .

ووجدت اللجنة المركزية (للوفد) ان تجرب مع الانجليز سياسة المفاوضة وتقدم ملنر بمشروع بعقد مفاوضات مطولة مع سعد زغلول قرب

سعد زغلول الا يبت فيه الا بعيد عرضه على الشعب . وحيث ان مشروع ملنر يعطى مصر بعض الحقوق ويضع الأمور فى يد الانجليز رفضه الشعب . وكان طبيعيا أن يعود الانجليز الى سلاح القوة والبطش فقبضوا على سعد زغلول وصحبه ونفوهم مرة أخرى الى خارج البلاد ، وعادت البلاد الى المقاومة السلبية وفشلت الحكومة البريطانية فى الوصول الى اتفاق مع (الذوات) . ولهذا قررت السلطات البريطانية في مصر والحكومة البريطانية ان الحماية لا يمكن ان تستمر بهذا الشكل ، ولابد من التخلي عنها واعطاء مصر بعض حقوقها . واضطرت الحكومة البريطانية اضطرارا الي اعلان الغاء الحماية فيما عرف باسم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وهو تصريح من جانب واحد .

هذا هو تفسيرنا للظروف والأسباب التي أدت الى اصدار التصريح البريطانى فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ الذى نص علي :

أن حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التي جاهرت بها ترغب في الحال فى الإعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة .

وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر اهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية :

١ — انتهت الحماية البريطانية على مصر ، وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة (*)

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكنى مصر تلغى الأحكام العرفية التي اعلنت في ٢ نوفمبر ١٩١٢ .

٣ — الي أن يحين الوقت الذى يتمنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتي بيانها ، وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الطرفين ، تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولي هذه الأمور ، وهي :

(أ) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل اجنبي بالذات او بالواسطة .

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما هى عليه .»

هذا التصريح اصدرته الحكومة البريطانية من جانبها هى دون اخذ موافقة البلاد المصرية عليه ، ولا حتى زعماء مصر حينذاك ، ومن ثم فهو التزام من جانبها هى ، دون أن يكون ملزما للشعب وخاصة أن الشعب رفضه واعتبره صورة أخرى من صور الاحتلال ، وان عبارة الاستقلال الواردة فى ذلك التصريح لا تعطى مصر الا مظهر الدولة المستقلة دون ان يكون لها اية حقوق على جزء من اراضيها ، ونعنى بذلك منطقة قناة السويس ، ليس هذا فقط ، بل اصر الانجليز فى تصريحهم هذا على حقهم فى ضمان مواصلاتهم عبر مصر وبالتالى وضع مصر فى خدمة الامبراطورية ، والدفاع عن مصر فى هذا الاطار حفاظا على مصالحها ، وليس حفاظا على مصر ، ثم أنها وضعت التحفظ الأخير بشكل عجيب قالت (السودان) ، ماذا بشأنه ؟ وهذه طبيعة الاساليب الانجليزية الملتوية التى تضع الأمور بشكل غامض لتفسر الأمور حسب أهدافها الامبريالية .

أما التحفظ الثالث (الدفاع عن مصالح الأجانب والأقليات) فقد هدفت بريطانيا من ورائه أن تكسب الدول الأوروبية صاحبة الجاليات فى مصر ، حيث ان هذه الجاليات كانت تسيطر على قطاع الاستثمارات المالية ، والبيوتات المالية الكبرى ، وبيوت تجارية ، وبنوك ، والبورصة والصناعات الناشئة . وكانت هذه الجاليات تريد الاحتفاظ بامتيازاتها وبما وضعت يدها عليه من ثروات مصر خلال فترة الاحتلال ، وكانت تدرك ان الوطنيين لن يتباطأوا — اذا ما حصلوا على استقلالهم — عن استرداد كافة ما استولى عليه الأجانب . ومن هنا كانت قوة التلاحم بين الجاليات الأجنبية والاحتلال البريطانى ، واستماتتها فى استمرار الاحتلال البريطانى . واذا ما جاء اليوم الذى ترددت فيه كلمات الاستقلال على لسان بعض السياسيين الانجليز — مع ان هذا الاستقلال كان مظهريا — انزعجت هذه الجاليات الأجنبية ايما انزعاج ، وحركت حكوماتها ضد سياسة استقلال مصر .

أما الاشارة الى الأقليات ، فهى محاولة لخلق معارك طائفية فى داخل

مصر نفسها ، اذ كان الانجليز يوحون بذلك الى اقباط مصر بأن يشعروا بانهم اقلية . وهدف الانجليز من وراء ذلك الى اشعارهم بانهم ليسوا مواطنين ، وانما (اقلية) .

ولقد مر بنا كيف أن أقباط مصر كانوا شعلة من شعلات ثورة ١٩١٩ ولكن الانجليز كانوا يودون لو انقسمت البلاد الى قوى طائفية متعددة متناحرة ، فكانت تركز على الايقاع بين الأقباط والمسلمين . وعندما وقعت الثورة فوجئت سلطات الاحتلال بأن الأقباط — وكانوا يشكلون العشر من السكان — كانوا قوة للثورة ، لا أداة ضعف لها . ومع هذا ظلت الخطة البريطانية مستمرة فى تحقيقها ، لعلها تصل اليها يوما ، ولم تصل . وكان من مظاهر هذه السياسة الاشارة الى الأقليات فلم تعر الزعامات المصرية (الاسلامية والمسيحية) هذه العبارة أية اهمية ، فقتلت اهداف التفرقة فى مهدها .

ولئن كان تصريح ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ قد منح شعب مصر فرصة الحصول على قدر أكبر من تولى شئونه بنفسه ، وسعى الى تحقيق جعل مصر دولة مستقلة ذات سيادة . وكان أول مظهر من هذا الاستقلال فى نظر اسرة محمد على والأقليات التركية ، هو تثبيت حقوق الأسرة فى أن تحكم ، وفى أن تستمر فى الحكم ، ومن هنا جاء رفع السلطان فؤاد نفسه الى مرتبة الملك فؤاد الأول .

واتجهت الراسمالية المصرية ، وكبار الملاك ، وجمهرة المثقفين الى خلق نظام دستورى برلمانى على اعتبار أن النظام الدستورى البرلمانى هو مظهر الاستقلال والصورة التى تعطى لمصر مكانة فى المحافل الدولية ، ولكن هذه الاتجاهات كانت تعطى لكبار الملاك — وكبار الملاك بالذات — فرصة لفرض وصايتهم على الشعب وفى وضع دستور يحقق أهدافها هى قبل اهداف الشعب . وفى هذه الظروف صدر دستور ١٩٢٣ . ولننظر فى هذا الدستور ونحدد المبادىء التى توخاها ولنحدد من بعد قيمته فى تطور الحياة السياسية فى البلاد ، وفى تطور الكفاح من اجل حياة افضل للشعب ، ومن أجل الوصول الى تحرر كامل من التسلط البريطانى .

لقد سبقت الاشارة الى أن الحركة التحررية العرابية أصرت على ضرورة قيام حكم دستورى فى البلاد ، وأن القوى الاستعمارية حينذاك ضربت بالقوة المسلحة تلك الحركة الدستورية التحررية . ومن بعد ذلك عاشت مصر تحت نظم حكم وضعتهاسلطات الاحتلال والوزارة ، جعلت لنفسها اليد العليا فى توجيه أمور

البلاد تشريعيا وتنفيذيا ، وأنشأت بعض مظاهر التمثيل على هيئة مجلس شورى القوانين ،أوالجمعية التشريعية ، وهى هيئات لا تضع الشعب على مستوى المسئولية الدستورية وانما تضع الأمور فى يد سلطات الاحتلال فقط لا غير ، تاركة الأمور البسيطة الروتينية فى يد هذه الهيئات . فلا غرو ان كانت نسيا منسيا عندما فكر الشعب وزعماؤه فى ١٩٢٢ فى وضع دستور للبلاد .

ومن المتبع فى كثير من الأحيان أن تتكون جمعية تأسيسية تتولى مهمة اصدار الدستور ، وبأن ممثلى الشعب هم الذين يجب أن يضعوا مواد هذا الدستور . وكان سعد زغلول يرى هذا الرأى وقد أيده فى ذلك منافسه الشديد (الحزب الوطنى) .

ولكن الملك فؤاد كان يدرك — عن حق — أن تكوين جمعية تأسيسية تتولى اعدادالدستور يعنى انه سيفقد كل سلطاته التسلطية ، وهو يريد دستورا ينقل سلطات الاحتلال اليه هو أولا وقبل كل شىء . ولهذا بذل (فؤاد) جهدا كبيرا مضنيا من أجل منع ظهور جمعية تأسيسية . ونجح فى ذلك ، وفى أن تتولى لجنة من رجالات السياسة والقانون وضع مواد هذا الدستور ، على ان تقدم الدستور الى (الملك فؤاد) ليتولى هو اصداره ليصبح منحة من الملك وليس عملا مفروضا عليه . ومع أن لجنة وضع الدستور كانت من بين الشخصيات التى تعارض اصدار الدستور بموافقة الشعب ، الا أنها كانت فى نفس الوقت لا تريد أن يصدر الملك هذا الدستور . وهذا اتجاه واضح فى موقف البرجوازية من الحياة النيابية ، فانها هى الأخرى تضع الدستور لخدمة أهدافها هى فوق أهداف الملكية ، وفوق أهداف الشعب على حد سواء .

فدارت فى أروقة وصالونات السياسيين فى القاهرة مناورات عديدة من اجل تحديد من سيتلو الدستور على الشعب . وأبعد فؤاد عن الوزارة أكثر من شخصية سياسية من اجل هذا ، وخاصة عندما وجد أن الدستور الذى وضعته تلك اللجنة لا يعطى الملك الا حق (الملك) دون حق (الحكم) . فقد نص الدستور — الذى عرف باسم دستور ١٩٢٣ — على قيام نظام برلمانى انتخابى تكون فيه الوزارة مسئولة أمام البرلمان وليس أمام الملك ، ونص على أن « جميع السلطات مصدرها الأمة » أو بمعنى آخر تأكيد مبدأ سيادة الأمة . وأكد كذلك على مبدأ « المساواة فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفى الواجبات والأعباء الوطنية ، دون أى تمييز بسبب الدين أو الأصل أو اللغة » وكفل الحريات المعروفة .

ولكن هناك عيوب عديدة لهذا الدستور جعلته قاصرا عن تادية مهمته الكاملة :

اولا : صدر فى عهدالاحتلال والملكية المتربصة بحريات الشعب ، وبرجوازية غير قادرة على فهم حقيقة رغبات الشعب فىحياة أفضل من مختلف وجوهها .

ثانيا : أصر الملك فؤاد على أن يصدر هو الدستور ونجح فى ذلك ، وبدا كأن هذا الدستور منحة منه للشعب . والحق ، أن قيام نظام برلمانى يسلب من الملك معظم سلطاته كحاكم ويقضى على محاولة جعل الدستور منحةملكية ولكن ظل مظهر المنحة موجودا ، ولكنه مظهر لا جوهر . الا أن المظهر استغلته الملكية الى حد كبير فى تقوية مراكزها امام المؤسسات التمثيلية . وخاصة ان حل البرلمان كان فى يد الملك والوزارة ، وان للملك الحق فى التصديق على التشريعات التى يصدرها البرلمان .

ثالثا : عند تطبيق هذا الدستور تولت الوزارة قوى برجوازية ، وكان النواب والشيوخ فى مجلس البرلمان من نفس هذه البرجوازية التى تضع مصالحها فوق مصالح الملكية الراغبة فى الاستبداد بالأمور وفوق تطلعات الشعب .

وطبقا للدستور أجريت الانتخابات وفاز سعد زغلول ومرشحو حزب الوفد باغلبية ساحقة . ونظرة سريعة على الوزارة التى كلف الملك فؤاد سعيد زغلول بتشكيلها ، تبين انها أول وزارة يؤلفها مصرى من ريف مصر . كما انها تضمنت عددامن أبناء الريف . ولكن ليس معنى هذا أن هؤلاء ظلوا مخلصين لريفهم كل الاخلاص . فقد أصبحوا فقط يشفقون على أهل الريف ، ويدركون ضرورة انقاذ الفلاح من الوضع الاجتماعى المتدنى الذى يعيشه . ولكن لم يصاحب ذلك وضع برنامج اصلاحى ينقذ الفلاح من أوضاعه ، فهل هو الفكر البرجوازى ، كما يرى البعض ؟ أم أنها التطلعات القوية نحو العمل السياسى ضد الانجليز أولا وقبل كل شىء ؟ اغلب الظن أن الاثنين كانا معا يؤثران فى توجيه فكر هؤلاء النواب والوزراء المصريين الذين شكلوا أول حكومة مصرية وأول مجلس نواب مصرى .

كلف الملك فؤاد — على مضض — سعد زغلول بتأليف أول وزارة دستورية فى مصر . ومنذ البداية شغلت الوزارة بمحاولات الملكية فى اثبات ذاتيتها وسلطاتها ، وبمحاولات سلطات الاحتلال البريطانى القضاء على وزارة سعد زغلول وتوريط البلاد فى الخلافات الحزبية حتى لا يقف شعب مصر — مرة أخرى — وقفة رجل واحد ضد الاحتلال البريطانى للبلاد .

فالملك فؤاد من ناحية عمل على أن يصدر بعض المراسيم دون أخذ رأى أو حتى مجرد اخطار رئيس الوزارة بذلك ، ومن هذا القبيل الأزمة التى نشبت بين سعد زغلول والملك فؤاد بسبب تعيين الملك لحسن نشأت وكيلا للديوان الملكى بأمر ملكى ومنحه وساما دون أخذ رأى الوزارة الأمر الذى أدى الى استقالة سعد زغلول مما اضطر الملك الى أن يعيد النظر فى الموضوع ويقدم المرسوم الى سعد زغلول لتوقيعه بصفته رئيس الوزراء المسئول. ومع أن هذه المشكلة شكلية ، الا انها كانت تتضمن صراعا على تطبيق روح الدستور نفسه ، وحتى لا ينتقل ذلك الى مسائل اخرى تقضى على ما أقره الدستور من مبدأ سيادة الأمة فى الحكم وان الملك (يملك) ولا (يحكم) .

واذا كان سعد زغلول واجه بنجاح تلك الأزمة الدستورية مع الملك فؤاد فقد كان عليه ان يخوض حربا ضروسا دبلوماسية ضد سلطات الاحتلال البريطانية ، وضد الحكومة البريطانية التى تريد أن تجعل للبلاد مظهر الدولة المستقلة ذات السيادة وذات الحكم البرلمانى والوزارة المسئولة ، دون أن يمس هذا بالوجود البريطانى العسكرى والسياسى فى مصر ، وسيطرتها على قناة السويس والسودان . وبطبيعة الحال لايمكن أن يتم ذلك . فاما أن تظل مصر تحت الاحتلال البريطانى ولا قيمة حقيقية لتلك المظاهر الدستورية ، واما أن تعود الى الكفاح من اجل حريتها .

بعد ان تسلم سعد زغلول الوزارة والحكم ، دخل فى مفاوضات مع رمزى مكدونالد محاولا اقناع الانجليز بأن مصر المستقلة استقلالا كاملا ستحافظ على المصالح البريطانية فى قناة السويس وان مصر ستظل على علاقات أقوى ببريطانيا من غيرها . وفى نفس الوقت طالب سعد زغلول الانجليز بما يلى :

١ — سحب القوات البريطانية والمستشارين البريطانيين .

٢ — ازالة كل اشراف بريطانى على علاقات مصر الخارجية .

٣ — تنازل بريطانيا عن مطالبتها بحماية الأجانب والأقليات .

٤ — تنازل بريطانيا عن المشاركة فى الدفاع عن القناة .

هذا بينما قال مكدونالد لسعد زغلول :

« ان ضمان مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر الآن ، كما هو الحال

فى ١٩٢٢ ، مسألة حيوية بالنسبة الى بريطانيا ، وان التاكيد المطلق بان بقاء قناة السويس مفتوحة فى أوقات السلم والحرب أمام المرور الحر للسفن البريطانية هو الأساس الذى تقوم عليه كل الاستراتيجية الدفاعية الامبراطورية » .

وهكذا كانت بريطانيا قد فرضت استمرار الاحتلال على مصر بالقوة وهو امر يقضى على حقيقة استقلال البلاد . وكان الخلاف الجوهرى بين الرغبة فى الاستقلال الكامل ، واصرار بريطانيا على استمرار الاحتلال هو محور الصراع بين الحق والاستعمار خلال الفترة التى تلت اصدار دستور ١٩٢٣ . وكلما تصلبت وزارة فى مناوضاتها مع الجانب الانجليزى دبرت لها السلطات البريطانية ازمة للاطاحة بها . وبدات هذه السلسلة من المناورات السياسية التآمرية بالانذار الانجليزى الموجه الى رئيس الوزراء سعد زغلول فى اعقاب مصرع سيرلى ستاك قائد الجيش فى السودان فى ١٩٢٤ بيد احد الوطنيين المصريين .

كان الانذار الانجليزى على النحو التالى :

١ — أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .

٢ — البحث عن الجناة وانزال اشد العقاب بهم .

٣ — « ان تمنع الحكومة من الآن فصاعدا وتقمع بكل شدة كل مظاهرة شعبية سياسية » .

٤ — « ان تدفع فى الحال الى الحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه » .

٥ — « ان تصدر خلال ٢٤ ساعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان .

٦ — زيادة مساحة اراضى زراعة القطن فى الجزيرة (السودان) الى مقدار غير محدد من الأفدنة .

٧ — اذا لم تنفذ الحكومة المصرية هذه المطالب على الفور اتخذت حكومة بريطانيا الوسائل التى تحافظ بهاعلى مصالحها فى كل من مصر والسودان .

لقد كان مصرع سيرلى ستاك مجرد مصرع موظف كبير بريطانى يشد أزر الاستعمار البريطانى فى كل من مصر والسودان ، ولقد قتل كثير من قبله ، ومن بعده

من العسكريين والسياسيين الانجليز دون أن تتحرك الحكومة البريطانية ، ودون أن تهب هذه الهبة للدفاع عن (شرف) بريطانيا . ونذكر من قبيل هذا قتل الارهابيين الصهيونيين لورد موين الوزير البريطانى فى ١٩٤٧ ، دون أن تفعل الحكومة البريطانية شيئا ، فبريطانيا عندما تجد فى مثل هذه الحوادث فرصة للحصول على مكاسب سياسية لا تتورع عن تضخيم الاهانة التى وجهت اليها . وفى الحادثة التى نحن بصددها ، كانت بريطانيا فى حاجة الى سبب تستند اليه من اجل تحقيق اهداف معينة فى كل من مصر والسودان وكان وقوع مصرع سيرلى ستاك فرصتها لتحقيق ذلك .

ويمكن ان نحدد الأهداف التى سعت اليها بريطانيا : —

١ — اخراج القوات المصرية من السودان وكانت المظهر الوحيد الباقى من مظاهر وحدة وادى النيل .

٢— ابراز بريطانيا وكأنها تدافع عن مصالح السودان فى وجه مصر .

٣ — اقناع كافة القوى المحلية والخارجية ان الكلمة العليا لا تزال لبريطانيا فى مصر .

وما كان سعد ليقبل هذا ، فقدم استقالته (نوفمبر ١٩٢٤) . وحققت سلطات الاحتلال هدفها ، لا فى الانفراد المطلق بالسودان ، وبالعمل على فصله عن مصر ، وانما من حيث اثبات أنها لا تزال القوة الحقيقية فى البلاد رغم صدور الدستور . ومن ثم أصبح الكفاح من أجل التحرر هو هدف الشعب الأول . ولكن مدى هذا التحرر هو ما اختلف فيه الزعماء ، وخاصة بعد وفاة سعد زغلول فى ١٩٢٧ . كذلك سنلاحظ كثرة تعطيل البرلمان وحله ، فكان ذلك افتئاتا على الدستور كمحاولة من جانب السلطات العليا التحكم فى تطور البلاد واثبات أن الدستور والحياة البرلمانية ليست فوق سلطات الاحتلال ، ولا سلطات الملك ، ولا قدرات الوزارة . فكان ذلك اكبر الأمور تقويضا للحياة البرلمانية فى مصر . وان كنا نعتقد أن هذا المستوى من الحياة البرلمانية المزعومة هو الطابع الذى يطالعنا فى كل حياة برلمانية تنشأ فى وجود احتلال أجنبى فى البلاد .

وانشأ السراى فى ١٩٢٥ حزب الاتحاد برئاسة يحيى ابراهيم ليكون اداة السراى فى البرلمانات القادمة ، وظهر حزب الأحرار الدستوريين الذى كان من أشد خصوم الوفد ، كما كان الحزب الوطنى يتعاون مع الأحرار الدستوريين لكبير

تفوق (الوفد) . ولم تظهر شخصية قوية قادرة على أن تمسك بزمام الأمور ، وان كان مصطفى النحاس — زعيم الوفد بعد سعد زغلول — يتمتع بشعبية واضحة كانت تثير مخاوف السراى والانجليز باستمرار .

وزادت الانقسامات فى الجبهة المصرية بعد وفاة سعد زغلول ، فكان طبيعيا أن يزداد تصلب حكومة بريطانيا فى مفاوضاتها مع الزعماء المصريين ، وفى التمسك بامتيازات تقضى على استقلال البلاد . وهذا واضح خلال المفاوضات التى دارت بين عبد الخالق ثروت — رئيس الوزارة المصرية وتشمبرلن وزير الخارجية البريطانى (١٩٢٧ — ١٩٢٨) . مع أن هذه المفاوضات دارت فى جو من التساهل الواضح من جانب المفاوضين المصريين الذين كانوا يبذلون اقصى الجهد من اجل الوصول الى وضع مستقر فى العلاقات المصرية — البريطانية . ومع هذا تمسكت بريطانيا بتلك التحفظات الأربعة (١) .

ونظرا لأن المشروع الذى تقدم به تشمبرلن — وزير خارجية بريطانيا لتسوية الخلافات المصرية البريطانية يمثل الحد الأدنى الذى يمكن أن يتنازل اليه الانجليز ، ولانه يكشف لنا عن أهدافهم سنورد اهم مواده :

١ — عقد محالفة بين الطرفين .

٢ — ان تتمشى سياسة مصر الخارجية مع السياسة البريطانية .

٣ — مسئولية بريطانيا فى الدفاع عن مصر اذا ما هوجمت .

٤ — ان يكون الجيش المصرى على نسق الجيش الانجليزى .

٥ — وجود جيش بريطانى فى مصر .

٦ — الأفضلية للانجليز فى مرافق ومؤسسات الدولة المصرية .

٧ — تمكين مصر من دخول عصبة الأمم .

ومعنى هذا كله استقلال مظهرى واستمرار التسلط البريطانى فى مصر .

استقالت وزارة ثروت ، وجاءت وزارة مصطفى النحاس الذى خلف سعد زغلول فى رئاسة الوفد المصرى . فواجهها الملك والسراى بمؤمرات داخلية عديدة ،

---

(١) انظر ص ٣٨٩ وتصريح ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ م

وواجهتها سلطات الاحتلال بما لديها من قدرات على اثارة المشاكل الداخلية ، وواجهتها حكومة لندن برفض شديد لأية مفاوضات تقوم على اساس احترام حقوق مصر واستقلالها التام ، وحتى لو وافق المصريون على عقد تحالف مع بريطانيا ، أو على اساس وجود القوات البريطانية على ضفة القناة ، فقد كانت هناك عقبة شديدة ترجع الى تزمت السياسة البريطانية المناهضة لأية سياسة وحدوية فى المنطقة . فقد كان المفاوض المصرى مصر على وحدة وادى النيل (مصر والسودان)، وكان الانجليز يصرون على الانفراد بامور السودان تمشيا مع سياسة تفتيت الوطن الواحد فهذه كانت سياستهم فى الشام ، وفى العراق ، وفى شبه الجزيرة العربية ، وفى شمال افريقيا وفى وادى النيل .

وبفشل محادثات ومفاوضات النحاس ـ هندرسون ١٩٣٠ بدت البلاد على وشك انفجار شديد. فالساسة الانجليز متصلبون فى استمرار سياستهم الاستعمارية فى مصر ، والدستور ينتهك من وقت لآخر، والحياة البرلمانية تحت رحمة الملك والسراى والسلطات البريطانية فى مصر . وبدا واضحا أن حزب الوفد أخذ جانب الشعب والدستور ، وان الملك والانجليز اخذوا الجانب الآخر . فمنذ أن اجريت انتخابات جديدة وتبين ان الاغلبية اصبحت للوفد (يناير ١٩٣٠)، شرعت السراى وسلطات الاحتلال تدبر لاسقاط الوزارة الوفدية ، بل والقضاء على دستور ١٩٢٣ نفسه ان امكن . وارغمت هذه المؤامرات الوزارة الوفدية على الاستقالة بعد ان حكمت لعدة أشهر قليلة . وفوجىء الشعب باسناد رئاسة الوزارة الى اسماعيل صدقى الذى كان يعلن انه عدو البرلمان الشعبى .

حل اسماعيل صدقى البرلمان ، والغى دستور ١٩٢٣ ، وأصدر دستورا جديدا عرف باسم دستور ١٩٣٠ وهذا يتضمن الاتجاهات التالية :

١ ـ تقوية سلطات الملك ووضع مستقبل اصدار القوانين فى يده واعطى الملك كذلك الحق فى أن يعين الرؤساء الدينيين ، واستبعدت الوزارة من ذلك . وكان الغرض من هذا هو استخدام القوى الدينية لتاييد الملك فى تصرفاته فضلا عن وضعها تحت رحمته ان هى انضمت الى الجبهة الشعبية . كما أصبح النواب تحت سيف العقاب القانونى اذاهم انتقدوا الملك . ولم يكن هذا واردا فى دستور ١٩٢٣ .

٢ ـ ان مجرد الغاء دستور ١٩٢٣ ثم اصدار دستور ١٩٣٠ كان يعطى الملكية مكانة كبيرة ، وكان فى نفس الوقت يقضى على مبدأ سيادة الأمة .

٣ ـ اعطاء الفرصة للوزارة لاصدار قوانين وتشريعات استثنائية .

ورغم اصرار الشـعب على مقاطعة الانتخابات التى دعا اليهـا اسـماعيل صـدقى ، أصر الأخير على اجراء انتخـابات زورها تزويرا ، ونجح مرشـحوه ، وتكون برلمان اغلبيته من حزبه ، واستمرت وزارة صدقى فى استخدام القوة الغاشمة ضد الشعب والصحافة والطلبة مدة ثلاث سنوات حتى أن حلفاءه الانجليز وجدوا انه بالغ فى مهمة القمع فتخلوا عنه فاستقال . أما خصومه ، وعلى راسهم (الوفد) فاصروا على التمسك بدستور ١٩٢٣ . وهنا يجب الاشارة الى أن جامعة القاهرة ، وطلبة المدارس لعبوا الدور الأكبر فى اسقاط حكومة اسماعيل صدقى ، وفى ارغام الملك على أن يكف عن التشبث بدستور ١٩٣٠ وبدت الظروف كلها توحى بأن التغيير سيقع قريبا . وادرك الوفد ذلك ، فاخذ يلهب المشاعر بقوة ليرغم الحكومات على الاستقالة ليتولى هو الحكم . وفى سبيل التغيير دعا الطلبة الى تكوين جبهة وطنية من كل الأحزاب لاعادة الحياة البرلمانية وتم ذلك فعلا واصـدرت الجبهة الوطنيـة (١٩٣٤ ــ ١٩٣٥) مطالبها وهى :

١ ــ اعادة دستور ١٩٢٣ .

٢ ــ التفاهم مع الانجليز على أساس ما سبق أن وصل اليه النحاس باشا مع هندرسون الانجليزى من قبل .

ودارت المفاوضات بين النحاس باشا والسـير مايلز لامبسـون ــ المندوب السامى البريطانى فى مصر فى أوائل ١٩٣٦ ، وكانت هناك ظروف دولية عديدة تؤثر فى الاتجاه نحو عقد معاهدة تحالف مع بريطانيا ، الى جانب الظروف القديمة :

١ ــ فالاحتلال كان لا يزال جاثما . وثبت ان الصراع فى داخل البلاد أصـبح بين الاحزاب بعضها وبعض اما الأمة فلم تعد تحارب الانجليز .

٢ ــ أن القوة البريطانية فى نظر ساسـة ذلك الوقت أكبـر من ان يرغمهـا الشعب ــ الاعزل ــ على اعلان انسحابها من مصر .

٣ ــ ان الدول الكبرى وقفت تشـد أزر بريطانيا ، فيما عدا الدول الجديدة المنافسة لبريطانيا والتى لم تكن لها قدرات واضـحة على تأييد الحركة الوطنية فى مصر تأييدا قويا .. ونعنى بذلك دولتى المحور Axis المانيـا النـازية وايطاليـا الفاشستية .

والدور غير المباشر الذى لعبته ايطاليا فى الاسراع بعقد معاهدة ١٩٣٦ بين

مصر وبريطانيا يحتاج الى نوع من الشرح ، لأهميته فى فهم ظروف عقد تلك المعاهدة .

ففى ١٩٣٥ رفضت ايطاليا كافة الجهود التى كانت تبذل داخل عصبة الامم وخارجها لمنعها من الهجوم على الحبشة والاستيلاء عليها ، مدعية عن حق — ان بريطانيا استأثرت دون وجه حق بمستعمرات لا تغيب عنها الشمس ، مستخدمة فى ذلك قوتها العسكرية فقط لا غير . وانقضت ايطاليا على الحبشة (١٩٣٥) . وكان من المتوقع — وهذا ما حدث — ان تنهار مقاومة الاحباش عاجلا أو آجلا . وحيث أن سقوط الحبشة يجعل ايطاليا مسامتة للسودان من الجنوب ، فقد شعرت بريطانيا بضرورة الاسراع فى تسوية مشاكلها مع مصر ، صاحبة الحق الشرعى فى السودان ، حتى لا تستغل ايطاليا هذه الخلافات البريطانية — المصرية لمصلحتها .

لقد كان فى حكم ايطاليا زعيم قوى الشكيمة بعيد الامال . هو موسولينى وحزبه الفاشست . وكانت تحية افراده هى تلك التحية التى كان يستخدمها الرومان ، وكانت اهدافه فى حوض البحر المتوسط تتلخص فى كلمتين بحرنا Mare Nostrum أى اعادة بناء الامبراطورية الرومانية وعززت ايطاليا حاميتها فى ليبيا ، وضاعفت من قوة اسطولها فى البحر المتوسط . وتردد فى الصحف ان ايطاليا — بعد ان تسيطر على الحبشة — لن تلبث ان تعمل على وصل الحبشة بليبيا فتصبح مصر والسودان بذلك مطوقة بواسطة الايطاليين التوسعيين الذين يدعون انهم احق من اية دولة اخرى بالسيطرة على البحر المتوسط .

ومن ناحية اخرى ، كانت ايطاليا تخشى من السيطرة البريطانية على قناة السويس ، وان بريطانيا تستطيع باساليبها الخاصة ان تغلق القناة فى وجه الاسطول الايطالى المتجه الى الحبشة ، وان تقطع خطوط تموين حملتها فى الحبشة . ولذلك شنت ايطاليا حملة شعواء على الوجود البريطانى فى مصر طالبة من الشعب المصرى ان يتعاون مع الايطاليين ضد الاستعمار الانجليزى .

كذلك طالبت ايطاليا بأن يكون لها دور أكبر فى ادارة شركة قناة السويس وبتخفيض الرسوم المفروضة على السفن المارة بالقناة فعارضتها كل من بريطانيا وفرنسا بكل قوة . بل لقد عملت بريطانيا على احراج ايطاليا عن

طريق عصبة الأمم استنادا الى المادة ١٦ التى تعتبر ايطاليا دولة معتدية يجب على الدول الاعضاء اتخاذ الاجراءات اللازمة ضدها لمنعها من الاستمرار فى عدوانها على الحبشة . ولكن ايطاليا الفاشستية كانت تدرك ان العصبة اضعف من ان تفعل شيئا ضدها باستثناء الكلمات والقرارات الجوفاء .

لقد كان الشعب المصرى فى الحقيقة فى حاجة الى كل يد يمتد اليه للتعاون معها ضد الاحتلال الانجليزى ، وخاصة أن فرنسا كانت تؤيد الوجود البريطانى فى مصر . ومع هذا كان زعماء مصر ، والشعب ينظر بعين الريبة الى الايطاليين ، فان افعالهم فى ليبيا العربية كانت معروفة لدى الشعب ، وكان الاستعمار الايطالى فى ليبيا بغيضا حتى لقد سرت عبارة بين الناس وهى ان الاستعمار البريطانى خير من الاستعمار الفرنسى ، وان الاستعمار الانجليزى أو الفرنسى خير من الايطالى .

ومن ناحية اخرى ،كان الشعب المصرى يعطف على الشعب الحبشى ، ويتذكر ما فعله الانجليز بمصر فى ١٨٨٢ ولا يحبون ان يتكرر مثل هذا العدوان على شعب آخر .

ولهذا كله كانت مصر من أولى الدول التى اتخذت اجراءات تاديبية ضد ايطاليا ، ونفذت ضدها سياسة المقاطعة التى دعت اليها عصبة الأمم . فما كان من موسيلينى الا أن وجه الانذار بعد الانذار ضد مصر . فكان هذا تاكيدا للحكومة المصرية ، وللشعب المصرى على أن ايطاليا لن تتورع عن استعمار مصر ، على نمط ما حدث فى ليبيا ، اذا ما سنحت لها الفرصة . وسعت الحكومة المصرية الى ضمان التعاون العسكرى الانجليزى ضد الخطر الايطالى .

ولكن الانجليز من النوع الذى لا يتورع عن استغلال أزمات الغير للوصول الى اهداف خاصة بهم . ففى الوقت الذى يوجد فيه تعاون بين السلطات المصرية والانجليزية بصدد تقوية الحاميات المصرية على الحدود الليبية اعلنت الحكومة البريطانية من جانبها — ودون موافقة مسبقة من جانب الحكومة المصرية — انها نقلت قاعدتها البحرية الحربية من مالطة الى الاسكندرية فى ٨ أكتوبر ١٩٣٥ .

فكان هذا عاملا مثيرا لمشاعر المصريين الذين كانوا يبحثون عن وسائل تخفف من القوة البريطانية فى مصر ، فاذا بها ترتفع بسرعة رهيبة حيث أن الأسطول البريطانى هو أقوى اسطول فى البحر المتوسط ، وهو لن يكون ضد الايطاليين فقط وانما سيكون أداة بطش بريطانية بالكفاح المصرى من أجل الاستقلال .

ادى هذا الى تحرك وطنى فى داخل البلاد ، وترتب عليه تجدد نشاط (الجبهة الوطنية) فى اتجاه الوصول الى معاهدة مع الحكومة البريطانية تجعل العلاقات المصرية ـ البريطانية قائمة على اسس واضحة .

وحيث ان الحكومة البريطانية كانت فى حاجة الى الوصول الى اتفاق نهائى مع الحكومة المصرية بسبب تلك التطورات فقد كانت جهود الطرفين قوية جدا من اجل الوصول الى معاهدة ، وهى التى عرفت بمعاهدة ١٩٣٦ . وهى لا تختلف كثيرا عن ذلك المشروع الذى وضع فى ١٩٣٠ لعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا .

واهم المواد التى وردت فى هذه المعاهدة هى : ـ

١ ـ انتهاء الاحتلال البريطانى لمصر .

٢ ـ عقد محالفة بين الطرفين تضع امكانيات مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية فى خدمة بريطانيا عند وقوع حرب .

٣ ـ « بما ان قناة السويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هى ايضا طريق اساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية ، فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى اصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلامتها التامة ، يرخص ملك مصر لملك بريطانيا بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة بالمنطقة المحددة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة .

ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال،كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية » .

٤ ـ استمرار العمل باتفاقيتى السودان لسنة ١٨٩٩ .

٥ ـ العمل على قبول مصر فى عضوية عصبة الأمم .

٦ ـ العمل على الغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر .

ويجدر بنا هنا أن نحلل هذه المعاهدة من حيث ما احرزته منها مصر ، ومن حيث ما استبقته بريطانيا فى مصر من امتيازات .

أولا : لقد نصت هذه المعاهدة على انهــاء الاحتــلال ، ثم على وجود قوات بريطانية (بتصريح أو ترخيص) من حكومة مصر . وهــكذا لم يتبدل الاحتلال الا فى الشـــكل فقط .

ثانيا : ثبت — كما سنرى — ان النص الخاص بوجود تلك القوات البريطانية وبعدم مساسها على الاطلاق بحقوق السيادة المصرية انه كان حبرا على ورق عندما فكرت الحكومة المصرية أن تتخذ لها سياسة خلال الحرب العالمية الثانية .

ثالثا : ان قناة السويس أصبحت — باعتراف الحكومة المصرية — جزءا من المصالح الامبريالية البريطانية ، وانها من هذه الناحية فى حاجة الى التحكم فيهــا على هذا الأسـاس فى المستقبل .

رابعا : ان السودان ظل تحت السيطرة البريطانية ، ولم يكن للمصريين الا المشــاركة المظهــرية .

خامسا : أن التحالف مع بريطانيا ربط مصر بالامبراطورية البريطانية بشــكل يجعلهــا تقدم تضــحيات للامبراطورية البريطــانية دون أن تحصـــل منها على أيــة مكــاسب (*)

سادسا : ان المعاهدة مهما قيل فيها وضعت فى ظل الســلاح العســكرى البريطـــانى (*)

تلك كانت مكاسب بريطانيا من وراء تلك المعــاهدة ، وهى نفســها جوانب أضرت بمستقبل مصر ، ولكن هناك بعض المكاسب :

١ — لقد أصبحت مصر ذات مكانة دولية خاصة بعد دخولها عصــبة الأمم .

٢ — أصبحت لمصر علاقات مباشرة مع الدول الأخرى ، وسفارات ، وقنصليات الأمر الذى فتح أبواب العالم أمام البلاد .

٣ — ألغيت الامتيازات الأجنبية فى ١٩٣٧ وتحدد عام ١٩٤٩ نهــاية للمحاكم المختلطة وفعلا انتهت فى هذا العام (١٩٤٩) .

٤ — أطلقت يد حكومة مصر فى القيام باصلاحات داخلية سواء استثمرت هذه الفرصة الى أقصى درجاتها أم لم تستغل فقد أصبحت هنا دعوات قوية الى اعــادة بناء الدولة المصرية على أسس حديثة جديدة .

الخاتمة

خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تشكلت قوة فكرية مصرية عالية المستوى فى مختلف المجالات .

ففى عهد الثورة العرابية وبعدها ظهر محمود سامى البارودى شاعرا استطاع أن يحدث نقلة فى الشعر العربى أدت الى ظهور عملاق الشعر أحمد شوقى ، وتربى فى أحضان الثورة كل من مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، وكان الأول رائد الخطابة الوطنية التى بلغت ذروتها على يد سعد زغلول ، وكان الثانى (محمد فريد) رائد الحركة العمالية ، ونمت الدعوة الى الاقتصاد الوطنى وبلغ ذلك ذروته على يد طلعت حرب والحركة النقابية بعد ثورة ١٩١٩ .

وتوالى ظهور رجالات الأدب والاقتصاد والصحافة والطب والهندسة والزراعة والعلوم ، وأصبحت جامعة القاهرة أعظم جامعة فى الشرق الأوسط ، ومنها خرجت العقول المثقفة التى نقلت الحركة الثقافية الى مختلف البلاد العربية . وأصبحت القاهرة معقل الثقافة الاسلامية والعربية . وازدهرت الصحافة بما دار فيها من حوار بين رجالات السياسة والأدب والفكر بصفة عامة .

وأصبحت الطبقة الأرستقراطية تضم أعضاء الأسرة المالكة ، وكبار الاثرياء من بيوت تركية أو شبه تركية ، ومن بيوت مصرية ، ونمت البرجوازية العليا الثرية بأراضيها الواسعة وبأعمالها التجارية ومن ورائها برجوازية متوسطة وصغيرة مثقفة أصبحت قادرة على التحكم فى الانتخابات وفى الادارات الحكومية وفى الأعمال التجارية ومن تحتها العمال وقد تزايدت أعدادهم بفعل الحركة الصناعية التى نشطت فى الفترة ما بين الحربين وان ظلت كما ظل الفلاحون فى حالة اقتصادية متدنية ولكن الجميع كانوا يبغضون الوجود البريطانى فى مصر ويبحثون عن طريق يحقق للبلاد استقلالا كاملا .

٥ — بالنسبة لدخل قناة السويس أصبح فى استطاعة حكومة مصر بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ أن تحصل على نصيب منه،فالرأسماليون لم يسرقوا فقط الحكومة المصرية من الأسهم التى كانت لها فى شركة قناة السويس ، « بل سرقوا منها كذلك نسبة ١٥ ٪ من الأرباح التى نص عقد الامتياز على وجوب حصول الحكومة المصرية عليها ، اذ اضطرت الحكومة المصرية الى بيعها الى الرأسماليين الفرنسيين فى عام ١٨٨٠ ، وقد ظلت مصر منذ ذلك الحين حتى عام ١٩٣٧ لا تحصل على نصيب من أرباح شركة القناة الناتجة عن استغلال قناة السويس — فلما انتهت من عقد المعاهدة أعادت شركة القناة النظر فيما يجب أن تتمتع به الحكومة المصرية من نصيب أوفى فى ادارة أعمال الشركة فاتفق الطرفان فى يولية ١٩٣٧ على أن يكون لمصر عضوان مصريان فى مجلس ادارة الشركة وتعهدت الشركة بدفع مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه سنويا للحكومة وتوظيف عدد من المصريين كل عام حتى يصبح عددهم ثلث عدد الموظفين جميعا » .

ومن هذا يتبين كم كان الاحتلال البريطانى يحرم مصر من دخل القناة التى شقت بأموال وسواعد مصر ، ولم تتغير سياسة الشركة الا بعد أن حصلت مصر على نوع من الاستقلال . وسنلاحظ أن الاستغلال الأجنبى سيتراجع بقدر ما تنمو فيه القدرات الاستقلالية فى مصر .

ومهما كانت مكاسب مصر من معاهدة ١٩٣٦ ، فان وجود الاحتلال البريطانى فى البلاد كان يفرض على قوى مصر السياسية والشعبية أن تبدأ حركة تحررية جديدة ، وعلى أسس جديدة حتى تستكمل البلاد استقلالها.وحيث أن (الوفد) كان أكبر قوة سياسية فى مصر تستطيع أن تتابع هذه الحركة التحررية سننظر فى امكانيات هذا (الوفد) ، وفى امكانيات مصر الأخرى القادرة على التحرك ، كما نتعرض للتطورات المحلية والدولية التى أثرت على تطور الحركة الوطنية خلال الفترة التى أعقبت عقد معاهدة ١٩٣٦ حتى ثورة ١٩٥٢ .

* * *

وفى خلال تلك الفترة نمت قوة الجيش المصرى على أســاس وطنى ، وأخذ الضباط الصغار يتطلعون الى اليوم الذى تتحرر فيه مصر تماما من وجود أى أجنبى فى البلاد ولكن دون مشاركة فعالة فى الحركة الوطنية وبتجميع تلك التيارات أصبح من المتوقع أن تصل مصر الى هدفها الأسمى وهو الاســتقلال التام . وقد عرقلت الحرب العالمية الثانية هذه التيارات ومن بعدها تصاعدت الحركة حتى وقعت ثورة ١٩٥٣ واضطرت بريطانيا الى توقيع اتفاقية الجلاء ١٩٥٤ .

الثورة العرابية ثورة بدأت من القاهرة بمبدأ مواجهة القوة بالقوة ،ولكن مع فارق هو أن القوة العســكرية للثورة كانت مســتندة الى الشــعب على اختلاف مستوياته (المصرية) ولذلك كان شــعار (مصر للمصريين) وأرض مصر لأبنائهــا الفلاحين يسرى بين أفراد الأمة . فلا غرو أن ظهرت دعوات الى فك زمام الجفالك وتوزيع أراضيها على الفلاحين ولكن كان ذلك فى نطاق ضيق . كمــا أن القــاعدة الشعبية كانت مستعدة لدعم الثورة ولكن لم يكن هنــاك تنظيم لتحويل الشــعب المصرى الى قوة ثورية شاملة . هذه الثورة الشاملة هى التى ظهرت فى ابان ثورة ١٩١٩ بصفة خاصة ، وبعد ذلك أصبح الفلاح والعامل اداة فى يد العناصر الحزبية مثله مثل بقية شرائح المجتمع المصرى فى الثلاثينيات .

وبقيام ثورة ١٩٥٢ دخلت مصر فى عهــد جديد حدثت فيه تطورات جديدة فى التركيب الاجتماعى لمصر .

الفهرس

صفحة

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

رقم الايداع ١٩٨٨/٨٦٤١ دار عطوه للطباعة